فقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨) ﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكأن المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

معنى ﴿ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عزاً واستكباراً(١) .

(١) هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى» طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿ وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُكَ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

للعبادة فلا تلعب - والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه - وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب » .

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للجوارح ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »[1] ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »[2] .

فالتعب تعب القلب ، فالشىء الذى يطيقه صدرك ، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك ؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادىء البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته ، ويعينه على المواصلة ، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر .

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال :

لَيْسَ بحملٍ مَا أطَاقَ الظَّهر مَا الحملُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى : أتعب جوارحك ، لكن لا تُتعب قلبك ، والكَلَل والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتفيض بالباقى على غير القادرين .

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر . وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠) : « فيه ضعف » .

(٢) مما رُوى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب .

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمْتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قَسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لَك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أَعْىَ[1] بخلقهن ، أَيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غدٍ ، يا ابن آدم أنا لم أَنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحِباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برفْقٍ .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى - والخطاب لنساء النبى ﴿ وَمَن يَقْنُتْ منكُنَّ .. ۝٣١ ﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحًا .. ۝٣١ ﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قُلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٌّ وعيىٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب - مادة : عيا] .

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

كـريم ، إنما الـكريم هو الرازق سبحـانه ، فلمـاذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا : فَرْق بين الرزق فى الـدنيا والرزق فى الآخرة ، الرزق فى الدنيـا له أسـبـاب ، فـالسـبـب هو الرازق من والد أو وَال أو أجـيـر أو تاجـر .. إلخ فـالذى يَجـرى لك الرزق على يـديه هو الذّى يُوصف بالكرم ، أما فى الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فناسب أنْ يُوصف هو نفـسه بأنه كريـم ، ثم فيهـا ملحظ آخر : إذا كـان الرزق يوصف بالكرم ، فما بال الرازق الحقيقى سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾

كلمة (أحد) تُستخدم فى اللغة عدة استخدامات ، فنقول مثلاً فى العدد : أحـد عشـر إنْ كان المعـدودُ مذكراً ، وإحـدى عشـرة إن كان المعـدود مؤنثاً ، أما فى حـالة النفى فلا تُستـعمل إلا بصيغـة واحدة (أحد) ، وتدل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقـول : ما عندى أحد ، لا رجلٌ ولا امرأة ولا رجـلان ولا امرأتان ، ولا رجـال ولا نساء ، لذلك جـاء قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

وقوله سبـحانه : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] هذه خـصوصـية لهن ؛ لأن الأشـياء تمـثل أجناسـاً وتحت الجنس النوع ،

فالإنسان مثلاً جنس ، منه ذكر ومنه أنثى ، وكل نوع منهما تحته أفراد ، والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أنْ كانا جنساً واحداً ، إلا لاختلاف نشأ عنهما بعد اتفاق فى الجنس فالجنس حَدٌّ مُشترك : حىٌّ ناطق مفكر ، فلما افترقا إلى نوعين صار لكل منهما خصوصيته التى تُميِّزه عن الآخر .

كما قلنا فى الزمن مثلاً ، فهو ظرف للأحداث ، فإنْ كانت أحداثَ حركة فهى النهار ، وإنْ كانت أحداثَ سُكُون فهى الليل ، فالليل والنهار نوعان تحت جنس واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعى هذه الخصوصية ، فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فالليل والنهار متقابلان متكاملان لا متضادان ، كذلك الذكر والأنثى ، ولكلٍّ دوره ومهمته الخاصة ، فإنْ حاولتَ أنْ تجعلَ الليل نهاراً ، أو الذكر أنثى أو العكس ، فقد خالفتَ هذه الطبيعة التى اختارها الخالق سبحانه .

وحكينا قصة الرجل الذى مرَّ على عمدة القرية ، فوجده يضرب غفيراً عنده ، فدافع عن الغفير وقال للعمدة : لماذا تضربه يا عم إبراهيم ؟ قال : مررتُ عليه ووجدتُه نائماً ، فقال الرجل : نام ؛ لأنه قضى النهار يروى لك أرضك ، ومَنْ يحرث لا يحرس .

إذن : تحت الجنس النوع ، وهذا النوع غير متكافىء ؛ لأنه لو تساوى لكان مكرراً لا فائدة منه ، إنما يختلف الأفراد ويتميزون ؛ لذلك لا تظن أنك تمتاز عن الآخرين ؛ لأن الله تعالى وزَّع المواهب بين خَلْقه ، فأنت تمتاز فى شىء ، وغيرك يمتاز فى شىء آخر ، ذلك ليرتبط

الناس فى حركة الحياة ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّلٍ كما قُلْنا .

لذلك ، فالرجل الذى يكنس لك الشارع مُميَّزٌ عنك ؛ لأنه يؤدى عملاً تستنكف أنت عن أدائه ، وإذا أدَّى لك هذا العامل عملاً لابُدَّ أنْ تعطيه أجره ، فى حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب .. إلخ فإنك تجيبه ، لكن دون أنْ تأخذ منه أجراً على هذا الجواب ، وقد مكثتَ أنت السنوات الطوالَ تجمع العلم وتقرأ وتسمع ، إلى أنْ وصلتَ إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن : لكل منا ، ذكر أو أنثى ، فردية شخصية تُميِّزه .

هنا يقول الحق سبحانه لنساء النبى ﴿ **لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] هذه هى الخصوصية التى تُميِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لَسْنَ قدوة ، إنما نساء النبى خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسْوة تُقتدى .

والشرط بعد هذا النفى ﴿ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن زوجيتهن لرسول الله ليست هذه ميزة ، إنما الميزة والخصوصية فى تقواهن لله ، وإلا فهناك من زوجات الأنبياء مَنْ كانت غير تقية .

وقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] أى : اقْطَعْنَ طريق الفاحشة من بدايته ، ولا تقربن أسبابها ، واتركْنَ الأمور المشتبهة فيها . ومعنى الخضوع بالقول أنْ يكون فى قول المرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّر ، أو ميوعة ، أو أن يكون مع القول نظرات أو اقتراب .

فإذا اضطررتُنَّ لمحادثة الرجال فاحذرْنَ هذه الصفات ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] والمعنى : أنا لا أتهمكُنَّ ، إنما الواحدة منكُنَّ لا تضمن الرجل الذى تُحدِّثه ، فربما كان فى قلبه

مـرض[١] ، فلا تعطيـه الفرصــة .

وليس مــعنى عـدم الخـضـوع بالقــول أنْ تُكلِّمْنَ الناسَ بـغلظة وخـشـونـة ، إنما المـراد أن تكون الأمـور عند حـدودها ؛ لذلك يقـول سبحانه بعدها ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) ﴾ [الأحزاب] فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة القول المعتدل والسماع بالأذن دون أنْ تمتد عينها إلى مُحـدِّثها ؛ لأن ذلك ربما أطمـعه فيهـا ، وجرَّأه عليهـا ، وهذا ما يريد الحق سبحانه أنْ يمنعه .

لذلك حُكِى أن رجلاً رأى خادمته على البـاب تُحدِّث شاباً وسيماً ، وكان يسـألها عن شيء ، إلا أنها أطالتْ مـعه الحديث ، فضـربها ربُّ البيت ونـهرها على هذا التصـرف ، وفى اليوم التـالى جاء شـاب آخر يسـألها عن نفس الشيء الـذى سـأل عنه صـاحبـه بالأمس ، فبـادرته بالشـتائم والسُّـباب بعـد أنْ ظهـر لها مـا فى قلب هذا ، وأمثـاله من مرض .

وفى مـوضـع آخـر من هذه السورة سـيـأتى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] ؛ لأن الرجل حين يجد المرأة محتشمة تستر مـفاتن جسمها لا يتجرأ عليها ، ويعلم

(١) قال ابن عرفة : المرض فى القلب فتـور عن الحق ، وفى الأبدان فتور الأعضاء وفى العين فتور النظر . وعين مريضة : فـيها فتور ، ومنه قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] أى : فتور عما أمـر به ونُهِى عنه . نقله ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : مرض] وقال ابن كثير فى تفسيره : « مرض أى : دغَل » والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه [لسان العرب ـ مادة : دغل] .

أنها ليستْ من هذا الصنف الرخيص ، فيقف عند حدوده .

وقد قال الحكماء : أما إذا رأيتَ امرأةً تُظهر محاسنها لغير محارمها وتُلِحُّ فى عرض نفسها على الرجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح يا بِجم) تقول للغافل تنبه . فتستثير فيه شهوته ، فيتجرأ عليها .

فالحق سبحانه يريد لزوجات النبى ﷺ أولاً أنْ يُكلِّمْنَ الناس من وراء حجاب ، وأنْ يُكلِّمْنَ الناس بالمعروف كلاماً لا لينَ فيه ، ولا ميوعة حتى لا يَتعرَّضْنَ لسوء ، ولا يتجرأ عليهن بذىء أو مستهتر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] الزمنها ولا تُكثِرْن الخروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة ؛ لأن المرأة إذا شغلتْ نفسها بعمل المطلوب منها فى بيتها وفى خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم لَمَا اتسع الوقت للخروج ؛ لذلك كثيراً ما يعود الزوج ، فيجد زوجته مُنهمِكة فى أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ؛ لأنه لا يجدها متفرغة له .

إذن : المرأة المفلسة فى بيتها هى التى تُكثِر الخروج ، وتقضى

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمتْ الصناعات البسيطة لَقضَتْ مصالح بيتها ، ووفَّرتْ على زوجها ، وقد حكوا لنا عن النساء فى دمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شىء وتساعد زوجها ، حتى أن البنت تتعلم حرفة ، ولا ترهق أباها عند زواجها ، بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] كلمة التبرج من البُرْج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرَّج أى : خرج من البرج وبرز منه ، والمعنى : لا تخرجن من حصن التستر ، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها .

وقال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] أى : ما كان من التبرج قبل الإسلام ، وكانت المرأة - ونعنى بها الأمَة لا الحرة - تبدى مفاتن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنَّ لا يجدْنَ غضاضة فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا .

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهُنَّ كرامة وعفّة ، فى حين كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ؛ لذلك لما أخذ رسول الله العهد على النساء المؤمنات ألاَّ يَزْنين قالت امرأة أبى سفيان[1] : أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ يعنى : هذا شىء مستنكف من الحرة ، حتى فى الجاهلية .

ومن معانى البرج : الاتساع ، فيكون المعنى : لا تُوسِّعْنَ دائرة التبرج التى حددها الشرع ، وهى الوجه والكفان .

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة ، أخبارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أُحُداً كافرة وفعلت ما فعلت بحمزة ، أسلمت يوم الفتح بعد زوجها أبى سفيان ، ماتت فى خلافة عثمان . [الإصابة لابن حجر ٨/٢٠٦] وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (١٠/٢٢٦) أن هذا حدث عند مبايعة النساء لرسول الله ﷺ . وهند هى أم معاوية بن أبى سفيان .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَيَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تضع الأحمر والأبيض ، ولا تخجل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السنَّ التى بلغتْها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة ؛ لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإنْ كنتَ فى الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الزمن ، فأنت فى الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحى به ، فكأنك فى الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة الزكاة .

كما يُفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة الغير من أب أو زوج أو غيره ، بدليل أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكن الحضارة الحديثة جعلتْ مال المرأة قبل الزواج للأب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلبتْ المرأة نسبتها إلى أبيها ، ونسبتها بعد الزواج لزوجها .

وهذه المسألة أشدُّ على المرأة من سلْبها المال ؛ لأن نسبتها لزوجها طمْسٌ وتَعَدٍّ على هُويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة ، فما زلنا حتى الآن نقول « عائشة بنت أبى بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد .

---

(١) القواعد : هنّ اللواتى قعدن عن الأزواج . وهى جمع قاعد ، وهى المرأة الكبيرة المسنَّة . وقعدت المرأة عن الحيض والولد تقعد قعوداً وهى قاعد : انقطع عنها . [لسان العرب - مادة : قعد] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] لأن المسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله .

ونلحظ هنا أن الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء الأمر واحداً ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] وحين نستقرئ هذا الأمر فى القرآن الكريم نجده مرة يُكرِّر الفعل ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (١٢) ﴾ [التغابن]

ومرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

وهذه الصيغ ، لكلٍّ منها مدلول ومعنى ، فساعةَ يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، كأن لله فى الأمر طاعةً فى الإجمال ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أَمْرَ إجمال ، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال ، فقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[1] وقال : « خُذُوا عنِّى مناسككم »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حضرتْ الصلاة فأذِّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما ، وصلُّوا كما ترونى أصلى » .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « رأيت النبى ﷺ يرمى على راحلته يوم النحر يقول لنا : خذوا مناسككم ، فإنى لا أدرى لعلِّى أن لا أحج بعد حجتى هذه » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣١٨) والنسائى فى سننه (٥/٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٩٧) .

إذن : تكرر الفعل هنا ؛ لأن لله طاعةً فى إجمال الحكم ، وللرسول طاعة فى تفصيله ، فإنْ جاء الفعل واحداً ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢)﴾ [آل عمران] فهذا يعنى توارد أمر الله تعالى مع أمر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهَبْ أن الله تعالى له فعْل ، ورسوله له فعْل ، فلا يفصل أحدهما عن الآخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فلم يَقُلْ : وأغناهم رسوله حتى يقول قائل : كل منهما يُغْنى بقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

واقرأ أيضاً قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ [التوبة] ولم يقل : يرضوهما .

أما قوله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩)﴾ [النساء] فلم يُكرِّر الأمر بالطاعة مع أولى الأمر ؛ لأنه لا طاعة لولىِّ الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] الرجس بالسِّين هو الرِّجز بالزاى ، وهو القذارة ، سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، وكالخمر ، أو معنوية كالآثام والذنوب ، وقد جمعتْها الآية : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة] وقد يُراد بالرجس : النفاق والمرض .

وكلمة (أهل) تُقال : لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلَق فى عُرْف الاستعمال على امرأته ، ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول : معى الأهل أو الجماعة ، والبعض يقول : معى الأولاد ، ونقصد بذلك الزوجة ، لماذا ؟ قالوا :

لأن أمر المرأة مبنىٌّ على الستر ، فإذا كان اسمها مبنياً على الستر ، فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر فى الرجل ، ونادراً ما يأتى الحكم خاصاً بها .

لذلك ، السيدة أسماء بنت عميس[(١)] زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألتْ : أنزلَ شىء فى أمر المرأة فى غَيْبَتى ؟ فقالوا لها : لم ينزل شىء ، فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا فى الأحكام شىء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات فى الرجال »[(٢)] .

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ[(٣)] وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

---

(١) هى : أسماء بنت عميس بن الحارث الخثعمى : صحابية ، أسلمت قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بمكة ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً فى وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتوفى عنها أبو بكر فتزوجها على بن أبى طالب فولدت له ، وماتت بعد على . وصفها أبو نعيم بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين . [الأعلام للزركلى ٣٠٦/١] .

(٢) لم أقف على هذا الحديث ، ولكن أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضى الله عنها : « النساء شقائق الرجال » وكذا الترمذى فى سننه (١١٣) قال الخطابى فى « معالم السنن » ٧٩/١ : « أى : نظائرهم وأمثالهم فى الخُلُق والطباع ، فكأنهن شُقِقْنَ من الرجال » .

(٣) القنوت : هو الطاعة فى سكون . والقانت : المطيع الذاكر لله تعالى ، وهو العابد ، قال ابن سيده : القانت القائم بجميع أمر الله [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

وتلحظ في هذه الآية أيضاً ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء ، لكنها تراعى مسألة سَتْر المرأة فتعود إلى ضمير الذكور ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ولم تقُلْ عنكُنَّ ، كذلك فى ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ويصحّ أنه يريد أهلَ البيت جميعاً رجالاً ونساءً .

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : نساء النبى ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : آيات القرآن الكريم ﴿ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : حديث رسول الله ﷺ ، أو : أن عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف ، لكن القول الأول أَوْلَى ما دام أن الأمر فيه سعة .

ومعنى ﴿ وَاذْكُرْنَ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الذكْر استحضار واستدعاء معلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، والمعنى : استحضر ذكْر الله واجعلْه على بالك دائماً ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أى : أكبر من أىِّ عبادة ؛ لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد ، وإلى وقت ، وإلى مشقة ، وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أمَّا ذكر الله فهو يجرى على لسانك فى أىِّ وقت ، وبدون استعداد

أو مشقة ، ويلهج به لسانك فى أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] فما دام أن الذكر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْىٌ ولا عمل ؛ لأن الذِّكْر أخف العبادات وأيسَرُها على النفس ، وأثقلها فى الميزان .

ثم تأمل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن باله لم يَخْلُ لحظة من ذكر ربه أبداً ؛ لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « تنام عينى ، ولا ينام قلبى »[1] .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾ [الأحزاب] اللطف هو الدقَّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة ، وسبق أنْ أوضحنا هذا المعنى وقلنا : إن الأشياء الضارة مثلاً كلما لطُفَتْ عنُفتْ ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب ، غير الحديد الذى يحميك من الثعابين ، أو من الناموس والذباب .. إلخ ؛ لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف .

وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأنْ تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فتستعين على ذلك بالولد الصغير ؛ لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١١٣) كتاب صلاة التراويح ، وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال : يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى » .

ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثَتْ سيدنا رسول الله فى

---

(١) **سبب نزول الآية :** أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٣٠١ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يأيها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذْكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجَّه فـى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثَتْ رسـول الله فى أمر النسـاء ، وأن منهن مـثل الرجال مسـلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسـلام ، ثم الإيمان ، فأيّهمـا يسبق الآخر ؟ ونـجد إجـابة هذا السؤال فى قـول الحق سبـحانه وتعـالى : **﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾** [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمـان أو عن غيـر إيمان ؟ لأن الإسـلام تلقِّى حكم ، أما الإيمـان فأنْ تؤمن بمَنْ حكم ، وتُصـدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فـالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتـفضح هؤلاء الأعراب الذين تسـتروا وراء الأعمال الظاهرة للإسـلام ، وهم غير مؤمنين بهـا ، وقد يأتى الإيمان بعـد الإسلام حـين تؤدى أعـمال الإسـلام فتـحلُو لك ، وتجـذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لـقوله تعالى : **﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾** [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقـول : لَمَّا يثمر بستـاننا ، وقد أثمرتْ البسـاتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كـثيراً من الأحكام أنت لا تؤمـن بالذى حكم بها إلا إذا أدركتَ وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جـاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيـفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسى ، فردَّ الباب فى وجهه ، فعاتبه ربه فى ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أسَعُه طوال عمره وهو كافر بى ؟ فأسرع إبراهيم فى إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرنى منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبنى ربى فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربّ ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس فى هذه الصفات العَشْر التى جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهى برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفى مطمور فى باطن الرجل ، وهذه هى الأصول .

ومعنى ﴿ وَالْقَانِتِينَ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته فى خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف فى مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره ، فلا ولايةَ عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن الزكاة ، وهذه من ميْزات المرأة فى الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى فى الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. (٦٠) ﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك فى أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر - رضى الله عنه - قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه(١) .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »(٢) يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع ، فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٤) وصححه . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً في شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتي مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس في الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك في الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن في الصلاة ، وكذلك في الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به »[1] يعني : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذي تحمَّل التكليف أَلِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة في نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأْتِ على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذي يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن : هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك في غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَيْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثِّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكاليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى فى ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ : والحافظات فروجهن ؛ لأن أمر النساء ينبغى أنْ يُسْتَر وأنْ يُصَان .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى فى قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة فى الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعى البعض ، ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معى أهلى أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣) . قال الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم فى استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابةً عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنىٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »(1) .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنَا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذَ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عالٍ لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس] فهو

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

وحده القادر على أنْ يجازينى بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر فى الحجم ، ونَفَاسة فى الصفات ، وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشيء ، وأىُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث فى ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] فهى امتداد للآية السابقة ، فهى تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ فى عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهى لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرِق من أهله ، وبِيع فى سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حَزام ،

(١) **سبب نزول الآية :** قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٨٩) ، والسيوطى فى « أسباب النزول » . (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلًى لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإن اختاركم فهنيئاً لكم ، وإن اختارنى ، فمَا كان لى أنْ أُسْلِمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد[1] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ..** (٤) ﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتَبنَّى رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّى من المتبنِّى بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يَشْمَتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⑤ ﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⑤ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ㊲ ﴾ [الأحزاب] فَخُلِّدَ زيد فى كتاب يُتْلى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. ㊱ ﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفى أخيها عبد الله[1] .

ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] معنى (ما كان) أى : أنه شيء بعيد ، لا يمكن أنْ يَرد على العقل ، أى : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وإلا فلا إيمانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقول : هناك فرق بين اختيار داخل فى التكليف ، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله ، وشيء فى إيجاد التكليف بدايةً ، فليس للعباد دخْل فى إيجاد الشيء المكلَّف به ، إنما إذا كلَّفتهم أنا ، فأنا صاحب التكليف ، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه ، فهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لى ، ولهم الاختيار فى طاعته وفى قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرضوا عنه إلى غيره .

وقصة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

---

(١) هو : عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، صحابى ، قديم الإسلام ، هاجر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وكان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين ، قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو والحمزة فى قبر واحد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هى أميمة بنت عبد المطلب .

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغى فى حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.. ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذى أبداه الله قوله تعالى ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهى تُوصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أىْ بُنية ، إنك لو تُركْت بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنّ خُلق الرجال ، وأن النصيحة لو تركتْ لفضل أدبٍ لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »[1] .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٨١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدى المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدى حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهى على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رَحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة فى قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكِبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر فى أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير فى الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف ، وهو الذى أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهى الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها فى هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذى منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله فى زينب ـ لكن الناس لم يُحسنُوا الظن .

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شيء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها ، فأخذ يجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب . عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج . ثم عاد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا ، وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) ، وتفسير ابن كثير (٣/٥٠٣) .

حـجة ، وطبـيعى أن يخـاف رسول الله مـن ألسنة الكفار ؛ لأنه جـاء لنقض عادات وتقاليد جاهليـة ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنـما يريد أنْ يبرىء عِـرْضه وسـاحته ، مـما يشـين ، وقد كان ﷺ يدفع الشـبهة عن نفســه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصـحابه مع امرأة ، فمالوا عـنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببـوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله : « على رِسْلكما إنـها صفية » فقـالوا : نحن لا نشك فيك يا رسـول الله ، فقـال : « إن الشـيطان ليـجرى مـن ابن آدم مجـرى الدم »[1] .

فرسول الله يريد أن يـنفض عن نفسه أىَّ شبهـة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حـيائه ﷺ من قصـتـه مع عـبد الله بن سـعـد بن أبى السرح ، فلمـا دخل ﷺ مكة فاتحـاً ومنتصراً كـان قـد أهـدر دم عبـد الله بن سعد بن أبى السـرح ؛ لأنه نال كثيـراً من رسول الله[2] ، فجاء عثمان بن عـفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسـول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فمـا ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القـوم فيقـتل عبد الله ، لكن عـثمان أعـادها مراراً على

(١) حديث متـفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٦٢١٩) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قـد أسلم قديماً وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٩/٥٠٢] .

رسول الله حتى أنه استحى من عثمان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعنى : قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل[(١)] كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عينى فى عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله ـ انظر إلى العظمة « ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين »[(٢)] .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضى الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفينى من بين إخوانى الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبى العينين وغيرهم ، ليسألنى عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فنادانى وكان قد علم من أبى اسم أمى ، فنادانى بها فتقدَّمت إليه ، فضربنى على قفاى ضربة انحلَّتْ معها القضية التى كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذى يعانى من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء فى اليوم التالى وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتأنيب . وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : عذل] : « قولهم فى المثل : سبق السيف العَذَل ، يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسائى فى سننه (٧/١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . ولفظ أبى داود والنسائى . « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فقلت لرسول الله ﷺ - ولم يقل : أنا رأيتُ رسول الله - ما الذى جعلك تقبل شفاعة عثمان ؟ فقال : ألاَ أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيدات : قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضى ، ثم المفعول المطلَق ضلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه ، ثم يأتى مَنْ يفتح عليه ويدلُّه ، أما هذا الذى يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة ، وليس هناك شىء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله ﷺ مع عثمان وعباد بن بشر أوضحتْ صفة الحياء فى رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التى جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالها رسول الله ﷺ عن عثمان رضى الله عنه فى مناسبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : ألا تستحى من رجل تستحى منه الملائكة .

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة فى أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال ﷺ : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك فى مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لى : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكونى لرسول الله ؛ لأنك وقعتِ فى قلبه ، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياحَ ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتنى أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام فى غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلى الدم فى عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التى تحلَّى بها زيد .

يقول تعالى فى هذه المسألة :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿وَإِذْ تَقُولُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] واذكر جيداً وأدرْ مسألة زيد فى رأسك ، اذكر إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإيمان - والمراد زيد - وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هى ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهى عادة التبنى ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشيته ﷺ لم تكن خشية خوف من شىء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] الوطر : هو الأشياء التى تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يَكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد فى زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا - إذن - يستمر فى الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكى له ما يلاقى

من زينب ، فكان رسول الله ﷺ يقول له :

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ..(٣٧)﴾ [الأحزاب]

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضى الله عنهما : لما طلَّق زيدٌ زينبَ تركها رسول الله لتقضى عدَّتها ، فلما قضتْ العدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها علَىَّ[(١)] ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يبعث المطلِّق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته فى زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يَعُدْ له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشرى يا زينب ، لقد بعثنى رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان[(٢)] .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا : لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) من حديث أنس قال : « لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : ما أجد أحداً آمن عندى أو أوثق فى نفسى منك ، ائت إلى زينب فاخطبها علىَّ . .. قال زيد : يا زينب ، أبشرى ، إن رسول الله يذكرك » . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً فى الطبقات (١٠/٩٩) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدة زينب أخذته غشية فسُرِّى عنه وهو يتبسَّم وهو يقول : من يذهب إلى زينب يبشِّرها أن الله قد زوجنيها من السماء . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله ، تشتد فتحدثها بذلك فأعطتها أوضاحاً عليها .

(٢) قاله أنس بن مالك رضى الله عنه « أن زينب ردَّتْ على زيد : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] قال : فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن » أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٧/١٢٥) .

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ [الأحزاب] أى : زوَّجه الله بها من فوق سبع سموات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبى ﷺ - وهذه أيضاً من الرياضات الإيمانية - تقول لهن : إنى لأفتخر عليكن جميعاً بأنكن زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجنى ربى ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها(١) .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدلُّ علَيك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى ؟ فتقول : أما الأولى فجدِّى وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجنى من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن سفيرى فى الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل(٢) .

فأىُّ عظمة هذه التى نلاحظها فى هذه القصة ، وأىُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته ؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه ؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض فى هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة فى حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أى : بنفسه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك أن زينب كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : « زوَّجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات » .

(٢) ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٣/٤١٢) ببعض هذه الألفاظ من مرسل الشعبى « قالت زينب : يا رسول الله ، أنا أعظم نسائك عليك حقاً ، أنا خيرهن منكحاً ، وأكرمهن سفيراً ، وأقربهن رحماً ، فزوَّجنيك الرحمن من فوق عرشه ، وكان جبريل هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك وليس لك من نسائك قريبة غيرى » أخرجه الطبرى وأبو القاسم الطحاوى فى « كتاب الحجة والتبيان » له» .

وبرغبته ، إنما زُوِّج أى زوَّجه غيره ، وكلمة ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] تحتوى على الفعل زوَّج والضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهى مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين ؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، واقرأوا إن شئتم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[1] ثَيِّبَاتٍ[2] وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم]

ثم هَبُوا ـ جدلاً ـ أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشىء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً فى الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع .

---

(١) سائحات . أى : صائمات . قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم كثير ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال : وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن : سائحات أى مهاجرات ، والقول الأول أولى والله أعلم .

(٢) الثيب : المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرملة . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : ثيب] : « الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن مسَّها » .

شىء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتتْ إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله ـ نعم تزوج تسعاً ـ لكن خاطبه ربه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] فمَن الذى ضيِّق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، هل استثنى الله نبيه فى العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه فى معدود بذاته ، استثناه فى المعدود لا فى العدد ، لأنه لو استثناه فى العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته ، بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا ؟ لا ، إنما كان فى بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأَمِن الله رسولَه قال له : افعل ما تشاء ، لأنك مأمون على أمتك[1] .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب] ولكن ضعَّف القرطبى فى تفسيره القول القائل بأن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] ورجح القرطبى (٨/٥٤٨٣) أن معناها التوسعة على النبى ﷺ فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . قال : « وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله ، وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب] قالت عائشة : والله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار فى هذه المسألة ، ولم تكن مُسْبقة ، ألم يُؤدِّ فعلُه هذا إلى إلغاء عادة التبنى ؟ ثم أنُزِعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل ؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله فى هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال الله فيه : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا** .. (٢٤) ﴾ [يوسف] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أى : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا فى حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها ؟ إذن : هَمُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه فى هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتى العلة فى هذه المسألة ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك فى رسول الله : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** (٣٧) ﴾ [الأحزاب] أى : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأىِّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية فى إلغاء عادة التبنى ، إذَن : فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ** .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى :

إثم أو ملامة ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل ﴿ فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] أى : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه ؟ ما دام أن الله هو الذى فرض هذا ، فلتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعى أنكَ أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْت إنما قال : أُسْرِى بى . فالذى أسرى به ربه - عز وجل - إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدى الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعى يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن غباء المكذِّب يؤدى به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ فى الرؤيا أنى أتيتُ بيت المقدس ما

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤) : لما أصبح رسول الله - بعد الإسراء به - غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » .

قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتى بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتى اليوم لنقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدَعاً فى هذه المسألة .

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾ [الأحزاب] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً فى هذا الوقت الذى حدثتْ فيه هذه الأحداث ؛ لذلك قال هنا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : أن ما حدث لرسول الله كان مقَّدراً أزلاً ، ولا شىء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتب ، وعلى ما قُدر[1] .

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾

وكأن الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى فى نبيه محمد : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فالرسل

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : « إنى رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى . ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبى ﷺ : « يا أبا هريرة ، جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٥٠ ، ٥١) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٥٩) .

لا يخشوْنَ شيئاً فى البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول ﷺ أن تكون خشيته فى البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافة أنْ تلوكه ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] هذه العبارة مبتدأ[1] لم يُخبر عنه ؛ لأن قوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)﴾ [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله .. لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشوا الناس من أجل البلاغ .

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)﴾ [الأحزاب] أى : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتى الله بنبى آخر ، ولم يحدث شىء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر فى قضية التبنى ، فيقول سبحانه :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾

قال سبحانه ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لأن علاج قضية التبنى أهمُّ من أُبوته ﷺ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله ؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشىء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذى يسعده فى دينه ودنياه .

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] صفة لـ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] .

إذن : ففرحكم برسول الله كرسول أَوْلَى من فرحكم به كأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء فى الحياة لا قيمة لهم .

وقوله ﴿مَا كَانَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] النفى هنا يفيد الجحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمد أباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآنى فى كلمة ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا ؟ قالوا : لأنه ﷺ كان أباً لعبد الله وللقاسم ولإبراهيم ، وكانوا جميعاً منهم ، وهو ﷺ أبوهم ، فجاءت كلمة ﴿رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لتُخرج هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم لم يبلُغوا مبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله ﴿وَلَـٰكِن .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ.. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ليس هذا فحسب ، ولكن أيضاً ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : الرسول والنبى الذى يختم الرسالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسائل التى وقف عندها المستشرقون معترضين ، يقولون : جاء فى القرآن : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ..(٨١)﴾ [آل عمران]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذَ عليهم هذا العهد ، بدليل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ..(٧)﴾ [الأحزاب]

إذن : أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومهم بمقدم رسول جديد ، وأنه إذا جاءهم عليهم أنْ يؤمنوا به ، وأنْ ينصروه ، كما بشَّر مثلاً عيسى عليه السلام برسالة محمد ﷺ

فقال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم ؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتى ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة فى زمن المأمون ، فأمر به فَوُضِع فى السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعى النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعى الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعى أنه نبى ، فماذا تقول فيه ؟ قال : هو كذاب ؛ لأننى لم أرسل أحداً - فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجرد أنه نبى .

والمرأة التى ادَّعَتْ النبوة أيضاً فى زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها : ألم تعلمى أن رسول الله قال : لا نبىَّ بعدى[1] ؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدى !

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شىء فليس لأحد أنْ يعترض ؛ لأنه سبحانه هو الذى يضع الرسول المناسب فى المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

---

(١) مما رُوِى دليلاً على أنه لا نبى بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبى وقاص قال : « خلف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . قال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٨٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذكْراً كثيراً ؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن ؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهى منطقة فى المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان فى بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها فى الحافظة ، أو فى حاشية الشعور ، فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أَرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان فى المكان الفلانى .

إذن : الذكر لشىء كان موجوداً فى بؤرة الشعور ، الذكر يعنى قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها فى الحاشية أو فى منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً فى منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغى أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التى ينبغى أنْ تظلَّ على ذكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت فى عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه

ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسِّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون فى ذلك ذكاءً وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها فى قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

فالإنسان الذكى هو الذى لا يشغل باله بأمرين فى وقت واحد ، ولا يفكر فى شىء وهو بصدد شىء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية فى التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفّق هو الذى يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم فى الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسأل فلا ينشغل ، لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هى أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهى تجعل المدرس فى وادٍ والتلاميذ فى وادٍ آخر ، كل منهم يفكر فى شىء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الطالب حين يعلم بأهمية درس من الدروس فيذاكره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجيب عنه بنصه ، لماذا ؟ لأنه ذاكره فى الوقت الحرج والفرصة ضيقة لا تحتمل انشغالاً ولا تهاوناً ، فيلتقط العقل كل كلمة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هى ، لماذا ؟ لأنها صادفتْ العقلَ خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخالق سبحانه فى مسألة التذكُّر ، فالذاكرة جزء صغير فى المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذى لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كاملاً ويُعيده عليك فى أىِّ وقت ، ونحن نتعجب من شريط التسجيل الذى يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقرآن ليس حفظاً فحسب ، إنما معايشة ، فحروف القرآن ملائكة ، لكل حرف منه ملك ، والملَك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقرآن تكثر من تلاوته ، فكأنك تود الملائكة ، فساعة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك . فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّت من ذاكرتك ؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفسى بيده لهو أشدُّ تفصياً[1] من الإبل فى عقلها »[2] .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذكر هو العبادة الوحيدة التى لا تكلفك شيئاً ، ولا تُعطل جارحة من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر

---

(١) تفصَّى من الشىء : تخلَّص . ومعنى قوله ﷺ عن القرآن : « هو أشد تفصياً من قلوب الرجال من النَّعَم من عقلها » أى : أشد تفلتاً وخروجاً . [لسان العرب ـ مادة : فصى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٢٣) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى موسى الأشعرى .

الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُـدَّ من الذاكرين ـ هذا بالنسبة لوضعك ـ ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين ـ هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم ، ثلاثين مرة فى اليـوم كُتِبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذكْر الله مـسألة سهلة تستطيع أنْ تذكـر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تَكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هَيِّن .

وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)﴾ [الأحزاب] التسبيح : هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أىِّ شـىء نُنزه الله ؟ قالوا : ننزه الله فى ذاته ، وفى أفعاله ، وفى صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجـود ، وللنهـر وللجبـل وجود ، لكن وجـوده تعـالى ليس كوجود ما سـواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أمـا وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا فى الذات .

أما فى الأفـعال ، فالله تعالى له فـعْل كما أن لك فـعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فـعله كـفعلـك ، وهذاَ مـا قلناه فى حـادثة الإسـراء والمـعراج ، وفى الفـرق بين سَـرَى وأسرى به ، فـإذا كان الفـعلُ لله تعالى فـلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فـعْل الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى فى طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قـوة فاعله ، فالولد الصـغير ينقل فى سـاعة ما ينقله الكبـير فى

دقيقة ، فلو قستَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدتَ الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله فى صفاته ، فالله تعالى له سمع نُزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزِّه أنْ يكون كوجهك .. إلخ كل هذا فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسبيح فى القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء فى استهلالات السور ، ففى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ؛ لذلك قال بداية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا فى الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

والمتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

وما يزال الخلق يُسبِّح فى الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا ندٌّ ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا فى ذلك قول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليك ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريكَ له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسبِّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذى خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم - والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية - بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع فى نعمه ، منذ ميلادك إلى سنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سنَّ الرشد فتُقبِل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوِى قبل نُضْج

بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، ولما انتفع بها أحد بعدنا ، ومثَّلْنا لذلك ببذرة البطيخ إن وجدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت وحلَتْ وصارتْ صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه لحفظ النوع .

شىء آخر : بعد أن بلغتْ سنَّ التكليف ، أجاءك التكليف مستوعباً لكل حركة فى حياتك ؟ أجاء قَيْداً لك ؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها فى نطاق محدود أمرك الله فيه بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة فى المائة من حركة حياتك ، وترك لك نسبة الخمسة والتسعين أنت حُرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأىُّ عظمة هذه ! وأىُّ رحمة التى يعاملنا بها ربنا عز وجل ! وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على حبِّ الخالق سبحانه لخَلْقه وصنعته . أفلا يستوجب ذلك منَّا ألاَّ نغفل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، فى كل غدوة وعشية .

والأعظم من هذا كله أنه - سبحانه وتعالى - جعل ذكْرك له وتسبيحك إياه لصالحك أنت ، وفى ميزانك ؛ لذلك قال فى الآية التى بعدها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

معنى ﴿ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الصلاة هى الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعى ، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف نفهم هذا المعنى ؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك

وتعالى ؟ قالوا : إذا كانت نهاية الصلاة طلبَ الخير ، وهذا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعى ، وهو الذى يملك مفاتح الخير كله ، فهو الذى يُصلِّى عليكم ، وهو الذى يعطيكم ، وهو الذى يرحمكم .

وأيضاً يُصلِّى عليكم الملائكة ﴿وَمَلائِكَتُهُ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب] وقد أخبرنا سبحانه عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

والملائكة أقسام : منهم المكلفون بخدمتنا ومنافعنا فى الأرض ، ومنهم مَنْ يحفظنا من الأحداث التى قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتبون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

وهذا دليل على أنهم سيكونون فى خدمته .

وكأن الله تعالى قال لإبليس : طلبتُ منك أنْ تسجد لآدم ، وطلبت من الملائكة وأنت معهم ، فإنْ كنتَ من الملائكة فينبغى أن تستجيب ، وإنْ لم تكُنْ من الملائكة وحشرتك بطاعتك فى زمرتهم كان يجب عليك أنْ تطيع لأنَّ الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثَل ، ولله تعالى المثل الأعلى قُلْنا : إذا أعلن فى أحد الدواوين الحكوميةً أن الرئيس سيزور هذا الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أنْ يصطفُّوا لتحيته ، ألم يشمل هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أَوْلى ؟

فإذا قال الله للملائكة : اسجدوا لآدم وكان معهم إبليس وهو أقلّ منهم ، فكان عليه أنْ يسجد . ثم إنْ كنتَ يا إبليسُ أخذتَ منزلة أعلى من الملائكة بالطاعة ، فلا بُدَّ أنْ تكون طاعتك لله على هذه المنزلة ، فأنت ملُوم على أيٍّ حال ، إلا أنه كان من الجن ، والجن مختار ، ففسق عن أمر ربه .

وهناك نوع آخر من الملائكة لا دخلَ لهم بالإنسان ولا بدنياه ، وهم الملائكة العالون أو المهيَّمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى إبليس أنْ يسجد قال له ربه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأنهم لا يدرون شيئاً عن آدم ، وليس لهم علاقة به ، وأخصُّهم حَملَة العرش وهم أكرم الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصلُّون عليكم بعد أنْ صلَّى الله عليكم ؛ لذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه هؤلاء الملائكة ودورهم فى الصلاة علينا والاستغفار لنا ، فيقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر]

فهؤلاء هم أخصُّ الملائكة وأكرمهم يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، لكن ما فائدة (يؤمنون به) بعد أن سبَّحوه ؟ قالوا : لأن التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، أما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن حبٍّ وعن إيمان ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أنْ يُسبَّح ، ومن مهام هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإنْ لم تكن لهم علاقة

بالناس وليسوا فى خدمتهم ، إلا أنهم يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم .

إذن : نقول الصلاة من مالك الدعوة القادر على الإجابة رحمة وعطف وحنان ، والصلاة مِمَّنْ دونه دعاء للقادر المالك للخير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ويستغفرون الله لهم ، بل ويبالغون فى الدعاء ويتعطَّفون فيه : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾ [غافر]

بل لم يقفوا عند حَدِّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾ [غافر]

ثم يزيدون على ذلك : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [غافر]

ووالله ، لو أراد المؤمن أنْ يدعو لنفسه ما وجد أعمَّ ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أنْ طلبوا له المغفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا فى أهل الأعراف ، لا هُمْ فى الجنة ، ولا هُمْ فى النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وهذه المسألة من المسائل التى وقف أمامها المستشرقون ، فقالوا : إنها تتناقض مع الحديث النبوى : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادى ملكان يقول أحدهما : اللهم أعْط مُنفقاً خَلَفاً ، ويقول

الآخـر : اللهم أَعْط مُـمـسكاً تَلَفـاً »[١] ، فكيف تقـولون : إن المـلائكة يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بالشر ؟

وهم مـعذورون فى اعتـراضهم ؛ لأن ملكاتهم لا تـستطيع فَـهْم المعـانى فى الحـديث الشريف ، والتناقض فى نظرهم فـى قوله ﷺ : « ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ، فالأولى واضحة لا تناقض فيها ؛ لأنها دعوة بالخير ، أما الثانية فهى دعوة بالشر . « اللهم أَعْط ممسكاً تلفاً » .

ولو تأملوا نصَّ هذه العبارة لوجدوا فـيها الجواب ، فالتلف يُعطى أم يؤخذ ؟ المفروض أنه يُؤخذ ، فحين يقول رسول الله : « اللهم أعط مـمـسكاً تلفـاً » فـاعلم أنه عطاء لا أَخْـذٌ وإن كـان فى ظاهره تلفـاً ، والمعنى أن شـيئاً شـغلك وفتنك فتصـيبك فيـه مصيـبة تخلصك منه فتعود إلى ربك ، إذن : هو أَخْذ فى الظاهر عطاء فى الحقيقة .

ثم يبـيّن لنا الحق سبـحانه العلّة فى صـلاة الله وصلاة المـلائكة على المـؤمنين ، فيـقول ﴿ لِيُـخْـرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن منهج الله بافعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا ؛ لأنه الوسـيلة التى تُـخـرجنا من الظلمـات إلى النور ، وجـاء هـنا بالشـىء الحسِّىِّ لنقـيس عليه المـعنوى ، فأنت فى النور ترى طريقك وتهـتدى إلى غايتك بلا معـاطب ، أمَّا فى الظلام فتتـخبط خُطَاك وتضلّ الطريق فى الظلام ، تسـير عـلى غيـر هُدى ، وعلى غـير بصـيـرة ، فتـحطم الأضـعف منك ، ويُحطِّمك الأقوى منك .

والنبى ﷺ يُوجِّهنا حين ننام بالليل أنْ نطفىء المـصابيح فيقول :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

« وأطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يرتاح فى الضوء الراحة التامة لما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء ، كما حذرونا أيضاً من التعرُّض لأضواء التليفزيون مثلاً .

إذن : للنور مهمة ، وللظلمة مهمة - هذا فى الحسِّيات .

كذلك منهج الله بافعل ولا تفعل هو النور المعنوى الذى يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التى تهتدى بها فى دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

لكن إنْ كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين ؟ قالوا : هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فالله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ؛ لأن رحمن الدنيا يعنى أن خيره يعُمُّ الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما فى الآخرة فتتجلَّى صفة الرحيم ؛ لأن رحمته فى الآخرة تخصُّ المؤمنين دون غيرهم .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] لا يعنى هذا وَصْفاً لذاته سبحانه ، إنما يعنى أنه سبحانه نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما كما نقول : المصباح نور المسجد .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بقول أبى تمام فى مدح المعتصم:

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل - أو كان جنح الليل - فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلُّوهم وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوْكِ سقاءك ، واذكر اسم الله وخمِّر إناءك ، واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً » .

إقْدَامُ عَمرٍو فى سَمَاحةِ حاتم   فى حِلْم أحْنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

وعمرو مضرب المثل عند العرب فى الشجاعة ، وحاتم فى الكرم ، وأحنف بن قيس فى الحِلْم ، وإياس بن معاوية فى الذكاء . فقام إليه أحد الحاضرين وقال له - وكان حاقداً عليه - : أمير المؤمنين فوق ما تقول ، أتُشبِّهه بأجلاف العرب ؟ وأنشأ يقول :

وشبَّهه المدَّاح فى البَأْسِ والنَّدَى   بمَنْ لوْ رآهُ كَانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِى جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْتر   وفى خُزَّانِهِ أَلْفُ حَاتِمِ

عندها أطرق أبو تمام هُنيهة ، ثم قال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنُوره   مثَلاً من المشْكاةِ والنِّبراسِ

إذن : فالنور المعنوى يُجنِّبك العطب المعنوى ، كما أن النور الحسىَّ يُجنِّبك العطب الحسِّىَّ ؛ لذلك قال سبحانه عن نوره ﴿ **نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ** .. (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : نور حسِّىّ يقيكم المعاطب الحسية ، ونور معنوى يقيكم المعاطب المعنوية ﴿ **يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** .. (٣٥) ﴾ [النور] والمراد به هنا النور المعنوى الذى يهتدى به المؤمن ويسير عليه ، أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسىَّ فقط .

فإنْ سألت : فأين نجد هذا النور يا رب ؟ يُجيبك ربك : ﴿ **فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** .. (٣٧) ﴾ [النور]

فإنْ أردتَ النور الحق فهو فى خَلْوتك مع ربك وفى بيته ، حيث تتجلَّى عليك إشراقاته ويغمرك نوره .

وقبل أن نترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين نذكر صلاتنا نحن على النبي ﷺ ، عملاً بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب]

فالصلاة من الله تعالى تعنى الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة من الملائكة تعنى الدعاء والطلب من الذى يملك ، أما الصلاة منا نحن على سيدنا رسول الله ، فالبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهى ليست كذلك ؛ لأنك تقول فى الصلاة على رسول الله : اللهم صَلِّ على محمد ، فأنت لا تصلى عليه ﷺ ، إنما تطلب من الله تعالى أنْ يصلى عليه ، لكن كيف تطلب من الله أن يصلى على رسوله ؟ قالوا : لأن كل خير ينال الرسول منثور على أمته .

والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلى عليه كل مَنْ آمن به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلها ، فقال سبحانه : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣)﴾ [التوبة] وكأنها رَدٌّ للتحية ولصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)﴾

الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ، ولكن من الله ، كما قال فى موضع آخر ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

فالرحمة التى ننالها ، والعطف والحنان من الله لنا فى الدنيا

يعنى : سداداً فى حركة الحياة ، واستقامة فى السلوك ، وراحةً للبال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من مُنغِّصات وأحداث تُصيبك ، أما رحمة الله فى الآخرة فهى سلام تام لا يُنغِّصه شىء ، والإنسان أيضاً يتمتع بنعم الله فى الدنيا ، لكن يُنغِّصها عليه خشية فواتها .

أما فى الآخرة فيتمتع متعة خالصة ، لا ينغصها شىء ، فالنعمة دائمة باقية لا يفوتها ولا تفوته ، لقد كان فى الدنيا فى عالم الأسباب وهو الآن فى الآخرة مع المسبِّب سبحانه الذى يقول : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

لكن ، ما المراد بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ .. (٤٤) ﴾ [الأحزاب] أيوم القيامة للثواب ، أَمْ يوم يلقوْنَهُ بالموت وبانتهاء الحياة ؛ كما نقول مثلاً فى الموت : فلان لقى ربه ؟ قالوا : المؤمن لا يأتيه ملَك الموت إلا إذا سلَّم عليه أولاً قبل أنْ يقبض روحه ، فإذا سلَّم عليه فهذا يعنى أنه من أهل السلام ، وهذه أول مراتبه . وقد يكون المراد السلام التام الذى يَلْقاه المؤمن يوم القيامة حيث يجد سلاماً لا مُنغِّصات بعده .

لذلك نجد أن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعانى سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأتْ ما يعانيه : واكرباه يا أبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[1] فأىُّ كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى جوار ربه ، إلى السلام النهائى الذى لا خوفَ بعده .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه فى سننه (١٦٢٩) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله قال لفاطمة عندما سمع مقالتها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم ، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً ، الموافاة يوم القيامة » . وأصله فى البخارى (٤٤٦٢) أنه قال : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ [الأحزاب] فوصف الأجر نفسه بأنه كريم ، والذى يُوصَف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] فتعدَّى الكرم من الرازق إلى الرزق ؛ لأن الرزق فى الدنيا له أسباب بأيدى الخَلْق ، لكن الرزق فى الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شىء ، ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سَعْى منك ، وبمجرد الخاطر تستدعيه فتراه بين يديك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) ﴾

الشاهد : هو الذى يؤيد ويُثبِّت الحق لصاحبه ؛ لذلك يطلب القاضى شهادة الشهود ليأتى حكمه فى القضية عن تحقيق وبيِّنة ودليل ؛ لذلك يقولون إن القاضى لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إنْ علم شيئاً فى حياته العامة ، ثم جاء أمامه فى القضاء يتركه ويتنحَّى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبنى حكمه على علمه هو .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أنْ يُوزِّع مسئولية الحكم على عدة جهات ، حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق .

فنرى مثلاً إذا حدثتْ حادثة نذهب إلى القسم لعمل (محضر) بالحادث ، (المحضر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله النيابة للقاضى ليحكم فيه ، ثم يُعَاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية لِيُنفَّذ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحرى الحق ووضعه فى نصابه .

فما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذى يشهد ، وهو الذى يحكم ، وهو الذى يُنفِّذ الحكم ؟ لا شكَّ أن العدالة هنا ستكون عدالة مطلقة . فإنْ قلتَ : إذن عَلاَم يشهد رسول الله ؟

قالوا : يشهد رسول الله أنه بلَّغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً أنهم بلَّغوا أممهم كما قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) ﴾ [النساء]

إذن : كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك قد بلَّغتها ، لكن ميزتُك على مَنْ سبقك من إخوانك الرسل أن تكون خاتمهم ، فلا نبيَّ بعدك ؛ ولذلك سأجعل من أمتك من يخلف الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل فى مهمتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »[1] .

إذن : ضمن الحق سبحانه فى أمة محمد أنْ يوجد فيهم مَنْ يقوم بمهمة الأنبياء فى البلاغ ، وهذا معنى ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) : « قال ابن حجر والزركشى : لا أصل له » . وكذا قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٣٠٩) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) : « زاد بعضهم : ولا يُعرف فى كتاب معتبر .. وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازانى وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى فى الخصائص » .

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلَّغَتْ أممها ، هذا بالنسبة لمن مضى منهم ، أما مَنْ سيأتى فأنتم مطالبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلَّغتموهم ، كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلَّغكم .

إذن : فأمة محمد أخذت حظًا من النبوة ، وهو أنها ستُسْتدعى وتشهد على الناس .

لذلك يُعدّ رسول الله ﷺ أمته لهذه المهمة ، فيقول : « نضَّر اللهُ امرءًا ، سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع »(١) .

واقرأ أيضاً فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] لماذا ؟ ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] فهذه الأمة فى الوسط ، بحيث لا إفراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذى لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يُوضَع فيها ، فهى كالميزان العادل الذى لا يميل هنا أو هناك .

وقوله سبحانه ﴿وَمُبَشِّرًا .. (٤٥)﴾ [الأحزاب] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه ﴿وَنَذِيرًا (٤٥)﴾ [الأحزاب] أى : منذراً لمن لم يُصدقك بعقاب الله ، والإنذار هو التخويف بشرٍّ لم يأت أوانه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .. (٤٦)﴾ [الأحزاب] أى : بأمر منه ، لا تطوُّعاً من عندك ، فقد يأتى زعيم من الزعماء أو مصلح من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود .

المصلحين بمنهج أو بأفكار من عنده ويبثُّها فى مجتمعه .

فقوله تعالى ﴿ بِإِذْنِهِ .. (٤٦) ﴾ [الأحزاب] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر ، فهذا الذى جاء به محمد من عند الله ، وما بلَّغكم به إلا بأمر الله .

ويُشترط فيمَنْ يدعو إلى منهج الخير ثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ ينتفع بشىء مما يدعو إليه ، وهذا لا يوجد فى بشر أبداً ، وقد رأينا : حينما قنَّنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قنَّنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسماليين .. وهكذا .

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلٌّ يريد أنْ يُقنِّن على هواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أنْ يُسخِّر غيره لخدمة هواه ، وبعد فترة قد تطول تفضحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع ، وتُظهِر لهم أنفسهم مساوىء ما قنَّنُوا حتى يثوروا هم على قوانينهم ، وينتفضوا على أنفسهم ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين .

الشرط **الثانى** : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أنْ يُقنِّن ، وألاَّ تغيب عنه جزئية من جزئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه .

ثالثاً : يُشترط فيمَنْ يُقنِّن أن يكون حكيماً فيما يُقنِّن ، بحيث يضع الأمر فى موضعه ، فلا ينصف جماعة على حساب أخرى ، وأن يكون الجميع أمامه سواء .

وحين تتأمل هذه الشروط الثلاثة تجدها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه وتعالى ، إذن : ينبغى ألاَّ يُقنِّن للبشر إلا ربُّ البشر ، وسبق

أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من المحسوسات ، فالناس فى الظلمة يحتاجون لبعض النور ؛ ليهتدوا به إلى قضاء مصالحهم فى الليل ، فينير كلٌّ منا ليله بما يناسبه من وسائل الإضاءة ، فواحد يشعل شمعة ، وآخر لمبة (نمرة خمسة) وآخر لمبة (نمرة عشرة) ، وبعد ما استخدمنا الكهرباء رأينا اللمبة العادية والفلوروسنت والنيون والكرستال .. إلخ .

إذن : أنتم تنيرون ظلمتكم على قدر إمكاناتكم ، فإذا ما أشرقتْ شمس الصباح ، أتُبْقون على هذه الأنوار ؟ لا بل يطفىء الجميع أنواره ؛ لأن نور الشمس يأتى على قدر إمكانات خالقها عز وجل ، لذلك نقول : أطفئوا مصابيحكم ، فقد طلعت شمس الله ، فإذا كان ذلك فى النور الحسىِّ فهو أيضاً ومن باب أَوْلَى فى النور المعنوى ، فإذا جاءك نور التشريع ونور المنهج من الله ، فأطفىء ما عداه من تشريعات ومناهج .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] شبَّه الحق سبحانه نبيه ﷺ بالسراج ، ولا تستقلّ هذا الوصف فى حقِّ رسول الله ، فليس معنى السراج أنه كالسراج الذى يضىء لك الحجرة مثلاً ، إنما هو كالسراج الذى قال له عنه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] والمراد : الشمس .

فإذا قُلْتَ : فلماذا لم يُوصَف النبى ﷺ بأنه شمس ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. ﴿٥﴾ ﴾ [يونس]

والشمس أقوى من السراج ؟ قالوا : الكلام هنا كلام ربٍّ والأسلوب دقيق معجز ، صحيح أن الشمس تنير الدنيا كلها ، إنما أمة محمد مُكلَّفة أن تقوم بدعوته من بعده ، فكأن رسول الله سراج ،

والسراج تأخذ منه النور دون أنْ ينقص نورُه ، لكن لا تستطيع أنْ تأخذ من الشمس .

وحين سطعتْ أنوار الهداية على لسان رسول الله محمد لم يَعُدْ للشرائع الأولى أنْ تتدخل على حدِّ قول المادح :

كَأنَّكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبُ   إذَا طلعَتْ لم يَبْدُ منْهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول الحق سبحانه(١) :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾

نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ لأن العدل أن تأخذ الجزاء المساوى للعمل ، أو تأخذ حقك ، أمَّا الفضل فأنْ تأخذ فوق حقك وزيادة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ويقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »(١) لأننى حين أحسب عملى مقابل ما أعطانى ربى من نعَم قبل أنْ أُخلق ، وإلى أن أبلغ وأُكلَّف ، أجد أننى لو قضيتُ حياتى كلها فى طاعة ربى ما وفَّيتُ بحقه علىَّ .

---

(١) قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه : هذه أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بيَّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٤٧٠] .

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعُها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن : فالثواب عليها يكون فضلاً من الله .

ومثَّلْنا لذلك - ولله المثل الأعلى - بولدك تُشجِّعه على المذاكرة ، وتُحضر له أدواته ، وتنفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح آخر العام أعطيْتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تصلح بين متخاصمين ، أو تُؤلِّف بينهما ، فقُلْ لهم : أتحبون أنْ أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل ؟ سيقولون لك : ليس هناك أفضل من العدل ، وعندها لك أن تقول : بل الفضل أحسن من العدل ؛ لأن العدل أنْ تأخذ حقك من خصمك ، والفضل أنْ تترك حقَّك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل .

وهذا ما رأيناه مُطبَّقاً فى قصة الإفك بين سيدنا أبى بكر حين عفا عن مسطح[1] بعد أن نزل قوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

فمن أراد أنْ يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأخيه زلَّته وسَوْأَتَهُ .

---

(١) هو : مسطح بن أثاثة بن عباس بن المطلب ، كان اسمه عوفاً ، أما مسطح فهو لقبه وأمه بنت خالة أبى بكر ، كان أبو بكر يمونه لقرابته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك فى أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فنزلت ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٢)﴾ [النور] فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه . وقد توفى مسطح عام ٣٤ هـ فى خلافة عثمان ويقال : مات عام ٣٧ هـ وشهد صفين مع على . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٧٩٢٩)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

فى أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾﴾ [الأحزاب] وهنا خاطبه ربه بقوله : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] فالأولى كانت فى بداية الدعوة ، حين أخذ الكفار يكيدون لرسول الله ، فما بالك وقد قويتْ الدعوة ، واشتدَّ عودها ، لا بُدَّ أنْ يتضاعف كيْد الكافرين لرسول الله .

لذلك يكرر له مسألة ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] ولا يعنى ذلك أننى سأُسْلمك ، إنما أنا وكيلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]

فإنْ قلت : كيف والوكيل أقل من الأصيل ؟ نقول : لا ، فالأصيل ما وكَّل غيره ، إلا لأنه عجز أنْ يفعل ، فاختار الأقوى ليفعل له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

تتحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخصُّ حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنسانى لا يتأتَّى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخِطْبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخطْبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخطْبة مجرد أنْ يذهب طالب البنت إلى وليِّها ليقول له : أإذا تقدمتُ لطلب يد ابنتك أكون أهلاً للقبول ؟

فيقول وليُّها : مرحباً بك ، هذه تسمى خِطْبة ، وربما لا يتقدم ، فإنْ تقدَّم لها ، له أنْ يراها مرة واحدة بين محارمها ؛ لأن النبى ﷺ قال للشاب الذى أراد الخطبة : « انظر إليها ، فإنه أحْرَى أنْ يُؤدَم بينكما »[1] .

وعجيب أنْ يخلط الناس بين الخطْبة والعقد ، فيعطون الخطْبة صفة العقد ، فإذا قبل الولىُّ الخاطبَ اتفق معه على المهر أو الشبكة وعلى كلِّ تفاصيل الزواج ، وأباح له أنْ يجلس مع ابنته ، وأنْ يتحدث معها ، وربما يختلى بها ، وياليتهم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج .

فالخطبة إنْ عدل عنها الخاطب ما عليهم إلا أنْ يذهب إلى ولىِّ البنت فيقول له : لقد طلبتُ منك يد ابنتك وأنا فى حلٍّ من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسخ قبل الدخول إلا بالطلاق ، إذن : لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد .

---

(١) عن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ : أنظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤٥ ، ٢٤٦) ، والترمذى فى سننه (١٠٨٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٦٥) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

والحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا فى هذه الآية الكريمة ما يتعلَّق بأحكام الطلاق إنْ وقع قبل الدخول بالزوجة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

فالنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر لما قال ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] والمسُّ كناية عن الجماع ، وهو عملية دائماً يسترها القرآن بألفاظ لا تدل عليه حقيقةً .

والحكم هنا ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فليس للزوج على زوجته عِدَّة إنْ طلَّقها[1] قبل أنْ يدخل بها ؛ لأن العدَّة إنما كانت لحكمة : فالعدة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة ، لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه تُوفِّى عنها[2] .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا الفرق يتضح كذلك فى مسألة المهر ، فقبل الدخول للزوجة نصف

---

(١) هذا إن طلقها قبل الدخول بها ، أما إذا توفى الزوج قبل أن يدخل بها فعليها العدة ولكن عدة المتوفَّى عنها زوجها كما لو كان قد دخل بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤) ﴾ [البقرة] ، وإنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه » [فقه السنة ٢/٣٤٢] . وقال ابن قدامة فى المغنى (٩/٧٨) : « كل من توفى عنها زوجها ، ولا حمل بها ، قبل الدخول أو بعده ، حرة أو أمة ، فعدتها بالشهور » .

(٢) العدة : مأخوذة من العدد والإحصاء ، أى : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء . وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها ، أو فراقه لها . [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٢/٣٤١] .

مهرها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] وقال هنا : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فإنْ سُمِّى المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإنْ لم يُسَمَّ فلها نصف مهر المثْل .

أما العـدَّة بعد الدخـول ففيـها تفصـيل ، بحيث تخـتلف من حالة لأخرى بما يناسب الحـالة التى تشرع فيها العدَّة ، والعـدَّة كما قلنا : تدل على أنهـا شىء معـدود ، فإنْ كـانت المرأة من ذوات الحـيض ، فهـى ثلاث حيضــات ، ليتـأكد خـلالها اسـتبـراء الرحم ، لكن الرحم يستبرىء من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات ؟

قالوا : الـهدف من ذلك إعطاء الزوج فـرصة ، فـقد يراجع نفـسه وتهدأ نفسه ، فيراجع زوجته فى هذه المدة ، فالشرع هنا يراعى بناء الأسرة ، ألاَ ترى أن الحق سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة : زوِّجنى وزوَّجتك ، أما فى حالة الطلاق والفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل ؛ لأن الله تعالى يريد ألاَّ يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقْضِ كلمة الله فى الزواج .

وأذكر أنهم كانوا يـسألوننا سؤالاً وكأنه لغز : أو يـعتدُّ الرجل ؟ أو : أو ليس للمـرأة عدَّةٌ عند الرجل ؟ قـالوا : نعم ، يعتـدُّ الرجل فى حـالة واحـدة وهى : إذا تزوج امـرأة ثـم طلقـهـا ، وأراد أن يتـزوج بأختها ، فعليه أن يمضى العدة ليحلَّ له الزواج بأختها .

أما عدَّة التى انقطع عنها الحيض فـثلاثة أشـهر ، وعدة الحامل أنْ تضع حملَهـا ، أما عدة المـتوفَّى عنها زوجـها فأربعـة أشهر وعـشرة أيام ، لكن ما الحكم إذا اجـتمع للمرأة الحـملُ مع وفاة الزوج ، فكيف تعتدُّ ؟ قالوا : تعتدُّ فى هذه الحالة بأبعد الأجلين : الحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولك أنْ تسأل : لماذا كانت عِدَّة المطلَّقة ثلاثة أشهر ، وعِدَّة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعَشرة أيام ؟ قالوا : لأن هناك فَرْقاً بين الطلاق والوفاة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجته ، سببه أن الذى خلق الذكر والأنثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هى : زوِّجنى وزوَّجتُك شريطة أنْ تكون علانية على رءوس الأشهاد ، ولا تستهنْ بهذه الكلمة ، فأنت لا تعلم ما الذى تصنعه هذه الكلمة فى ذرات التكوين الإنسانى ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا : هَبْ أنك تعرضتَ لشاب تعوَّد معاكسة ابنتك مثلاً ، ماذا تصنع أنت ؟ لا شكَّ أنك ستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغَيْرة ، وربما تعرضْتَ له بالإيذاء ، أما إنْ جاء من الباب ، وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذى حدث ؟ وما الفرق بين الموقفين ؟ فالذى أهاجك أنه تلصَّص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول ﷺ : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[(١)] .

ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على بناته ، وقد جاء يدعو رسول الله ﷺ إلى زواج إحدى بناته ، فضحك رسول الله وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالعقد الذى يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سيَالاً حلالاً عند كل منهما ، ويلتقى هذان السيالان فى الحلال وتحت مظلة الشرع الذى جمعهما .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ، وابن ماجة فى سننه (٣٠٧٤) ، وأبو داود فى سننه (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ، فى حديث طويل فى حجة النبى ﷺ ، وهى حجة الوداع .

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْه من أحدهما للآخر ؛ لذلك تكون العدَّة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْع الحمل ؛ لأن الكراهية التى حدثتْ بينهما تميت خلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتُسرِع بانتهاء ما بينهما من سِيال وتطمسه .

أما فى حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة ما تكون الزوجة مُحبَّة لزوجها ، حزينة على فَقْده ، وتأتى فاجعة الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفى هذه الحالة ليس من السهل أنْ ينتهى السِّيَال بينهما ؛ لذلك يشاء الخالق سبحانه أنْ يطيل أمد العدَّة إلى أنْ ينتهى هذا السِّيال الذى جمعهما ، فلا يدخل على سِيال الرجل سيال جديد ، فيحدث صراع بين السيالين ؛ لذلك كانت عِدَّة المتوفى عنها زوجها أطول من عدة المطلقة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن الطلاق قبل المسِّ والدخول كان موجوداً كما هو موجود الآن ، ونحن نرى الطرفين أو أحدهما يتعجَّل العقد ، رغم أنه غير مُستعد لنفقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحة تعود عليه من هذا الارتباط .

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون للزوج فى هذه الحالة أنْ يختلى بالزوجة ، وإنْ كان عاقداً عليها ، وبعض فتياتنا لهن قصص مُشرِّفة فى هذه المسألة .

ومما رُوى فى هذا الصدد قصة بهيثة بنت أوس بن حارثة الطائى والحارث بن عوف ، وهو سيد من سادات بنى مُرَّة ، وكان للحارث ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفى ليلة جلس الحارث يتسامر

مع صديقه ابن سنان فقال له : ترنى لو أننى خطبتُ إلى أحد من العرب ابنته أيردّنى ؟ قالها وهو مُعْتَزٌّ بنفسه فخور بسيادته على قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له : نعم هناك مَنْ يردُّك ، قال : مَنْ ؟ قال : أوس بن حارثة الطائى ، فنادى الحارث على غلامه وقال : أحضر المراكب ، وهيا بنا إلى أوس بن حارثة الطائى ، فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً فى فناء بيته ، فلما رآه أوس قال له : مرحباً بك يا حارث ، فأقبل عليه الحارث ، وقال : ويك يا أوس ، ما الذى جاء بك ؟ وتركه على دابته - قال : جئتُكَ خاطباً لابنتك ، فقال له : لستَ هناك - يعنى لستَ أهْلاً لها - فلوى الحارث زِمام دابته منصرفاً ، فى حين بدا على ابن سنان الارتياح ؛ لأن كلامه صدق فى صاحبه .

فلما دخل أوس على امرأته سألتْه : مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل ولم ينزل ؟ قال : إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بنى مُرَّةَ ، فقالت : ولماذا لم تستنزله عندك ؟ قال : لقد استحمق - يعنى : ارتكب حُمْقاً - قالت : وكيف هذا ؟ قال : إنه جاء يخطب ابنتى ، قالت : عجباً أو لا تريد أن تُزوِّج بناتك ؟ قال : بلى ، قالت : فإذا كنتَ لا تُزوِّجهن من سادات العرب ، فمَنْ تُزوِّجهن ؟ يا أوس ، اذهب فتدارك الأمر ، قال : كيف وقد فرطَ منى ما فرطَ ؟ قالت : الحقْ به ، وقُلْ له : إنك جئتنى وأنا مُغْضب من أمر لا دخْلَ لك فيه ، ولما راجعتُ نفسى جئتُك معتذراً أطلب منك أنْ تعود ، ولك عندى ما تحب .

فذهب الرجل ، فلم يجد الركْبَ ، فشدَّ على راحلته ، حتى صار بينهما فى الركْب ، فالتفت ابنُ سنان ، وقال : يا ابن عوف ، هذا

أوس يلحق بنا ، فقال : وماذا أصنع به امْضِ ، فناداه أوس : يا حارث : اربع[1] عليَّ ساعة ، يعني : انتظرني - ولكَ عندي ما تحب، ففرح الحارث وعاد معه .

عاد أوس إلى بيته ، وقال لامرأته : ادْعي ابنتك الكبرى ، فجاءت ، فقال : يا بُنيَّة إن الحارث بن عوف سيد بني مرة جاء ليخطبك ، فقالت : لا تفعل يا أبي ، فقال : ولم ؟ قالت : إنني امرأة في وجهي ردّة - يعني قُبْح يردُّ مَنْ يراني - وفي خُلُقي عُهْدة - أي عيب - وليس بابن عم لي فيرعى رحمي ، ولا بجَار لك في بلدك فيستحي منك ، وأخاف أنْ يكره مني شيئاً ، فيُطلِّقني فيكون عليَّ فيه ما تعرف . فقال لها : قُومي ، بارك الله فيكِ .

ثم قال لامرأته : ادْعِي ابنتك الوُسْطى فجاءتْ ، فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا تفعلْ يا أبي ، قال : ولم ؟ قالت : أنا امرأة خرقاء - يعني : لا تُحسن عملاً - وليست لي صناعة ، وأخاف أنْ يرى مني ما يكره فيُطلِّقنيَ ، ويكون فيَّ ما يكون . فقال لها : قومي بارك الله فيك ، وادْعِي أختك الصغرى ، وكانت هذه هي بُهَيْثة التي نضرب بها المثل في هذا الموقف .

لما عرض عليها أبوها الأمر قالت : افعل ما ترى يا أبي ، قال : يا بُنيَّتي ، لقد عرضتُه على أُختيك فأبتَاهُ ، قالت : لكني أنا الجميلة وجهاً ، الصَّناعُ يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، فإنْ طلَّقني فلا أخلفَ اللهُ عليه ، فقال : بارك الله فيك . ثم قام إلى الحارث وقال : بُورِكَ لك يا حارث ، فإنِّي زوَّجتك ابنتي بهيثة ، فبارك الله لكما ، قال : وأنا قبلتُ زواجها .

---

(١) اربع على نفسك : كُفَّ وارفُق . كذلك معناه : انتظر . فهو بمعنى التوقف والانتظار . [لسان العرب - مادة : ربع] .

ثم قال لامرأته : هَيِّئى ابنتك ، واصنعى لها فُسْطاطاً بفناء البيت ، ولما صُنع الفسطاط حُملت إليه بهيئة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج ، فسأله ابنُ سنان : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله ، يا بن سنان ، قال : ولم ؟ قال : جئتُ لأقترب منها . فقالت : أعند أبى وإخوتى ؟ والله لا يكون ذلك أبداً ، فخرجتُ .

فقال : ما دامتْ لا ترضى وهى عند أبيها وإخوتها ، فهيَّا بنا نرحل ، فأمر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال : يا بن سنان تقدَّم أنت ـ يعنى : أعطنا الفرصة ـ فتقدَّم ابن سنان بالركْب ، وانحاز الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب خيمته ، ثم دخل عليها فقالت له : ما شاء الله ، أتفعل بى كما يُفعل بالسَّبيَّة الأخيذة ، والأَمَة الجليبة ؟ والله لا يكون ذلك حتى أذهب إلى أهلك وبلدك ، وتذبح لى الذبائح ، وتدعو سادة العرب ، وتصنع ما يصنعه مثلك لمثلى .

الشاهد هنا ـ وهو درس لبنات اليوم ـ أنها لم ترْضَ لزوجها ، ولم تقبل منه فى بيت أبيها ، ولا فى الطريق ، ولم تتنازل عن شىء من عِزَّتها وكبريائها ، مع أنها زوجته .

وفعلاً تمَّ لها ما أرادت ، وذُبِحَتْ لها الذبائح ، ودُعى لها سادات العرب ، فلما دخل عليها وحاول الاقتراب منها ، قالت : لقد ذكرتَ لى شرفاً ما رأيتُ فيك شيئاً منه ، فقال : ولم ؟ قالت : أتفرغُ لأمر النساء والعرب يقتلُ بعضُهم بعضاً ـ تريد الحرب الدائرة وقتها بين عبس وذبيان ـ اذهب فأصلِح بينهما ، ثم عُدْ لأهلك ، فلن يفوتك منى شىء ، فذهب الحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عبس وذُبْيان ،

وتحمَّـلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعيـر يُؤدُّونها فى ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له : الآن لك ما تريد .

وهذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] بظاهرها أعطتْ فـهماً لبـعض الناس الذين يريدون أن يتـحلَّلوا من أحكام الدين فى أشـياء قـد ترهقـهم : فـمثـلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شُرِع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحلُّ له زوجته هذه إلا بعد أن تنكح زوجاً غـيره ، فيأتى مَنْ يقول ـ بناءً على الآية السابقة ـ ما دام النـكاح هنا بمعنى العقد[1] فهو إذن كَـاف فى حالة المـرأة التى طُلِّقت ثلاث مـرات ، وأنهـا تحِلّ لزوجهـا الأولَ بمجرد العقد على آخر .

ونقـول : لكن فاتك أن رسـول الله ﷺ فُـوِّض من ربه بالتشـريع وبيان وتفـصيل ما جـاء فى كتاب الله من أحكام ، كـما قال سبـحانه مخاطباً نبيه :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

فلو أن سُنَّة رسول الله لم تتعرَّض لهذه المسـألة ، لَكانَ هذا الفهم جائزاً فى أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، لكن الذى أناط الله به مهمة بيـان القرآن وقال عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : فهو ﷺ له حَقُّ التشريع ، وقد بيَّن لنا المراد هنا فى قوله

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩٧) : « هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العـقد وحـده ، وليس فى القـرآن آية أصرح فى ذلك مـنها ، وقـد اختلفـوا فى النكاح ، هل هو حـقيقـة فى العقـد وحده ، أو فى الوطء ، أو فيـهما ؟ عـلى ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقـد والوطء بعده إلا فى هذه الآية ، فإنه استعمل فى العقد وحده » .

تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ .. (٢٣٠)﴾ [البقرة]

فأبقى كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بيَّن المراد من ذلك ، فقال للرجل : « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها »(١) إذن : تمام الآية لا يجيز لمن يقول : إن مجرد العقد يبيح للرجل أنْ يعيد زوجته التى طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلته ، ويذوق عُسَيْلتها ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذى تعوَّد الطلاق ، وسَهُلَ عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخَلْق ، ومن حرصه - تبارك وتعالى - على رباط الأسرة أنْ أحلَّ المرأة للرجل كما قلنا بكلمة زوَّجنى وزوّجتك ، لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة ، إنما جعله على مراحل ثلاث ؛ ليُبقِى للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإنِ استنفد الزوج هذه الفرص ، وطلَّق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن نحرق أنفك بأنْ تتزوج امرأتُكَ من زوجٍ غيرك زواجاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهى أصعب ما تكون على الزوج .

ونلحظ هنا أن دقَّة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصَعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهِّب من أنْ تفعل ذلك ، يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣٣) كتاب النكاح - باب ١٧ من حديث عائشة أن امرأة رفاعة القرظى جاءت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، كنت عند رفاعة فطلقنى فبَتَّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب (وفى رواية زيادة : وأخذت بهدبة من جلبابها) فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله فيقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق »[1] ، فالذين يعترضون على الطلاق فى شرعنا ، ويتعجَّبون كيف يفارق الزوجُ زوجته بعد العشْرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، وفاتَ هؤلاء أن الطلاقَ وإنْ كان الأبغض إلا أنه حلالٌ ، ويكفى أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذَّر الرجل أنْ يتساهل فيه ، أو يُجرِيه على لسانه ، فيتعوَّده .

ونلحظ أن الحق سبحانه خصَّ المؤمنات فى قوله : ﴿ **إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مع أن المؤمن يُبَاح له أنْ يتزوج من الكتابية[2] ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكأن فى الآية إشارةً لطيفة لمن أراد أنْ يتزوج فليتزوج مؤمنة ، ولا يُمكِّن من مضجعه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط فى الدين ، فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عِرْضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تُؤتمن على هذا كله .

وقد رأينا بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وتزوجوا من أجنبيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تنسى أنها يهودية أو نصرانية ، وتبثّ أفكارها ومعتقداتها فى الأولاد ، إذن : فعلى المؤمن أنْ يختار المؤمنة ؛ لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته .

وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كنا نُسْأل : لماذا أبحتُم لأنفسكم

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) ، وأبو داود فى سننه (٢١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٩٧/٣) : « قوله تعالى (المؤمنات) خرج مخرج الغالب : إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق » وانظر أيضاً « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٣٠) .

أنْ تتزوجوا الكتابية ، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة ؟ وكان بعض الآبـاء يأتون ببنـاتـهم اللائى وُلِدْن فى ألمانيـا مـثلاً ، وكـانت البنت تُحاج والدها بهـذه المسألة ، لمـاذا لا أتزوج ألمانياً كـما تزوجْتَ أنت ألمانية ؟

فكنا نرد على بناتنا هناك : بأن المسلم له أن يتزوج كتابية ؛ لأنه يؤمن بكتابها ، ويؤمن بنبيِّهـا ، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابى ، وهو لا يؤمن بكتابك ، ولا يؤمـن بنبيك ؟ إذن : فالمسـلم مُؤْتَمن على الكتابية ، وغير المسلم ليس مُؤتمناً على المسلمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب] وفى مـوضـع آخـر قـال سـبـحـانه فى نـفس هذه المسـألة : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة]

ويمكن أنْ نُوفِّـق بين هاتين الآيتـين بأن الأولى نـزلتْ فـيـمَنْ لم يُفْرض لها مهـر ، والثانية فيمَنْ فُرِض لها مـهر ، التى لم يُفرض لها مهر لها المتعة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب] والتى فُرِض لها مهر لها نصـفه ، فكل آية تـخـصُّ وتعـالج حـالة معـينة ، وليس بين الآيتـين نَسْخ .

وبعض العلماء يـرى أنه لا مانع ، إنْ فُرِضَ لهـا مهر أنْ يعطيـها المتعة فوق نصف مهـرها ، وهذا رأى وجيه ، فالعدل أنْ تأخذ نصف ما فُرِض لها ، والفضل أنْ يعطيهـا المتعة فوق هذا النصف ، وينبغى أنْ تبنى المعاملات دائماً على الفـضل لا على مجرد العدل ، وربنا عز وجل يُعلِّمنا ذلك ، حين يعاملنا سبـحانه بفضله لا بعدله ، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا جميعاً .

لذلك جاء فى دعاء الصالحين : اللهم عاملْنَا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . نعم ، فإن لم يكُنْ فى الآخرة إلا الحساب ، فلن يكسب منا أحدٌ ، وقد ورد فى الحديث : « مَنْ نُوقشَ الحساب عُذِّب »(١)

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضلْ الله ، وتعمُّك رحمته ، وفى الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »(٢) .

فإنْ قُلْتَ : فكيف نجمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة ، وبين مكانة العمل ومنزلته فى مثل قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

قالوا : صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله لا تُقدم لله تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مُقدَّمة من الله لك فى مشروعية العبادة ، وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلقك وخلق الكون كله لك ، فإنْ كلَّفك بعد ذلك بشيء ، فإنما هو لصالحك ، كما تكلف ولدك بالجد والمذاكرة .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبد الله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق] ، فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد ، فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة . وتغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

ثم لو أنك وضعتَ عملك فى كفَّة ، ونعَم الله عليك فى كفة لما وفَّتْ أعمالك بما أخذْتَه من نعَم ربك . إذن : إنْ أثابك بعد ذلك فى الآخرة فإنما بفضله تعالى عليك ورحمته لك .

ومثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بقولك لولدك : لو نجحتَ آخر العام سأُعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه إلا أنك تزيده ؛ لأنك مُحبٌّ له وتحب له الخير .

إذن : ينبغى أنْ نتعامل بهذه القاعدة ، وأنْ نتخلَّق بهذا الخلق ، خاصة فى مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التى طُلِّقَتْ قبل الدخول بها .

فإنْ قُلْتَ : ولماذا تأخذ الزوجة التى طُلِّقت قبل الدخول بها نصف المهر والمتعة أيضاً ؟ نقول : هو عوَض لها عن المفارقة ، فإنْ كانت هى المُفَارقة الراغبة فى الطلاق ، فليس لها شىء من المهر أو المتعة ، إنما عليها أنْ تردَّ على الزوج ما دفعه ، كما جاء فى حديث المرأة التى جاءت رسول الله ﷺ تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، فقال لها : « رُدِّى عليه ما دفعه لك »[1] وهذه العملية يسميها العلماء (الخُلْع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

السَّرْح فى الأصل : شجر له ثمر ، يوجد فى البوادى ، ترعاه الماشية وتحبه ، فالكبيرة منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة

---

(١) عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلِّقها تطليقة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٧٣) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٥٦) من حديث ابن عباس ، وقد صرّح بتسمية امرأة ثابت ، فهى جميلة بنت سلول ، وفى رواية أخرى (٢٠٥٧) أنها حبيبة بنت سهل .

فيتعهدها الراعى إنْ كان عنده دقة رعاية ، بأنْ يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغار[1] .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

ورُوى أن سيدنا عمر مرَّ على راعٍ فقال له : يا راعٍ ، فنظر الراعى إلى أمير المؤمنين ، وقال : نعم يا راعينا - يعنى : أنا راعى الغنم وأنت راعى الراعى ، فكأنه لا يتكبر راعٍ على راعٍ - فقال عمر : يا هذا فى الأرض التى تبعد عنك كذا وكذا سَرْحٌ أجمل من هذا وأخصب ، فاذهب إليه بماشيتك .

وهذا درس فى تحمُّل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضى الله عنه خير مَنْ تحمَّل هذه المسئولية ، فيُروْى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابرى السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم مَنْ يحمل بضاعته ، ومنهم مَنْ يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجترىء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، فى الفلاحين يقول الذاهب فى الصباح إلى الحقول (نسْرَحْ) وللعودة آخر النهار (نروح) ، ثم تُدوول هذا اللفظ فأُطلق على كل خروج إلى شىء ، ومن ذلك نقول : اعطنى التسريح ، فكأنى كنت محبوساً فسمح لك بالخروج ، ومن ذلك تسريح الزوجة .

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾

---

(١) الذى فى لسان العرب لابن منظور (مادة : سرح) أن السرح : شجر كبار عظام طوال ، لا يُرعى وإنما يُستظل فيه ، لا ينبت فى رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال (الأنعام) إلا قليلاً ، له ثمر أصفر .

[الأحزاب] وكل شيء وُصف فى القرآن بالجمال له مزية فى ذاته ، كما فى ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف] وتسريح الزوجة عادة ما يصاحبه غضب وانفعال ، فينبغى أنْ يكون التسريح جميلاً لا عنفَ فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو الله أن يُعوِّض عليك بخير منى أو غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها ، ويكفى أن تتحمل هى ألم المفارقة ومصيبة الطلاق . وأىُّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسُّباب والشتائم ، ويؤذيها بأن يمنعها حقاً من حقوقها .

وهذه الآية عالجتْ قضية هامة من قضايا الأسرة ؛ لأنها مرادة للحق سبحانه ، فالله تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه الزوجة ليُحقِّق منهما الخلافة فى الأرض ، لكن لماذا هذه الخلافة ؟ قالوا : ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته فى كونه ، كما تسعد أنت حين تأتى لأولادك بما لَذَّ وطابَ من الطعام ، وتفرح حين تراهم يأكلون ويتمتعون بما جئتَ به ، تفرح لأنك عدَّيْتَ أثر قدرتك للغير - ولله تعالى المثل الأعلى - .

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة فى الأرض ثم حدد مهمته ، فقال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود] إذن : لا بُدَّ أنْ يضمن لهذا الخليفة مُقوِّمات حياته ومُقوِّمات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمُقوِّمات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش فى الدنيا وحيداً لآخر الزمان .

واستبقاء الحياة يكون بالقوت ؛ لذلك فإن ربك عز وجل قبل أنْ يستدعيك إلى الوجود ، وقبل أنْ يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فأعدَّ للخليفة كل مُقوِّمات حياته .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ

فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) ﴾ [فصلت]

إذن : فمخازن القوت مملوءة ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) ﴾ [الحجر] وما دام خالق البشر قدَّر لهم الأقوات مُقدَّماً ، فليس لك أن تقول « انفجار سكانى » قُلْ : إنك قصرْتَ فى استنباط هذا القوت بما أصابك من كسل أو سوء تخطيط .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ﴾ [النحل]

ومن الكفر بنعمة الله سَتْرها بالكسل والقعود عن استنباطها ، وقد يَشْقى جيل بكسل جيل قبله ، لذلك لما تنبَّهنا إلى هذه المسألة ، وبدأنا نزرع الصحراء ونُعمِّرها انفرجتْ أزمتنا إلى حَدٍّ ما ، ولو بكَّرْنا بزراعة الصحراء ما اشتكينا أزمة ، ولا ضاقَ بنا المكان .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أنه إذا ضاق بنا المكان ألاَّ نتشبثَ به ، ففى غيره سعة ، واقرأ : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. (٩٧) ﴾ [النساء]

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، حتى فى الخلوة الليلية معه : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل .. (٢٠) ﴾ [المزمل] إلى أن يقول : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى .. (٢٠) ﴾ [المزمل] والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر ﴿ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

إذن : قانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعْى فى مناكبها ، وفيه مُقوِّمات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أىٍّ من هاتين الدعامتين ضاعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعاً لأعدائها ؛ لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة، تعيش على صدقات الأمم الغنية ؛ لأنها كفرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعْطى للفقراء ، إنما يُرْمى فى البحر ويُعدَم ، لتظل لهم السيادة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أنْ نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتى بكفر نعم الله ، إما بسترها وعدم استنباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد .

ولأهمية القوت يأتى فى مقدمة ما يمتنُّ الله به على عباده فى قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكما ضَمِن الحق سبحانه للخليفة فى الأرض مُقوِّمات حياته ضَمِن له أيضاً بقاء نوعه ونَسْله ، وجعل ذلك بالزواج الذى شرَّعه الله؛ ليأتِىَ النسل بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة خسيسة دَنسة ، وفَرْق بين هذا وذاك ، فالولد الشرعى تتلقفه أيدى الوالدين وتتباهى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلَّص منه أمه وهو جنين تخلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها .

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم ونظافته وسلامته ، مجتمع يكون جديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا ، فإنِّى

مُباه بكم الأمم يوم القيامة »[١] .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ[٣] اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) ﴾

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣٨٠) : « رواه عبد الرزاق والبيهقى عن سعيد بن أبى هلال مرسلاً بلفظ « تناكحوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » . وقد أخرج أبو داود فى سننه (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٩٩) : « هذه الآية عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٤٧٥) : « معلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء » .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ باسمه العلم أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال : يا نوح ، يا عيسى ، يا موسى ، يا إبراهيم .. إلخ ، أما رسول الله ، فناداه ربه بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]

ونداء الشخص باسمه العلَم دليلٌ على أنه ليستْ له صفة مميزة ، فإنْ ملك صفة مميزة نُودى بها تقول : يا شجاع ، يا شاعر .. إلخ ، الآن الجميع يشتركون فى العلَمية . إذن : فنداء النبى ﷺ بيأيها النبى ، ويأيها الرسول تكريم له ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ما معنى ﴿ أَحْلَلْنَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا ما دام الحديث عن أزواجه ﷺ ؟ قالوا : معناها أنها كانت فى منطقة مُحرَّمة ثم أحلَّها الله له أى : جعلها حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها ﴿ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] كأن رسول الله أخذ بالحلِّ أولاً ، بدليل أنه آتى الأجر والمهر .

ولقد كان للعلماء وَقْفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا :كيف يُسمِّى المهر أجراً ، ومعنى الأجر فى اللغة : جُعْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها المُستأجَر للمُستأجِر ، أما النكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه نية التأبيد والدوام ؟

وللجواب على هذه المسألة نقول : لا يصح أنْ تُؤخَذ الآيات ، منفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغى أنْ نجمع الآيات الواردة فى نفس الموضوع جَنْباً إلى جنب ؛ ليأتى فهمها تاماً متكاملاً .

فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر مخاطباً نبيه ﷺ فى شأن زوجاته : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : تؤخر

استمتاعك بها ﴿ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : تضمُّها إليك .

إذن : ما دام لك أن ترجىء أزواجاً منهن وتمنعهن من القسمة ، ثم تضم غيرهن ، فكأن المنفعة هنا موقوتة ، فناسب ذلك أن يُسمَّى المهر أجراً .

والحق سبحانه يعطى نبيه ﷺ فى كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها ، فقوله تعالى ﴿ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] دليل على أنه ﷺ ما انتفع بهن إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن ، فى حين أن للإنسان أنْ يسمى المهر ، ويدخل بزوجته دون أن يدفع من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مُؤخَّراً ، لكن تأخير المهر يعطى للمرأة حق أنْ تمتنع عن مضاجعته ، فإنْ سمحَتْ له فهو تفضُّل منها . إذن : فرسول الله اختار أكمل شىء .

رسول الله ﷺ جاء ليُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وجعله ربه أُسْوة سلوكية فى الأمور التى يعزُّ على الناس أن يستقبلوها ، فنفَّذها رسول الله فى نفسه أولاً كما قلنا فى مسألة التبنى .

كذلك فى مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أُرسل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أنْ يحدد هذا التعدد تحديداً يمتص الزائد من النساء ، ولا يجعله مباحاً فى كل عدد ، فأمر رسوله أن يقول لأمته : مَنْ كان عنده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ، ويفارق ما زاد عنهن ، فى حين كان عنده ﷺ تسع زوجات .

فلو أن الحكم شمله ، فأمسك أربعاً ، وسَرَّح خمساً لأصابهُنَّ ضرر كبير ، ولصِرْنَ مُعلَّقات ؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات

المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله .

إذن : الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء التسعة بذواتهن ، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أنْ يتزوَّج بغيرها ؛ لأن الله خاطبه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وقد بيَّنا للمستشرقين الذين خاضوا فى هذه المسألة أن رسول الله لم يُسْتَثْن فى العدد ، إنما استُثْنى فى المعدود ، حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن ، وليس له أنْ يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فله أنْ يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألاَّ يزيد عن أربع فى وقت واحد .

وكلمة ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] جاءت قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت[1] : ما مات رسول الله حتى أبيح له أنْ يتزوج ما شاء ، فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الله تعالى أراد أنْ يعطى لرسوله تميُّز الوفاء لأزواجه ، فمع أن الله أباح له أنْ يتزوج بغيرهن ، إلا أنه ﷺ لم يفعل وفاءً لهُنَّ ، والرسول ﷺ يفعل ذلك لأنه كان إذا حُيى بتحية يُحيىّ بأحسن منها أو يردُّها بمثلها ، وقد رأى ﷺ من أزواجه سابقة خير حين خيرَّهُنَّ فاخترْنه وفضَّلْن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكأنه يردُّ لهم هذه التحية بأحسن منها .

ومجىء ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢١٦) ، والنسائى فى سننه (٦/٥٦) من قول عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ.. ﴿٥٢﴾ [الأحزاب] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، فالله قد أحل له قبل أنْ يُحرِّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة] فسُبق العتاب بالعفو .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكَّر ولم يقل زوجاتك ؛ لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج فى اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس الزوج يعنى الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهى تعنى الواحد الذى معه غيره ، فكل منهما يُسمَّى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] نعرف أن ملْك اليمين يُقصَد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى : ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ..﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] احتياط ، فملْك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعى ، جاء من الفىء والمراد أسرى الحروب .

وقد باشر ﷺ عملية السَّبْى بنفسه ؛ لأن من الإماء حرائر أُخذْنَ عُنْوة أو سُرِقْنَ ، ومنهن من بيعتْ فى سوق الرقيق على أنها أَمَة ، وهذا ما رأيناه فعلاً فى قصة سيدنا زيد بن حارثة ، إذن : فقوله تعالى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] أى : أنك ملكتها ، وأنت واثق تمام الثقة أنها أَمَة وَفَىءٌ أحله الله لك .

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

وكذلك أحلَّ الله لنبيه أنْ يتزوّج من بنات عمه ، أو بنات عماته ، أو بنات خاله ، أو بنات خالاته ، والعمومة : أقاربه من جهة أبيه ، والخئولة أقاربه من جهة أمه ، ونلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته .

والمعنى أن الله تعالى أحلَّ له أنْ يتزوَّج من هؤلاء ما وُجد ؛ لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره .

وحين تتأمل هذه الآية نجد أن العم والخال جاءت مفردة ، فى حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن العم والخال اسم جنس ، واسم الجنس يُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، بدليل أنك تجد اسم الجنس فى القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما فى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالإنسان اسم جنس مفرد ، واستثنى منه الذين آمنوا وهى جمع ، أما العمَّات والخالات فليستْ اسم جنس ؛ لذلك جاءتْ بصيغة الجمع المؤنث .

وأيضاً ، لأن العم صنْو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم فى منزلة الأب ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣)﴾ [البقرة] فدخل العمُّ فى مُجْمل الآباء .

وكذلك سَمَّى العمَّ أباً فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ.. (٧٤)﴾ [الأنعام] ومعلوم أنه كان عمه .

وفى موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فجاءت العم والخال هنا بصيغة الجمع ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث هنا عن البيوت التى يُبَاح لك أنْ تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أنْ تأتى (أعمامكم) و (أخوالكم) بصيغة الجمع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ[1] .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] الوَهْب : انتقال ملكية بلا مقابل ، نقول : فلان وهبك كذا يعنى : أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : أتعجبُ لامرأة تبتذل نفسها ، وتعطى نفسها لرجل هكذا مجاناً بلا مقابل ، فنزل النص ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها ﷺ : « وأنت يا عائشة ، لو اتقيتِ الله لسارع فى هواك »[2] .

---

(١) قوله (النبى) هنا دليل على أن هذا أمر خاص برسول الله ، فليس لأحد من أمته أن يتزوج امرأة على سبيل الهبة بأن تهب نفسها له ، وهذا من الأمور التى خُصَّ بها رسول الله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٨٨ ، ٥١١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٤) كتاب الرضاع ، وأحمد فى مسنده (٦/ ١٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٦١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والمعنى : أن الله يسارع فى هواى ، لأننى سارعتُ فى هواه ، طلب منى فأدَّيْتُ ؛ لذلك يُلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

وقال ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإنْ كانت كتابية لا يصح أن تهبَ نفسها للنبى ، لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له ؟ قالوا : لا ، إنما لا بُدَّ من القبول ، فإنْ قالت المرأة لرسول الله : أنا وهبتُ نفسى لك لا بُدَّ أنْ يقبل هو هذه الهبة ؛ لذلك علَّق على هذه المسألة بقوله ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول .

وللعلماء كلام فى هذه المسألة ، فبعضهم[(١)] قال : لم يأخذ رسول الله امرأة بهبة أبداً ، وقال آخرون[(٢)] : بل عنده أربع موهوبات هُنَّ : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وليس فى هذا التعارض (فزورة) ، فمن السهل أنْ نجمع بين

---

(١) قاله ابن عباس ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٤٧٧) ، وكذا ابن كثير (٣/ ٥٠٠) والسيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٢٨ - ٦٣٠) . قال القرطبى : « الذى فى الصحيحين يقوى هذا القول ويعضده ، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللائى وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، فدلَّ هذا على أنهن كُنَّ غير واحدة » .

هذين القولين ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] فربما وهبتْ نفسها للنبى ، لكنه لم يُرد ، أو وهبتْ نفسها للنبى ، فأراد أنْ يكرمها ، وأنْ يجعل لها مهراً ويتزوجها .

وكلمة ﴿ يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] مثل ينكحها ، فهما بمعنىً واحد ، مثل : عَجل واستعجل .

ومعنى ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أن الله تعالى خَصَّ رسوله بأشياء ميَّزه بها ؛ لأن مهمته ﷺ ليستْ مع نفسه هو ، إنما مهمته مع الناس جميعاً ، وليس للناس المعاصرين له فحسب ، إنما جميع الناس حتى قيام الساعة .

إذن : فمشغولياته ﷺ كثيرة كبيرة ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل]

لذلك أراد الحق سبحانه ألاَّ يشغله شيء عن مهمته هذه ، وأراد أنْ يتوفر رسول الله لأداء هذه المهمة التى هو بصددها ، بحيث إذا ما عشق عملية البلاغ عن الله واندمج فيها ومعها تموت فى نفسه كلُّ الأهواء ، ولا يبقى إلا انشغاله بمهمة الدعوة .

بدليل أن الوحى فى أوله كان يجهد سيدنا رسول الله ، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً ، ويذهب إلى أهله فربما يقول : زَمِّلونى زمِّلونى ، ودثِّرونى دثِّرونى ، ثم شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففتر الوحى فترة عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه ، وهدأتْ طاقته ، وبقيت معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ سيدنا رسول الله يتشوَّق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب فى سبيله .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحى : إن ربَّ محمد قلاه ، ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه ، أما حين الخلوة والجلْوة قالوا : مُفْترِ وكذَّاب وشاعر .. إلخ .

ومعنى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] يعنى : ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ؛ لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن : فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] أى : من العدد الذى حُدِّد بأربعة ، ومن المهر الذى سُمِّى ساعة العقد ، والمراد أن لكلٍّ حكمه وقانونه ، فلكَ يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم .

وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التى يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد فى مصر لم يصل إلى حَدِّ الظاهرة ، وليس وباءً كما يُصوِّره البعض .

فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة ، والذين عـددوا بثلاث واحد فـى الألف ، والذين عدَّدوا بأربع نصف فى الألف ، فلمـاذا إذن إثارة الناس ضد مـا شرع الله ، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء ؟

وتأتى الزوجة تشـتكى : بعد أنْ عشْتُ معـه كذا وكذا ، وخدمـته كذا وكذا يتزوج علىَّ ؟ فأقول لها : أضَرَّك أنتِ ؟ تقول : نعم ، أقول: لكنه نفع أخرى ، فواحدة بواحدة ، ولماذا ننظر إلى المتزوجة ، ونغفل التى لم تتزوج ، أليس من حقِّها هى الأخرى أن تتزوج ؟

ثم إن المـرأة التى قـبلَتْ أن تكون الثـانيـة مـا قـبلت إلا لأنهـا لم تسـتطع أنْ تكـون الأولى ، وكـذلك الثـالثـة مـا قـبلتْ ، إلا لأنهـا لم تسـتطع أن تكون الثانيـة .. إلخ ثم نقول لهـؤلاء : أألزمك ربك أنْ تعدد ؟ هذه مسألة أباحها الشـارع لحكمة ، ولم يلزمك بها ، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة .

والذين أثاروا الضـجة فـى تعدُّد الزوجـات أثاروا أكـثر منهـا فى مسألة ملْك اليمين فى الإسلام ، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين : كيف يجمع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من ملْك اليمين ؟

ومعلوم أن ملْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام ، وظل موجوداً ، حتى دعـا القانون الدولى العـام إلى منع ظاهرة العبـودية ، ودعا إلى تحرير العـبيد ، فسـرَّح الناس ما عندهم من العبيـد ، وكان منهم مَنْ يشترى العبيد من أصحابهم ثم يُطلق سراحهم .

ومن هؤلاء العبيـد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسـيده مرة أخرى يريد العيـش فى كنفه وفى عبـوديته مرة أخـرى ؛ لأنه ارتاح فى ظل

هذه العبودية ، وعاش فى حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول : أنا عتيق آل فلان .

والمنصف يجد أن ملْك اليمين فى الإسلام ليست سُبَّة فيه ، إنما مفخرة للإسلام ؛ لأن مَلْك اليمين وسيلته فى الإسلام واحدة ، هى الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء لينشىء رِقاً ، إنما جاء لينشىء عتقاً .

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التى يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد فى عِتْق عبده ، فى حين كانت منابع الرقِّ كثيرة متعددة ، فكان المدين الذى لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص وقُطَّاع الطرق يسرقون الأحرار ، ويبيعونهم فى سوق العبيد ... إلخ .

فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْى فى حرب مشروعة ، وحتى فى الحرب ليس من الضرورى أن ينتج عنها رِقٌّ ؛ لأن هناك تبادلَ أسرى ، ومعاملةً بالمثل ، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس ، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة ، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ④﴾ [محمد]

لأن الحرب ما شُرِعَتْ فى الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين ، لكن ليُحمى اختيارهم للدين ، بدليل أن البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى بقى فيها كثير من الناس على كفرهم ، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التى يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التى تؤديها إليه الدولة .

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى ، وعلى المجتمع الظالم الذى ينتقد الإسلام فى هذه الجزئية أن يعلم أن الذى أسرْتَه فى المعركة قد قدرْتَ عليه ، وتمكَّنْتَ منه ، وإنْ شئت قتلتَهُ ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير ملْكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، إما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأنْ يخدمك بنفسه .

إذن : المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هى بين رِقٍّ وقتل .

إذن : مشروعية الرق فى أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقنَ دم المأسور ، وتعطى الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظَلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك فى الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أباح الله لك أنْ تأسره ، وأن تملكه إلا لكى تَحْقِنَ دمه ، لا أن تُذلَّهُ .

واقرأ قول النبى ﷺ : « إخوانكم خَولكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليُطْعمه مما يطعم ، وليُلبسْه مما يلبس ، ولا يُكلِّفه ما لا يطيق ، فإن كلَّفه فَلْيُعنْه »[1] .

فأىُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتْقه وحريته ، فإنْ كان للرقِّ فى الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠ ، ٢٥٤٥) كتاب الإيمان ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

فإذا لم تكُنْ هناك ذنوب فقد رغَّبَنا الشرع فى عتْق الرقاب لاجتياز العقـبة كـما فى قولـه تعالى : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

هذا إنْ كان الأسير رجلاً ، فإنْ كان امرأة ، فـفيها نفس التفصيل السابق ، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة - وهى فى بيت سيدها - وضعـاً خاصاً ، فهى ترى سيدتها تتـمتع بزوجها ، وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل هذه الأمور ، وهى تقف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل ، فـيكرمـهـا الله حـين يُحلّهـا لسـيدهـا ، فـيكون لهـا ما لسيدتها الحرة ، فإذا ما أنجبتْ لسيدهاَ ولداً صارت حُرَّة به ، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق .

وقوله تـعالى : ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] هذه هى الهبة الخالصة للنبى ﷺ دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا نريد أنْ نُحمِّلك ضيقاً فى أىِّ شىء لتفرغ أنت لمهمتك الصعبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾

قوله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : تؤخر مَنْ تشاء من زوجاتك عن ليلتها ﴿ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : تضم إليك ، وتضاجع مَنْ تشاء منهن ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] من طلبتَ من زوجاتك وقرَّبت ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : اجتنبتَ بالإرجاء والتأخير ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : لا إثم ولا حرج .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : أنهُنَّ جميعاً سيفرَحْنَ ، التى تضمها إليك ، والتى تُرجئها وتؤخرها ، وسوف يرضَيْنَ بذلك ؛ لأنهن يعلَمنَ أن مشيئتك فى ذَلك بأمر الله ، فالتى ضمها رسول الله إليه تفرح بحب رسول الله ولقائه ، والتى أُخِّرَتْ تفرح ؛ لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها مرة أخرى وضمَّها إليه وقرَّبها ، وهذا يدل على أن لها دوراً ومنزلة ، وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعنى أنه كرهها أو زهد فيها ، فإنْ فعلْتَ ذلك يا محمد - مع أن فيه مشقة - فإنما فعلْتَه طاعة لأمر مَنْ ؟ لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه .

وحين نتأمل كلمة ﴿ تَقَرَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] تجد أنها كعامة كلمات القرآن (كالألماس) ، لكل ذرة تكوينية فيه بريق خاص وإشعاع ؛ لذلك يقولون عنه : (دا بيلالى) ومع كثرة بريقه لا يطمس شعاعٌ فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن .

(قرَّ) وردتْ كثيراً فى القرآن كما فى ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

كلمة قرَّ معناها سكن ، نقول : قَرَّ بالمكان أى : استقر فيه وسكن ، والقرّ هو البرد ، وقُرَّة العين تأتى بالمعنيين ، فالعين تسكن

عند شيء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إنْ كان جميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون : فلان قيْد النظر .

وفى المقابل يقولون : فلان عينه زائغة يعنى : لا تستقر على شيء أو (عينه دشْعَة) عند إخواننا الذين ينطقون الچيم دالاً مثل (دِرْدَة) يقصدون جرجا ، والعين الجشعة[1] بنفس المعنى ، وفى المعنى السياسى يقولون : فلان له تطلُّعات يعنى : كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُّ بمعنى البرودة ، فَقُرَّة العين تعنى : برودتها ، وهى كناية عن سرورها ؛ لأن العين لا تسخُن إلا فى الحزن والألم ؛ لذلك ثبت أخيراً أن حبة العين (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحته أو مرضه .

ولأهمية العين نقول فى التوكيد : جاءنى فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحرارى فى جسم الإنسان وقلنا : إن من المعجزات فى تكوين الإنسان أن الاستطراق الحرارى فى جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو فى الجسم بحرارة تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية ٣٧° ـ ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالى ، وهى كذلك عند سكان خط الاستواء ـ فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن ٤٠° مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر .

إذن : فقُرَّة عَيْن زوجات النبى وسُرورهن فى مشيئته ، حين

---

(١) الجشع : أسوأ الحرص . وقيل : هو أشد الحرص على الأكل وغيره ، وقيل : هو أن تأخذ نصيبك وتطمع فى نصيب غيرك . [لسان العرب ـ مادة : جشع] .

يُقرِّب إليه مَنْ يُقرِّب ، أو يؤخر من يؤخر ؛ لأن مشيئته نابعة من أمر الله له .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : فى أيِّ الحالات ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾ [الأحزاب] ليشير إلى أن الرضا هنا ليس هو رضا القوالب ، إنما يراد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أنْ يكون فى النفوس دخائل أو اعتراض .

فالله سبحانه ﴿ كَانَ عَلِيمًا .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] يعلم ما فى القلوب ﴿ حَلِيمًا (٥١) ﴾ [الأحزاب] لا يجازيكم على ما يعلم من قلوبكم ، ولو جازاكم على قَدْر ما يعلم لأتعبكم ذلك .

وتأمل حلْم الله علينا ورحمته بنا فى مسألة البدء ببسم الله ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا أن كل عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر أى : مقطوع البركة ، فالإنسان حين يبدأ فى الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن بتسخير مَنْ خلقه له ، فحين تقول : بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإنك تفعل باسم الذى سخَّر لك هذا الشىء .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

فعليك أنْ تبدأ ببسم الله حتى إنْ كنتَ عاصياً لله ، إياك أن تظنَّ أنك لستَ أهلاً لهذه الكلمة ؛ لأن ربك حليم ، ورحمن رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ[2] وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) ﴾

سبق أن تناولنا تفسير هـذه الآية فى إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصـها هنا فى أن الحق سـبحانه بدأ رسـوله أولاً بأن أحلَّ له فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] ثم قـيد هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٠١) : « ذكر غـير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضاً عنـهن على حُسْن صنيـعهن فى اخـتيـارهن الله ورسوله والدار الآخـرة لمَّا خـيرهن رسول الله ﷺ كـما تقدم فى الآية ، فلما اخـترن رسول الله ﷺ كان جـزاؤهن أن الله تعالى قصـره عليهن وحرَّم عليـه أن يتزوج بغـيرهن أو يسـتبدل بهن أزواجاً غـيرهن ولو أعجـبه حسنهن إلا الإمـاء والسرارى فلا حرج عليـه فيهن ، ثم إنه تعـالى رفع عنه الحرج فى ذلك ونسخ حكم هذه الآيـة ، وأباح له التـزوج ، ولكن لم يقع منه بعـد ذلك تزوُّج لـتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن » .

(٢) قال القـرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩١) : « اخـتلف العلماء فى إحلال الأمَـة الكافرة للنبى ﷺ على قولين :

الأول : تحل لعموم قوله ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم .

الثانى : لا تحل تنزيهـاً لقدره عن مبـاشرة الكافرة ، وقد قـال الله تعالى ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟ » .

فالحق سبحانه يأتى بالمخفَّف فى أشياء ، ثم يأتى بالمثقّل ؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيِّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ .. (٤٣) ﴾ [التوبة] قبل أنْ يعاتبه بقوله : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [التوبة]

وهذه الآية ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] توضح أنّ ما شُرِع لرسول الله فى مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعالى فى المعدود لا فى العدد ، والفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود أن العدد يُدَار فى أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم تُوفِّين لكَان له أن يتزوج بتسع أُخَر ، وإنْ ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .

لكن الاستثناء لم يكُنْ لرسول الله فى العدد كأمته ، إنما فى المعدود ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن ، والحكمة فى ذلك أن التى يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .

ثم أوضحنا أن مسألة مِلْك اليمين ليستْ سُبَّة فى جبين الإسلام ، إنما هى ميزة من ميزاته ، فالله ملَّك الرقبة ليحميها من القتل ، والمقارنة هنا ليستْ بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا ، والذى يتأمل حال المملوك أو المملوكة فى ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول فى أول السورة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١) ﴾

(١) قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله وزوجته مُوَلِّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ . قال أنس : فما أدرى آأنا أخبرت النبى ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال أنس : فانطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووُعظ القوم بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية .. أورده القرطبى فى تفسيره (٥٤٩٢/٨) .

[الأحزاب] أمر أمته بذكْره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كذلك عن أمر يتعلق بأمته فى قوله ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب] ليُبيِّن عموم نَفْعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقلنا : إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتربية والإنعام والتفضُّل ليس خاصاً بالمؤمنين ، بل لكل مَن استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

فالشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروى أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب للكل ، فالذى يُحسن أَخْذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصيبه موقوتاً بمدى الربوبية فى الدنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شحاذاً يستجدى قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أَوْلَى بالمؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عن ركْب الحضارة ، وإنْ كانت الحضارة التى وصل إليها الكفار اليوم حضارة فى الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ فى هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هـذه البلاد وتنزل مثـلاً فى فندق ـ كمـا نزلنا ـ تجد مكتوباً على باب الحـجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تـقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك . إذن : ارتقوا فى شىء ، وانحدروا فى أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم فى الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْل للفـرد فى الـعـالم تجـده فى الســويد ، ومع ذلك تـكثـر عندهم الأمراض النفسيـة والعصبية والانتحار والجـنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّـرتْ هذه البلاد حضارة مادية ؛ لأنهم أخذوا بأسـبابها ، فـأتقن كُلٌّ عـمله ، وأعطى وقت العـمل للعـمل ، فمـا بين الثـامنة إلى الثانيـة عشرة لا تجـد إنساناً فى الشارع ، ولا تجـد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضـيع وقت العمل ، وفى وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادى ، فالذى لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمـد لله أن شبابنا تنبهـوا إلى أهمية العمـل وتخلَّوْا عن الطفولة التى كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سـبـحـانه هنا يُعلِّمـنا الأدب مع رسـول الله ، ويجـعله لنا قدوة ، فهـو ﷺ عاش عيشة الكـفاف مطعماً وملبسـاً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجـرات ، لكل زوجة من زوجاته حجـرة واحدة ، فليس لديه حجرة صـالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتـعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة فى مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله فى بيوته .

فقال سبحانه ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعدَّ للبيتوتة أى : للمبيت فيه ، والمبيت فى الأغلب الأعَمِّ لليل ، فهو محَل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلُّ الحركة ، ولابد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ؛ لذلك سُمِّى البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّى الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ؛ لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعانى تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقى رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً - يعنى : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أى : التى لا زينة لها[1] - ما لم تُزيِّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبى والمعرى وشوقى .. إلخ .

والبيتوتة فى كل شىء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً . وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عقل) : « العاقلة لا تحمل السِّنَّ والإصبع والموضحة وأشباه ذلك » . والأوضاح : حلْى من الدراهم الصحاح .

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا فى الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعنى : بالليل (لا يحرث) يعنى : بالنهار ؛ لأن الإنسان إنِ انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة فى الليل أو فى النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التى تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة فى ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل .

والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوى إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونِعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعى مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .

وكما يتفاوت الناس فى البيوت ، كذلك يتفاوتون فى ترف الحياة وأسباب الراحة فى البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغى أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .

وكما يقول المثل (على قدر لحافك مدّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضياً به ، وإنْ تمردّتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذى يوفر لك ما تتطلع إليه .

وآفة الناس فى اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفى الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أُحدِّد مستوى حياتى على ضوء دَخْلى وإمكاناتى ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شيء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعى الحلال فى الكسب وفى الإنفاق .

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغى أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتلىء قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .

إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما فى أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب آباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذى يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذى يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذى عرق وكدَّ ولم يجد ثمرة عرقه ؟

فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل فى شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة ؛ لذلك يراعى سيدنا رسول الله هذا المعنى فى قوله ﷺ :

« أعْطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه »[١] .

أما الذين يتسكعون فى الشوارع أو على القهاوى فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ؛ لأنه لم يعرق به .

واقرأ إنْ شئْتَ قول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله فى نهابر »[٢] والمهاوش هى الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هى الأبواب التى تُفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون فى نظرتهم إلى النعمة فى أيدى الآخرين فقوىٌّ الإيمان ساعة يرى النعمة فى يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْل الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ؛ لأنه جَدَّ واجتهد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان ، وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرانى فى معجمه الصغير (٢٠/١) من حديث جابر ، وأبو نعيم فى الحلية (١٤٢/٧) من حديث أبى هريرة ، فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل فى صحيح البخارى عن أبى هريرة ـ كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح والمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [لسان العرب ـ مادة : هوش] والنهابر : المهالك أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطنى من نعمك ، المؤمن يرى فى نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً لنعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .

أما غير المؤمن - والعياذ بالله - فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أَهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله فى خَلْقه .

ونُسمِّى المساجد بيوت الله ، وسُمِّى المسجد بيت الله ؛ لأنه جُعل خصيصاً لكى نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُعقد الصفقات فى المساجد ، أو تُنشَد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية فى بيت الله : « لا باركَ اللهُ لك فى صفقتك »[1] وقال لمن نشد ضالته فى المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك »[2] .

لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى فى وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبْن لهذا » .

كذلك أنت صَنْعة الله وخلْقته ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة(١) ، ففى الصلاة ترمى بنفسك وترمى بهمومك ومشاكلك فى (أحضان) ربك ؛ لأنه سبحانه أعطى الكون أسباباً ، فإذا عزَّتْ عليك الأسباب ولم تُفِدْكَ بشىء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله الله قِبْلة كل البيوت ، فإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

نعود إلى بيوت النبى ﷺ وما ينبغى أنْ يتحلى به المؤمنون من أدب فى دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَى فى دخول هذه البيوت بالذات ؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : لا تتهجَّموا عليها ؛ لأنها ضيِّقة وليستْ فيها سعة للاستقبال فى كل الأوقات ، والإذن هنا مُقيَّد بالطعام ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

وحتى إذا دُعيتَ إلى طعام رسول الله لا تذهبْ إليه قبل وقته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ؛ لأنه لا يليق بك أن تشغل رسول الله وله فى بيته مهمات يجب ألاّ

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إِنَى) على وزن رضا ، وفى لغة : أنىٰ أنياً مثل : رمى رمياً .

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا.. (٥٣)﴾ [الأحزاب] فكما نهاهم فى أوَّليّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشىء حيِّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسْلها ؟ لماذا ؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه فى حيِّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكى يجفَّ ، إذن : فى الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : تفرَّقوا ؛ لأن المكان الذى أنتم فيه فى بيت النبى ضيِّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه ؟ أنْ يسعى فى مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعى وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتم طعامكم ؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) فى بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عَيشَة الكفاف فى كل شئون حياته ؟

ومن معانى الانتشار : السياحة ، وهى مأخوذة من سَاح الماء إذا فَاض ، وأخذ حيِّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغى أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك فى انتشاركم فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة فى الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده منَّا لغايتين :

الأولى : الضرب فى الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضرب فى الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت فى أنحاء الأرض بالتساوى ، ونثر فيها الخيرات ؛ لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمَتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز المطمورة فى أرض الله ، وكل أثر كنزىٍّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أن قلنا : الضرب إيقاع شىء بقوة .

كنا نتعجَّب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولى فى البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السياحة للاعتبار والتأمل فى آيات الله فى كونه ، فبالتنقل والسير فى الأرض أرى آيات ليست موجودة فى بيئتى ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت] ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

والمعنى أن السَّيْر فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي

النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ.. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أي : لا ينبغي أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث ، وتجعلوها (سهراية) في بيت رسول الله ، وهذا النهي كان له سبب وحادثة وقعتْ ، فنزلت هذه الآية . سيدنا رسول الله لم يُولِم وليمة في عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش ، فذبح ﷺ شاة ، وأعدَّ لهم الحَيْس ، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن ، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقُمْ منهم أحد ، وحياؤه ﷺ يمنعه أنْ يقول لهم : قوموا ، فأراد ﷺ أنْ يُظهِر لهم أنه يريد أنْ يقوم ، وقام فعلاً وخرج ، فلم يقم منهم أحد ووجَد ﷺ آخرين جالسين بالخارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا .

يقول سيدنا أنس : فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا ، فجاء ﷺ ودخل ، فذهبت لأدخل وراءه ، فألقى الحجاب بيني وبينه - يعني : لا أحد يدخل حتى أنت .

ومعنى : ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لأنه ﷺ يريد أنْ تنصرفوا ، لكن يمنعه حياؤه ، وهذا لأن المكان ضيِّق ، ورسول الله في يوم عُرْس ، وليس من المناسب الجلوس عنده .

﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لذلك قالوا[1] : حَسْبُ الثقلاء أن الله لم يحتملهم . هكذا حدثتنا الآية في صدرها عن :

(١) قاله ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي أنه قال : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . [ذكره القرطبي في تفسيره ٨/٥٤٩٢] .

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدَّثنا بعد ذلك عن الآداب التى يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون فى علاقتهم بزوجاته ﷺ : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

المتاع : أوانى البيت التى لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون فى الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون .. إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التى يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها فى بيته .

إذن : الحق سبحانه فى حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله فى الدخول عليه أو الأكل فى بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده ﷺ من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسْأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبى فاطلبوه من وراء حجاب ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى تستقرُّ فى النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وإما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها فى البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا فى الإدراك ، ولا فى الوجدان ، إنما يتدخل فى النزوع ، فلَكَ أنْ ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أهى حَقٌّ لك ؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهى مُحرَّمة عليك لأنها ليستْ ملْكك ، وليس فى هذا حَجْراً على حريتك ؛ لأن الذى قيَّد حريتك فى الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين فى الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك إذن : فالشرع فى صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا فى علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع فى هذه الحالة ؟ والنزوع فى هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد فى أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع فى هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع فى المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك ؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج فى الرجل معانى خاصة .

وفى ذلك يقول الشاعر[1] :

سُبْحانَ مَنْ خَلَقَ الجَماَ ... لَ والانْهزَام لسَطْوته
ولَـذَاكَ يأمُـرنَا بغَـضٍّ ... الطَّرْف عنـه لَرحمـتَه
من شـاء يطْلبـه فـلاَ ... إلاّ بطُهْـر شـريعته
وبذَا يـدُوم له التمـتُّع ... هَاهُـنَا وبجـنَّته

أما الذى يدَّعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغنى بجمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّه .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدم ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

ورُوِى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

على رســول الله ﷺ(١) .

فمعنى ﴿ذَلِكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : أمرنا بأنْ تسـألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احـتياط للطرفين ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقـوله تعـالى : ﴿وَمَـا كَـانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى ولا يكون ، وهذا يعنى أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً ؛ لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق رسول الله .

وقوله : ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] هذا تكريم لرســول الله ولأزواجه ليس فى مـدة حيـاته فحَسْـب ، إنما حتى بعد مماته ؛ لأنهُنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

---

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] ، ولكن اختلف فى تحديد هذا الرجل .

– قال ابن عبـاس فى رواية عطاء : قاله رجل من سادة قريش . ذكره الواحـدى فى أسباب النزول (ص ٢٠٦) .

– وقال ابن عباس أيضـاً ـ ليزيد الأمر تحديداً ـ : قال رجل من سادات قـريش من العشرة الذين كـانوا مع رســول الله ﷺ على حـراء فى نفســه : لو توفى رســول الله ﷺ لتـزوجت عائشـة ، وهى بنت عـمى . ذكره القـرطبى فى تفسـيره (٥٤٩٧/٨) نقـلاً عن القشـيرى أبى نصر عبد الرحيم .

– قال قتادة ومقـاتل ومعمر والسدى أنه طلحة بن عبيـد الله ، بل إن السدى نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه . انظر الدر المنثور للسيوطى (٦٤٣/٦).

قال ابن عطية : هذا عندى لا يصح على طلـحة بن عبيد الله . قال شيـخنا أبو العباس : وقد حُكى هذا الـقول عن بعض فضـلاء الصحابـة . وحاشاهم عن مـثله والكذب فى نقله ، وإنما يلَيق مثل هذا القـول بالمنافقين الجهال . نقله القرطبى فـى تفسيره (٥٤٩٧/٨) ثم قال : يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة ، وحفـصة بعـد خنيس بن حذافـة : ما بال محـمد يتـزوج نساءنا ، والله لو قد مـات لأجَلْنَا السهام على نسائه ، فنزلت الآية فى هذا .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصيةً ، فعادةً في طبيعة التكوين الإنساني ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته .. إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهي في حوزته ومِلْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هي المتاع الوحيد الذي يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا ؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعِفَّة ونقاء ، فوضع في قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

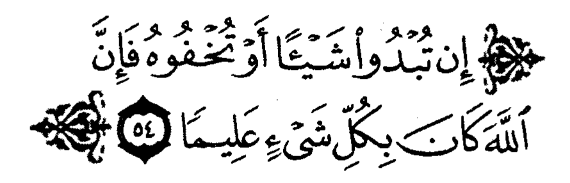
لذلك ، تأمل هذا الوصف الذي وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم في أملاكهم وفي بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان في مكين .

فقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. ⑨﴾ [الحشر] فكأنهم يسكنون في الإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨﴾ [الحشر]

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شيء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هي المسألة التي تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغى على كل ما عداه ، وصار أحبَّ شيء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ما سبق أنْ ذُكر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألاَّ تؤذوا رسول الله ، أو تنكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا ﴿ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾ [الأحزاب] وكيف يُؤْذَى رسولُ الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :



فكأن فى الآية إشارة تحذير : إياكم أنْ تسرقكم خواطركم فى هذه المسألة ؛ لأن ربكم لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزُبُ عن علمه شىء ، وإنْ كانت الخواطر والهواجس لا يُحاسب عليها المرء ، إلا أنها محظورة منهى عنها ، إنْ كانت فى حَقِّ رسول الله .

لقد ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة »[1] هذا فى الأمور العامة ، أما إنْ تعلَّق الأمر برسول الله فلا ؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التى أُرسل بها ، وألاَّ يشغله عنها شاغل ، وأىُّ مهمة أعظم من مهمة هداية العالَم كله ، ليس فى زمنه ﷺ ، وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا .. (٥٤) ﴾ [الأحزاب] أى : أىّ شىء

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان .

مهمـا كان ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب] وعليم صـيغـة مبـالغـة فى العلم ؛ لأن عِلْم الله تعـالى عِلْم أزلىٌّ ليس مُتجدِّداً بتجدُّد الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده .

لذلك قلنا : إن الزمن عندنا نحن مـاض وحاضر ومـستقـبل ، أما بالنسبـة للحق سبحـانه فليس هناك ماض ولا حاضـر ولا مستـقبل ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض .

واقرأ مـثلاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] وأتى فـعل ماض ومع ذلـك قال بعـده ﴿فَـلا تَسْتَـعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] والاستعـجال لا يكون إلا لشىء لم يأْتِ وقتـه ، فكأن (أتى) معناها بالنسبة لكم سيأتى ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل ؛ لأن الزمن كله فى علم الله سواء .

ومعنى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب] أى : كان ومـا يزال عليمـاً ؛ لأنه سبـحانه مـا دام كان عليـماً ، وهو سـبحـانه لا تتأتى فيه الأغـيار ، فهو سبحانه عليم فـيما مضى ولا يزال ؛ لأنه لا يتـغيـر ، فكان هنا لا تعنى أن عـلمه تعـالى نتـيجـة لحـدثكم الذى أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أنْ يحدث منكم .

وهذه الآية من الآيات التى وقف عندها المستشرقون ؛ ليستدركوا كما يظنون علـى كلام الله ؛ لأنهم دائماً يتهمـوننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسـة ، وأنه كـلام الله فلا نُعمل فيـه عقولنا ، وأنهم حين يُـدقِّقون فى القرآن ويتـجرَّأون على البحث فـيه يجدون فـيه مآخـذ - على حَدِّ زعمهم .

ووَجْه اعتراضــهم فى قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ

اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾ [الأحزاب] ومثله : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)** ﴾ [النور]

يقولون : إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخفى ، فما الميزة وما العظمة فى علم ما نبدى ؟

نقول : إياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحكِّم فيه عقلك قبل أنْ تؤمن أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أَدِرْ المسألة فى عقلك وابحثها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز فيها .

فقوله تعالى ﴿ **إِن تُبْدُوا .. (٥٤)** ﴾ [الأحزاب] الله لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جمهرة الناس ، والإبداء من الجمهرة لا يمكن لك أن تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلَّ صوت ، وكلَّ حركة إلى صاحبها .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التى تختلط فيها الأصوات وتعلو الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادى بسقوط فلان ، أنستطيع فى هذه الحالة أنْ نحدد صاحب هذا الهتاف ؟ لا لا نستطيع بسبب اختلاط وتداخل الأصوات ، مع أنه جَهْر أعلنه صاحبه بأعلى صوته وأبداه على الملأ ، ومع ذلك لا تستطيع أنت تحديده .

أما الحق سبحانه ، فيعلم الصوت ، ويعلم صاحبه ، ويعلم أثره ونتيجته ، ويرد كل كلمة ، بل وكل نَفَس إلى صاحبه ، فالذين يحاولون التستُّر والاستخفاء فى جمهرة الناس عليهم أنْ يحذروا إنْ شوَّشوا على الخَلْق ، واسْتخفوا منهم ، فلن يستخفوا من الله ، فالله لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلط عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾[1]

بعد أنْ نزلت آية الحجاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا : حتى نحن يا رسول الله ؟ فأنزل الله هذه الآية . ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] أى : لا حرجَ ولا إثمَ أنْ يدخل عليهن هؤلاء المذكورون ؛ لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يُخْشَى من دخولهم عليها ، وهم : الأب ، والابن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت .

والكلام فى ﴿ وَلا نِسَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وهى مضاف ومضاف إليه ، والإضافة فى اللغة تأتى بمعانٍ ثلاثة : بمعنى (مِنْ) مثل أردب شعير يعنى : من شعير ، وبمعنى (فى) مثل (مكر الليل) أى : فى الليل ، وتأتى بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعنى لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص ، فمعنى مال زيد يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٩٩/٨) : « لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أباً ، قال الله تعالى : ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] .

مِلْك لزيد ، وتقول : لجام الفرس ، فاللجام ليس مِلْكاً للفرس ، إنما يَختص به .

فهنا كلمة ﴿نِسَائِهِنَّ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] تأتى بمعنى (من) وبمعنى اللام أى : نساء لَهُنَّ ، أو نساء منهن ، ولا تأتى هنا بمعنى (فى) إذن : فالمراد نساء منهن يعنى : من قرابتهن أو نسائهن يعنى : التابعين لهن مثل الخدم شريطة أنْ يكُنَّ مؤمنات ؛ لأن المؤمنة هى المؤتمنة على المؤمنة ، أما الكتابية أو الكافرة فلا يصح أنْ تقوم على خدمة المؤمنة ؛ لأنها ربما تَصفُها لقومها .

لذلك نلحظ دقة التعبير هنا فى عدم ذكْر الأعمام والأخوال ؛ لأن العم أو الخال - رغم أنه فى منزلة الوالد - إلاَ أنه قد يصف البنت لابنه ، فإنْ كان العم أو الخال ليس له ولد ، فالعلة مفقودة ، ويجوز التساهل معهما - إذن - فى الدخول على المرأة ، وإبداء الزينة أمامهما .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] قلنا : إن مِلْك اليمين يأتى من الأسرى فى حرب مشروعة ، وقد باشرتَ أَسْره بنَفسك ، بمعنى أنه لم يكُنْ حراً ، ثم أُخذ وبيع على أنه عبد ، ثم بعد الأَسْر يمكن أن تأخذ مِلْك اليمين بأنْ تشتريه ، أو تأخذه إرثاً ، أو تأخذه هبة ، ومِلْك اليمين قد يكون من النساء فتدخل فى نسائهن ، أو يكون مَن الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

ويدخل فى ذلك أيضاً التابعون الذين يعملون فى البيت كالبوابين والسائقين والطباخين .. إلخ ، والشرع يتساهل مع هؤلاء ؛ لأن العرف الاجتماعى يأبى أنْ تنشأ علاقة بين هؤلاء وبين أهل البيت ، فهؤلاء

التابعون يعملون فى البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرأ على أنْ ينظر إلى سيدته ؛ ذلك لأن المركز الاجتماعى جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] كأن الحق سبحانه يقول : لقد بينتُ لكُنَّ الحكم فى الدخول على المرأة ، وبينتُ الأنواع التى لا جناحَ عليكُنَّ فى دخولهم ، والحارس عليكُنَّ فى هذا تقواكُنَّ لله ، فتقوى الله هى التى تحملك على طاعته ، وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفى بعد الأمر بالتقوى أنْ تعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وما يزال ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾

جاء النبى ﷺ بالخير لأمته مُبشِّراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان ﷺ حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

كان ﷺ يألم ويحزن إنْ تفلَّتَ أحدٌ من يده ، وخرج عن ساحة الإيمان ، وكان يُكلِّف نفسه فى أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وفوق ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . قال الفراء فى معنى الآية ، أى : مخرج نفسك وقاتل نفسك . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يُطلَب منه إلا البلاغ فحسبْ ، أما الهداية فمن الله عز وجل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء]

فلشدة حرصه ﷺ على هداية قومه عاتبه ربه ؛ لأنه شَقّ على نفسه ، فالعتاب هنا لصالحه ﷺ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ①﴾ [التحريم]

وهذا العتاب أشبه بعتابك لولدك الذى أرهق نفسه فى المذاكرة ، حتى أنك أشفقتَ عليه ، فأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة فى عمل لا تطيقه قوته .

وقد ظهرت قمة حرْصه ﷺ على أمته حين أنزل الله عليه : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ [الضحى]

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إذن : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[1] .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أنْ تُصلُّوا عليه ؛ لأن كل خير يناله يعُمُّ عليكم ، ويعود إليكم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب]

وتلحظ أن الخبر ﴿يُصَلُّونَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب] خبر عن الله والملائكة ؛ فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، والنبى ﷺ سمع مرة

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

خطيباً يخطب ، يقول : مَنْ يتّق الله ورسوله يُثبْه الله ، ومَنْ يعصهما يعاقبه الله ، فقال ﷺ له : « بِئْسَ خطيب القوم أنت »[١] لماذا ؟

قالوا : لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله فى : (ومن يعصهما) ، وكان عليه أنْ يقول : ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله ، فالله وحده هو الذى يجمع معه سبحانه مَنْ يشاء . قال سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا[٢] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

أما نحن ، فليس لنا أبداً أنْ نأتى بصيغة تشريكية بين الله تعالى وأحد من خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] هكذا قال الله ، وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خَلْقه ، وأنت لا يجوز لك أنْ تجمعَ هذا الجمع إلا إذا كنتَ تقرأه على أنه قرآن ، فإن أردتَ أنْ تنشىء كلاماً من عندك فلا بُدَّ أن تقول : الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

لذلك احتاط علماء التفسير[٣] لهذه المسألة فقالوا أن (يصلون)

---

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٥٦، ٣٧٩) ، وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

(٢) نقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه ، ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ .. (٥٩)﴾ [المائدة] أى : هل تكرهون وتنقمون منا إلا إيماننا بآيات ربنا ، وهذا أمر لا يقتضى النقمة . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٠٠) : « اختلف العلماء فى الضمير فى قوله « يصلون » :
فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء .
وقالت فرقة : فى الكلام حذف ، تقديره : إن الله يصلى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله .

ليست خبراً للكل ، إنما تقدير الخبر أن الله يصلى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

وإذا كان الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى ، فماذا عنكم أنتم ؟ يجب أنْ تُصلوا أنتم كذلك على النبى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ بيَّنا أن الصلاة من الله لها معنى ، ومن الملائكة لها معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكُلٌّ بحَسْبه ، والصلاة فى الأصل هى الدعاء ، والدعاء يقتضى داعياً ومدعواً له ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أنْ يغفر لفلان ، فأنا الداعى ، والله تعالى مدعو ، وفلان مدعو له ، فإذا كان المصلى والداعى هو الله عز وجل ، فمَنْ يدعو ؟ إذن : معنى الدعاء لا يأتى مع الله تعالى .

لذلك قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا قال لك أَعِدُك أنْ أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وَعْد منه ، لا يملك هو من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إنْ قال لك : أدعو الله أنْ يعطيك كذا وكذا ، ونسب العطاء لله تعالى ، فهذا أَرْجَى للتحقيق ؛ لأنه منسوب إلى الله ، فإنْ قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإنْ كان الله تعالى هو الذى يأمر لك بهذا العطاء فلا بُدَّ أنْ تناله لا محالة .

إذن : الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هى تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته تعالى لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتم الرسل ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه ؛ لذلك خاطبه بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح]

يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لأمته فحسب ، إنما للخَلْق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخِّصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم فى ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] و ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١)﴾ [المائدة]

أما عن صلاة الملائكة ، فهى دعاء ، واقرأ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [غافر]

فإذا كان الخَلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم ، حتى الذين أذنبوا منهم ، ثم تابوا ، فما بالك برسول الله ، وهو هادى الناس جميعاً ؟

أما الصلاة من المؤمنين ، فهى الاستغفار ، واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم ؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم ، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً ، فَهُمْ إنِ استغفروا ، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ ، أو أنهم لم يتقدم اسمه ، فيصلون عليه .

والمؤمن حين يُصلِّى على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله ؟ ماذا بأيدينا ؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلى ، ولكن تقول : اللهم صَلِّ على محمد ، أو صلَّى

الله على محمد ، فتطلب ممَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلى على رسول الله ؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله .

إذن : فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من الملائكة الدعاء ، والصلاة من المؤمنين الاستغفار .

لذلك سُئِلَ سيدنا رسول الله : يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك صلاة الملائكة ، فما الصلاةُ عليك ؟ يعنى كيف ؟ قال ﷺ : « قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ »[1] .

ودخل عليه صحابى ، فقال : يا رسول الله ، ما رأيتك بهذه الطلاقة والبِشْر قبل اليوم ؟ فقال ﷺ : « إن جبريل جاءنى فأخبرنى أن مَنْ صلى علىَّ صلاة صلَّى الله بها عليه عشراً ، وكُتِب له عشر حسنات ومُحى عنه عَشْر سيئات »[2] .

وقال عمر رضى الله عنه : دخل رجل على رسول الله ، فسأله : ما الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذلك من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتمونى ما قلته : إن الله وكَّل بى ملكيْنِ ، فإذا صلَّى واحد علىَّ قال الملكان : غفر الله لك . ويقول الله : آمين وتقول

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٧٩٧) من حديث كعب بن عجرة ، قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا اللهم صَلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٥٠) وعزاه للبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان أن النبى ﷺ قال : « إن جبريل عليه السلام جاءنى فقال : من صلى عليك واحدة صلى الله عليه عشراً ، ورفع له عشر درجات » .

الملائكة : آمين »[1] .

سبحان الله : الله عز وجل بذاته يُؤمِّن على دعاء الملكين .

وقالوا : الصلاة على رسول الله فَرْض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة فى العمر ، لكنها واجبة عليه عند كل ذكْر لرسول الله ، لذلك جاء فى الحديث : « أبخل البخلاء من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ علىَّ »[2] .

وقوله تعالى بعدها : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب] لك أنْ تلحظ فى صدر الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦) ﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون ، فلما أمر المؤمنين قال ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب] فزاد : وسلِّموا تسليماً .

قال العلماء : لأن الصلاة على رسول الله لا تكون إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره ، وأن تُسْلِم زمامك له فى كل صغيرة وكبيرة ، وإلاَّ فكيف تُصلِّى عليه وأنت تعصى أوامره ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء]

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٥٢) من حديث الحسن بن على رضى الله عنه وعزاه للطبرانى وابن مردويه وابن النجار ، ولفظه : « قال الحسن قالوا : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦) ﴾ [الأحزاب] قال : « إن هذا لمن المكتوم ، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أُذكر عند عبد مسلم فيصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان : غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته لذينك الملكين : آمين » . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥١٥) عن هذا الحديث : « غريب جداً ، وإسناده به ضعف شديد » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١/٢٠١) ، وابن حبان فى صحيحه (٢٣٨٨ – موارد الظمآن) من حديث الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « البخيل من ذُكرْتُ عنده ثم لم يصل علىَّ » .

ومن معانى التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبى كما نقول فى التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أى : جعل الله لك وقايةً ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذى للمؤذَى ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله ؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَى بالفعل ؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذى لا يليق به سبحانه ، كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول فى الحديث القدسى : « يؤذينى عبدى ، وما كان له أنْ يؤذينى ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أُقلِّبُ الليل والنهار »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٣٨ ، ٢٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهل الزمن له ذَنْب فى الأحداث التى تؤلمك ؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ.. (٢٤)﴾ [الجاثية]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغى أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَى منها ، وفى هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها .. فهذه الأقوال منهم فى الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق - سبحانه وتعالى - حينما استخلف الإنسان فى الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ فى كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)﴾ [الرحمن]

فقانون الصيانة فى القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله فى أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سويَّ التكوين فى كل شىء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فـقـيـر ونحن أغنياء » أو قالوا : المـلائكة بنات الله ... إلخ هذه الأقوال التى ترتب عليهـا غضب الحق سبحانه ؛ لأنه خليـفته فى الأرض لم يُؤَدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهـؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خـرجتم من قبـضة الحق سـبحـانه ، بل أنتم فى قبـضتـه ، وتحت مشـيئـته ، ولو شـاء سبـحانه لقهـركم على طاعتـه ، أو خلقكم على هيئـة الصلاح لا تأتى منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلـوقون ، على هيئتـين . هيئة لكم فيـها اختيار وهى التكاليف ، وهيئة مقبوضين فى قبضة الحق سبحانه وهى القضاء ، فمـا دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلـماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك مـا دُمْتَ قد اخـترْتَ الكفـر وأنا رَب ، ومطلوب منى أنْ أعـينك على مـا تـحب ، فـسـوف أخـتم على قلبك ، بـحـيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذى تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بى لا يضرنى ولا يؤذينى .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى)[١] .

وإنْ كـانت لكم منطقـة اخـتـيـار فى الدنيـا هى أمـور التكاليف ، فسيأتى يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد فى شىء

(١) أخرجـه مسلم فى صحـيحه (٢٥٧٧) ، وأحمـد فى مسنده (٥/ ١٦٠) ، والبيـهقى فى سننه الكبـرى (٦/ ٩٣) والبخـارى فى الأدب المفرد (ص ١٧٢ ، ٤٩٠) من حـديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشـيخ الشعراوى قطعة منه فى شرح الأحاديث القدسية بتحقيقى (المجلد ٢/ص ٣ - ٤٠) نشر : دار الروضة ـ القاهرة .

يوم يقول الحق سبحانه ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

هذا فى معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء فى حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذى أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَميتْ قدماه فى الطائف[1] ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير فى مكة[2] - أى سَقَط البعير - ألم تكسَر رباعيته يوم أحد[3] ويُشَجُّ ويسيل دمه ﷺ ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشرى فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) « أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة » . أما إدماء رجليه ﷺ فقد ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) فقال « قعدوا له صَفَّيْن على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه » .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٧٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال « بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش . وثمَّ سلا بعير (السلا هو لفافة من الجلد تكون حول الجنين فى البطن) فقالوا : من يأخذ سلا هذا الجزور أو البعير فيقذفه على ظهره ، فجاءه عقبة بن أبى معيط فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك » . وهو فى صحيح البخارى (٣١٨٥) ، وكذا فى صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير .

(٣) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسى ، ثم لم يخص من ألوانِ الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغَارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكونى معى فى الجنة ؟ فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجى بعدى - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لأنى سَمعت رسول الله يقول : « المرأة لآخر أزواجها »[1] .

لكن هذا الحديث وُجه بحديث آخر لما سُئل رسول الله : أىُّ نساء الرجل تكون معه فى الجنة ؟ فقال : « أحسنهن خلُقاً معه »[2] .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعتَ برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤١٠) وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء وللخطيب عن عائشة . قال : وهذا هو الصحيح . وقيل : لأحسنهم خلقاً . وقيل : تُخيَّر .

(٢) أخرج ابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٣/٢٦٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة ، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : أى رب ، إن هذا كان أحسنهم خلقاً معى فى دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ، ذهب الخلق الحسن بخير الدنيا والآخرة . قال ابن عدى : هذا حديث منكر . قال ابن القيم فى « حادى الأرواح » (ص ٢١٦) : « ضعَّفه أبو حاتم » .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها فى المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارضَ بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدبنا العربى ، ومن ذلك قول الشاعر(١) :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... فوَا أسفَى مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدى

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله فى هيامه بمحبوبته ؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر(٢) :

أَهِيمُ بدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... فَلاَ صلُحَتْ دَعْدٌ لذِى خُلَّةٍ بَعْدى

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين - أظنه الهادى - كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفى خلوة من خلوات الهيام والعشْق قال لها : عاهدينى - لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام - إذا أنا متُّ أن لا تتزوجى بعدى ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادى لَم تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادى ، ونسيتْ حُزْنها عليه - وهذا من رحمة الله بنا أن كل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى ، وفى يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ فى القصر ، وسألوها : ماذا بك ؟ قالت : جاءنى الهادى فى المنام ، وقال لى :

خَالَفْت عَهْدِى بَعْدَمَا ... جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابرْ

ونكحْتِ غادرةً أخِى ... صَدَقَ الذى سَمَّاك غَادِرْ

(١) هو : نُصيب بن رباح ، أبو محجن ، توفى عام ١٠٨ هـ . مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر له شهرة ذائعة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) هو : عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، وقد عاب بيت نصيب السابق.

لاَ يَهْنك الإلْفُ الجديدُ ولا عَدتْ عَنْك الدَّوائرْ
ولَحقتِ بى مُنْذُ الصَّباح وصِرْت حَيْثُ ذهبْتُ صائر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة ، وماتت .

لذلك ، فالحق سبحانه يراعى هذه الغرائز الإنسانية وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سَنَةً كاملة ، كما فى قوله تعالى[1] : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. (٢٤٠) ﴾ [البقرة]

ثم جُعلَتْ عدَّة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغريزة فى المرأة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فيقول سبحانه : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٥٧) ﴾ [الأحزاب] أى : طردهم من رحمته ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب]

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارةً إلى أن هذا الجزاء العادل الذى أعدَّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الذى يؤذى مؤمناً أو مؤمنة لا بُدَّ أن يُجازَى عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المؤمن والمؤمنة فى إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾

---

(١) قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] نقل ابن كثير فى تفسيره (١/٢٩٦) أن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا بن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه .

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر .. إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما فى إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى فى اللذين يأتيان الفاحشة : ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا .. (١٦)﴾ [النساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] بكى فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأننى آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذى لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ(1) .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه فى الحدود : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور]

لأن الرأفة فى حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من

---

(1) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٥٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم ، وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أُبىٍّ بن كعب رضى الله عنه فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ، إنى قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت منى كل موقع ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] والله إنى لأعاقبهم وأضربهم ، فقال له : إنك لست منهم ، إنما أنت معلم . وانظر تفسير القرطبى (٨/٥٥٠٩): « إنما أنت مُعلِّم ومُقوِّم » .

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ نجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

كيف تكون الحياة فى القتل ؟ نعم ، فى القصاص حياة ؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً ؟

ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] أى : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أى الفعل الطبيعى الذى ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ فى الشىء فوق ما أعطيتَ ، كما لو اشتريت بخمسة وبِعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد فى العُرْف اللغوى العام أن كسب تأتى فى الخير واكتسب تأتى فى الشر ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتى طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة فى الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فعْلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفى آية واحدة فى كتاب الله جاء الفعل كسب فى الشر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (٨١)﴾ [البقرة]

فلماذا ؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجَاهر الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمتى مُعَافَى إلا المجَاهِرين »[1] وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذى يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله فى الحرام ، كأنها الحلال بعينه ؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت ملَكةً .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال فى الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود فى جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه فى السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه ؟ لطخ أحدهم كتفه بروَث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسى مسألة النقود التى فى جيبه فسرقوه .

وكما يأتى الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتى مُعَافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ؛ لذلك يقول سبحانه فى عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل ثُقال لما فى طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعنى فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ فى المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب] البهتان : أن تقول فى غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً فى حقه بأن تؤذيه بصفة هى فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد فى الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهته »[1] أى : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : جلىٌّ واضح ؛ لأن الوضوح فى الإثم إما أن يكون بأنْ تُقر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلت لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفى إقرارك به .

وينبغى أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنَا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤ ، ٣٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكركَ أخاك بما يكره . قيل : أفرأيتَ إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

نلحظ أن الأمر توجَّه أولاً لأزواج النبى ، ثم لبناته ﷺ ، وهذا يعنى أن رسول الله لا يأمر أمته بشىء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسى فلم أتميز عنكم بشىء .

لذلك جاء فى سيرة القائد المسلم « طارق بن زياد »[1] أنه لما ذهب لفتح الأندلس وقف بجنوده على شاطىء البحر ، وأعداؤه على الشاطىء الآخر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإننى عند ملتقى القوم سابقكم ، فمبارز سيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم أمره ، وإنْ قتلنى فلن يعوزكم أمير بعدى .

أى : أننى سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعنى : أنا لا أتميز عنكم بشىء .

---

(١) طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، ولى طارقاً ١٢ ألفاً معظمهم من البربر ، فنزل بهم البحر واستولى على الجبل (جبل طارق الذى سمى باسمه) ، وواصل فتوحه فى الأندلس مع موسى بن نصير ، مولده عام ٥٠ هـ ووفاته ١٠٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٢١٧] .

وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر - رضى الله عنه - القوم وقاد العالم وهو يرتدى مُرقَّعته بالمدينة ؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلْتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .

وكان - رضى الله عنه - إذا أراد أنْ يأخذ قراراً فى أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التى تحيط به ؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده مَنْ خالفنى منكم إلى شىء منه لجعلته نكالاً للمسلمين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعى صلته بى ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفنى ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .

وورود النص القرآنى بلفظ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النصَّ الذى جاءه ، والصيغة التى تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبى أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآنى كما أُنزل عليه ؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله ، كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى موسى - عليهما السلام - هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب .

أمـا بنات رسول الله ، فـرسول الله أنجب البـنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً فى الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغـرهن فاطمـة ، وهى الوحيـدة التى بقيتْ بعـد موت سـيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ فى حياة رسول الله.

ولفـاطمة قـصة فى الضـحك والبكاء ؛ لذلك بعض العـارفين كـان يقـول فى قــوله تعـالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذى أبكاك وما الذى أضحكك ؟ قالت : لأننى لمـا دخلتُ على أبى وهو مـريض قـال لى : إن هذا هو مـرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصـرفتُ فأشار إلىَّ وقال لى : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيـتى لحوقاً بى فـضحكت . لذلك لم تمكث فـاطمة بعد رسول الله إلا ستة أشهر(١) .

وقد أخـذ العلماء من هـذا الحديث أن لقـاء الأموات يكون بمـجرد الموت ، وإلا لو كـان اللقاء فى البعث والقـيامة لاسـتوى فى ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مـات آخراً ، فـدلَّ قوله : « ستكونيـن أول أهل بيتى لحوقاً بى » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أنْ تموت .

الشـاهد فى هذه القـصـة أن أحـدهم ـ أظنه الإمـام علياً ـ قـال لفاطمة : الله يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٧٧ ، ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابـنته فسارّها فبكت ، ثم سارّها فـضحكت ، فقالت عائشة : فـقلت لفاطمة : مـا هذا الذى سـارك به رسـول الله ﷺ فـبكيت ، ثم سـارك فـضـحكت ؟ قـالت : سـارنى فأخبرنى بموته فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول من أتبعه من أهله فضحكت .

أما السيدة زينب[1] فتزوجت العاص بن الربيع[2] قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسر العاص في غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمتْ قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة - رضى الله عنها - قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ ﷺ الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة[3] .

أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبى لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبى لهب وأنزل الله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد]

قال لابنه عتبة : رأسى ورأسك علىَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مَرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »[4] .

---

(١) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله ، كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، ولدت له علياً وأمامة ، فمات على صغيراً ، وبقيت أمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة الزهراء . توفيت زينب عام ٨ هـ ، أى قبل وفاة رسول الله بعامين . [الأعلام للزركلى ٦٧/٣] .

(٢) هو : أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، صحابى ، زوج زينب كبرى بنات النبى ﷺ ، تزوجها فى الجاهلية بمكة وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها بالمدينة وأسلم فأعيدت إليه . غلب عليه لقب (أبو العاص) وكان يلقب « جرو البطحاء » ويقال له «الأمين» توفى عام ١٢ هجرية . [الأعلام للزركلى ١٧٦/٥] .

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣١/١٠) ، أسره عبد الله بن جبير فى بدر ، وجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفتديه ، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ، وهى يومئذ بمكة بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوج بها .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٣٨/٢ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٣٩/٤) .

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يرَدُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصى به رفاقه فى رحلات تجارته ـ وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة فى رحلات التجارة ينام فى وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفى إحدى الليالى جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .

علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل : كلب مَن كلابكم ، إنما من كلاب الله[1] .

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحى أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج فى حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم ؛ لذلك لُقِّب ـ رضى الله عنه ـ بذى النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَنَ مَا رأى إنْسَانٌ ... رُقيَّة وزوجُهَا عُثْمَانُ[2]

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وقال مالك فى الموطأ : كل ما عقر الناس وعدا عليهم وأخافهم مثل الأسد والنمر والفهد والذئب هو العقور . [انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤/ ٣٩] .

(٢) لفظ تفسير القرطبى (٨/ ٥٥١٠) :

أحسنُ شَخْصين رأى إنْسَانُ ... رُقيَّـةُ وبعلُهـا عُثْمـانُ

فانظر إلى عظَم هذا العوض أنْ يُبدلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ ؟ عثمان ، نعم العوَض هذا ، والعوَض فى مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء فى نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله ؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أجرْنى فى مصيبتى - أيّاً كانت هذه المصيبة - واخْلُفْنى خَيْراً منها »[1] .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة فى كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة فى هذا المقام ، فلما توفى زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها فى زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولى كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أأجرنى فى مصيبتى ، واخْلُفْنى خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبى سلمة ، يعنى : هو فى نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عدَّتها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطبك لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبى سلمة[2] .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩١٨) كتاب الجنائز من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٩/٦) .

(٢) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٨٧/١٠) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما احتُضر قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير ، فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فأجرنى فيها ، وأردت أن أقول : وأبدلنى بها خيراً منها . فقلت : من خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها . فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ، ثم خطبها عمر فردته ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت : مرحباً برسول الله وبرسوله . الحديث .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبى وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واستُثْقل جمع امرأة على امرآت فقالوا : نساء وأصلها فى اللغة من النسىء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل . وفى اللغة : النَّسْء أى : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذى وُجِّه إلى زوجات النبى ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مجزوم فى جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسلَم ، ذاكر تنجح ، وفى الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما فى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً (٢٧) ﴾ [الحج] لأن الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأْسهن أزواج النبى وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهِنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى : قريبة التناول سَهْلة الجَنْى ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أى : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : ﴿ عَلَيْهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة ﴿ جَلَابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا : هو الثوب الذي يُلْبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض(١) .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذي يغطي الرأس ، ويُضرب على الجيوب - أي فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها ؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفتاً للنظر ؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لا يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدو وكأنها عارية(٢) .

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوْل أحدهم - وهو على حق - إنَّ مبالغة المرأة في تبرُّجها إلحاح منها في عَرْض نفسها على الرجل . يعني : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج ،

---

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره (٥٥١١/٨) قال : « الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع ، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن » .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (١٨٧/٤) من حديث دحية بن خليفة الكلبي أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى هرقل ، فلما رجع أعطاه رسول الله ﷺ قُبْطية (ثوب مصري) فقال : اجعل صديعها (نصفها) قميصاً ، وأعط صاحبتك (امرأتك) صديعاً تختمر به ، فلما ولى قال : مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي : « فيه انقطاع » .

ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التى تزوجت ؟

ثم يُبيِّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ الحكمة من هذا الأدب فى مسألة اللباس ، فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وسَتر الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿ أَدْنَىٰ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أقرب ﴿ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفى ختام الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٩) ﴾ [الأحزاب] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمِّن حياة المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمى المرأة ويحفظ لها عِزَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ[1] فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾

المتتبع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واجهوا فى نشر رسالتهم ثلاثة أصناف من البشر : صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف متردداً بين الكفر والإيمان ، وهؤلاء هم المنافقون .

ذلك ؛ لأن الرسول حين يُبعث إنما يُبعَث لتغيير وضع اجتماعى بلغ من السوء درجةً لا يحتملها الناس ، فالذى يعانى من هذا الوضع ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أنْ يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به ؛ لأنه جاء بمبادىء جديدة ، لا ظُلْم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ، ولا رشوة ، ولا فساد .

إذن : مَنْ عضته هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سارع إلى الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إنْ دخلها الإسلام حتى أسرعوا إليه ، لماذا ؟ لأنهم شَقُوا قبله بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفُرْس بمجرد أنْ سمعوا بالإسلامْ ، ورأوا الأسوة الحسنة فى المسلمين بعد أنْ عَضَّهم فساد غير المسلمين .

ساعة يشْقَى الناسُ بفساد الأوضاع يتطلَّعون إلى منقذ ، فإنْ

---

(١) أرجف فى الناس أو فى المدينة : خاض فى الفتنة وأشاع الأخبار المقلقة السيئة التى توقع الناس فى الاضطراب . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

جاءهم اتبعوه ، خاصة إنْ كان منهم وله فيهم مَاضٍ مُشرِّف لم يُجربوا عليه كذباً ولا نقيصة .

وهذا ما رأيناه مثلاً فى قصة إسلام سيدنا أبى بكر ، فما أنْ أعلن محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أنْ يسأله عن شىء ، لماذا ؟ لأنه عرف صدْقه ، وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ فما إنْ جاءها رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول المَلك عليه حتى احتضنته ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأنصفته ، وذهبتْ به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلمه ولن يتخلى عنه .

وكان مما قالتْ : « والله إنك لتقرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ... »[1] .

لذلك قال العلماء : إن السيدة خديجة كانت أول فقيهة فى الإسلام قبل أنْ ينزل الإسلام .

وطبيعى أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على النقيض ، فهم ينتفعون بالفساد والاستبداد ، ويريدون أن تظلَّ لهم سيادتهم ومكانتهم ، وأنْ يظل الناسُ عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم .

وهؤلاء الذين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادةً بل آلهة ، ويعلمون أن الرسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال .
و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته.
« تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

الكاذبة ، هؤلاء لا بُدَّ أن يصادموا الدعوة ، لا بُدَّ أنْ يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حِفَاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية .

وعجيب أن نرى من عامة الناس مَنْ أَلِف هذه العبودية ، ورضى هذه المذلة ، واكتفى بأنْ يعيش فى كَنَف هؤلاء السادة مهما كانت التبعاتُ ، هؤلاء وأمثالهم هم الذين قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فبعد أنْ جاءهم الرسول المنقذ ما زالوا يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم .

وكلٌّ من هذيْن الفريقين (المؤمن ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، ونطق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد ، والإنسان قلبٌ وقالبٌ ، ولا بُدَّ فى الإيمان أنْ يوافق القالبُ ما فى القلب .

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبان يُظهر لك الحب ، ويُضمِر الكره ؛ لذلك جعلهم الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، ليبطل بها سيادة زعماء الكفر أبوْا أن يقولوها ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، ويترتب عليها مسئوليات لا يقدرون هم على القيام بها ، ولو أنها كلمة تُقَال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا عبوديةَ إلا لله ، ولا خضوعَ إلا لله ، ولا تشريعَ إلا لله ، ولا نافع إلا الله .... إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعانى مع مَنْ أَلِف العبودية والخضوع لغير الله ؟

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لما تكلّم هنا عن المنافقين خَصَّ المدينة، فقال سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب] فالنفاق لم يظهر فى مكة ، وهى مَعْقل الكفر والأصنام ، إنما ظهر فى المدينة ، وهى التى آوَتْ مهاجرى رسول الله ، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب ، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار ، فلماذا هذه الظاهرة ؟

قالوا : لأن الإسلام كان ضعيفاً فى مكة ، وصار قوياً فى المدينة ، فالنفاق ظاهرة صحية للإسلام ؛ لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون ، فظهور النفاق فى المدينة دليل على قوة الإسلام فيها ، وأنه صارت له شوكة ، وصارت له سطوة ؛ لذلك نافق ضعافُ الإيمان ؛ ليأخذوا خير الإسلام ، وليحتموا بحماه ، وإلا فالضعيفُ لا يُنَافَق .

نعم ، ظهر النفاق فى المدينة التى قال الله فى حق أهلها : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[1] الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾﴾ [الحشر]

ويقول عنها رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليأرز[2] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها »[3] .

---

(١) تبوأوا الدار : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

(٢) يأرز : أى ينضم ـ الإسلام إلى المدينة ـ ويجتمع بعضه إلى بعض فيها . [لسان العرب ـ مادة : أرز] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ولفظ الحديث « إن الإيمان » .

وأيضاً القرآن هو الذى قال عن أهل المدينة : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيثُ أصبحتْ له سطوة وقوة تُنافَق .

هنا قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] ساعة تسمع ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ..(٦٠)﴾ [الأحزاب] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشىء ، وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسم إلا على الشىء العظيم ، ونحن البشر نُقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا .

أما الحق سبحانه ، فكلامه صادق ونافذ دون قَسَم ، فما بالُكَ إنْ أقسم ؟ لذلك يقول بعض العارفين إذ سمع الله تعالى يُقسم : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟

كلمة ﴿الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] مفردها منافق ، مأخوذ من نَافَقَاء اليربوع ، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش فى جحور ، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره ، لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء ، فماذا يفعل ؟ يجعل لجُحْره مدخلين ، واحد معروف ، والآخر مستتر بشىء ، فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر ؛ لذلك أشبه المنافق تماماً الذى له قلب كافر ولسان مؤمن .

وتلحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالعطف هنا لا يقتضى المغايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشىء

---

(١) مرد على الشىء : مرن عليه ومهر فيه ، وأكثر ما يُستعمل فى الشر ، ومن ذلك قوله : ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .

واحد ، وجاءتْ هذه الصفات مستقلةً ؛ لأنها أصبحتْ من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً منفرداً بذاته[1] .

وقد وصف القرآن في موضع آخر المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة]

وفى هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومثْله العطف فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩)﴾ [الحشر] فالدار أى المدينة ، وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً .

ومعنى ﴿الْمُرْجِفُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزَّة العنيفة التى تزلزل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات] فالمرجفون هم الذين يحاولون زلزلة الشيء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأوا للإسلام قوةً حاولوا زعزعتها وهزّها لإضعافه والقضاء عليه .

وهؤلاء هم الذين نسميهم فى التعبير السياسى الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروِّجون الإشاعات ، ويذيعون الأباطيل التى تُضعف التيار العام وتهدد استقراره .

وكثيراً ما قعد المنافقون يقولون : إن قبيلة فلان وقبيلة فلان

---

(١) قال أبو رزين : هم شيء واحد ، يعنى : أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . وقيل : كان منهم - أى : من المنافقين - قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٥١٣/٨) .

اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته ، وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم .

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يفكر فى الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له : ألم تعلم أن فلاناً أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذَّبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ، ذلك ليصرفوا الناس عن دين الله .

إذن : المرجفُ يعنى الذى يمشى بالفتنة والأكاذيب ؛ ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يُشيع من بهتان وأباطيل .

لذلك يهددهم الحق سبحانه : لئن لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف فى المدينة وتضليل الناس لَيكُونَنَّ لنا معهم شأن آخر ، كان هذا وقت مهادنة ومعاهدة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكأن الله تعالى يقول : لقد سكتنا على جرائمهم إلى أنْ قويَتْ شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإنْ نقضوا عهدهم معنا فسوف نواجههم .

وعجيب من هؤلاء المرجفين أنْ يظنُّوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) ﴾ [محمد]

ومعنى لحن القول : أن يميلوا بالكلام عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (راعنا) فقالوا : راعونا يقصدون الرعونة .

وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فهذا القول منهم دليل على غبائهم . أولاً : لأنهم يتمنوْنَ العذاب .

ثانياً : لأنهم قالوا ذلك فى أنفسهم لم يقولوا للناس ، ولم يقولوا حتى لبعضهم البعض ؛ لأن (يقولون) جمع ، و (فى أنفسهم) جمع ، فكأن كلاً منهم كان يقول ذلك فى نفسه .

إذن : ألم يسأل واحد منهم نفسه : مَن الذى أعلم رسولَ الله بما فى نفسى ؟ ألاَ يدل ذلك على أن محمداً موصول بربه ، وأنه لا بُدَّ فاضحهم ، وكاشفٌ مكنونات صدورهم ، إذن : هذا غباء منهم .

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين فى المدينة يجد أن الإسلام لم يأخذهم على غرَّة ، إنما أعطاهم العهد وأمَّنهم ووسَّع لهم فى المسكن والمعيشة طالما لم يُؤذُوا المسلمين ، لكن بلغ رسول الله ﷺ أنهم يتناجوْنَ بالإثم والعدوان ، فبعث إليهم ونهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان ، لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ⑧﴾ [المجادلة]

إذن : لم يَبْقَ إلا المواجهة على حَدِّ قول الشاعر[1] :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقّبَ بَعْدهَا ... وَعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ[2]

لذلك يأتي جواب الشرط : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ⑥⓪﴾ [الأحزاب]

فجواب الشرط : ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ⑥⓪﴾ [الأحزاب] من الإغراء ، وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير، الإغراء : أنْ تحمل المخاطب وتُحبِّبه فى أمر محبوب ليفعله ، كما تقول لولدك مثلاً : الاجتهادَ الاجتهادَ .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولى ، كاتب العراق فى عصره ، أصله من خراسان ، نشأ فى بغداد ، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل ، ولد ١٧٦ هـ وتوفى ٢٤٣ هـ ، وهو من شعراء العصر العباسى .

(٢) البيت من قصيدة له من بحر الطويل ، وانظر الأغانى للأصفهانى والأوائل لأبى هلال العسكرى (ص٤١٩) .

أما التحذير فأنْ تُخوِّفه من أمر مكروه ليجتنبه ، كما تقول : الأسدَ الأسدَ ، أو الكسلَ الكسلَ .

فمعنى ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] أى : نُسلِّطك عليهم ، ونُغريك بمواجهتهم والتصدِّى لهم ، فكأن هذه المواجهة صارتْ أمراً محبوباً يُغْرى به ؛ لأنها ستكون جزاءَ ما فزَّعوك وأقلقوك .

وما دمنا سنسلطك عليهم ، وما دمتم ستصيرون إلى قوة وشوكة تُغرى بعدوها ، فلن يستطيعوا البقاء معكم فى المدينة .

﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً (٦٠)﴾ [الأحزاب] أى : فى المدينة ، وكلمة ﴿إِلا قَلِيلاً (٦٠)﴾ [الأحزاب] يمكن أنْ يكون المعنى : قليل منهم ، أو قليل من الزمن رَيْثما يجدوا لهم مكاناً آخر ، يرحلون إليه مُشيَّعين بلعنة الله .

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب]

الملعون : المطرود من رحمة الله ، أو مطرودون من المدينة بعد أنْ كشف الله دخائلَ نفوسهم الخبيثة ؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد ؛ لأنهم كانوا من خُبْثهم ولُؤْمهم يدخلون المسجد ، بل ويُصلُّون فى الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم .

لكن رسول الله كان يطردهم بالاسم : يا فلان ، يا فلان[1] ، فكان ﷺ يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ .. (٣٠)﴾ [محمد]

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥١٥) أنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبى ﷺ : « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ، ويا فلان قم » فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد . وانظر أيضاً (زاد المسير) لابن الجوزى (٣/٤٩٢) .

ومعنى ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا .. (٦١) ﴾ [الأحزاب] أى : وُجدوا ﴿ أُخِذُوا .. (٦١) ﴾ [الأحزاب] أى : أُسروا ﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب] ولاحظ المبالغة فى ﴿ وَقُتِّلُوا .. (٦١) ﴾ [الأحزاب] والتوكيد فى ﴿ تَقْتِيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب] يعنى : اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاءَ ما ارتكبوه فى حق الإسلام والمسلمين .

ولأن المنافق الذى طُبع على النفاق صارت طبيعته مسمومة مُلوّثة لا تصفو أبداً ، فالنفاق فى دمه يلازمه أينما ذهب ، ولا بُدَّ أنْ ينتهى أمره إلى الطرد من أى مكان يحل فيه .

لذلك ، فمع أن الله تعالى قطَّعهم فى الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم فى بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يذوبون فى المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفى كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لابد أنْ يكتشف الناس فضائحهم ، وينتهى الأمر بطردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً فى ألمانيا .

وصدق الله حين قال فيهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه نهاية أعدائه بالتقتيل وانتصار رسوله ﷺ ، أوضح أن هذا ليس شيئاً جديداً فى موكب الرسالات ، إنما هى

سنة مُتبعة ومتواترة ، وهل رأيتم فى موكب الرسالات رسولاً أرسله الله ، ثم خذله أو تخلى عنه ، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه ؟

والسنة : هى الطريقة الفطْرية الطبيعية المتواترة التى لا تتخلَّف أبداً ، فالأمر إذا حدث مرة أو مرتين لا يسمى سُنة ، فالسنة إذن لها رتابة واستدامة .

فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا .. (٦٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : الذين مَضَوْا من الأمم السابقة ، وما زالتْ سنة الله فى نصر الحق قائمة ، وستظل إلى قيام الساعة ؛ لأنها سنة .

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحزاب] نعم لا تتبدل ولا تتغير ؛ لأنها سنة مَنْ ؟ سنة الله ، والله سبحانه ليس له نظير ، وليس له شريك يُبدل عليه ، أو يستدرك على حكمه بشىء .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يخبرنا أن المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ من ربه وفيه أوامره ، وفيه نواهيه ، وفيه سبل الخلاص من الخصوم ، هذا المنهج لا بُدَّ أنْ يُحترمَ ؛ لأنه سيُسلم الناس جميعاً إلى حياة أخرى يُستقبلون فيها استقبالاً ، لا ينفعهم فيه إلا أعمالهم .

حياة أخرى يعيشون فيها مع المسبِّب سبحانه ، لا مع الأسباب فإياكم أنْ تظنوا أن الله خلقكم ورزقكم وتنعمتُمْ بنعمه فى الدنيا ، وانتهت المسألة ، وأفلت من عقابه مَنْ خرج على منهجه ، لا بل تذكروا دائماً أنكم راجعون إليه ، ولن تُفلتوا من يده .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

سُئِل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان فى الأمر التكليفى ؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبنى حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .

فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتى مَنْ يسأل عن رأى الإسلام فيها حِرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

وقال رسول الله ﷺ : « دعونى ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[1] .

إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التى تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً فى الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٣٣٧) كتاب الحج ، وابن ماجه فى سننه (٢) من حديث أبى هريرة ، ولفظ الحديث : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا » .

مثل هذه المسائل فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبى لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئل رسول الله : متى الساعة ؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها »[(١)] فَأخذه إلى ما ينبغى له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .

وهذه الآية الكريمة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو فى الحقيقة إيذاء لأنفسهم ؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير ؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه ﷺ فى أهله وفى نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبَّى عنه أىّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا فى أنفسهم وفى أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى ـ وهو أعلم سبحانه ـ مَنْ يثبت على

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ قال : حبُّ الله ورسوله . قال ﷺ : أنت مع من أحببت». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٦١٦٧ ، ٦١٧١) وفى لفظ عند البخارى أن الرجل قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » .

الإيمان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان ؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب وللمعانى .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجرَوْا مقارنة بين هذا الإيذاء فى الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه فى الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدى المؤمنين وبأيدى رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذة عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤)﴾ [التوبة]

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلِّيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع فى الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشَّره الله بقوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

والآخر رَدٌّ أخروى يوم القيامة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

والسؤال الذى سُئِلَه رسول الله ﷺ كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون فى أىِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة ؟ وجهلوا أن توقيت المناسك الإلهية فى الدين إنما يقوم على التقويم الهلالى لا على حركة الشمس ؛ لأن مُقْتضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها أول الشهر ولا آخره .

أما التوقيت العربى الهلالى ، فله علامة مميزة هى ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالى والتقويم الميلادى تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوى فى السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .

فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادى لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فيه إعجاز أدائى بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣)﴾ [الكهف]

فكان ينبغى أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأمىُّ الذى لم يجلس مرة إلى مُعلِّم ؟

لذلك قلنا : إن الأُمية عَيْبٌ فى كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة فى رسول الله بالذات ؛ لأنها تعنى فى حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .

كذلك كانت الأمة التى نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف فى حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلى ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهى .

إذن : الأمية فى العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم فى هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوى فى مجال التحدى ، فكأن تحدِّى الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.. (٦٣)﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعنى : عن يوم القيامة ؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْك للدماء ، ولَغْو فى أعراض الناس .

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل - لا بنصوص القرآن - لَوجدوا أنها أمر منطقى لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقى أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلَمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

بالله ، لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شىء آخر : ألستم تضعون - فى أىِّ نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس فى قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر ؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ،

وتستحق العقوبة ، فمَن استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يدارى جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكَثُر ظلمه ؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَى عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها . هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي ..(٥٩)﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم فى أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحْصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون فى ألاَّ يراهم القانون ؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِى عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم ؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذى قال : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ..(٣٦)﴾ [الكهف] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب والآكد والشكّ فى ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى .. (٣٦)﴾ [الكهف] يعنى : وعلى فرض أَنِّى رُدِدْتُ إلى ربى يوم القيامة فسوف يكون لى عنده أفضل مما أعطانى فى الدنيا ، فكما أكرمنى هنا سيكرمنى هناك .

وهذا اعتقاد خاطىء وفَـهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم فى الآخرة إلا مَنْ أكرم نفســه باتباع منهجه فى الدنيا ، ومَـنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله فى الآخرة .

لذلك كـثيـراً مـا نسـمع : دَعوْتُ فلم يُستـجب لى ، خـصوصـاً السيدات ، جاءتنى إحداهن تشـتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتـزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنـت أقول لها (كـتر خيرك) أولاً أنك عـرفت أن لك رباً تفزعين إليه وقت الشدة كـما قال سبحانه : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا..﴾ (٤٣) [الأنعام]

إنما أسألـك : هل أنت أجبت اللهَ أولاً فيمـا طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يُجيـبك إلى ما طلبت ؟ أأجبت الله فى شعـرك هذا ؟ أأجبت الله فى (شفـايفك) وتغييـرك لخلْقة الله ؟ فكانت لا تجـد جواباً ، إلا أنْ تقول : والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً ... إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعـوتُم فلم يَسْتـجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سـبحانه دعاكم أولاً ونـاداكم فلم تستجيـبوا لندائه ، احرصوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعـود إلى مـا كنا بصـدده من الـحـديث عن السـؤال فى القـرآن الكريم ، فسؤالهم عـن الساعة إمَّا ليتـأكد السائل أنها ستـحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً فى كتاب الله ؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جـملةً واحدة ، إنمـا نزل مُنجَّـماً حَسْب الأحـداث ليعطـيهم الفـرصـة للسـؤال ، وجـاء السـؤال إمـا لتـحـدى رسـول الله ، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلهـا على رسوله ﷺ ، وهذا جاء ممَّنْ

عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التى كانت لها جذور فى الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها ؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يَبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى ؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ، والله هو الذى يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هى .

لذلك نعجب مِمَّنْ ينادى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، فى حين أنها دليل على صِدْق سيدنا رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من عند الله ، وهو مُبلِّغ فحسب ، فربه قال له : قُلْ وهو يقولها كما هى :
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

لكن قُلْ تأتى مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا ؟ هذا مَلْمح إعجازى فى أداء القرآن ؛ لأن الجواب بقُلْ يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ..(١٨٩) ﴾ [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجودَ شرط ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث فى المستقبل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

والمعنى : إن سألوك في المستقبل عن الجبال فقُلْ ينسفها ربى نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسْبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها فى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صِدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ منه كُفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذى حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهى إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره ؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء فى مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شىء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفى آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة بـ (قُلْ) ولا (فقل) ، وهى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. ﴿١٨٦﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التى سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها فى هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التى تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقَّاقة بالماء ، وهى عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرةً قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حرّكتْ عقارب الساعة بالتساوى ، وسُمِّيت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هى أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكَّروا فى آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّى فى وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سَمَّى القيامة (الساعة) فالساعة التى تنتظرونها هى آلة مواقيتكم فى الحركة ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله :

دَقَّاتُ قَلْبِ المرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ   إنَّ الحيَاةَ دَقَائِقُ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾ [الروم] أى : ساعتكم وآلتكم التى تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التى هى جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه تكلَّم فى السؤال عن الساعة فى موضعين : هنا ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وفى سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون[1] : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكَّر والمؤنث ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

ثم فى الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب] وفى الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شىء تابع لأصل الوجود ،

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قرب) : « الواحد والاثنان والجميع فى ذلك سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى] ذكَّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، وقد يجوز أن يُذكر لأن الساعة فى معنى البعث . وقال ابن السكيت : تقول العرب هو قريب منى ، وهما قريب منى ، وهم قريب منى ، وكذلك المؤنث : هى قريب منى ، وهى بعيد منى ، وهما بعيد ، وهُنَّ بعيد منى » .

وفى الدراسات النحوية نُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهى فعل مَاض ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتى كان تامة تكتفىً بفاعلها كما فى ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ .. (٢٨٠)﴾ [البقرة] يعنى : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهى تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهى ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شىء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هى كان الناقصة ؛ لأن الفعل ينبغى أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد .. فى الزمن الماضى .

كذلك نقول فى الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شىء معه»(١) هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه فى هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب] ومرة ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى]

كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلانى ، يعنى : علمتَ به .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣١/٤) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ، وتمامه : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض » .

وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء ـ إلا فيما نَدُر ـ لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)[1] مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. ﴿٩٤﴾﴾ [النساء] .

وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾ [البلد]

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تَكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشىء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه ، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنَّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجَله لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى الموْتِ ما أَعْيَا وفى أسْبابه كلُّ امْرِى رهن بِطىِّ كِتَابه
أسَد لَعَمْرك مَنْ يموتُ بظُفْره عِنْد اللقاء كمَنْ يموتُ بنَابه
إنْ نَامَ عنكَ فكُلُّ طِبٍّ نافِعٌ أَوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرِثُ الطبيبَ وطِبَّه ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسِينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ⑮﴾ [طه]

يعنى : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة فى (أخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التى تُوضِّح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعنى : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ⑰﴾ [الشورى] أى : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كان مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

لعنهم يعنى : طردهم من رحمتـه تعالى ، وأبعدهم أى : فى الدنيا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) ﴾ [الأحزاب] يعنى ناراً تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا فى الآخرة فى اليوم الذى قال الله فيه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهذه النار المتأججة باقية دائمة لا تنتهى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] وسمعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنها ذُكِرَتْ فى كل الآيات التى تحدثتْ عن نعيم الجنة ، لكنها لم تُذكر فى عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القول لم يستقرىء كتاب الله جيداً ، فقد ذُكر هذا اللفظ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] فى موضعين : أحدهما هذا الذى نحن بصدده ، والآخر فى سورة الجن فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتى لفظ التأبيد فى كل آيات الجنة ، ولا يأتى إلا فى موضعين لأهل النار ، ذلك لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، فاقتضى ذلك أنْ يُبشِّر المؤمنين بتأبيد النعيم ودوامه .

أما فى جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ولا يذكر لفظ التأبيد ، لعل ذلك يُحنِّن قلوب هؤلاء ، ويعطفهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

وذكرَ لفظ التأبيد فى هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويُقرِّره فحسْب ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته فى البشارة ، وتتلطف بالنذارة .

فهذه الحكمة الإلهية مقصودة ، وكانت تُؤتى ثمارها المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيرين من الكفار ، وسبق أنْ ذكرنا قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما جاءه ضيف وطرق بابه ، فسأله عن دينه ، فلما علم أنه غير مؤمن أغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، لكن سرعان ما عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقد وَسعتْه طوال حياته فى مُلكى وهو كافر بى ، أتريد أنْ يُغيِّر دينه فى ليلة تستضيفه فيها .

فهرول إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى لحق بالرجل ، وأعاده إلى ضيافته ، فقال الرجل : ألم تردَّنى عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى ، ولكن عاتبنى ربى فيك ، فقال : نعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أولياءه فى أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وهم فى خلودهم فى النار ﴿ لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] أى : مالكاً يتولَّى أمرهم ﴿ وَلا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الأبدية التى ستكون للكفار فى النار يذكر وَصفْاً للحالة التى سيكونون عليها فى النار ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] التقليب معناه تغيير الأمر وتصريفه من حال إلى حال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى : أسفارهم ونشاطهم فى حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وثروات .

فقوله : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أي : تقلِّبهم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلبوهم على الجانب الآخر كما نُقلِّب نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجه .

وخَصَّ الوجه ، لأنه سمَة الإعلام بالشخص ، وأشرفُ أعضائه وأكرمها ، ومنه أُخذتْ الوجَاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ، ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تحميه وتدافع عنه ، وسبق أنْ قُلْنا : لو أنّ سيارة أسرعتْ بجوارك ، ولطختْ ثيابك ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتزيل ما أصابه من أذىً ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] فمنْ شدَّة العذاب يتقيه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقليب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال مَرَّةً : ﴿ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[1] ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[2] ﴿٤١﴾ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس]

وقال : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[3] ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة]

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب ، قال تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [عبس] أي : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : شبه دخان يغشى الوجه من شدة الكرب . [القاموس القويم ٢/١٠٠] ، والقترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٣) بسر : أظهر العبوس ونظر بكراهية وكلح وتغيَّر ، وقوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فالوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عمَّا بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلحظ ذلك على وجهه ، فتقول : ما لك تغيَّر وجهك من ناحيتى ؟ أو لماذا تقلَّب وجهُكَ عنى ؟

وهؤلاء حالَ تقلُّب وجوههم فى النار ، يقولون : ﴿ يَٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يُؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿ يَٰلَيْتَنَا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب] كلمة تمنٍّ ، وهو لَوْن من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتى فى المُحَال ، وفى غير الممكن ، كما جاء فى قول الشاعر :

أَلاَ ليْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخْبِرهُ بمَا فَعَلَ المشِيبُ

وقول الآخر :

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِى فَأنظِمُهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمى

فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أُمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أنْ يُجدِى ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

السادة : جمع السيد ، وهو الآمر المنفِّذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد . والكبراء : هم الذين يأخذون منازل فى قومهم ، على قَدْر ما يُؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة ؛ لذلك لا يجد غضاضة فى أنْ يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخَذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدِّم السيدُ شيئاً يَسُودُ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يبغضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيَّم ذلك كله مالياً فى شركة سماها شركة الوجوه[1] ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عُنْوةً ، فهم لا يستفيدون منها بشىء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتأكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرهها ، إنْ كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيده ، إنما العزّ كله فى أنْ تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرفاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

---

(١) شركة الوجوه : هى أن يشترى اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتماداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذمم من غير صنعة ولا مال ، وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال . وأبطلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل ، وهما هنا غير موجودين . قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (٢٩٦/٣) .

خاطبه ربه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء] فعبودية محمد لله هى التى أوصلته إلى هذه المنزلة التى لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر(١) حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزًّا بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتفى بِى بلاَ مَواعِيدَ رَبٌّ

هُوَ فِى قُدسِهِ الأعَزِّ وَلكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وأيْنَ أُحِبُّ

فإنْ أردْتَ أنْ تقابل ربك ، فالأمر فى يدك ، فأنت تحدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، فى الشارع ، فى البيت ، فى العمل ، فى المسجد مجرد أنْ تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح فى حضرة ربك ، ثم أنت الذى تُنهى المقابلة إنْ شئتَ ، وربك عز وجل لا يملُّ حتى تملُّوا . فأىُّ عزٍّ فوق هذا ؟

فى حين أنك إنْ أردتَ أنْ تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فَدُون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شىء ، فهو الذى يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذى يُنهى المقابلة .

أنت فى عبوديتك لله تعالى ، ربُّك هو الذى يطلبك لحضرته ، ويغضب إنْ دعاك ولم تُجبْ ، فنِعْم الرب ربُّك ، ونِعْمتْ العبوديةُ عبوديتُك له سبحانه .

وهنا يُلْقى الكفار باللائمة على سادتهم وكبرائهم ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأنْ يُنفِّسوا عن أنفسهم بأنْ يروهم فى العذاب جزاءَ ما أوقعوهم فى الشرك ، وزيَّنوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى :

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

عذاب مضاعف ؛ لأن ضلالهم كان كذلك مُضاعفاً ، فقد ضلُّوا فى أنفسهم ، وأضلُّوا غيرهم .

وفى موضع آخر يحكى لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وفى آيات كثيرة يحكى لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلْقى كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمضاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طلبوا لهم اللعن ، واللعن الكبير ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب] فاللعن لأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ، وينبغى أن يكون كبيراً ؛ لأنهم أضلوا غيرهم .

ونلحظ هنا أن كل نداء للرب - تبارك وتعالى - يأتى دائماً بغير أداة النداء ، لماذا ؟ قالوا : لأن النداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المنادى ، والنداء طلب الإقبال ، فإنْ كان المنادى بجوارك تقول : محمد افعل كذا ، فإنْ كان بعيداً عنك تقول : أمحمدُ . والأبعد منه : يا محمد . والأبعد : أيا محمد . وهذه الأدوات مبنية على مَدِّ الصوت بحسب المسافة .

إذن : ماذا تقول حين تنادى ربك وإنْ لم تكُنْ أنت قريباً من الله ، فالله قريب منك ؟ لا تستخدم أداة النداء لا للقريب ولا للبعيد ، لذلك ورد فى القرآن لفظ (ربّ) منادى فى خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

إلى قول نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

ويكفى فى هذا القُرْب قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق]

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه[1] ؟ فأنزل الله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ..(١٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإنْ حدث بعد فمنك أنت ، وأكثر ما يكون العبد قُرْباً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إنْ كان بعيداً عن الله قبل الاضطرار .

وفى آيتين فقط من كتاب الله نُودى الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأداة النداء (يَا) الأولى : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

والأخرى : ﴿وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ .. (٨٨)﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكاية عن كلام النبى ﷺ ، فلماذا لم تأت أداة النداء إلا من محمد ﷺ فى نداء ربه ؟

---

(١) أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبى الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] .

قالوا : لأن سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونُصْرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقد مَرَّ رسول الله بمواقف صعبة لدرجة جعلَتْه يستبطىء نصر الله ، فالله تعالى أنزل عليه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة] فخاف ﷺ أن يكون بعُد عن ربه ، وهذا البُعْد ما هو إلا مظنّة من رسول الله ، أو اتهام للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكى إليه أنَّ قومه هجروا القرآن نادى ربه من منزلة البعيد ، فقال : (يا رب) وكأنه ﷺ ظنَّ فى نفسه التقصير أو الفشل فى مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه ، لكن أنصفه ربه وأكَّد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [الزخرف]

أى : أقسم بقولك يا محمد : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ [الفرقان] والحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، يُقْسم بالملائكة وبالجماد ، يقسم بالنبات ، لكن الحق - سبحانه وتعالى - لم يُقْسم بأحد من الخَلْق إلا برسول الله فى قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

أى : وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد .

وكما أقسم سبحانه بحياة نبيه محمد أقسم بقوله ، فقال سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [الزخرف]

ثم يخاطب الحق سبحانه عباده المؤمنين ، فيقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ، وآذوا المؤمنين دَلَّ على أن المسألة ليست تعصُّباً لمحمد ، إنما هذا مبدأ سائد في كل رسل الله ، وليس معنى منع إيذاء محمد أن تؤذوا غيره من إخوانه الرسل ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

وموسى ـ عليه السلام ـ كانت له في رحلة دعوته علاقتان : علاقة مع الفراعنة ، وعلاقة مع بني إسرائيل ، ولم يكُنْ موسى ـ عليه السلام ـ رسولاً إلى الفراعنة ، إنما أُرسل إلى بني إسرائيل ؛ لذلك قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فهدفه تخليص بني إسرائيل من استعباد فرعون .

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإظهار المعجزة أمامه لعله يؤمن ، فجاءت على هامش دعوته الأساسية لبني إسرائيل ، ومع ذلك لم يَسْلَم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وطبيعى أنْ يُؤْذَى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤْذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ بعثه ، الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وآذَوْا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ والسَّلْوى ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المنَّ هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى فى الصباح من الأشجار ، والسَّلْوى طائر يشبه السّمان يسوقه الله إليهم دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يريدون هذا الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ، ويُعدونه بأنفسهم .

ثم آذَوْا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صَعَدا الجبل[1] ، ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرُّ به

---

(١) هذا القول قاله على بن أبى طالب فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٠) فى تفسير الآية ، قال : « صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم » .

على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْحَ فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

وقال آخرون : بل اتهموا موسى عليه السلام بمرضٍ فى جسده ؛ لأنه عليه السلام كان شديد الحياء ، ستِّيراً ، يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم مَنْ قال : به برص . ومنهم مَنْ تجرَّأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر فرأوه مُبرأً من العيوب التى اتهموه بها[1] .

أوْ : أن قارون لما حصلتْ الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها: اتهمى موسى على مَشْهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا ، فبرَّأه الله بذلك[2] .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده : إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦/٤٣٦) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٣٦) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأتوا بالمرأة وقالوا لها : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى بالله فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلاً على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء ، وأنك رسول الله ، فَخَرَّ موسى ساجداً يبكى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] فينفى عنه العيب ، ثم يُثبت له الوجاهة والشرف .

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب] وأىُّ وجاهة بعد أنْ أظهر الله براءته ، وبيَّن كذب أعدائه ، فالوجاهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أنْ يتهمه بذنب لم يفعله ؛ لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه .

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خَلْقه أن مَنْ يُرْمَى بذنب لم يفعله يُعوِّضه عنه بأنْ يستر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى - عليه السلام - فحين لقى جواب الله ، فكأنه غرَّه كرم ربه معه فقال : يا رب ما داموا قالوا فىَّ كذا وكذا ، أسألُكَ ألاَّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ ، فقال : يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟ والمعنى أنهم يقولون فى حَقِّ الله تعالى أكثر من ذلك .

إذن : أبقى الله الكفر ليطمئن كل مَنْ أُنكر جميله ، وكأنه يقول له : لا تحزن فأنا الخالق ، وأنا الرازق ، ومع ذلك كفروا بى وأنكروا الجميل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهى أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمال ، وصفات جلال : صفات الجمال الفضل والرأفة والمغفرة والغِنَى والنفع .. إلخ وصفات الجلال : الجبار المنتقم ذو البطش .. إلخ فالتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقيك منها لأنك لستَ مطيقاً لبطش الله وانتقامه .

ومع ذلك يقول أحد العارفين : احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أما إذا اشتبه عليك قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (١١٢) ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى اللهَ يتقى النارَ ، فلا تعارضَ إذنَ .

ومعنى ﴿ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : قولاً صادقاً يُوصل للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يُخْطئه ، وهدفك أنْ تنعم بذات الله فى الآخرة ، وأنْ تنفض الأسباب التى فى الدنيا ، وتعيش مع المسبِّب سبحانه .

فأنت فى الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً انظر إلى الطعام الذى أُعدَّ لك ، كم أخذ من وقت وإمكانات وأموال .. إلخ ، أما فى الآخرة ، فمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده بين يديك ، إذن : هذه معية يجب أنْ تحرص عليها كلَّ الحرص .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القول السديد ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب] أى : فى الآخرة ، ووصف الفوز بأنه عظيم ؛ لأنك فى

الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أمـا فى الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

العَرْض : إدارة معـروض على معروض عليه ، كمـا نرى مثلاً فى العـرض العسكرى ، حـيث تمـر نماذج من الـجيـوش والأسلحة أمـام القائد ، ومنه قوله تعالى فى قصة سـيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعـنـى : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فـالحق سبـحانـه يقول : عـرضت الأمانة عـلى خَلْقى كلّ خَلْقى ، ومنه الإنسـان والـحيوان والجـمـاد والنبـات لأرى مَنْ منهم سـيقـبل تحمُّلها ، ومَنْ سـيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سـيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسمـاء والجبال .. إلخ مُسَـيَّرة مقهـورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبـارة فنقول هى مقـهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل عـلـى كرمه . [القاموس القويم ٣٧٩/١] وهو قـول مجـاهد ، ذكره ابـن كـثير فى تفـسـيره (٣٣/٤) . وقـال إبراهيم التيمى : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، رواه ابن جرير .

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تَعُدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ - مع أنك مختار - إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك فى متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكن الذى امتاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبيحُه تسبيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخالق سبحانه هو الذى يخاطب ما يشاء من خَلْقه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجمادات لخاطبتها ، وتأمل مثلاً قصة الهدهد وسيدنا سليمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فأَرِحْ نفسك وانْسبْ الفعل إلى فاعله وأنت تستريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شىء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفاعل أولاً ، فعليه ستبنى حكمك وقرارك ، فإنْ كان الفاعل ابنَ الجيران مثلاً تقيم الدنيا ولا تُقعدها ، وإنْ قال لك : عمِّى فلان ضربنى تهدأ أعصابك ، وتقول للولد : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفعل الواحد يمكن أنْ يكون سيئاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعضها بعضاً ، وتسعفنا فى هذه المسألة ، فالذى قال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] قال ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فكل شىء فى الوجود كله مُسبِّح ، فدلَّ هذا على أن الموجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلماء حين يقول : هذه دلالة حال ، لا دلالة مقال ، وهذا القول يرده قوله تعالى : ﴿ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه فى انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفى اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعانى فى لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بنى جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى فى الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق فى الدلالة يتفق عليه الجميع فى كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءً تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربى ، ولا بكاء فرنسى مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أى : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء فى قوله تعالى فى معنى الحَمْل : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** .. ⓹ ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثلهم عند الله كمثل الحمار الذى يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا فى حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعى البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمل فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبه الحمار فى هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار فى أمور أخرى يفهم ويؤدى مهمته على الوجه الذى ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذى سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان ، إذن : مَن الغبى ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلَّفوه بما لم يُكلِّفه الله به ، فالحمار خُلق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها فى الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدم على القفز ، فإنْ كانت فى مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرفُ مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشىء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّىء له ، ومثَّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله فى استقامته ، فإنْ أردته خُطَّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوجه ؛ وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا العوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش فى بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالى يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل فى غير موضعه ، والشىء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذى به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدى إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفى المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة فى مكانه .

ومعنى : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : خفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتى وقت الأداء فلا يؤدى ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتى فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، فى حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التى لا تعرف التصرف فى الأشياء ، وميزة الحيوان فى هذه الغريزة وفى عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة فى الظلم والمبالغة فى الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعـها خيراً ، أو يجلب لها ضُرّاً ، فهـذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعـة لا حدودَ لها ، فهـو عدو لنفسه ؛ لذلك قـال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العـدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن أعظم الظلم الشرك بالله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنما يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسانَ بعد الظلم بأنه جهـول ؛ لأنه يظلم نفسه ، وهذا يدل على الجهل وعدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

أولاً : يلفت أنظارنا أن الآية السـابقـة ذُيِّلَتْ بقـوله تعـالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقـوله سبحانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحيماً) .

فـالحق سبحانه غفـور لمن ظلم ، ورحيم لمن جهل ، فـالنسق

القرآنى مظهـر من مظاهر رحمـة الله ، والله سبحانه وتـعالى عُلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفـور رحيم ، لكن لا ينبغى أنْ تغرَّك صفـات الجمال فى ربك ـ عز وجل ـ فتُقـدِم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ ﴾ [الانفطار] أن الذى غَرَّ الإنسان بربه فـعصاه أو كفر به اعـتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هى التى أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبـحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المـسألة ، فإنْ سُئِل : مـا غرَّك بربك ؟ يقـول : كرمـه ، وعندنا فى الفلاحـين يسأل أحدهم الآخـر : لماذا لا تطمـئن فى صلاتك ، وتنقـرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحـد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممـسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبِله .

وفى الآية دقيـقة أخرى فى قـوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. ⑦③ ﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله فى الحكم ؟

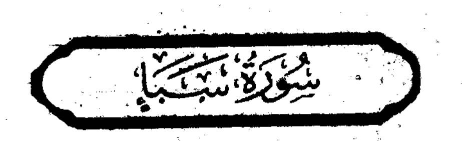
قـالـوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿ لِيُـعَـذِّبَ .. ⑦③ ﴾ [الأحـزاب] لام العاقـبة ، فالحق سـبحـانه جعل التكليف ليتـبعـه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتـيجة . كما فى قـوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ⑧ ﴾ [القصص] .

فسـاعة التقطه آل فـرعون التقطوه عـليه السلام ليكون قُـرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكن الذى حدث أنه صـار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهى أن تفعل الشىء لمراد عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدلّ على غباء الذى فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعنى : وافق لسانه ما فى قلبه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون فى الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفى ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفى حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشرى يقتضى أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآنى هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى ـ كما ذكرنا ـ صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .


سورة سبأ



بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة سبأ)[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ۝١ ﴾ [سبأ] جملة قائلُها الحق سبحانه ، فهل قالها لنفسه أم قالها ليُعلِّمنا نحن أنْ نقولها ؟ قالها ليُعلِّمنا . والحمد أنْ تأتى بثناء على مستحق الثناء بالصفات الجميلة . ومقابله : الذم ، وهو أنْ تأتى لمستحقٍّ الذم بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه .

وأنت قد تحمد شيئاً لا علاقةَ لك به ، لمجرد أنه أعجبك ما فيه من صفات ، فاستحق فى نظرك أنْ يُحمد ، كأن تحمد الصانع على صَنْعة أتقنها مثلاً ، وإنْ لم تكُنْ لك علاقة بها .

---

(١) سورة سبأ هى السورة رقم (٣٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٥٤ آية ، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر ، وهى السورة رقم ٥٧ فى ترتيب النزول ، قال القرطبى فى تفسيره (٥٥٢٧/٨) « مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى ﷺ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره . قاله مقاتل » .

إذن : فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإنْ لم تَصلْ إليك ، فكيف إذا كانت صفات التحميد والتمجيد والتعظيم أثرها واصلَ إليك ؟ لا شكَّ أن الحمد هنا أوجب .

لذلك نقول : كل حمد ولو توجَّه لبشر عائد فى الحقيقة إلى الله تعالى ؛ لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حَمْدٌ لله .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] وردت فى القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وخُصَّتْ منها فى فواتح السور خمس مرات : فى الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

والحق سبحانه بدأ بالحمد ؛ لأنه بدأ خَلْقه من عدم فله علينا نعمة الخَلْق من عدم ، ثم أمدَّنا بمقومات الحياة فوفَّر لنا الأقوات التى بها استبقاء الحياة ، ثم التناسل الذى به استبقاء النوع ، هذا لكيان الإنسان المادى ، لكن الإنسان مطلوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع آخرين فلا بُدَّ أنْ تتساند حركاتهم لا تتعاند ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفانى الخَلْق .

وهذا التساند لا يتأتَّى إلا بمنهج يُحدِّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد يبنى ، وآخر يهدم . هذا فى الدنيا ، أما فى الحياة الآخرة فسوف يُعدُّنا لها إعداداً آخر ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه ؛ لأننا نعيش فى الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما فى الآخرة فنعيش مع المسبِّب سبحانه مع ذات الحق .

نحن فى الدنيا نزرع ونحصد ونطبخ ونخبز ونغزل .. إلخ ، هذه أسباب لا بُدَّ من مزاولتها ، لكنك فى الآخرة تعيش بكُنْ من المسبِّب ، فى الدنيا تخاف أنْ يفوتك النعيم أو تفوته أنت ، أما فى الآخرة

فنعيمها بَاقٍ لا يزول ولا يحول ، فى الدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ، أما فى الآخرة فتتمتع على قَدْر إمكانات ربك .

فالحق سبحانه أوجدنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا المنهج الذى يحفظ القيم ، ويُنظِّم حركة الحياة قبل أنْ تُوجد الحياة ، فقبل أنْ يخلقك خلق لك كالصانع الذى يُحدِّد مهمة صنعته قبل صناعتها ، وهل رأيتم صانعاً صنع شيئاً ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل فى القرآن وُضِع أولاً ليحدد لك مهمتك وقانون صيانتك ، قبل أنْ تُوجَد أيها الإنسان .

والمتأمل لآيات الحمد فى بدايات السور الخمس يجد أنها تتناول هذه المراحل كلها ، ففى أول الأنعام : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)** ﴾ [الأنعام]

تكلَّم الحق سبحانه عن بَدْء الخَلْق ، ثم قال : ﴿ **هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ .. (٢)** ﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول .

ثم فى أول الكهف يذكر مسألة وَضْع المنهج والقيم : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١)** ﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذى يحكم الأهواء ، ويُنظِّم حركة الحياة لتتساند ولا تتعاند .

وفى أول سورة سبأ التى نحن بصددها يذكر الحمد فى الآخرة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. (١)** ﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد فى الآخرة تجده حَمْداً

مركباً مضاعفاً ؛ لأنك فى الدنيا تحمد الله على خَلْق الأشياء التى تتفاعل بها لتعيش بالأسباب ، لكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، إنما المسبِّب هو الله سبحانه ، فالحمد فى الآخرة أكبر حَمْداً يناسب عَيْشك مع ذات ربك سبحانه .

وفى أول فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. (١) ﴾[فاطر]

نحمد الله على القيم ، وعلى المنهج الذى وضعه لنا الحق سبحانه بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخَلْق ، ومنهم الحفظة ، ومنهم المدبِّرات أمراً التى تدبر شئون الخَلْق ، ومنهم مَنْ أسجدهم الله لك .

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة] والربّ هو الخالق الممدّ ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة] أى : فى الآخرة ، ثم ذكرت وجوب السير على المنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعتْ البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُمِّيت فاتحة الكتاب ، وسُمِّيت المثانى ، وسُمِّيت أم القرآن .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ] علَّمنا الله تعالى أن نقولها ؛ لأن الناس مختلفون فى المواهب ، وفى الملكات ، وفى حُسْن الأداء ، وفى صياغة الثناء ، فلا يستوى فى الحمد والثناء الأديب والأُمىُّ الذى لا يجيد الكلام ؛ لذلك قال الله لنا : أريحوا أنفسكم من هذه المسألة ، وسوف أُعلمكم صيغة يستوى فيها الأديب الفيلسوف مع راعى الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هى أحبّ صيغ الحمد إلىَّ ، هذه الصيغة هى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ]

لذلك جاء فى الحديث قول سيدنا رسول الله فى حمد ربه ، والثناء عليه : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[(١)] فحين أقول خطبة طويلة فى حمد الله والثناء عليه ، وتقول أنت : الحمد لله لا أقول لك قصَّرت فى حمد ربك ، وكأن هذه الصيغة وتعليمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ؛ لأنها سوَّتْ الجميع ، ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد فى مقام حمد الله والثناء عليه .

وحين تحمد الله على أن علَّمك هذه الصيغة ، بماذا تحمده ؟ تحمده بأن تقول الحمد لله . إذن : هى سلسلة متوالية من الحمد لا تنتهى ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أنْ تظل دائماً حامداً لله ، وأنْ يظلَّ الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قُلْنا : إن اختلاف المواقيت فى الأرض واختلاف المشارق والمغارب إنما جُعلَتْ لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً فى كل جزئيات الزمن ، ففى كل لحظة صلاة ، وفى كل لحظة الله أكبر ، وفى كل لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفى كل لحظة أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، فالكون كله يلهج بذكْر الله وعبادة الله فى منظومة بديعة ، المهم مَنْ يُحسن استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك .

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ .. ۝١﴾ [سبأ] بينَّا أن الحمد فى الآخرة أكبر وأعظم من الحمد فى الدنيا ؛ لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فتعيش مع ذات المسبِّب سبحانه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا فناء ، وفى الآخرة بقاء ؛ لذلك قال سبحانه عن الآخرة : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكايةً عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر]

وقالوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

فإنْ قُلْت : فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ؟ نقول : فَرْق بين أنْ يخدمك فى الكون ما لا تملك ، وبين أنْ يخدمك ما تملك ، فالعظمة هنا أنك تنتفع هنا بما لا تملك ، فالسموات والأرض ملْك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست العظمة من أنْ يخدمك ما تملكه .

لذلك قالوا لأحد الناس : لماذا لا تشترى لك سيارة ؟ قال : والله الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سيارة واحد منهم ، ولا يغرمنى هذا شيئاً . إذن : انتفاعك بما يملك الغير أعظمُ من انتفاعك بما تملك أنت ، وملْك الله جُعل لصالحنا نحن ، وهذه تستحق الحمد ، فاللهم لا تحرمنا نعمك .

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يُطمئنَ العبادَ ، فمُلْك السموات والأرض لله وحده ، ولو كانت لغيره لمنعنا منها ، فكأن ربك يقول لك : اطمئن فهذا ملْكى وأنا ربك ولن أتخلى عنك أبداً ، وليس لى شريك ينازعنى ، فيمنع عنك خيراتى ، فأنا المتفرِّد بالملْك والسلطان .

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشيء : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألاَّ يكون ، والدليل قوله تعالى عن الأرض ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق] أى : أصغتْ السمع ، وحَقَّ لها ذلك ، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أنْ نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، ولذلك تصرَّف سبحانه فى الملك تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، فلم يقُلْ شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم خاف أنْ ينقضه أحد أو يعدله .

ثم شهدتْ بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فشهادة الله شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أُولى العلم شهادة العلم والدليل .

ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ.. ﴿١﴾ ﴾ [سبأ] فكرَّر الاسم الموصول (ما) ولم يقُلْ له ما فى السموات والأرض ، كما جاء فى قوله سبحانه فى التسبيح : مرة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

ومرة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر]

وفَرْق بين التعبيرين ؛ لأن هناك خَلْقاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهناك خَلْق خاص بالسماء ، وخَلْق آخر خاص بالأرض ،

فإنْ أراد الكل قال : ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] ، وإنْ أراد الاختلاف كلاً فى جهته ، قال ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [سبأ]

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من خيرات ، والذى يملك الظرف والمكان يملك المظروف فيه ، فالحيز هنا مشغول .

ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الحكيم : هو الذى يضع الشىء فى مكانه وموضعه المناسب ، ولا يتأتّى هذا إلا لخبير يعلم الشىء ، ويعلم موضعه الذى يناسبه ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الذى لديه خِبْرة بدقائق الأشياء وبواطنها .

ثم أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الخبرة ، فقال سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

معنى ﴿يَلِجُ .. (٢)﴾ [سبأ] يدخل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣)﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما فى الآخر ، فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص من الليل ؛ لذلك نرى اختلاف المواقيت .

لكن ، ما الذى يدخل فى الأرض - فى حدود ما تراه أنظارنا - ؟ هناك أشياء تدخل فى الأرض لا دَخْلَ لنا بها كماء المطر مثلاً حين ينزل من السماء ، نأخذ منه حاجاتنا ، ويتسرَّب منه جزء فى باطن الأرض ، كما قال تعالى : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

ويدخل فى الأرض الحبة التى نزرعها ، فينشأ عنها الاقتيات الذى يضمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتى من مضاعفة الحبة إلى أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل فى الأرض الميِّت الذى نستودعه الأرضَ بعد أنْ يموت ، ولك أنْ تلحظ وجه الشبه بين الحبة تزرعها ، والميت تدفنه فى ضوء قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه]

فكما أن الحبة أنبتتْ سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك يجب أنْ نقيس المتواليات الذهنية فنقول كذلك حين أدخل أو أدفن فى الأرض بعد الموت : أخرج بحياة أخرى أكثر نماءً من حياتى فى الدنيا ، وأكثر خَيْراً فضلاً عما سترَتْه الأرض من سَوْءاتى .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٢)﴾ [سبأ] ما الذى ينزل من السماء ؟ ينزل منها المطر لاستبقاء الحياة ، وبالماء حياة كل شىء حى ، هذا فى مادة تكوينك ، أما فى حياتك الروحية فتنزل الملائكة بالقيم وبالمنهج الذى به تحيا الأرواح والقلوب ، وتنزل الملائكة المدبِّرات أمراً ، التى تدبر شئون الخلائق ، والتى قال الله فيها : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

والبعض لا يفهم معنى الآية ، فيقول : كيف تحفظه الملائكة من أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله ينبغى أنْ يُنفذ ، فكيف يحفظونه منه ؟

---

(١) المعقبات : ملائكة الليل والنهار ، لأنهم يتعاقبون ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقباً أى نُوَباً . [لسان العرب ـ مادة : عقب] .

والمعنى : يحفظونه حِفْظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوُّعاً من عندهم[1] .

والحق سبحانه يُرينا قدرته فى إنزال المطر حينما نُجرى عملية تقطير الماء فى المعامل والأجزاخانات ، انظر كم يتكلف كوب الماء المقطر ، وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتُقطِّره لك قدرة الله دون أنْ تشعر أنت به ، فحرارة الشمس تُبخِّر الماء الذى يُكوِّن السحب ، ثم تسوقه الرياح إلى حيث شاء الله له أنْ ينزل ، ومن حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البخر ، فيكفى المطر حاجة الأحياء .

ومثَّلْنا لهذه الظاهرة بكوب الماء الذى تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ المساحة التى يتبخر منها الماء .

وماء المطر هو الماء العَذْب الزلال الذى يشرب منه الإنسان والحيوان والطير ، ونسقى منه الزرع ومشارف الأرض ، وما تبقَّى يسلكه الله فى جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر آية من آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ] أى : يصعد ، وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أى : تصعد آثار التكليف المنهجى من الله تعالى .

---

(١) عن ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . أخرجه أبو الشيخ . وعنه أيضاً : بإذن الله . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وعن سعيد بن جبير : حفظهم إياه بأمر الله . أخرجه ابن جرير . وذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٤/٦١٢) .

لكن نلحظ فى أسلوب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ۝٢﴾ [سبأ] استخدام حرف الجر (فى) ولم يَقُلْ يعرج إليها ، نعلم أن الحرف يدل على معنًى فى ذاته ، لكن هذا المعنى لا بُدَّ له من ضميمة شيء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (فى) يدل على الظرفية ، كما تقول : ماء فى الكوب ، أمَّا لو قلت (فى) مستقلة بذاتها ، فإنها لا تدلُّ على شيء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وجدوا بها حروفاً ظَنُّوا أنها زائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا فى معنى : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۝٢﴾ [سبأ] أن (فى) هنا بمعنى (إلى) ، لكن لماذا عدل الأسلوب عن (إلى) إلى (فى) ؟ إذن : لا بُدَّ أنها تحمل معنى الظرفية .

وللتوضيح نذكر ما قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ۝٧١﴾ [طه] البعض قال أى : على جذوع النخل ، وهذا فَهْم غير دقيق عن الله ؛ لأن (فى) هنا تعطينى المعنيين : معنى (على) ومعنى (فى) .

فالتصليب صَلْب شيء على شيء ، وهذا المعنى تؤديه (على) ، لكن فيه قصور ، فإنْ أردتَ (على) فحسب ، فينبغى أنْ تقول : لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه . إذن : المعنى الكامل للتصليب لا تؤديه إلا (فى) .

خُذْ مثلاً عود كبريت وضَعْه على يدك ، أو على أصبعك ، والْفُفْ عليه خيطاً خفيفاً ، فى هذه الحالة الخيط فقط يثبت العود ، أما إذا

شددْتَ عليه الخيط بقوة ، فإن العود يدخل فى الجلد حتى يكاد يختفى بداخله ، هذا هو التصليب المراد أنْ تشدَّ المصلوب على المصلوب عليه بقوة بالمسامير أو الحبال أو نحوه .

لذلك قال سبحانه : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه] ولم يقُلْ على جذوع النخل ؛ لأن (فى) أدَّتْ معنى الاستعلاء والظرفية معاً .

كذلكِ فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ : وما يعرج إليها ؛ لأن إلى لا تؤدى المعنى المطلوب ، فـ (إلى) تدل على الغاية ، كما تقول : سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية . والسماء ليست هى غاية صعود الكَلِم الطيب ، إنما غايته ومنتهاه إلى الله عز وجل ، وما السماء إلا طريق يُوصل إلى المنتهى الأعلى ، وسبق أنْ قُلْنا : إن السماء هى كل ما علاك .

وهذا المعنى لحرف الجر واضح كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] فاستخدم (إلى) لأن المغفرة هى غاية ما يَسْعى إليه المؤمن ويسارع .

وقال : ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : إلى الخيرات ؛ لأن الخيرات ليست هى الغاية ، إنما هى مراتب يترقَّى فيها المؤمن ويتعالى ، كلما وصل إلى خير تطلَّع إلى أَخْيَر منه ، فكأن الخيرات ظرف يسير فيه لا إليه .

كذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن الذين كذَّبوا الرسل ، قال : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

البعض يقول : أى : إلى أفواههم ، لا لأن (فى) تحمل معنى المبالغة فى ردِّ المنهج الذى جاء به الرسل ، فالمعنى أن الرسل حينما

جاءوا بالمنهج لم يقبله المكذّبون وقالوا لهم : وفروا عليكم كلامكم ، يعنى : لن يُجدى معنا شيئاً ، وجعلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعَضُّوا عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة : إلى أفواههم .

ثم هو سبحانه : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ] صفة الرحيم أى : الذى يمنع وقوع الضُّرِّ بدايةً ، كما قال سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝٨٢﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿شِفَاءٌ .. ۝٨٢﴾ [الإسراء] تعنى : أنه أصابك مرض نشأ من الغفلة ، فجاء القرآن ليُذكِّرك ويُنبِّهك ويشفى نفسك من هذه الغفلة ، فإنْ لم توجد الغفلة كان القرآن رحمة تمنع حدوث الداء من البداية . و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿الْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بُدَّ أن ينحرف يوماً ما عن المنهج القويم ؛ لذلك قال ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. ۝١٥﴾ [المائدة]

وقلنا : إنه لولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب فى الذنوب ، وييئس أنْ يعود إلى الطريق المستقيم ، وهذا الذى أسميناه (فاقد) وبه يشقى المجتمع كله ، لكن إنْ عرف أن له رباً يغفر الذنب ويقبل التوبة ، فإنه يُقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إنْ تاب وأناب ؟

إذن : شرع اللهُ التوبةَ ليرحم الخَلْق كلهم ، ويُقدِّم لهم جميلاً ،

فحين يتوب على المذنب يرحم المجتمع من شرِّه ، ويرحمه هو من آثار ذنوبه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليفتح لهم مجال التراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتَمادٍ فى الشر ، ولا ينقلب المذنب إلى طاغوت .

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] نجد صَدْر الآية ورد بنفس اللفظ فى موضعين ، لكن العَجُز مختلف ، ففى آية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] وفى الأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تُعَدُّ النعمة ، وهى واحدة ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] والرد : أن النعمة التى تراها واحدة فى ظاهرها فى طَيِّها نِعَم شتى ، وقد وَضُح لنا هذا بعد أنْ تقدَّمت العلوم وظهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها فى ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم العناصر يُبيِّن لنا أن بها نعماً شتى ، وعناصر وفوائد مختلفة ، فهى نعمة فى طَيِّها نِعَم .

والنعمة تقتضى : نعمة ، ومُنْعماً ، ومُنْعَماً عليه ، فالنعمة فى ذاتها من الكثرة بحيث لا تُعَدُّ ولاَ تُحصى ؛ لذلك استخدم كلمة (إنْ) الدالة على الشك ، ولم يقل مثلاً : إذا عددتم نعمة الله ؛ لأن هذا مجال لا يطمع فيه أحد ، ونِعَم الله ليست مظنة الإحصاء .

لذلك لم يُقْدِم أحد على محاولة عَدِّ نِعَم الله حتى بعد أنْ وُجدت جامعات وكليات متخصصة فى الإحصاء ، حاولت إحصاء كل شىء إلا

هذه المسألة ؛ لأن الإقبال على العَدِّ والإحصاء يعنى إمكانية الوصول إلى إحصاء المعدود .

أما من حيث المنْعَم عليه وهو الإنسان ، فهو ظَلُوم كفار ، ظلوم لنفسه ولغيره ، كفَّار بالنعمة ، ولو آخذناه بذلك لحرمناه هذه النعمة ، والذى حماه من هذا الحرمان أن المُنعِم عليه غفور ورحيم ، وهذا إذا نظرنا إلى المنعِم سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هنا أيضاً يُحدِّثنا عن الساعة ، ففى آخر الأحزاب ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ** .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وهنا ينكرونها ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ** .. ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ] أى : القيامة .

فلماذا ينكرونها ؟ نعم ينكرونها ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وتمادوا فى غَيِّهم ، ولن تكون القيامة فى صالحهم ؛ لذلك يهربون منها بالإنكار والتكذيب . حتى إخوان هؤلاء المكذبين ممَّنْ يحبون أن يستدركوا على كلام الله يقولون : إذا كان الله قد قدَّر كل شىء على العبد ، فقدَّر الطاعة ، وقدَّر المعصية ، فلماذا يعذبه على المعصية ؟

والملاحظ ، أنه لم يقُلْ أحد منهم فى المقابل : ولماذا يثيبه على

الطاعة ؟ مما يدل على أن هذه الوقفة خاطئة وغير منطقية ، وأنهم يخافون العقاب ، وصاحب هذه المقولة ما قالها إلا لأنه واثق من كثرة سيئاته ، ومن مصلحته أن يُكذِّب بالقيامة وينكرها ، كالذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

فكثرة سؤالهم عن الساعة وإنكارهم لها يدلُّ على خوفهم منها ، بل هم مرعوبون من مجرد تصديقها ؛ لأنهم يعلمون جيداً أنهم إن استتروا عن الناس فلن يستتروا من الله ، وإنْ عَمُّوا على قضاء الأرض فلن يُعَمُّوا على قضاء السماء ، ولن تنفعهم فى القيامة حجة ولا لباقة منطق ، ولا تزييف للحقائق .

لذلك قال ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحن[1] بحُجَّته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه بشىء فلا يأخذه ، فإنما أُقْطِع له قطعةً من النار »[2] .

فالقاضى يحكم بالحجة وبالبيان ، ويمكن للمتكلم أنْ يُضلِّل القاضى ، وأنْ يأخذ حقَّ الآخرين ظلماً ، كما يفعل بعض المحامين الآن ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فأنت فى محكمة قاضيها الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) ألحن بحجته ، أى : أفطن لها وأجدل . وقال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . [لسان العرب - مادة : لحن] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨ ، ٢٦٨٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها بهذا اللفظ ، وفى لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

إذن : هؤلاء ينكرون القيامة ؛ لأنها اللغز الذى يُحيِّرهم ، والحقيقة التى تقضُّ مضاجعهم وتُرعبهم ، الحقيقة التى تزلزل جاههم ، وتقضى على سيادتهم ، وإنْ أَمنوا فى الدنيا لما لهم من جاه وسيطرة ، ففى القيامة سيأتون كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. (٩٤)﴾ [الأنعام]

وكثرة سؤالهم عن الساعة له نظير فى العالم الحديث وفى عالم الاقتصاد ، فمثلاً ترى الرجل كلما جلس مع عالم سأله عن رأى الدين فى فوائد البنوك ، حتى إنه ليسأل فى ذلك ألفَ عالمٍ ، فلماذا لا يكتفى بقول واحد منهم ؟ لأنه يريد أنْ يسمع رأياً على هواه يقول له : إن فوائد البنوك حلال ، فهذه مسألة شائكة تشغل الكثيرين ، لكن ما دامت قد حاكتْ فى الصدر ، فهى من الباطل الذى قال عنه سيدنا رسول الله : « والإثم ما حاك فى الصدر ، وخشيتَ أنْ يطلعَ عليه الناسُ »[1] .

ثم يرد الحق سبحانه على إنكارهم للساعة ، فيقول مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣)﴾ [سبأ] يعنى : قُلْ بملْء فيك (بلى) وبلى نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. (٣)﴾ [سبأ] وحين ننقض النفى ، فإننا نثبت المقابلَ له ، فمعنى (بلى) أى : أنها ستأتى .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقَسَم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣)﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يُعلِّم رسوله أنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٨٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة من حديث النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنها ستأتيهم ، والحق سبحانه لا يُلقِّن رسوله يميناً كاذباً ، والحق سبحانه صادق دون حلف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وقوله تعالى بعدها ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [سبأ] فيه إشارة إلى أننا لا نخبر بالساعة ولا نحلف على إتيانها من فراغ ، إنما بما عندنا من علم الغيب ، فهى لا بُدَّ آتية ، ليس هذا فحسب ، إنما سنُوافيكم فيها بإحصاء كامل للذنوب ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وخَفِيِّها ، فعالم الغيب لا يخفى عليه شىء مهما استتر ، ومهما كنتَ بارعاً فى إخفائه عن الناس .

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ] لا يعزب : لا يغيب عن علمه .

والحق سبحانه فى جمهرة الآيات يضرب المثل لصغَر الأشياء بالذرة ، وهى الهباءة التى نراها فى شعاع الشمس ، ولا نراها فى الظل لصغَر حجمها ، إذن : كَوْنُك لا ترى الشىء لا يعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ، لكن ليستْ لديك آلة البصر الدقيقة التى تستطيع رؤيته بها ، والعين المجردة لا ترى كلَّ الأشياء ، لكن حزمة الضوء القوية تساعدك على رؤية الأشياء الدقيقة ؛ لذلك قالوا : إن الضوء والذر أحكم مقاييس الكون .

لذلك يستخدم المهندسون هذه الظاهرة مثلاً فى استلام المبانى ، والتأكد من دقة تنفيذها ، فالحائط الذى يبدو لك مستوياً مستقيماً لو تركتَه عدة أيام لكشفَ لك الغبار عَمَّا فيه من نتوءات وعدم استواء ؛ لأن الغبار والذرات تتساقط عمودياً ، كذلك الضوء حين

تُسلِّطه على حائط يكشف لك ما فيه من عيوب ، مهما كانتْ دقيقة لا تراها بالعين المجردة .

ولأن الذرة كانت أصغر ما يعرفه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٤٠)** ﴾ [النساء]

لكن ، هل ظلَّتْ الذرة هى أصغر ما فى الكون ؟ حينما انهزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لم تقبل الهزيمة ، وأبَتْ أنْ تكون مغلوبة فصممتْ على أنها تثأر لنفسها ، فاشتغل كل فرد فيها فى اختصاصه ، وكان مما أنجزوه عملية تحطيم الجوهر الفرد أى : تحطيم الجزء الذى لا يتجزأ ، وهذه أول فكرة فى تفتيت الذرة يعرفها العالم .

وهذه العملية نشاهدها نحن فى عصارة القصب مثلاً ، وهى أن تُدخل عود القصب بين أسطوانتين ، فكلما ضاقت المسافة بين الأسطوانتين زَادت عملية العصر وتفتيت العود ، كذلك عملت ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد .

وعندها قال الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله : ذكَر القرآن أن الذرة هى أصغر ما فى الكون ، وها نحن فتتنا الذرة إلى أجزاء . ولو أَلَمَّ هؤلاء بكل القرآن ، وقرأوا هذه الآية : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)** ﴾ [سبأ] لعرفوا أن القرآن احتاط لما سيأتى به العلم من تفتيت الذرة ، وأن فى كلام الله رصيداً لكل تقدم علمىٍّ .

وتأمل الدقة الأدائية هنا ، فقد ذكر الذرة ، وهى أصغر شىء عرفه الإنسان ، ثم ذكر الصغير عنها والأصغر بحيث مهما وصلنا فى تفتيت الذرة نجد فى كلام الله رصيداً لما سنصل إليه .

وقال : ﴿لا يَعْزُبُ .. (٣)﴾ [سبأ] لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ .. (٣)﴾ [سبأ] مقدار ﴿ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ .. (٣)﴾ [سبأ] لشمول كل ما فى الكون ﴿وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ .. (٣)﴾ [سبأ] أى : أصغر من الذرة ﴿وَلا أَكْبَرُ .. (٣)﴾ [سبأ] من الذرة .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة الذرة ، وما دَقَّ من الأشياء ، فما الميْزة فى أنه سبحانه يعلم الأكبر منها ؟

قالوا : هذه دقيقة من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالشىء يخفى عليك ، إما لأنه مُتناه فى الصِّغَر ، بحيث لا تدركه بأدواتك ، أو لأنه كبير بحيث لا يبلغه إدراكك ، فهو أكبر من أنْ تحيط به لكبره ، إذن : فالحق سبحانه مُسلَّط على أصغر شىء ، وعلى أكبر شىء لا يغيب عنه صغير لِصِغَره ، ولا كبير لِكِبَره .

والحق سبحانه لا يحيط علمه بما فى كَوْنه فحسب ، بل ويُسجِّله فى كتاب مُعْجز خالد ، وفَرْق بين الإخبار بالعلم قوْلاً وبين تسجيله ، فإذا لم يكُنْ العلم مُسجَّلاً فلَكَ أن تقول ما تشاء ، لكن حين يسجل يصير حجة عليك .

لذلك نرى الحق سبحانه حين يعطينا قضية فى الكون يحفظها مع القرآن ، وأنت لا تحفظ إلا ما فى صالحك ، وما دام الحق سبحانه يحفظها فهذا يعنى أنها واقعة لا محالة ، وإلا ما سجَّلها الحق سبحانه وحفظها ، فهو سبحانه يعلم تمام العلم أنه لا يكون فى مُلْكه إلا ما علم ، إذن : كتب لأنه علم ، وليس عَلِم لأنه كُتب . ومَن الذى أمر بكتابته ؟ علمه سبحانه إذن : فالعلم أسبق .

لكن ، لماذا عندما سألوا عن الساعة أو أنكروها ذكَّرهم الله بعلمه لكل صغيرة وكبيرة ، فقال : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ]

قالوا : ذكر لهم الحق سبحانه إحاطة علْمه بكل شيء ؛ ليلهيهم عن التفكير فى أمر الساعة ، ويشغلهم بذنوبهم ، وأنها محسوبة عليهم لا يخفى على الله منها شيء ، وعندها سيقولون : ليتنا ما سألنا ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

إذن : سألوا عن الساعة ، فأخذهم إلى ساحة أخرى تزعجهم وتزلزلهم كلما علموا أنَّ علْم الله تعالى يحيط بكل شيء فى السموات وفى الأرض .

فالمسألة ليست مجرد (فنطزية) علم ، إنما سيترتب على هذا العلم جزاء وحساب ، فقال سبحانه :

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

عجيب أنْ يُوصف الرزق ذاته بأنه كريم ، فالكريم صفة الرازق الذى يهبُكَ الرزق ، فما بالك إنْ كان الرزق نفسه كريماً يذهب إليك ويعرف مكانك ، كما قال الشاعر[1] :

تَحرَّ إلى الرِّزْقِ أسْبَابَهُ ... وَلاَ تَشْغَلَنَّ بعدَهَا بَالكَا

فَإنَّكَ تَجْهَلُ عُنْوانَهُ ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانكَا

(١) من شعر الشيخ يغفر الله له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾

السعى هو المشى الحثيث وقطع المسافة ، فما معنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ۝٥ ﴾ [سبأ] ألم تسمع قولهم : سعى فلان بفلان عند السلطان مثلاً ؟ والمراد : أنه نَقَل إلى السلطان ما يُغضبه وما يُحزنه من هذا الشخص ، وهذه التى نسميها فى العامية وبين الموظفين (ضربه زُنْبَة) هى هنا بنفس هذا المعنى .

﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ۝٥ ﴾ [سبأ] يعنى : ضربوا فيها (زُنَب) وألَّبوا الناس عليها ليزهد فيها مَنْ كان مُقبلاً عليها ، ويخرج منها مَنْ كان فيها ويتملَّص منها ، سعَوْا فى آيات الله وهى القرآن ليبطلوه وليصرفوا الناس عنه ، لماذا ؟ لأنهم واثقون من أثر القرآن فى القلوب ، فلو أعطاه الناسُ آذانهم لابد وأنْ يؤثر فيهم ويجذبهم إلى ساحة الإيمان ، فتنفعل به قلوبهم . وتلهج به ألسنتهم .

وهؤلاء هم الذين قالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾ [فصلت] ولو كان القرآن كلاماً عادياً غير ذى أثر لَمَا نَهوْا عن سماعه ، ولما شوَّشوا عليه ، وخافوا من سماعه .

ومعنى ﴿ مُعَاجِزِينَ .. ۝٥ ﴾ [سبأ] مفردها مُعَاجز : اسم فاعل من عَاجَزَ مثل : قَاتَلَ ومقاتل ، وعاجز مثل نافس ، والمنافسة الأصل فيها التسابق فى التنفس ، وقد رُوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مرَّا ببحيرة ، فقال عمر : هيا بنا نتنافس يعنى :

نغطس تحت الماء ، لنرى أيّنا أطول نَفَساً من الآخر ، ومعروف أن طول فترة الغطس تدل على قوة التنفس وسلامة الرئة ، وأنها تحتوى مخزوناً أكبر من الهواء ، ثم أُطلقت المنافسة على كل مسابقة .

ومثل نافس : عَاجَزَ يعنى : حاول كُلٌّ من الطرفين إثبات عجز الآخر . تقول : عاجزنى يعنى : جعلنى أفعل فعلاً أعجز عنه ، فكأنهم يريدون بسعيهم فى آيات الله أنْ يُثبتوا عجزها ، وأن يُعجزوا الدعوة أنْ تبلغ مداها ، ويُعجزوا رسولَ الله أنْ يتمم رسالته ، ويُعجزوا منهج الله أن يصل إلى خلق الله .

لكن يُعاجزون مَنْ ؟ يُعاجزون الله ؟ كيف وهو سبحانه الذى أرسل الرسل ، وتكفَّل بنصرتهم وعدم التخلِّى عنهم ، وما كانت الحروب والقتال بين الرسل والمكذبين إلا سبباً يأتى من خلاله نصر الله ، كما قال سبحانه : ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ** (١٤) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ** (١٧١) **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** (١٧٢) **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : مَنْ سيُعاجزون ؟ ربما يُقبل أنْ يُعاجزوا رسول الله ﷺ أو يُعاجزوا المؤمنين ، أما الحق سبحانه فهو الغالب القادر ، وهل يستطيع أحد أنْ يُعجز الله ، ويتغلب عليه سبحانه ، فيجعله عاجزاً ، وهو سبحانه القادر الغالب ؟

فمعنى ﴿ **سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ..** (٥) ﴾ [سبأ] أى : وضعوا المكايد والعراقيل فى طريقها : ليفسدوا أمر الدعوة ، وحتى يردُّوها على رسول الله فى فمه الذى قالها ﴿ **مُعَاجِزِينَ ..** (٥) ﴾ [سبأ] حالة كونهم

معاجزيـن ، يعنى : يسيرون مع خالقهم فى مضـمار واحد ، الله يريد أنْ يُعـجـزهم ، وهم يريدون أنْ يُعـجـزوا الله ، وأنْ يـكونوا فى مكان القدرة الإلهية العليا ؛ ليثبتوا أن الدعوة باطلة .

ثم يُبيِّن سـبحانه جزاء هؤلاء المـعاجزين : ﴿ **أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ⑤ ﴾ [سبـأ] الرِّجز والرُّجـز هو الحمْل الثـقيل ، وأصله الذنب ، وما يتـرتب عليه من عقوبة ؛ لذلك يقـول تعالَى : ﴿ **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ⑤ ﴾ [المدثر] أى : الذنب الكبير ، أو العـقوبة المترتبة عليـه ، والمعنى : لا تفعل الذنب ، ولا ما يؤدى للعقوبة ، وإذا هجرتَ الذنب لا تأتى العقوبة .

وقد وُصف العـذاب هنا بأنه ﴿ **عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ⑤ ﴾ [سبـأ] والعذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، وهى أوصاف تدل علـى معَان مـختلفة لحـال واحدة ، فـهو أليم أى : يؤلم صاحـبه ، فإنْ كان جلْداً يدعى التـحمُّل فله عذاب مهـين يُهينه ، ويحطُّ من كرامته ، وهو الذى يتعالى أو يظنُّ نفسه عظيماً .

والعذاب المهين ليس بالضـرورة أن يكون مؤلماً ، فمن الناس مَنْ يؤلمه التوبيخ والتـقريع ، فإنْ أردتَ ضخامة العـذاب من حيث القدر ، فهو عذاب عظيم .

إذن : إنْ أردتَ الإيلام فهو عذاب أليم ، وإنْ كان قليلاً فى قدره ، وإنْ أردتَ التحـقيـر والإهانة فهـو عذاب مهـين ، وإنْ أردتَ ضخـامة العذاب فهو عذاب عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥ ﴾

هنا تثبيت لسيدنا رسول الله ﷺ ، فكأن ربه - عز وجل - يقول له : يا محمد لا تيأس من هؤلاء الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ولا تهتم ، فإن الذى جعل من الكفرة مَنْ يسعون بالفساد ويُعاجزون خالقهم جعل أيضاً لك مَنْ ينصر دعوتك ويؤيدك من الذين يؤمنون بآيات الله ، ويعلمون أنها الحق ، وأن مَا يقوله هؤلاء هو الهراء ، وهو الباطل .

فكما أثبتَ لهم سَعْياً فى الباطل ومعاجزة أثبتَ للمؤمنين العلم بآيات الله وتصديقها والاعتراف بأنها الحق ، وطمأن رسول الله أن هؤلاء لن يفسدوا عليك أمرك ، ولن يُطفئوا نور الله ، كما قال سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف]

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة]

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ] أى : يشهدون لك بأنك على الحق ، وأنك جئتَهم بمنهج هو الحق ، ويهدى إلى صراط مستقيم . إذن : فضَعْ هؤلاء قبالة الذين سعَوْا فى آياتنا معاجزين ، واعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء .

فالكفار الذين سَعَوْا فى آياتنا بالفساد مُجرَّدون عن معونة القدرة ، بل إن القدرة ضدهم ولهم بالمرصاد ، أما الذين أوتوا العلم وشهدوا لرسول الله ، فهم مُؤيِّدون للقدرة الإلهية ، والقدرة معهم تساندهم ، فأىُّ الكفَّتين أرجح ؟

ومعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ[1] أُوتُوا الْعِلْمَ (٦) ﴾ [سبأ] الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد ﷺ الذين صدَّقوه وصدَّقوا معجزته ورسالته .

أو : الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، فالمنصفون منهم يعلمون صدْق رسول الله ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم الذين ذهبوا إلى يثرب قبل بعثة رسول الله ينتظرون بعثته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا يقولون : لقد أظلّ زمن نبى جديد نتبعه ونقتلكم به قتْل عاد وإرم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

لذلك يقول القرآن فى جدال الكافرين : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ .. (٤٣) ﴾ [الرعد] أى : رداً عليهم ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. (٤٣) ﴾ [الرعد] أى : الله الذى أرسلنى بالمعجزة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد] أى : من اليهود والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل .

والعلم : هو كل قضية مجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، وغير ذلك لا يعتبر علْماً ، فالقضية إنْ لم يكُنْ مجزوماً بها فلا تدخل فى العلم ، إنما هى فى الشك ، أو فى الظن ، أو فى الوهم ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ، لكن ليس لها واقع ، فهذا هو الجهل .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : ليس الجاهل هو الذى لا يعلم ، إنما الجاهل الذى يعلم قضية منافية للواقع ، أما الذى لا يعلم فهو الأمىُّ خالى

---

(١) فى تأويل الذين أوتوا العلم هنا قولان :

– هم أصحاب محمد ﷺ . قاله قتادة فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٤) وقاله ابن عباس فيما ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٣٠) .

– هم المؤمنون من أهل الكتاب . قاله مقاتل فيما ذكره القرطبى ، وقاله الضحاك فيما ذكره القرطبى .

قال القرطبى : وقيل : جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه .

الذِّهْن تماماً ؛ لذلك يقبل منك ما تقول ، على خلاف الجاهل الذى ينبغى عليك أنْ تثبت له خطأ قضيته أولاً ، ثم تقنعه بما تريد .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ولها واقع ، لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فهى تقليد كالولد الذى نلقنه مثلاً ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ [الإخلاص] فيحفظها كما هى ، لكن لا يستطيع أنْ يقيم الدليل عليها ، فهو إذن مُقلد لمن يثق فيه وفى إخلاصه له ، كأبيه أو مُعلمه ، فإنْ وصل الولد إلى مرحلة يستطيع فيها أنْ يُدلِّل على صِدْق هذه القضية فقد وصل إلى مرتبة العلم .

والعلم وإنْ كان أنواعاً كثيرة ، إلا أنه يمكن حَصْره فى العلم الشرعى والعلم الكونى : العلم الشرعى أو علم الشرع ، ومصدره السماء يُبلِّغه رسول بمعجزة ، ولا دَخْلَ لأحد فيه ، وليس للبشر فى علم الشرع إلا النقل والرواية ، والبلاغ من الرسول ، وهذا العلم هو الذى يُحدِّد لنا الحلال والحرام ، وقد جاء العلم الشرعى لا ليتدخل فى العلم الكونى ، إنما جاء ليضبط الأهواء المختلفة ؛ لذلك يختلف الناس فى هذا العلم .

أما العلم الكونى فهو العلم الذى يبحث فى أجناس الوجود كلها : فى الجماد ، وفى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان ، فهذا العلم يقوم على نشاط العقل ، ولا يختلف الناس فيه ؛ لأنه مادىٌّ يعتمد على البحث والتجربة والملاحظة ؛ لذلك يتنافس فيه الناس ، وربما سرقوه بعضهم من بعض .

وبهذا العلم الكونى يُرَقِّى الإنسان حياته ، فالخالق عز وجل أعطاك كل مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، وعليك إنْ أردتَ رفاهية الحياة أنْ تُعمِل عقلك وفكرك فى معطيات الكون من حولك لتكتشف ما لله تعالى

فى كونه من أسرار وآيات تُرقِّى بها حياتك .

ففى الماضى ، كان الإنسان مثلاً إذا أراد الماء يذهب إلى النهر أو إلى البئر ، فإنْ عَزَّ عليه الماء طلب السُّقْيا من الله ، وتوجَّه إليه بالدعاء ولا شىء آخر ، فلما تطورتْ الوسائل وتوصَّل الإنسان إلى خواصِّ الماء واستطراقه من أعلى إلى أسفل ، واستحدث الخزانات والمواسير ، وصار يستقبل الماء فى بيته بمجرد فَتْح صنبور المياه أصبح إذا انقطعت عنه المياه لا يقول : يا ربِّ اسقنى . إنما يبحث عن سبب انقطاعها ، أهو فى (ماسورة) كُسِرت ؟ أم أن الكهرباء انقطعت فعطلتْ موتور الرفع ؟ أم أن محطة المياه تعطلت ؟ .. إلخ .

إذن : كلما تقدمتْ الحضارة ووسائل المدنية بَعُدت الصِّلات بيننا وبين الله .

وهذا العلم الكونى الذى يقوم على الفكر وإعمال العقل لا دَخْلَ للسماء فيه ، ويستوى فيه المؤمن والكافر ، فمَنْ سعى إليه وأخذ بأسبابه أعطتْه الأسباب ؛ لذلك وجدنا معظم الاختراعات والاكتشافات جاء بها علماء كفرة لا يؤمنون بالله ، كالكهرباء والتليفون والتلغراف وغيرها .

فمعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [سبأ] أى : العلم الشرعى ، وهم الذين آمنوا بك وصدَّقوك بالمعجزة على أنك رسول الله ، وأن ما جئتَ به هو الحق ﴿ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. ⦗٦⦘ ﴾ [سبأ]

وكذلك الذين أوتوا العلم الكونى لهم دَوْر فى تصديق الرسل وتأييدهم بما أوتوا من العلم الكونى الذى يدلُّ على الله ، وإذا كان القرآن كتابَ الله

المقروء ، فالكون بأجناسه المختلفة كتاب الله المشاهَد المنظور .

واقرأ إنْ شئت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧)﴾ [فاطر] هذا هو النبات ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ[2] (٢٧)﴾ [فاطر] وهذا هو الجماد ﴿وَمِنَ النَّاسِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] الإنسان ﴿وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أى : الحيوان ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

ثم يختم الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أىّ علماء ؟ علماء الكون الذين يبحثون فى أجناسه المختلفة وقوانينه العلمية والاجتماعية والصحية .. إلخ .

وهؤلاء العلماء يخشوْنَ الله ؛ لأنهم يشاهدون أسراره فى كونه ، ويُطْلعون الناس عليها ، فهم جُنْد من جنود الدعوة إنْ آمنوا يؤيدون قدرةَ الله ، بل ويستشهد علماء الشرع بكلامهم ، ويُظهرون قدرة الله فى الكون من خلال نظرياتهم العلمية ، إذن : للعلم الكونى مهمة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله .

لكن ، مَن الذى يرى منْ هؤلاء ـ علماء الشرع ، أو علماء الكون ـ أن الذى جاء به محمد هو الحق ؟

إنْ قُلْنا علماء الشرع فقد شهدوا لرسول الله وصدَّقوه ، سواء من المؤمنين برسالته ، أم من علماء أهل الكتاب ، وإنْ قلنا علماء الكون

---

(١) الجدة من الشىء : الجزء منه يخالف لونُه لونَ سائره . ومعنى الآية : أى من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب ، ووصف الغرابيب بأنها سود للتوكيد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

فقد شهدوا هم أيضاً لرسول الله وأيَّدوه بما لديهم من أسرار قدرة الله ، والدليل أننا كنا نتحدث فى قوله تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ[1] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ]

قُلْنا : إن الذرة هى الهباءة المتناهية فى الصِّغَر ، والتى لا تُرَى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس ، هذا هو كلام الحق سبحانه ، فأعطنى من العلم الكونى ما يثبت هذا الكلام ، وما يقنعنى بأن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا يخفى عليه حتى الذرة فى السموات ولا فى الأرض .

نقول : مَنِ الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ؟ لا أحد يستطيع أن يقول غير الله . كما قال سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم .. (٢٥)﴾ [لقمان] أى : الكفار ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف]

لا أحد يجرؤ أنْ يقول غير هذا ، مع أن الكفرة والملاحدة كثيرون ، لكن لم يدَّعِ أحد أنه خلق شيئاً ، كيف والناس يقفون عند أتفه الأشياء ، فيُؤرِّخون لها ويُخلِّدون اسم صانعها أو مخترعها ، لو سألت تلميذ الابتدائية : مَن اكتشف الكهرباء ؟ يقول لك : أديسون . مَنْ أول مَنْ صعد إلى القمر ؟ يقول لك : كذا وكذا .

فكيف نعرف هؤلاء ونصنع لهم التماثيل ونكرمهم ، ولا نسأل أنفسنا : مَنْ خلق الشمس ، مَنْ خلق القمر ؟ مَنْ أجرى الهواء .. الخ ، وهذه مقومات الحياة وأساسياتها ، وليست ترفاً كالأخرى .

---

(١) يعزب : يغيب ، فلا يغيب عن علمه سبحانه شىء . [لسان العرب ـ مادة : عزب] .

إذن : قضية الخَلْق هذه ساعةَ تُعرض لا بُدَّ أنْ يتمثل لك قوله تعالى ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] يعنى : لا يملك إلا أن يقول : الله .

تذكرون أننا قلنا : إذا قال الحق قولاً ، وقال البشر قولاً يجب أن ينطمس قول البشر أمام قول الله ؛ لأن البشر حين يُقنِّنون يُقنِّنون حسب ما يرى من أحداث ، ولا يحسب حساباً لما سيطرأ ، ومَا يُستجد ؛ لذلك تأتى قوانين البشر عاجزة قاصرة تحتاج دائماً إلى تعديل .

كذلك ، فى مسألة الإضاءة نرى البشر يضيء كل منهم بيته مثلاً حَسْب إمكاناته وقدراته ، فإذا جاء نور الله أُطْفئت كل الأنوار ، ومن هذه المسألة نأخذ الدليل على مسألة الذرة التى نحاول أنْ نثبت عِلْم الله لها من خلال العلم الكونى .

فنحن الآن فى المسجد ، والمسجد مُضاء ، ونرى كل شيء ، فهل ترون الآن غباراً فى جو المسجد ؟ لا ، مع أننا فى النور ، لكن ماذا لو جلستَ بجوار شباك مثلاً يدخل منه شعاع الشمس ؟ لا شك أنك سترى هذا الغبار المتطاير فى الجو .

إذن : هذا الغبار لا تراه إلا فى ضوء الشمس ، فنور البشر لا يكشف الغيبَ ، إنما يكشفه نور الله المتمثل فى ضوء الشمس ، فإذا كانت الشمس المخلوقة لله تعالى بيَّنَتْ لنا ما خَفِى عَنَّا ، أيعجز خالق الشمس سبحانه أنْ يعلم ما غاب عنَّا ؟

هذه إذن رسالة العلم الكونى ، أنْ يُثبت لنا ما يؤيد الدعوة ، وأن ما جاء به الرسول حق .

مسألة أخرى توضح مكانة العلم الكونى ومنزلته فى الدعوة ، هذه المسألة نجدها فى قوله تعالى عن عذاب الكفار يوم القيامة : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء]

هكذا قال الله تعالى ، وهكذا نقلها القرآن لنا لم يخبرنا شيئاً عن مراكز الألم والإحساس ، وكنا لا نعلم شيئاً عنها ، حتى جاء علماء وتخصَّصوا فى وظائف الأعضاء ، وبعد بحوث وتجارب توصَّلوا إلى أن الجلد هو المسئول عن الإحساس ، فقد لاحظ الألمان أن المريض حين نعطيه حقنة مثلاً لا يشعر بالألم إلا بمقدار ما تنفذ الإبرة من طبقة الجلد ، فأخذوا من ذلك أن الجلد هو محلُّ الإحساس ، وليس المخ أو النخاع الشوكى كما قال البعض .

أخذ علماء الشرع هذه القضية ، وجعلوها دليلاً على قول الحق سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا** .. (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا يا رب ؟ ﴿ **لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالجلد محل الإذاقة ، وهكذا ساعدنى العلم الكونى فى إثبات صدق القرآن الكريم ، وأنه حق .

كذلك نفعنا العلم الكونى فى إثبات كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، فالحق سبحانه أخبرنا أن الليل والنهار خِلْفة أى : يخلف كل منهما الآخر ، وهذا واضح لنا الآن فى تعاقب الليل والنهار ، لكن ماذا كان أول الخَلْق لو أن النهار خُلِق أولاً يعنى : خُلقت الشمس مواجهة للأرض ثم غابت ، فجاء الليل ، فالنهار فى هذه الحالة ليس خِلْفة لليل ، لأن النهار جاء أولاً لم يسبقه ليل فليس خِلْفة .

وعليه فلا بُدَّ أن تكون الأرض خُلقت على هيئة كروية ، ما قابل الشمس منها يكون النهار فيه ، وما لم يقابل الشمس يكون الليل

فيه ، فهما معاً فى وقت واحد ، فلما دارت الشمس تعاقب الليل والنهار ، وخلف كل منهما الآخرَ ، فلا تتأتى هذه الخِلْفة إلا بكُروية الأرض .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : العلم الشرعى المنزَّل من أعلى ، أو العلم الكونى القائم على البحث والمشاهدة . وقوله ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ] سواء كان علْماً شرعياً ، أو علماً كونياً يدل على أن العلم إيتاءٌ ، فليس هناك عَالم بذاته ، إنما العلم إيتاء من الله حتى فى علم الكونيات لذلك لم يقل علموا ، إنما ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ]

لذلك قالوا : إنْ كان العلمُ نعمةً من الله ، فكذلك النسيان قد يكون نعمة ، وجندياً يخدم الإنسان ، فنحن نعرف مثلاً (الخميرة) التى تخمر العيش ، إذا وجدت رغيف العيش (مبلّط) يعنى : وجهه ملتصق بظهره ترده للبائع وتطلب الرغيف (القابب) هذا ما تفعله (الخميرة) فى رغيف العيش تجعل الهواء يدخل بين ذرات العجين ، فحين تُدخِله النار يتمدد هذا الهواء فيُحدِث فاصلاً بين وجه الرغيف وظهره .

وهذه الخميرة هى التى تعطى للعيش طعمه المميز ، فهل تعرف من أين جاءت هذه الفكرة ؟ جاءت نتيجة نسيان ، فيُروى فى هذه المسألة أن امرأة عجنتْ العجين ، ثم انشغلت عن خَبْزه بعض الوقت ونسيته ، فلما تذكرتْ جاءتْ إليه وخبزته كما هو ، فوجدتْ هذا الفرق بين العجين حين يُخبز سريعاً ، وحين يُترك حتى يختمر ، وكانت هذه بداية فكرة الخميرة ، وكأن كل قطعة خميرة نأكلها الآن هى فى الحقيقة جزء من خميرة هذه المرأة .

كذلك يقال فى سبب شواء اللحم أن الإنسان أولاً كان يأكل اللحم

نيئاً ، وقد ذبح رجل شاة بالليل ، وأوقد ناراً يستدفىء بها ، فجاء ذئب ينازعه الشاة ، فدخل معه فى معركة ، فوقعت قطعة لحم فى النار ، فلما خلص من الذئب شَمَّ رائحة الشِّواء فأعجبته ، ومن هنا عرف الإنسان كيف يشوى اللحم .

إذن : الحق سبحانه يهدى خَلْقه ولو بالنسيان ، ولو بالمصادفة ، فالعلم حتى الكونى منه إيتاء من الله ، وكل قضية كونية لا يعطيك الله علمها مباشرة ، يعطيك المقدمات التى تُوصِّل إليها ، وتهدى إلى معرفتها .

وكنا ونحن نتعلم الهندسة ندرس كتاباً اسمه (هول ونايت) نتعلم كيف نبرهن على صحة النظرية ، فمثلاً النظرية المائة نبرهن عليها بما ثبت فى النظرية التسعة والتسعين وهكذا ، فحين تسلسل هذه المسألة نصل إلى النظرية ، رقم واحد ، كيف نبرهن على صحتها ؟

قالوا : البرهان عليها بدهية فى الكون ، فكأن كلَّ علم وصل إلينا أصله بدهية مخلوقة لله تعالى ، إذن : فالعلم سواء أكان شرعياً أو كونياً إيتاء من الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة] يعنى : يلهمكم ويرشدكم إلى الأشياء ولو بالمصادفة ، وسبق أنْ قُلْنا : إن لكل سر فى الكون ميلاداً ، إما أنْ يأتى نتيجة بحث الإنسان ، فإنْ لم يبحث الإنسان فيه كشفه الله له ولو بالمصادفة ، كما اكتشف الإنسان مثلاً البنسلين .

لذلك يقول سبحانه فى العلم الكونى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : يأذن سبحانه بميلاد

هذا الشيء ، فإنْ شاء سبحانه أعطاك علمه نتيجة بحثك وأنت تبحث وإنْ لم يكُنْ هناك بَحْث أعطاك العلم مصادفة .

أما العلم الذى استأثر الله به فهو غيب لا يحيط به أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** (٢٦) **إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..** (٢٧) ﴾ [الجن] هذا هو العلم الذى لا دَخْل لأحد فيه ، أما العلم الكونى فله زمن ، وله ميلاد يُولَد فيه .

ونلحظ فى أسلوب الآية أن المفعول الثانى للفعل (يرى) جاء على صورة الضمير المنفصل ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ..** (٦) ﴾ [سبأ] ولم يقل الحق فقط إنما ﴿ **هُوَ الْحَقَّ ..** (٦) ﴾ [سبأ] وهذا الضمير المنفصل يعنى أن غيره ليس حقاً ، فالحق هو الذى أُنزل على رسول ، وما عداه ليس حقاً ، وكأنها خاصية لم تُعْط إلا له ﷺ .

ومثلها قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) ﴾ [الشعراء] فلم يَقُلْ : الذى خلقنى يهدينى ؛ لأنها تحتمل أن يهديك غيره ، إنما ﴿ **هُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) ﴾ [الشعراء] قصرت الهداية عليه سبحانه وتعالى ، ومثلها ﴿ **وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ** (٧٩) **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** (٨٠) ﴾ [الشعراء] فقصر الإطعام والسُّقْيا والشفاء على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنك قد تظن أن أباك هو الذى يُطعمك ويسقيك ، وهو مجرد سبب ومُناول عن الله .

وكذلك قد تظن أن الشفاء بيد الطبيب ، وما الطبيب إلا معالج ، والشفاء من الله ، لكن تأمل حين تكلم سبحانه بعدها عن الموت والحياة ، قال : ﴿ **وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ** (٨١) ﴾ [الشعراء] ولم يأْت بالضمير المنفصل هنا ، لماذا ؟ لأن الموت والحياة لم يدَّعِها أحد غير

الله ، فليست مظنة المشاركة ، والكلام هنا عن الموت لا عن القتل ، وهناك فَرْق بينهما سبق أنْ أوضحناه .

إذن : قوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] دلَّتْ على أن الحق واحد ، هو ما أنزل الله ، وما عداه باطل ، ولا يجتمع حقَّان في مسألة واحدة ، إلا إذا كانت الجهة مُنفكة كأن تقول مثلاً : والله أنا ودعت فلاناً اليوم في المطار وسافر إلى كذا ، فيقول آخر : بل لم يسافر وأنا رأيتُه اليوم في بيته ، وعندها يتهم كل واحد منكما الآخر بالكذب فأسرعتَ إلى التليفون واتصلتَ بهذا الرجل ، فقال لك : نعم لم أسافر فقد طرأ لي طارىء ، فرجعت من المطار . إذن : فالخبران صادقان ، لكن الجهة منفكة .

والحق هو : الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يُنكر ، وكيف تنكر الحق وأنت حين تريد أنْ تؤيد نفسك في شيء تقول : هذا حقي يعني لي ولا ينازعني فيه أحد ، فالدَّعْوى التي تقيمها أن هذا حقك .

والحق إلى جانب أنه أمر ثابت فهو ينفعك ، فله إذن ميزتان أو حجتان : الأولى أنه الحق الثابت وغيره باطل ، والأخرى أنه يعود عليك نفعه ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾ [سبأ] ، فإذا لم تقبل الحق لذاته وتتعصب له ، فاقبله لما يعود عليك من نفعه ، فهذان الأمران هما من حيثيات التمسك بالحق .

ومعنى ﴿الْعَزِيزِ .. (٦)﴾ [سبأ] هو الذي لا يُغلب ولا يُقهر ، ومنه قولنا : عزَّ عليَّ كذا يعني : لم أقدر عليه ، وفلان عزيز يعني لا يقهره أحد ، فصفة العزة صفة ترهيب ، فحين تُعرض عن هذا الحق فاعلم أنك تعصي عزيزاً لا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب .

ثم يتبعها سبحانه بصفة من صفات الترغيب ﴿الْحَمِيدِ (٦)﴾

[سبأ] بمعنى المحمود على ما يُعطى من النِّعَم ، فهى تُرغِّبك فى المزيد من نِعَم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ] معلوم أن القول يحتاج إلى قائل ، وإلى مقُول له ، القائل هم الذين كفروا ، قالوا : لمن ؟ قالوا بعضهم لبعض وهم يتسامرون ، أو قال المتبوع منهم لتابعه الذى يقلده . أما قولهم فهو ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ]

ويلفت أنظارنا فى هذا القول أنهم وصفوا سيدنا رسول الله ﷺ بكلمة (رجل) ، وهى نكرة قصدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل من شأنه ﷺ .

وهذا فى حد ذاته يدل على غبائهم وتغفيلهم ، فهم أنفسهم الذين وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فدلَّ ذلك على غبائهم .

وهم أيضاً الذين قالوا ـ لما فتَر الوحى عن رسول الله ـ إن ربَّ محمد قلاه[1] ، وهذا عجيب منهم ، فعند المحنة والسوء يعترفون أن لمحمد رباً .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : وَدَع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) .

وقولهم ﴿يُنَبِّئُكُمْ .. ⦗٧⦘﴾ [سبأ] من النبأ ، ولا يُطلَق إلا على الخبر الهام وليس مطلق الخبر ، فمثلاً حين أقول لك : أكلتُ اليوم كذا وكذا ، وذهبتُ إلى مكان كذا لا يُعَدُّ هذا نبأ ؛ لأنه خبر عادى ، أما النبأ فخبر عجيب وهام وعظيم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ⦗١⦘ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ⦗٢⦘﴾ [النبأ]

ومعنى ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⦗٧⦘﴾ [سبأ] التمزيق : إبطال الكل عن أجزائه ، وإبعاد الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أجلس الآن على كرسى ، هذا الكرسى كُلٌّ مكوَّن من أجزاء : خشب ومسامير وغراء وقطن وقماش .. إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أفصل هذه الأجزاء عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء .

وينبغى هنا أن نُفرِّق بين الكل والكلى : الكل مكوَّن من شىء كثير ، لكنه مختلف فى الحقيقة ، فالخشب غير المسمار غير الغراء غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلى فيُطلق على أشياء كثيرة منفصلة ، إلا أنها متفقة فى الحقيقة ، كما نقول مثلاً : إنسان بالنسبة للأفراد شىء كلى ؛ لأن الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عن كل فرد : إنسان ، إنما فى الكل لا أقول الخشب كرسى .

هذا هو التمزيق ، فماذا أضافت ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⦗٧⦘﴾ [سبأ] ؟

أى : تمزيقاً شديداً يُمزِّق الكل ، ويمزِّق الجزء ، إذن : التمزيق له مراحل وصور ، فمعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⦗٧⦘﴾ [سبأ] استقصاء لأصغر شىء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق نشاهده فى تحلل الميت وتفكُّك أجزائه وعناصره ، حتى تذهب فى الأرض ، لا يبقى لها أثر .

ومن ذلك قولهم : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

فمعنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] أى : ذهبنا فيها وغبْنا فى متاهتها .

والتمزيق له أسباب متعددة ، فمَنْ يموت ويُدفن تمزِّقه الأرض ، ومَنْ يموت محروقاً تمزِّقه النار ، وربما تذروه الرياح وتتبعثر ذراته ، ومَنْ تأكله الحيوانات والطير .. إلخ .

ومع هذا التمزيق والتفتيت والبعثرة تستطيع قدرة الله أنْ تعيد الإنسان من جديد ، واقرأ : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] يستبعدون البعث ، فيردّ القرآن عليهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤) ﴾ [ق] يعنى : لا تستعجبوا ، فكل ذرة تبعثرتْ نعلمها ، ونعلم مكانها ، ونقدر على إعادتها ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] يعنى : ليس مجرد علم ، إنما علم مُسجَّل محفوظ ، لا يناله تغيير ولا تبديل .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) ﴾ [سبأ] الخلق الجديد أنْ يُعاد الشيء إلى أصل تكوينه ، كالذى يقلب البدلة مثلاً فتصير جديدة ، لماذا ؟ لأنه أعاد تكوينها من جديد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

هذا القول كسابقه يحتاج إلى قائل ومقول له ، ويصح أنْ يكون

قائله هو القائل الأول الذى قال ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ .. ⑦﴾ [سبأ] ويصح أن يكون الآخر الذى سمع القائل الأول فردَّ عليه :

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ]

معنى ﴿أَفْتَرَىٰ .. ⑧﴾ [سبأ] من الافتراء ، وهو تعمُّد الكذب ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ] أى : جنون يعنى : كلامه هراء ، لا وزن له ، ولا يُقال له صدق ولا كذب . لكن لماذا اتهموا رسول الله بأن به جِنَّة بعد أن اتهموه بالكذب والافتراء ؟

قالوا : لأن هذا اتهام كذب ، والكاذب دائماً يخاف أنْ يُفتضح أمره ، وينكشف كذبه ؛ لذلك يحاول أنْ يجعل لنفسه مخرجاً حين يثبت كذبه ، فقالوا ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ] فإذا ما ثبت صدق رسول الله ، وأنه ليس كاذباً ولا مفترياً وجد المتهم له مخرجاً فقال : والله أنا لا أدرى أهو مُفْتر أم به جِنَّة ، وما دام ثبتَ صِدْقه ، فهو به جِنَّة .

وعجيب أن يصف كفار مكة رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، وهو واحد منهم ، ما عرفوا عنه إلا أنه الصادق الأمين ، وما جرَّبوا عليه كذباً قط ، وما رأوْه يوماً خطيباً ولا شاعراً ، وهم أهل الفصاحة وفرسان الكلمة ، لا يَخْفى عليهم تذوُّق اللغة وفَهْم الأساليب العربية ، فكان عليهم أنْ يعقلوا أولاً قبل أنْ يُوجِّهوا لرسول الله هذا الاتهام .

ثم ، هل تأتى البلاغة ؟ وهل يأتى النبوغ بعد سنِّ الأربعين ؟ معلوم أن النبوغ يأتى فى أواخر العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من العمر ، ورسول الله ﷺ لَبثَ فيهم أربعين سنة قبل أنْ يُبلِّغهم عن الله كلمة واحدة .

لذلك يخاطبهم القرآن ، ويجادلهم بالحجة ، فيقول على لسان سيدنا رسول الله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس] يعنى : تدبَّروا الأمر واعقلوه ، فأنتم أهل البلاغة واللسان الفصيح ، ومنكم الخطباء والشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم منى شيئاً من هذا ؟

إذن : الذى قال ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ] احتاط لنفسه ، فحين يظهر صدْق رسول الله يقول هو : أنا قُلْت : إنه إما كاذب ، وإما مجنون .

ثم يردُّ الحق على هؤلاء : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ] كلمة (بَلْ) تفيد الإضراب عما قبلها ونفيه ورفضه ، ثم إثبات ما بعدها ، فهى تنفى أن يكون رسول الله مفترياً ، وتنفى أن يكون مجنوناً ؛ لأن رسول الله ما جرَّبتُمْ عليه كذباً من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات الجنون ؛ لأن المجنون لا يُحمد على فعل ، ولا يُذم على فعل ، ولا يُوصَف بصدق ولا كذب ، وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتم عنه « الصادق الأمين » .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] وهل يُوصَف المجنون بأنه على خلق عظيم ؟ هل يُوصَف المجنون بالأدب أو الوفاء أو غيرها من خصال الخلق الحميد ؟

فكيف إذن تصفون رسول الله بالجنون ، وقد شهدتم له بسيدة الخصال الحميدة فى النفس البشرية وهى الأمانة ، وكنتم تأتمنونه

على أشيائكم ، وتضعونها عنده ؟ لذلك خلَّف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أنْ هاجر ليرد الودائع والأمانات إلى أهلها(١) .

وبعد أن أبطل الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ] فى العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفْترِ على الله ، وهم فى الضلال البعيد ؛ لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شىء مُخِلٌّ بتكوينه إنما لم يكذب ، إذن : العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامه ﷺ بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا(٢) مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

الهمزة هنا للاستفهام . والمعنى : كيف يقولون هذا ويغفلون عن

---

(١) قال ابن إسحاق : لم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر ، أما على فإن رسول الله فيما بلغنى أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع ، التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ [سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٥] .

(٢) الكسفة : القطعة وجمعها كِسْف وكِسَف . وكسف السحاب : قطعه . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

آيات الله فى كونه ، وهى ظاهرة لهم غير مطموسة عليهم ؛ لأنهم يعيشون فى بادية سماؤها مكشوفة لهم ، ليستْ ذات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قلَّما يَروْن الشمس أو القمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أخبار الصحف .

أمَّا أهل البادية فيعيشون فى صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أنيسهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ؛ لذلك قال الرجل العربى(١) وهو يتأمل الكون من حوله وهو على الفطرة : سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج(٢) ، وبحار ذات أمواج ، القدم تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - تتهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٩﴾﴾ [سبأ] معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿٩﴾﴾ [سبأ] أمامهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ .. ﴿٩﴾﴾ [سبأ] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ؛ لأنك أينما سرْتَ فى هذه الاتجاهات فلن تجد إلا السماء ، حتى لو قلت تحتهم وحاولتَ أنْ تخترق الأرض فلا بُدَّ أن تصل فى النهاية إلى سماء فى الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق الأرض إلى نهايتها .

---

(١) هو : قس بن ساعدة بن عمرو ، من بنى إياد ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، طالت حياته ، وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال : يُحْشَر أمة وحده . [الأعلام للزركلى ١٩٦/٥] .

(٢) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة واضحة . [القاموس القويم ٧٢/٢] .

ثم أيُّ عظمة فى خَلْق السماء بهذا الاتساع وهى بلا عمد ؟ إنك لا تستطيع إقامة خيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبَّتْ عليها الريح اقتلعتْ أوتادها وأعمدتها وهدمتها على مَنْ فيها ، فكيف تمرُّ على آيات الله في السماء وفى الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ .. (٩)﴾ [سبأ] كما خسفها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [سبأ] كما نزلت الصاعقة من قَبْل على المكذِّبين للرسل و (كسفاً) جمع كسفة أى : قطعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾ [سبأ] آية يعنى : عبرة وعِظَة لكل عبد يحاول أنْ يرجع لربه .

فكأن الحق سبحانه جعل فى كونه هذه الآيات لتُذكِّر كل غافل ، وتردّ كل كافر ، وتعطفه إلى أنْ يرجع إلى ربه ، ولو رجع الكافر إلى ربه لَقَبِلَه .

إذن : الحق سبحانه خلق الخَلْق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بُدَّ أنْ نختبر مَنْ يستحق السعادة ، وأنْ نُميز مَنْ أطاع منهج الله ومَنْ عصاه .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مَثَلى ومَثَلكم كرجل أوقد ناراً فأخذ الذباب والفراش يتهافت عليها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون منى »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، واتفق عليه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى (آخذ بحجزكم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحته ، وقد ورد عن رسول الله أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضلَّه فى فلاة »[1] ففتح بالتوبة وبالإنابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملتْ للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدُّم السن أو المرض .. إلخ .

مما يبعد الإنسان عن مَظَانِّ الشهوات ، ويدعوه لأنْ يُقبل على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد طاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأن الخَلْق خَلْقه ، وصَنْعته ، والصانع يريد لصنعته الخير والسعادة .

وسبق أنْ ذكرنا الحديث الذى يُوضِّح أن السماء والأرض والجبال والبحار تمردَّتْ على ابن آدم ، واستأذنت ربها - تبارك وتعالى - أن تفتك به . فقالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكْرك .. إلخ ، فماذا قال الحق سبحانه لها ؟ قال : دعونى وما خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه ، فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ[1] وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[2] ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ ﴾

بعد أن فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل حتى الكافرين منهم ، وبعد أنْ فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعَوْا فى آيات الله معاجزين ما يزال الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ، فيلفت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكأنه سبحانه يقول لهم : لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام رحمة الله ، ولا تصدَّنكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله ، وإنْ كنتم أذنبتُم ، فمن الرسل مَنْ حدثت هفوة من بعضهم مع أنهم أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتمس لهم عذراً .

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً** .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] وفى موضع آخر بيَّن ما كان من أمر سيدنا داود : ﴿ **وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : لا تخجلوا أنْ تُنيبوا إلى الله ؛ لأن سيدكم الذى أعطيته

---

(١) أوبى معه : أى رددى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام . [القاموس القويم ١/٤٢] . وقال ابن كثير فى تفسيره : « التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأُمرت الجبال والطير أن تُرجِّع معه بأصواتها » .

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صُنْعها . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٧) : « لا تُدقُّ المسمار (أى : لا تجعله رفيعاً) فيقلقل فى الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها ، واجعله بقدر » .

كذا وكذا لمَّا حدثتْ منه هفوة استغفر وخَرَّ راكعاً وأناب ، يريد سبحانه أنْ يُحنِّن قلوبهم ليعودوا إلى أحضان ربهم .

كذلك سيدنا سليمان حدثتْ منه هفوة ، فابتلاه الله وعاقبه ، فتاب واستغفر ، واقرأ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤)﴾ [ص] والجسد يعني : أنه أصبح لا يستطيع الحركة في ذاته ﴿ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] فماذا كان من أمره بعد أن استغفر ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨)﴾ [ص]

لذلك يُقال : إن سيدنا سليمان ركب البساط مرة ، فداخله شيء من الزَّهْو أو الإعجاب ، فمال به البساط ، فقال له : اعتدل يا بساط ، فقال : أُمرنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله[1] . والمعنى : أنك ما سخَّرتنا ، إنما سخَّرنا اللهُ لك .

ومعنى (الفضل) الشيء الزائد ، وقد أعطى الله داود عليه السلام نِعَماً كثيرة لم يُعْطها لكثير من الأنبياء ، أعطاه الاصطفاءَ

(١) لم أقف على هذا الأثر فيما وصلت إليه يدى من مراجع ، ولكن لو أخضعنا هذا الأثر لما ورد فى القرآن وفى السنة لتيقنا أنه غير صحيح والله أعلم ، قال تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. (٣٦)﴾ [ص] ، قال ابن عباس : مطيعة له حيث أراد . [الدر المنثور ٧/١٨٩] . وبهذا انتفى أن تكون الريح قد ردَّت عليه أمراً ، أما الزهو والإعجاب الذى تملَّك سليمان حينئذ ، فيرد عليه ما رواه سلمان بن عامر الشيبانى قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم سليمان ، وما أعطاه الله تعالى من ملكه ، فلم يكن يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد] ، وأخرج ابن أبى حاتم نحوه عن ابن عمر قال ، قال ﷺ : « ما رفع سليمان طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ٧/١٨٩] . والله تعالى أعلى وأعلم .

وأعطاه المنهج ، وزاده نعمة أخرى خاصة به ، وهى أنه ألان له الحديد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ⑪ ﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿ مِنَّا .. ⑩ ﴾ [سبأ] دلتْ على أن النعمة ليست من ذاتك ، إنما من الله ، فتقديم الجار والمجرور هنا أفاد قصْر النعمة على المنعم سبحانه ، ومثلها الجار والمجرور فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ٣٩ ﴾ [طه]

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى عليه السلام : لقد أخذك آل فرعون ، والتقطوك من اليم فى وقت كانوا يقتلون فيه الأطفال ، وقد جئتَهم فى صورة تدعو إلى الشك ، لكنهم أحبوك ، ورأوا فيك قرَّة عَيْن لهم ، وأنت وقتها أسمر اللون ، كبير الأنف ، جعد الشعر يعنى : ليس فيك ما يلفت النظر ، لكن تذكَّر أنِّى ألقيتُ عليك محبة منى أنا ، فأحبوك .

والفضل من الله يأتى الناس جميعاً ، لكن الرسل لهم نعَم متميزة، وفضل أعظم فى صورة معجزات . ويُبيِّن الحق سبحانه فضله على نبيه داود بقوله : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ ﴾ [سبأ]

(يا جبال) نداء ، فالله ينادى الجبال ؛ لأنها تسمع وتعى هذا النداء ﴿ أَوِّبِي .. ⑩ ﴾ [سبأ] يعنى : رجِّعى معه ما يقول وما يقرأ من الزبور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول الجبال ، وأنها تفهم قوله ، وتُردِّد خلفه ، إذن : للجبال منطق ولغة أفهمها اللهُ نبيَّه داود .

وقد تناولنا مسألة تسبيح الجمادات لـمَّا تعرضنا لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ٤٤ ﴾ [الإسراء] ورددنا قول مَنْ قال إنه تسبيح الحال لا تسبيح المقال ؛ لأن

الله قال ﴿ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] وما دام قد حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول .

والذين قالوا بتسبيح الدلالة استعظموا أنْ يكون للجبل كلام ولغة وتفاهم ، لكن هل للجبل كلام معك أنت ؟ للجبل كلام مع ربه وخالقه الذى قال : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

إذن : ما دَخْلك أنت فى هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة فى تسبيح الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شىء لغةً تناسبه ، وقد رأينا لغة للهدهد ، ولغة للنمل .. إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق تسبيحُها تسبيحَه ، كذلك ﴿ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : يا طير أوِّب مع داود ، وردِّد معه التسبيح .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ، وإذا قال الله عدة أشياء ، ثم حدث فى الواقع أنه صدق فى واحدة ، ألاَ أُصدِّقه فى الأخرى ؟

فإذا قال سبحانه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] فلا بُدَّ أن نُصدِّق بذلك ، وأن نعتقد أن الحديد صار فى يد سيدنا داود مثل طين الصلصال الذى يُشكِّله الأطفال كيفما أرادوا[1] ، لأن البعض يرى أن ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : علَّمه الله أن النار تذيب الحديد ،

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] قال : ليَّن الله له الحديد ، فكان يسرده حلَقاً بيده يعمل به كما يعمل بالطين من غير أن يُدخله النار ، ولا يضربه بمطرقة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ولو أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس.

وللحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على مدى صلابته ، ولأهميته أنزله الله من علَ كما أنزل الكتب ؛ لذلك تكلم سبحانه فى سورة الحديد عن الرسل مثّل موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وتكلم عن إنزال الكتب ، وقال عن الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ㉕ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الإنزال يأتى من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل الكتب ينطق بها الرسل لهداية المهتدى الذى يسمع ، وأنزل الحديد لردع العاصى وزَجْره ، ففى الحديد بأس شديد فى وقت الحرب ، ومنافع للناس فى وقت السلم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ㉕ ﴾ [الحديد] ينصره فى أيِّ شىء ؟ ينصره فى الحديد ، وفى استخدامه وقت الحروب . وسيدنا داود ـ عليه السلام ـ آتاه الله ، وأنزل عليه هذا وهذا : الكتابَ للهداية ، والحديدَ للحرب .

لذلك قال له : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ⑪ ﴾ [سبأ] يعنى : دروعاً واسعة ، وهى عُدة الحرب يلبسها الجندى على مظانِّ الفتك ، وخاصة على الصدر ؛ لأن بداخله القلب والرئتين ، ولم يقُلْ له اعمل فأساً ولا محراثاً مثلاً ؛ لأن هذه لمنافع الأرض ، والله يريد ما يحمى المنهج ويزجر العاصى .

وكانت الدروع قبله تُصنع ملساء يتحرك عليها السيف ويتزحلق ، وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصْنع على قدر ما يحمى الصدر ، فعلَّمه الله أنْ تكون واسعة لتحمى أكبر قدر ممكن من الجسم ، فقال ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ⑪ ﴾ [سبأ]

وعلَّمه كذلك أن تكون على شكل حلَقٍ متداخلة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : أحكم تداخل هذه الحلَق بعضها فى بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك .

وكان درع الإمام على - كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه - ليس لها ظهر ، فقالوا له : ألاَ تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال : ثكلتنى أمى ، إنْ مكَّنْتُ عدوى من ظهرى[1] .

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلِّم نبيه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علَّمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العُدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علَّمه أنْ يُعد له ما استطاع من قوة .

ومعنى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] اجعلها بتقدير دقيق وإحكام فى النسج ، قال العلماء : السرد : الحلَق التى يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التى تثبت الحلَق بعضها إلى بعض .

فمعنى ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : لا تجعل الخُرْق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، ولا تجعله ضيِّقاً فيغلق المسمار الحلقة ، وقال آخرون : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة :

يُرْوى أن سيدنا داود - عليه السلام - كان يأكل من بيت مال

---

(١) أورد هذا الخبر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (٦٣١/١) ، قال : كان درع على - رضى الله عنه - صدراً لا ظهر له . فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبْق .

المؤمنـين ؛ لأنه المتولِّى لأمـرهم ، فأنزل الله مَلَكـاً فى صورة رجل ، وجعـل الناس يسـألونه : كـيف يعيش داود ؟ فـقال : فـيه كـثيـر من خصـال الخيـر ، إلا أنه يأكل من بيت المـال ، فلما بلغتْ هذه الكلـمةُ داود غـضب وتألم لهـا وبكى ، ثـم قال : يـا ربِّ لم جـعلْتَ فىَّ هذه المسـألة ؟ فعلَّمه الله صناعة الدروع ليعيش منها[1] .

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف[2] يعيش منها حتى تنفد ، فيصنع درعاً آخر وهكذا ، فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : اجعلها على قَدْر حاجتك ، ولا تبالغ فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] كأن الحق سبـحانه يقول لنبيه داود : تذكَّر حـين تعمل ما طُلب منك أنِّى بصـير بعملك مُـطلع عليه ، وهذه التـذكرة لنبى مـأمون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقن عمله طالما يراه صاحب العمل ، فإنْ غاب عنه أهمل العمل وغَشَّه ، فالله يحذرنا من هذه المسألة .

هكذا ورد أمر سيدنا داود فى هذا الموضع مـختصراً ، وإنْ كانت له قصص فى مواضع أخرى .

---

(١) ذكره الحـافظ ابن عسـاكر فى ترجمـة داود عليه السـلام من طريق إسحـاق بن بشر عن أبى إلياس عن وهب بـن منبه . قال ابن كـثير فى تفـسيـره (٣/٥٢٧) بعد إيراد الأثر : « إسحاق بن بشر فيه كلام » .

(٢) قاله ابن شوذب فـيما أخرجـه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن أبـى حاتم . قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . ألفين له ولأهله ، وأربعـة آلاف يطعم بها بـنى إسرائيل الخـبـز الحوارى (أى الخـبز المصنوع من الدقـيق الأبيض) [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ(١) وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) ﴾

يعنى : كما آتينا داود منّا فضلاً ، وكان من هذا الفضل أنْ أوَّبَتْ معه الجبال ، وألنَّا له الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده سليمان أنْ طوَّعنا له الريح ، وجعلناها تأتمر بأمره .

وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الريح إنْ وردت مفردة ، فهى فى الشر والعذاب ، وإنْ جاءت جمعاً دلَّتْ على الخير والرحمة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] وقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

وفى الرياح قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وبيان ذلك ، أن الريح إنْ كانت مفردة تُعَدّ ريحاً مدمرة ؛ لأنها تأتى من ناحية واحدة ، والذى يقيم الأشياء ويحفظ توازنها أن الرياح تحيط بها من كل جانب فتستقيم ، فالذى يدعم ناطحات السحاب مثلاً الهواء الذى يحيط بها ، فإنْ أفرغتَ الهواء من ناحية منها انهارتْ نحو هذه

---

(١) القطر : النحاس . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) . وقال عكرمة : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء . أخرجه ابن المنذر .

الناحية ؛ لذلك كانت الريح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألاَ ترىَ الأعاصير تدمر ؛ لأنها تأتى من جهة واحدة ؟

لكن ، هل سخَّر الله تعالى لسليمان الرياح ؟ أَمْ سخَّر له الريح ؟ قالوا : لم تُسخَّر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وظَّفها له وطوَّعها لأمره ، وهذه الريح أعطتْ سليمان عليه السلام عزَّة ومنعة ، بحيث لا يَقْوَى أحد على مواجهته أو التصدى له .

لذلك كان هو ـ عليه السلام ـ النبى والملك الذى لم يحاربه أحد ، ولم يجرؤ أحد على منازعته مُلْكَه ولا نبوته . كيف وفى يده من القوة ما لم يتوفر لغيره ، فسلطانه سلطان قَهْر إنْ أراد شيئاً أذعن الجميع لإرادته .

أما نبينا محمد ﷺ ، فجاءت دعوته لاستمالة القلوب ، لا لإرغام القوالب ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء]

ومعنى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. ۝١٢﴾ [سبأ] الغدو : السير أول النهار ، والرواح : العودة آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .. ۝١٢﴾ [سبأ] أى : أذبْنا له النحاس ، كما ألنَّا لأبيه الحديد ، فهذه واحدة من الأفضال التى خصَّ الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السد الذى بناه ذو القرنين ، فلما انتهى من بنائه قال : ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾ [الكهف] يعنى : نحاساً مُذَاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ ينقبه .

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خصَّ به سليمان عليه السلام : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ۝١٢﴾ [سبأ] ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ۝١٢﴾ [سبأ] أن المسألة كلها تسخير من الله لنبيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عنده .

لذلك قال : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا .. (١٢) ﴾ [سبأ] أى : يميل ، أو ينحرف عنه ، أو يعصاه ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾ [سبأ] فأمْر سليمان للجن من باطن أمْر الله ، ومَنْ يَعْصِ أمره كأنه عَصَى أمرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) ﴾

المحاريب : جمع محراب ، ويُطلق على القصر الفخم الواسع ، وعلى المكان الذى يتخذه الناس للعبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو ما يُنحَت من الحجر مثلاً ، أو يُصوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر .. إلخ . وفى مسألة التماثيل بالذات يطرأ سؤال : أيمتنُّ الله على نبيه سليمان بأن الجن تصنع له التماثيل مع ما عُرِفَ عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد حطمها الأنبياء ونَهَوْا عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا : حُطِّمت التماثيل لَمَّا اتخذها الناس للعبادة والألوهية ، وكانت من قبل لا تتخذ للعبادة ، بل للخدمة[1] ، وللدلالة على الإهانة

---

(١) على ذكر الخدمة هنا لابد أن أورد ما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وتماثيل) قال : اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال : يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح ، فكانت تخدمه ، وكان اسفيديار من بقاياهم . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦٧٩/٦] .

والإذلال ، ألم نَرَ فى الآثار القديمة كرسياً أو مائدة تقوم على هيئة مجموعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شُرفاتها على هيئة رجل مُنْحَن يحمل الشرفة بدلاً من الخرسانة التى نصنعها نحن الآن . إذن : كانت التماثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلما عُبِدت أُمِرنا بتحطيمها وتحريمها .

وقوله : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة المعروفة ﴿كَالْجَوَابِ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] كالحوض الواسع الكبير ، وهذا كناية عن كرمه وكثرة إطعامه الطعامَ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] أى : قدور ثابتة لِكبرها ، فهى لا تُرفع ولا تُحرَّك من مكان لآخر لعظَمها .

لذلك حُدِّثنا فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال : كان لرسول الله ﷺ جفنة (قصعة طعام) كنت أستظل بها فى اليوم القائظ فى مكة ، وهذا دليل على سعَتها وكبَرِها وكثرة من يُطْعمون منها[1] .

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدوراً للطعام ، وكان القدْر يسع الجمل يقف بداخله ، وأذكر أننى أول ما ذهبت إلى مكة دخلت المبرَّة[2] ، فوجدت بها قدوراً واسعة ، فوقفتُ فى إحداها فوسعتنى .

ومعنى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] أى : شُكْراً لله

(١) مما ورد فى هذا ما أخرجه أبو داود فى سننه (٣/٣٤٨) من حديث عبد الله بن بسر قال : كان للنبى ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهانى (حديث ٦١٤) طبعة الدار المصرية اللبنانية .

(٢) مبرَّة وزارة الأوقاف المصرية لخدمة الفقراء ، وكانتا اثنتين : واحدة فى مكة ، والأخرى فى المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل فى مِنَى .

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم فحسب ، إذن : فربُّك يُعلِّمك : لا تعمل على قدر حاجتك فحسب ؛ لأن في مجتمعك مَنْ لا يقدر على العمل ، فاعمل أنت أيها القادر على قَدْر طاقتك ، وخُذْ لنفسك ما يكفيك ، وتصدَّق بما فاض عنك لغير القادرين . ومعلوم أن شكر النعمة يقيدها أى يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ⑦ ﴾ [إبراهيم]

أو : المعنى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. ⑬ ﴾ [سبأ] أن أقدركم على العمل حتى تعولوا مَنْ لا يقدر على العمل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ⑬ ﴾ [سبأ] يعنى : قليل من الناس مَنْ يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك رُوِى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - سمع فى الطريق رجلاً يقول : اللهم اجعلنى من القليل ، فتعجَّب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناها ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ⑬ ﴾ [سبأ] وأنا أرجو أن أكون منهم ، فقال عمر متعجباً : كل الناس أعلم منك يا عمر[1] ؟!

فمن الناس مَنْ عنده مَلَكة التقاط المعانى وتوظيفها ، من ذلك ما يُحكَى من أن رجلاً كان يسير فى سوق البطيخ فى بغداد وهو صائم فى يوم حار ، فمرَّ برجل يبيع شراباً مثل العرقسوس مثلاً ، وينادى : غفر الله لمن شرب منى ، فمال إليه وقال له : اسْقنى ، فقال له صاحبه : تذكر أنك صائم ، فقال : والله لقد رجوتُ دعوته .

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى زمان - أنتم لم ترَوْنَهُ - كان عبارة عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة قبل

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمى ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٢) ، والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٤٦) غير معزُوّ .

أنْ يُطوَّر بهذا الشكل الحالى ، وكان به رجل يبيع الخيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يسعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فَبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ(١) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشياء التى سخَّرها الله لسليمان ليحقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفاها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٢) مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضاً خفَّة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملها ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحد من الإنس ؛ لأن

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسأة ، أخذت من نسأت البعير أى : زجرته ليزداد سيره . [لسان العرب ـ مادة : نسأ] .

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢ /٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جنىٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** .. (٣٩) ﴾ [النمل]

وكلمة (عفريت) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم (اللبخة) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿ **قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** .. (٤٠) ﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿ **قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** .. (٤٠) ﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[1] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال :

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/٤٠٠] .

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠)﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق - سبحانه وتعالى - يعلم أن الجن كانوا يَسْترقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صِينَ سر السماء جُلُّه . وبعده ﷺ صِينَ سرُّ السماء كلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون في السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبي هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع - ومُسْترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء » . أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر) ، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٩) والترمذي مختصراً (٥/ ٣٦٢) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تأتى الأحداث كما أخبروا ، فيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن فى هذه المسألة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : على سليمان ، وكلمة (قَضَيْنَا) تعنى : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعنى : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى (ميِّت) أى : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أى : سنموت ، أما الذى مات بالفعل فيسمى (مَيْت) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْر يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء لما أعطونَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين فى (دَلَّهُم) يعود على معلوم من السياق الأول فى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ]

قالوا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من الملْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضى الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[1] ، وهى (الردة) التى نعرفها ، وهى آخر درجة فى الدقيق ، والتى نسميها فى الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (نمرة واحد) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة فى هذا السنّ الذى يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحى والقطايف .. إلخ . يأتى الواحد منهم فى أواخر حياته فيُحرِّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا فى السنِّ وفى الردة التى ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التى أظهرت لنا أهمية (الردة) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب - مادة : خشر] .

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام[1] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هى قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ .. (١٤) ﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ دَابَّةُ الأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [سبأ] الأرض التى تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التى تَقْرض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هى العتة التى تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر فى العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ] أى : ما مكثوا وما ظلُّوا فى العذاب المهين . ومعنى خَرَّ : سقط بلا نظام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علِم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٨٤] .

بموت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا فى العمل ، وفى التعب والعذاب طوال هذه المدة[1] ، عندها انكشف أمرهم ، وعُلم كذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حيٍّ من تعب وإجهاد .

والمنْسأة هى العصا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُميَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التى تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيدنا موسى - عليه السلام - قال فى عصاه لما سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

وقد أطال موسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيدك ؟ ثم مَن الذى يخاطبه ربه ولا يطيل الحديث معه سبحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لبث سليمان عليه السلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصاً مثل عصاه ، ودابة مثل دابته ، فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة . (الدر المنثور ٦/٦٨٣) .

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم - على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل - كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص]

وقال : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة (خَرَّ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهذا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤)﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .

سبحان الله ، لم يَعُد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنهـا بأسرع ما يمكن ، ولو بقيتْ عندهم لا يتـحملها أحد منهم ، لما يطرأ عليها من تغيُّر ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقلنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل فى سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً وانسجاماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة فى الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدهد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة فى العقيدة ، وفى بيان أن الحيوان عنده دراية بالعقيدة ، وبأسرار الله فى كونه .

و (سَبَأ) عَلَم على رجل اسمه عمرو بن عامر ، ويُلقِّبونه بمزيقباء وأبوه (ماء السماء) وقد سأل كرَّة بين نسيك[1] رضى الله

---

(١) صوابه : فروة بن مُسَيْك المرادى ، له صحبة ، يعد فى الكوفيين وأصله من اليمن يكنى أبا سبرة ، وفد على النبى ﷺ فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وكانت وفادته هذه عام تسع أو عشر للهجرة ، واستعمله عمر على صدقات مذحج ، ثم سكن الكوفة وكان من وجوه قومه . [باختصار من الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ترجمة رقم ٦٩٧٥ ، وذكر له سؤاله رسولَ الله ﷺ عن سبأ] .

عنه سيدنا رسول الله عن سبأ فقال : (كذا وكذا ....) وكان له عشرة أولاد هم : أزد ، وكِنْدة ، ومَذْحج ، وأشعريون ، وأنمار ، وغسان ، وعاملة ، ولَخْم ، وجُذَام ، وخثعم[1] .

وقد كوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة . ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا فى خيرها الوفير ، فَيُروى أن بلقيس لما رأتْ ماء المطر يسيح فى الوديان وتتشرّبه الأرض ، فلا يستفيدون به ، فكَّرت فى بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيوناً كالتى عندنا فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعطى الماء بقدر ؛ لذلك زاد الخير والنماء فى اليمن ، حتى سُمِّيت اليمن الخصيب واليمن السعيد .

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبأ هذا : إن السد سيخرب ويُغرق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وفعلاً خرج سبأ إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب الغساسنة إلى الشام ، والمناذرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأزد إلى عمان فى الأردن .

واسم سبأ بعد أنْ كان عَلَماً على شخص تعدَّى إلى أنْ صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ .. ⑮﴾ [سبأ] أى : المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمَّى (سكن) أو (بيت) أو (منزل) ، ولكل منها معنى . والسكن هو المكان الذى يتخذه الإنسان ليسكن إليه وليطمئن فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٢٢) ، وأبو داود فى سننه مختصراً (٩٣٨٨) كتاب الحروف والقراءات من حديث فروة بن مسيك رضى الله عنه .

مُقوِّمات الحياة والأمن .

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جَدْباً لا زرع فيه ولا ماء ، ولا مُقوِّم من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿ أَسْكَنتُ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] أى : وطَّنْتهم فى هذا المكان .

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة ، فهو كالاستراحات التى تُجعل للطوارىء ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما رُوى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل ببدر سأله الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُعَوِّر (نفسد) ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى »[2] .

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى ، شهد بدراً ، وكان يكنى أبا عمر. قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ١٥٤٧] وذكر له أبياتاً من الشعر .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩ ، ٢٦٠) وعزاه لابن إسحاق أنه حُدِّث عن رجال من بنى سلمة .

إذن : السكن فيه دوام واستقرار ، أمـا المنزل فهو استراحة ، إنْ شئتَ نزلتَ به ، وإنْ شئتَ رحلتَ عنه .

أما البيت فيُلاحظ فيه البـيتوتة ، والإنسان لا ينام نوماً مريحاً إلا فى مكان يأمن فـيـه على نفـسـه وعلى مالـه ، فإن الخـائف وكـذلك الجوعان لا ينام .

ومن السكن قـوله تعالى فى بنى إسـرائيل : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

أخذ أحـد المستشـرقين هذه الآية ، وجعلهـا دليلاً على أن الأرض كلها مُبَاحة لليهود ، كيف وهم فى الأرض ، وأنت حين تريد هذا الأمر تقـول : اسكن القاهرة ، اسكـن طنطا مثـلاً ، فتـعـين لى مكاناً ، لكن ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] لها معنى آخـر ، هو التقطيع الذى قال الله عنه : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : ليس لهم وطن مخـصـوص ، وسوف ينساحـون فى الدنيا كلها ، ولن يتـمكن أحد من ضـربهم والقضـاء عليـهم ، وهم على هذه الحالة من التـقطيع ، حتى يأتى أمر الله ، ويجمعـهـم فى مكان واحد ، وعندها سيسهل القضـاء عليهم .

ومعنى كـلمة ﴿ آيَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبـأ] نقول : فـلان آية فى الكرم ، وفلان آية فى الأدب ... إلخ ، والمراد شىء عجيب نادر الوجود ، والحق سبحانه حدثنا عن أنواع ثلاثة من الآيات : آيات كونية مثل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعـنى معجـزات وخوارق للعـادة ، تأتى على أيدى الرسل

لتـؤيدهم وتثبت صـدْقهم فى البـلاغ عن الله ، كمـا فى قوله تعـالى :
﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

ثم تُطلق الآيات على آيـات الكتاب الحـاملة لأحكام الله فى القـرآن الكريم ، وهذه كلها ـ سواء كانت آيات كـونية ، أو معجزات ، أو آيات القرآن ـ كلـها عجـائب ، وإن كانت هذه العـجائب واضـحة فى الآيات الكونية وفى المعجزات ، فـهى أيضاً واضحة فى آيات الكتاب الحكيم ، فالقرآن عجيبة فى تنظيم حياة الناس بدليل أن الكافر به سيُضطر إلى الأخذ بأحكامه والانصياع لقوانينه ، لا على أنها دين ، ولكن على أنها قوانين حياة .

وسـبق أنْ مـثَّلْنـا لذلك بأحكـام الطلاق التى طـالمـا نقـدوها وهاجموها ، واتهـموا دين الله ـ ظلماً وجهلاً ـ بالقـسوة ، ثم بعد ذلك نراهم يلجـئـون إليه ، ولا يـجدون حـلاً لبـعـض مـشكـلاتهم إلا فى الطلاق وفى الرجـوع إلى أحكام الله ، مع أنهم غـير مـؤمنين به ، وهذا منتهى الغلَـبة لدين الله أن يرجع إليه الكافـر به ، إنها غلبـة الحق وغلبة الحجة .

وسبق أنْ قُلْنا : إن أحد المستشرقين سألنا فى سان فرانسيسكو قال : فى القرآن ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

وبعـد أربعـة عشـر قـرناً من الزمـان ما زال فى الدنيـا يهـودية ومسيـحيـة وبوذية ... إلخ ، وهذا الكلام يدل على عـدم فَهْم لمـعنى الآيات ، فليـس المـراد ﴿ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.. (٩) ﴾ [الصف] أن يصبح النـاس جـمـيـعـاً مـؤمنين ، بدليـل قـوله تعـالى ﴿ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

إذن : فالدين سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقنيناتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون له حلاً إلا فى شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد فى الآية .

ثم يوضح الحق - تبارك وتعالى - ماهية الآية التى كانت لسبأ فى مسكنهم ، فيقول سبحانه : ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥)﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ، فلا بُدَّ أن فيهما عجائب ، وأنهما يختلفان عن الجنَان التى نعرفها .

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين : لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا برغوثاً ... إلخ ، فإنْ طرأ عليهما طارىء ، وفى جسمه قُمَّل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين[1] ، وهذه كلها عجائب فى الجنتين .

ونلحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ؛ لأن كلمة آية تُطلَق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ولم يقل آيتين ، قالوا : لأن الأمر العجيب الذى جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام وُلد من لا ذكورة ، وأمه حملتْ وولَدتْ كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آية واحدة .

ومعنى : ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥)﴾ [سبأ] يحتمل أنْ يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، والأخرى عن الشمال ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. (١٥)﴾ [سبأ] قال : لم يكن يُرى فى قريتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ، وإن الركب ليأتون فى ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب ، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين ، فيمسك القفَّة على رأسه ، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده . [أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٧)] .

وبيته فى الوسط ، ويحتمل أن تكون الجنتان لأهل سبأ جميعاً ، بمعنى أنها جنَان موصولة عن اليمين ، وجنَان موصولة عن الشمال وَصْلاً لا يُميَّز بسور ولا حائط[1] ، مما يدل على أن الأمن كان مستتباً بينهم ، وقد شاهدنا مثل هذا فى أمريكا ، حيث الحقول والمزارع ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلْك بسيط .

وقوله سبحانه ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥)﴾ [سبأ] كيف نفهم ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] والناس جميعاً يأكلون من رزق الله ؟ قالوا : الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا رزق الله مباشرة بلا أسباب ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١)﴾ [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] أى : كله طيب ، وكله حلو ، فالفاكهة فى هاتين الجنتين لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ؛ لذلك سيقول سبحانه فى آخر الآية : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

ونعرف أن البساتين مؤونة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك نرى الفلاح حين يضيق بزراعة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة الحدائق والبساتين المثمرة ؛ لأنها أقلّ تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا وقت الإثمار .

---

(١) ورد فى الجنتين عدة أقوال ، منها :
- أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قاله قتادة .
- إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قاله سفيان .
- لم يُرِد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . قاله القشيرى . أوردها القرطبى فى تفسيره (٥٥٥٣/٨) وقال : أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها .

والحق سبحانه يقول فى غير هذا الموضع : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا فى هاتين الجنتين ، فهى عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، فالله سبحانه هو الزارع ، وقد خصَّها بالجو اللطيف ، لا حرٌّ ولا قَرٌّ ، ولا سآمة ، ولا مخافة ، ولا زهد فى نعمة من النعم لتكرارها .

إذن لا عمل لهم فى حدائقهم ينتج ما يستمتعون به ، إنما عملهم أنْ يشكروا المُنعمَ سبحانه ليزيدهم من الخيرات ، وشكْر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه ؛ لذلك قال سبحانه عن لقمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢) ﴾ [لقمان] لأن شكر النعمة يزيدها .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] يعنى : تعطيك طيب الأشياء بدون منغصات فيها ؛ لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به ، لكنها تتعبك وتُنغِّصك فيما بعد .

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ؛ لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد فى عطاء الله تظهر فى النعم متاعب ومُنغِّصات ، وهذا ما نعانى منه الآن بسبب التدخل فى المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية ، التى أفسدت علينا حياتنا ، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخّلنا فى عطاء الله ، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان فى البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات ، فمن الضرورى أن نتأدب مع الله فى عطائه .

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة

يحبون الخـروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائهـا ومياهها وما فـيها من صـخب ويخـرجـون إلى الريـف أو البـرارى ، يهـربون من الآثار الضارة لـلحضارة الحـديثة إلى الخـلاء ، حيث يعـيش راعى الأغنام ، حيث الطبـيعة كما خلقـها الله ، وحيث الفطرة السليمـة التى لم يتدخل فيها البشر .

تذكـرون فى المـاضى ، كنا نقـاوم دودة القطن مـقـاومـة يدوية طبيعـية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمـادة (دى دى تى) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المـادة السـامـة أماتتْ كل شىء فـى الحقـول ، قضَتْ على الأسـماك فى الترع والـمصارف ، وقـضتْ على (أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوَّثت الماء والمـزروعات ... إلخ . أما دودة القطن فهى الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قلنا (كييفة) دى دى تى .

أما سبأ فكانت ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] بكل ما فيها من طيب الماء والهـواء والتربة لم يُصبْهـا تلوث من أىِّ نوع ، وإذا كانت البلَدة نفسـها طيبة ، فما بالك بما عليها ؟

وفى الآية طلبان ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفيها تحـذير : إياك أنْ تغتر بالنعمة ، وتظن أنهـا أصبحت ملكاً لك ، وتنسى المنعم بها عليك ، إياك أنْ تكون كـالذى قال الله فيه ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصيل فـى هذه المسألة ، وظلّ دائمـاً على ذكْر بأن المنعم هو الله ، وأن مـا أنت فيه هو من عطـاء الله ، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه ؛ لأن الشكر قيد النعم .

وفى موضـع آخـر ، تكلم الحق سبـحانه عن شكر النعـمة فـقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ] والحمد لله أنه سبحانه لم يقُلْ :

وقليل من عـبادى الشاكـر ، وتعلمون أن الشكور صـيغـة مبـالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذى يشكر على النعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أنْ يشكر على النعمة ، فكأنه قدَّم الشكر مرتين .

ثم لم يَقْصُر النعمة على أهل سـبأ فى الدنيا وحَسْب ، إنما تعدَّت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففى الدنيا ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفى الآخرة ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ] يعنى : يتجاوز عنكم إنْ حدثت منكم زَلَّة أو هفوة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه النتيجة وردَّ فعْلهم ، فيقول :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[2] قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ] أى : عن المأمور به ، وهو ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سـبأ] فلم يأكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعـيهم ومهارتهم ـ على حـدِّ زعمهم ـ وهذه أول الخيبة ، ثم لم يشكروا الله على هذه الـنعم ؛ لأن النعم أترفتهم فنسوا شكرها .

وفَرْق بين ترف وأترف ، نقول : ترف فلان أى تنعَّم . لكن أترف

---

(١) العـرم : السيل الـشديد أو المطر الشـديد أو السـد يعـترض مـاء الوادى ، أو أنه اسم وادٍ بعينه. [القاموس القويم ٢/١٧] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . والأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثـير الأغصان أوراقـه دقيقـة وثمره حب أحمـر مُرٌّ لا يؤكل . والسدر : شـجر النبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة .

فلان ، أى : غرَّته النعمة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

فلا بأس أنْ تتنعم ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرّك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسبها إلى نفسك فتقول : بمجهودى وشطارتى كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المنعم ، فلا تشكره على النعمة .

وفى موضع آخر لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله سبحانه ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وقال فى قوم سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن]

إذن : صيانة النعمة بشكرها والاعتراف بها كلها منسوبة إلى المنعم سبحانه ، وحتى نحن على مستوى البشر نقول : فلان هذا حافظ للجميل ، فنزيده ولا نبخل عليه بجميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟!

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ؛ لأن الإعراض أنْ تنصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمَنْ لا يعجبك حديثه (اعطنى عرض كتافك) .

إذن : الإعراض تَرْك متعمَّد بلا مبالاة ، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفىً عنها ، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا ، فربُّك عز وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل .

واقرأ إنْ شئتَ قول ربك : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالآمر ، فالنكبة فيه أشدُّ على خلاف أنْ تكون معتنياً بالآمر ، وبعد ذلك تتهم نفسك لأيِّ سبب آخر .

ويقول تعالى أيضاً في الإعراض : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٥١) ﴾ [فصلت] وسوف يأتي الجزاء على قدر الإعراض ، كما بيَّن الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

كما نقول : أنت ربيتَ مَنْ سيقتلك فيما بعد ، كذلك هؤلاء كنزوا الأموال ليتمتعوا بها قليلاً في دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعة ذلك يوم القيامة ، نار تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى يتمنى الواحد منهم - والعياذ بالله - لو أنه قلَّل منها حتى يُقلل من مواضع الكيِّ .

وتأمل هذا الترتيب : جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذي سأل صاحب المال في الدنيا ، فأول ما يراه يشيح عنه بوجهه ، ثم يعطيه جانبه ، ثم يدير إليه ظهره ، فيأتي الجزاء من جنس العمل وبنفس تفاصيله .

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .. (١٦) ﴾ [سبأ] أي : بعد أن انهار سدُّ العرم ، فسال ماؤه ، فأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي ،

لكن إذا أراده سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك اللهُ قومَ نوح ، وبه أهلك فرعونَ وجنوده ، وهذا من طلاقة قدرة الله ، حيث يوجه الشيء للحياة فيُحيي ، وللهلاك فيُهلك .

وبعد أنْ أفزعهم سيل العرم لما أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا في أماكن لا ماء فيها ، فإذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقِرَب ، وكأن الماء أحدث لديهم (عقدة) .

وهذه القضية القديمة لها عندنا قصة حديثة : كنا ونحن في الأزهر نلبس (القفاطين) و (الكواكيل) ، وكان لنا زميل حالته رقيقة ، وكان لا يملك إلا (كاكولة) واحدة لبسها حتى بليت وتمزقت ، فكان يمدّ يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن يداريه ، حتى صارت عادة عنده ، ثم رزقه الله بأخ له توظف واشترى له (كاكولة) جديدة ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع الغير موجود في الجديدة ، فقال له أحد الزملاء : ما لك ؟ فقال : القديمة رعباني .

والسيل : أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أنْ تشرَّبت منه قَدْر حاجتها ، فما فاض عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه يعلمنا : قبل أنْ نبحث عن مصادر الماء لا بُدَّ أنْ نبحث عن مصارفه حتى لا يغرقنا ، واقرأ : ﴿ وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَـٰسَمَاءُ أَقْلِعِي .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود]

فالأمر الأول للأرض أنْ تبلع الماء وتتشرَّبه ، ثم يا سماء أمسكي ماءك ؛ لذلك إذا تشبَّعت الأرض بالماء نقول : الأرض (عنِّنت) يعني : امتلأت بالمياه الجوفية ، فإنْ كانت أرضاً زراعية لا تُخرج زرعاً ، وإن كانت في المدن أضرَّت بالمباني ، وفاضتْ في الشوارع وكسرت

المواسير ... إلخ ، ويعرف أهمية الصرف مَنْ يتعاملون مع الأرض .

وسيل العَرِم منسوب إلى العرم ، وله إطلاقات متعددة ، فالعرم هى الحجارة التى تُبنى بها السدود ، أو هو الجُرْذ (الفأر) الذى نقب السد[1] ، وأحدث به فجوة نفذ منها الماء ، فوسّعها وجعلها عيناً .

وقد رأينا ما فعله الماء فى تحطيم خط بارليف ، حيث هدى الله أحد مهندسينا جزاه الله خيراً إلى فكرة استخدام ضَخِّ الماء بقوة لإزالة الساتر الترابى الذى كان عقبة فى طريقنا للاستيلاء على هذا الخط المنيع وتحطيمه ، وفعلاً كانت فكرة أدهشتْ العالم كله .

والعَرِم جمع مفرده عرمة مثل لَبِن ولبنة ، لكن اللبن هو الطوب (النىّ) أو الطين ، أما العرم فهو الطوب المتحجر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. (١٦)﴾ [سبأ] من صفاتهما أنهما ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ .. (١٦)﴾ [سبأ] يعنى : أبدلهم الله بالجنتين السابق وصفهما بجنتين أُخْريين ، لكن ثمارهما ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ .. (١٦)﴾ [سبأ] يعنى : ثمر مُرّ تعافُه النفس ، وأشجارهما ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)﴾ [سبأ]

والأثل : هو شجر الطرفاء ، وهو قليل النفع لا ثمر له ، والسدر : هو شجر النبق المعروف ، وهو شجر قليل الفائدة . فكيف يُسمى هذا جنة ؟ قالوا : سماها الحق جنة على سبيل التهكم ، وإلا فليس فى الجنة مثل هذا الشجر . ونلحظ أن الحق سبحانه رحيم بهم حتى فى العقاب ، فلم يجعلها خاوية لا شىء فيها .

ثم يقرر الحق تبارك وتعالى أن ما نزل بهم ليس ظلماً لهم ، إنما

---

(١) قاله الزجاج وابن الأعرابى . وقال مجاهد وابن نجيح : العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى فى السد فشقَّه وهدمه . وعن ابن عباس أيضاً : العرم المطر الشديد . [تفسير القرطبى ٨/ ٥٥٥٤] .

جزاء ما فعلوا ﴿ذَلِكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] يعنى : ما سبق ذِكْره من الأكل الخمط والأثل والسدر ﴿جَزَيْنَاهُم .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] أى : جزاءً لهم ﴿بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] والكفر سَتْر النعمة ، وهؤلاء ستروا نعمة الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جَهْدهم وسعيهم وملكهم ، وستروا نعمة الله حين لم يلتفتوا إلى المنعم سبحانه ولم يشكروه ، فما أطاعوا في ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] وما أطاعوا فى ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ.. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ]

ثم يُنزه الحق سبحانه نفسه بهذا الاستفهام التقريرى : ﴿وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] وجاء بالكفور وهى صيغة مبالغة ، ولم يقل سبحانه : الكافر ، وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فهو سبحانه لا يجازى منهم إلاَّ الكفور أى : المُصِرّ على الكفر المتمادى فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذه نعمة أخرى يمتنّ الله بها على أهل سبأ ، فمعنى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] والمراد بلاد الشام التى قال الله فيها فى قصة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

والقرى جمع قرية ، وهى اسم لمكان متواضع البناء ، به مقومات الحياة الضرورية ، فإذا نزلْتَه وجدت به قِرَى يعنى طعاماً وشراباً .

ونعلم أن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين اليمن والشام ، فجعل الله لهم في طريق تجارتهم ﴿قُرًى ظَاهِرَةً .. ⟨١٨⟩﴾ [سبأ] يعني : متقاربة متواصلة ، كانت بمثابة استراحات في الطريق مثل (الرست) وذلك لبُعْد المسافة بين اليمن والشام في رحْلَتَي الشتاء والصيف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُيسِّر لهم تلك الرحلات ، وأنْ يقطعوها بلا مشقة .

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ .. ⟨١٨⟩﴾ [سبأ] يعني : جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة ، فالقرى الظاهرة لهم في سيرهم والقريبة منهم بحيث يمرون بها ويروْنَها على طريقهم بلا مشقة ، قرى مُوزَّعة على مسافات الطريق ، بحيث كلما ساروا مسافة وجدوا قرية على سابلة الطريق .

وهذا يعني أنهم سيأمنون ، لا يخيفهم شيء ، وأنهم لا يحتاجون لحَمْل زاد ، فالقرى التي يمرون بها تكفيهم مؤنة الطريق ، ويجدون بها حاجتهم ، وهذا أيضاً يعني أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل .

والسير أي في الصباح ويقال كذلك للغدوة والروحة ، ثم يُؤنسهم الحق سبحانه بهذا الأمر ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ⟨١٨⟩﴾ [سبأ] بحيث يسير في الغدوة إلى مكان يقيل فيه ، ويسير في الرواح إلى مكان يبيت فيه يعني : محطة للقيلولة ومحطة للبيتوتة . وهذا السير في ظل أمن وأمان ضَمنه لهم الحق سبحانه ، فلا يروعهم شيء لا من الناس ، ولا من الوحوش .

وحين نقارن بين قوله تعالى هنا ﴿آمِنِينَ ⟨١٨⟩﴾ [سبأ] وبين قوله تعالى عن قريش : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ⟨٤⟩﴾ [قريش] نجد أن الأمن يتوفر بالإطعام والأمان من الخوف ، وهنا قال

﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] ولم يَقُل من خوف ؛ لأن معنى ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] أى : الأمن التام آمنين من الخوف ، وآمنين من الجوع ؛ لأنه لم يُذكر مع ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] متعلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑲﴾

تأمل هذا التعنت وهذا البطر لنعمة الله ، حيث لم يعجبهم أنْ قَاربَ الله لهم بين القرى ، فطلبوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ⑲﴾ [سبأ] يعنى : افصل بين هذه القرى بصحارٍ شاسعة ، بحيث لا يستطيع السفر فيها إلا الأغنياء والقادرون الذين يملكون المطايا القوية القادرة على الحمل[1] .

إذن : نظرتهم فى هذه المسألة نظرة اقتصادية كلها جشع وطمع ، فهم يريدون أنْ يحرموا الفقراء وغير القادرين من السفر للتجارة معهم ، فحين تتقارب القرى وتكثر الاستراحات على طول الطريق ، فلا يكاد المسافر يتجاوز قرية إلا بدَتْ له الأخرى من بعيد ،

---

(١) وذلك مثل قول بنى إسرائيل عندما بطروا نعمة الله بإنزال المن والسلوى عليهم دون مجهود منهم ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. ⑥①﴾ [البقرة] ، فكان عقابهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ⑥①﴾ [البقرة] .

فهذا يُسهِّل السفر على الفقراء الذين يركبون الدواب الضعيفة ، فوسائل الامتطاء تختلف حسب قدرات الناس ، فواحد على جواد ، وواحد على ناقة ، وواحد على حمار .

وقُرْب المسافات بين القرى شجَّع الفقراء على السفر لرحلة الشام ؛ لذلك طلب هؤلاء أنْ يباعد الله بين هذه القرى فهو مطلب جَشِع أنانى ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. ١٩ ﴾ [سبأ] نعم ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم حرموها من الراحة التى جعلها الله لهم ، وظلموا أنفسهم لأنهم أرادوا أنْ يحتكروا هذه التجارة ، وألاَّ يخرج إليها غيرهم من الفقراء ، أو ظلموا أنفسهم لأنهم أثبتوا لها عدم اكتمال الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يكتمل للمؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهؤلاء يحبون أنْ يستأثروا بالنعمة لأنفسهم ، ويحرموا منها غيرهم .

لكن ، كيف تكون المباعدة التى طلبوها فى طريق تجارتهم؟ عرفنا من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فاستقامة الطريق تُيسِّر الحركة فيه ، وتقلِّل الوقت والمجهود ، والمباعدة لا تكون إلا بتحطيم بعض هذه القرى لتبعد المسافة بينها ، أو بأنْ يلتوى الطريق ، أو يدور هنا وهناك .

فكانت نتيجة هذا الجشع والبطر ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ١٩ ﴾ [سبأ] أى : أحدوثة يتحدث بها الناس أو (حدوتة) تُحكى ، كما لو وقع مجرم فى أيدى رجال الشرطة ، فجعلوه عبرة لغيره حتى تحاكَى الناس به ، كذلك أهل سبأ جعلهم الله عبرة لغيرهم حتى صارت سيرتهم مثلاً يُضرب ، يقولون فى المثل العربى الدال على التفرُّق : تفرقوا أيدى سبأ ، يعنى : تفرقوا بعد اجتماع كما تفرَّق أهل سبأ .

ومعنى ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ١٩ ﴾ [سبأ] أى : التمزيق والتفريق بكل أنواعه وطرقه ، بحيث يتناول التمزيق كل الأجزاء مهما صَغُرَتْ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ .. ١٩ ﴾ [سبأ] يعنى : فيها عبر وعظات يستفيذ منها العاقل فى حياته .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩ ﴾ [سبأ] صبار وشكور من صيغ المبالغة ، صبَّار مبالغة من الصبر ؛ لأن هؤلاء ظلموا الفقراء واضطهدوهم ، وأرادوا أنْ يقطعوا عليهم سبيل النعمة ، وأن يستأثروا به لأنفسهم وقد تكرر منهم ذلك ؛ لذلك لم يقل لكل صابر ؛ لأنهم تحملوا من الأذى ما يحتاج إلى صبر كثير .

وسبق أنْ قُلْنا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لضَنَّ عليه بالظلم ، ويكفى المظلوم أن الله تعالى سيكون فى جانبه يوم القيامة .

ومن الغباء أن الظالم حين يتنبه إلى ظلمه وتهدأ شِرَّته وعصبيته يريد أنْ يُكفِّر عن ظلمه ، فيسعى فى أبواب الخير ، ويبنى مسجداً مثلاً أو مدرسة ... إلخ يظن أن له ثوابها ، والحقيقة أن الثواب لمن ظلمهم وأخذ أموالهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ٤٧ ﴾ [الأنبياء]

وقال أيضاً ﴿ شَكُورٍ ١٩ ﴾ [سبأ] يعنى : كثير الشكر لله أنْ أَقْدره على أن يصبر ؛ لذلك قالوا : ما صبرت وإنما صبَّرناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠ ﴾

معنى ﴿وَلَقَدْ .. (٢٠)﴾ [سبأ] توكيد باللام مرة وبقد أخرى ﴿صَدَّقَ .. (٢٠)﴾ [سبأ] حقق وأكد ﴿عَلَيْهِمْ .. (٢٠)﴾ [سبأ] على أهل سبأ وأمثالهم ممَّن اتبعوه ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ .. (٢٠)﴾ [سبأ] ما ظَنُّ إبليس ؟ ظنُّه أن شهوات البشر ستُمكِّنه من إغوائهم ، ونحن نعلم قصته لمَّا أمره الله بالسجود لآدم فأبَى وقال مهدداً : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] وكان لا يزال فيه بقية من حياء ، فقال : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

فظنُّ إبليس أنه قال : لقد أغويتُ أباهم وقدرْتُ عليه حين أغويته ، فأكل من الشجرة مع أنه كان أول الخَلْق وأقواهم ، وقد كلَّفه الله مباشرة وكلَّفه بشيء واحد ، وهو أنْ يأكل من كل ثمار الجنة ، عدا هذه الشجرة ، ومع ذلك قدرْتُ عليه . إذن : فأنا أقدر على ذريته ؛ لأنهم أقلُّ منه قوةً ، وقد كلَّفهم الله تكليفاً غير مباشر ، وكلَّفهم بتكاليف متعددة ، فأنا أقدر عليهم من قدرتي على أبيهم .

وهذا الظن من إبليس ليس علْماً للغيب ، إنما هو قياس قاس ذرية آدم على أبيهم ، فإذا كان آدم هو المخلوق الأول الذي خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته وكلَّفه مباشرة ولم يُكلِّفه إلا بأمر واحد ، ومع ذلك قدرْت عليه فأنا على ذريته أقدر ، هذا قياس لم يصل إليه إبليس ولايةً ولا كرامةً ؛ لذلك سماه ظناً .

فلما قدر إبليس على ذرية آدم وأغواهم بالفعل قال : ظني جاء في محله ؛ لأنهم بالفعل اتبعوه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ .. (٢٠)﴾ [سبأ] ثم يأتي هذا الاستثناء ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)﴾ [سبأ] فجاء هذا الاستثناء مطابقاً للاستثناء الأول ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾

لما أغوى إبليس بنى آدم هل لهم عذر فى هذا الإغواء ؟ وهل الذنب هنا ذنب إبليس ؟ الحق سبحانه يخبر عنه وعنهم هذا الخبر فى سياق قصة سبأ : ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ** .. (٢١) ﴾ [سبأ] ، وقد التقط إبليس هذه العبارة وجعلها حُجَّة له يوم القيامة ، فإذا قال له البشر يوم القيامة : أنت سبب ضلالنا وغوايتنا قال : ﴿ **وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم** .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا تلومونى ولا تظلمونى ، فقد كنتم (على تشويره) منى ، وليس لى عليكم من سلطان : لا سلطان قوة أقهركم بها وأجبركم على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به ، والفرق بين سلطان القهر وسلطان الحجة أنك تفعل مع الأول وأنت غير راض فأنت مُكْره ، أمّا مع سلطان الحجة والمنطق فإنك تفعل ما يُطلَب منك عن رضا واقتناع .

وربنا عز وجل حذرنا من إبليس ووسوسته ونزغه ، وعلمنا أننا لن نقهره إلا بالله خصوصاً بهذه (الروشتة) التى قال الله فيها : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** .. (٣٦) ﴾ [فصلت]

مجرد أنْ تُذكِّره بالله يخنس ويهرب ويتراجع ، فهو يقدر عليك

وحدك ، فإنْ لجأتَ إلى ربك خاف وفَرَّ ؛ لأنه لا قدرةَ له ، ولا كيد مع ذكر الله ، لذلك قال بعض العارفين : قل هذه الكلمة بقوة وكأنك تراه وتصرعه .

فماذا نفعل إنْ جاء لأحدنا وهو يقرأ القرآن ؟ قالوا : يقطع قراءته ، ويقول بصوت أعلى وبأسلوب مغاير لقراءته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد حاولنا أن نُقرِّب هذا المعنى لأذهان الناشئة فقلنا : لو أن أحد الأغنياء مثلاً يجلس فى (الشرفة) ليلاً ، فرأى لصاً يحاول دخول بيته ، فقام من مكانه ، وقال (إحم) ماذا يصنع اللص ؟ يهرب ، فإنْ قال فى نفسه لعلها مصادفة ، ثم عاد فى الليلة التى بعدها ، فتنبَّه له صاحب البيت ، وقال (إحم) عندها يفرّ بلا عودة ، فصاحب البيت متنبه غير غافل .

كذلك ، قَوْل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يُفزع الشيطان ويطرده ، فإنْ عاد إليك مرة ومرة فقُلْ كلما شعرت بوسوسته ونزغاته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، عندها سيعلم أنك (فقسته) ، وأنه لا مدخل له إليك .

وقد عرف الشيطان حين جادل ربه من أين يدخل على ابن آدم ، فقال : ﴿ **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو كما ذكرنا ، لا يقعد فى خمارة مثلاً ، إنما يقعد فى المسجد ، فهو يعلم أنك فى عبادة ، وكُل مُناه أنْ يُفسد عليك عبادتك ، ألاَ تراه يُذكّرك فى الصلاة ما نسيتَ من مهمات الحَياة ، وعلى المؤمن أنْ يقدِّر موقفه بين يدى الله ، وألاّ ينشغل بأى شىء وهو فى حضرة ربه .

فالصلاة هى الصراط المستقيم الذى سيقعد لك الشيطانُ عليه ؛ لذلك علَّمنا فقهاؤنا - رحمهم الله ورضى الله عنهم - أنْ نغيظ

الشيطان ، فإذا وسوس لك فى الصلاة بحيث لا تدرى ، أصليتَ ركعتين أم ثلاثاً ، فاعتبرها ركعتين وابْنِ على الأقل ، كذلك فى الوضوء وأمثاله من العبادات ، لتغيظه وتُيئسه منك .

وظاهرة السهو فى الصلاة فى الحقيقة ظاهرة صحية فى الإيمان ، فلا تُمرض نفسك بها ، وكُنْ قوىَّ الإيمان وتشجَّع على هذا العدو ، وقُلْ له : لن أعطيك الفرصة لتفسد علىَّ لقائى مع ربى ، قل هذا (واشخط شخطة إيمان) فإنك تحرقه ، وإن عاد فَعُدْ ، واعلم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء]

فلا قدرة له عليك ما دُمْت فى معية الله ، وما دُمْت ذاكراً لله ، عندك تنبُّه إيمانى ، وتنبُّه عقدى .

وسبق أنْ حكينا قصة الإمام أبى حنيفة لما جاءه رجل يستفتيه ويقول : يا إمام ، لقد كنتُ أخفيتُ مالاً فى مكان فى الصحراء ، وعلَّمته بحجر ، فجاء السيل فطمسه حتى ضللتُ مكانه ، فضحك الإمام وقال للرجل بما لديه من خبرة وتمرُّس وملَكة فى الفتيا : يا بنى ليس فى هذا علم ، لكنى سأحتال لك ، اذهب بعد أنْ تصلى العشاء ، فتوضأ وضوءاً جديداً بنية أنْ يهديك الله إلى ضالتك وصلِّ لله ركعتين ، ثم أخبرنى ماذا حدث .

فعل الرجل ما أوصاه به الإمام ، فجاءه إبليس ليفسد عليه صلاته وقال له : إن المال فى مكان كذا وكذا ، فراح فوجد المال ، ثم عاد إلى الإمام فأخبره فقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتِم ليلتك مع ربك .

إذن : فَثِق بكلمة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وقُلْها بقوة

إيمـان ، أيقول الله قَـوْلة يأتى واقع الحـياة من المـؤمن به ليكذبهـا ؟ وجَرِّبها أنت بنفسك .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. (٢١) ﴾ [سبـأ] ما دام أنه ليس لإبليس سـلطان على بنى آدم ، وما دام أنهم على (تشـويرة) منه ، فـلا بُدَّ أنَّ إيمانـهم غيـر راسخ ، وأنهم تَسُـوا حكماً من أحكام الله ؛ لأنه سـبـحانه حـذرهم منه ووصف لهم طريقة التغلب عليه فلم يفعلوا .

فكانت غواية إبليس لهم ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِـمَّنْ هُوَ مِنْهَـا فِي شَكٍّ .. (٢١) ﴾ [سبـأ] أى : علْم وقـوع ، وإلا فـالحق سـبـحـانه يعلم ما سيكون منهـم أزلاً ، لكن لا بُدَّ أنْ يحدث منهم الفعل لتقـوم الحجة عليهم كالمعلم الذى يرى على تلميذه علامات الفشل ، فيحذره ، فحين يدخل الامتحـان ويرسب فيه يأتى يعاتب أستـاذه أنه بشَّره بالرسوب فيـقول المعلم : وهل أمـسكتُ بيدك ومنعتُك من الإجـابة ، لقد حكمتُ عليك من خلال المقدمات التى رأيتها منك .

ومع ذلك كـان من المـمكن أنْ يغشَّ هذا التلمـيـذ فى الامـتحـان وينجح رغم مـا قـاله المـعلم ؛ لأن علمـه علْمٌ ناقص ، أمـا علم الحق سبحانه فعلْم تام . إذن : فعلْم الوقوع ألزم للحجة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ [سبأ] حفيظ صيغة مبالغة من الحفظ ، فالله تعالى حفيظ على الكنوز وعلى الأرزاق وعلى العلم وعلى كل شىء ، كـما قـال سبـحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وما دام الله تعالى هو الحفيظ ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يخل بهذه القضية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عامة ، هى قضية هؤلاء القوم الذين يعبدون غير الله ويجادلهم ، ليُظهر لهم فساد مسلكهم وبطلان عبادتهم دون الله ، وقد ردَّ هؤلاء فقالوا : **﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾** [الزمر]

ونقول أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة أنْ يطيع العابدُ أمرَ معبوده ونهيه ، فإذا كان الكفار يعبدون الشمس أو القمر أو الأصنام ... إلخ بماذا أمرتهم هذه الآلهة ؟ وعن أى شيء نهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها من الثواب ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها من عقاب ؟

إذن : أنتم كاذبون فى كلمة نعبدهم ، وإذا كنتم تعبدونهم ليقربوكم إلى الله زُلْفى ، فلماذا لا تتوجهون بالعبادة إلى الله مباشرة ؟ فكيف تعبدون آلهة بلا منهج ولا عمل لها فيمن عبدها ، ولا عمل لها فيمن كفر بعبادتها ؟

وهذه المخلوقات التى يعبدونها من دون الله مخلوقة لله مُسخَّرة له سبحانه مُسبِّحة ، وهى بريئة من هذا الشرك ولا ترضاه ، بل هى أعبد لله منهم ؛ لذلك نطقتْ الأحجار على لسان هذا الشاعر[1] وقالت :

---

(١) الشيخ رضى الله عنه من قصيدة فى الهجرة النبوية .

عَبَدُونَا ونَحْنُ أَعْبَدُ لله ... مِنَ القَائمِينَ فى الأسْحَارِ
تَخذُوا صَمْتَنا علَيْنا دَلِيلاً ... فَغَدْونَا لَهم وقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كَما قَدْ ... تَجنَّوْه على ابْن مَريمَ والجَوارى
لِلْمغَالِى جَزَاؤُهُ والمُغَالَى ... فيه تُنْجيه رَحْمةُ الغَفَّارِ

فالحق سبحانه يناقشهم فى هذه المسألة : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] ادعوا هذه الآلهة المدَّعَاة ، لكنهم لم يدْعُوا ، لعلمهم أن آلهتَهم المزعومة لن تجيب ؛ لذلك أكمل الله لهم وأظهر لهم النتيجة : لو دعوتُم هذه الآلهة ، فإنهم ﴿ **لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ]

فعلام إذن تعبدونهم ، وهم لا يملكون شيئاً ، ولم يصنعوا لكم معروفاً ، ولا قدَّموا لكم خدمة ﴿ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] أى : فى السموات والأرض ﴿ **مِن شِرْكٍ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] يعنى : مع الله ، أى ليس لهم مع الله شركة فى مسألة الخَلْق ﴿ **وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** (٢٢) ﴾ [سبأ] يعنى : لم يعاونوا الله حين خلق السموات والأرض ، والظهير هو المعين القوى ، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ** (٤) ﴾ [التحريم]

والظهير من الظهر ، وهو أقوى الأعضاء فى الحمل ، وفى الدفع ، فالظهير : الذى يعاونك ويساندك بكل قوته .

والذين يدعون من دون الله آلهة يُحاجُّون بأشياء متعددة أولاً : الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وخلق له مُقوِّمات حياته قبل أنْ يخلقه ، وتركه يرتع فى نعمه ولم يُكلِّفه بشىء حتى سِنِّ البلوغ والنضج ويبلغ الإنسان سِنَّ النضج

حين يصبح قادراً على إنجاب مثله .

وسبق أنْ مثَّلْنا ذلك بالثمرة ، فهى لا تنضج ، ولا يحلو طعمها فى مذاق الإنسان ، إلا إذا استوتْ بذرتها ، بحيث إذا زُرِعَتْ أنبتت مثلها ، وهذا من لُطْف الله بنا ، وإلا لو حلَتْ الثمرة قبل نضج بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، وانقطع نوعها بعد ذلك .

ويشاء الخالق سبحانه أن يجعل للتكاثر النسلى فى الإنسان تكاثراً نسلياً أعظم منه فى الخيرات بما يمثل احتياطاً واسعاً يُؤمِّن حاجة الإنسان ، فحبة البطيخ الواحدة تنتج شجرة بها عدة ثمار ، بها مئات البذور ؛ لأننا نزرع بعضها ونتسلى (بقزقزة) الكثير منها .

والحق سبحانه أخذ علينا ميثاق الذرِّ ، والبشر جميعاً فى ظهر آدم عليه السلام ، وأشهدهم على أنفسهم قبل أنْ تتأتى لهم شهوات النفس المعارضة لمنهج الله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد فطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، وما جاءت الأديان إلا لتنفضَ عن هذه الفطرة غبار الغفلة وغبار الشهوات ؛ لذلك لم يأت الرسل لتأسيس دين ، إنما للتذكير بهذا العهد القديم : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية]

لذلك ، فالإنسان منا حين تتناوبه الأحداث ، وتعزّ عليه الأسباب ، ولا يرى مُنقذاً ، ترده هذه الفطرة إلى القوة الخفية التى ستنقذه ، فتجده يقول مستنجداً ومستغيثاً : يا هوه يعنى يا هو ، وهو ضمير غيبة ، إنما أشد إعلاماً من الاسم الظاهر ، لماذا ؟ لأنك حين تقولها

لا تنصرف إلا لغائب عن عينك واحد هو الله .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ [الإخلاص] ولم يقُلْ : قُلْ الله أحد ؛ لأنه لا يخطر ببالك حين تقولها إلا الله خصوصاً فى الشدة ، وحين تعزّ عليك الأسباب ، فلا يسعفك إلا ربك ، كما قال سبحانه : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ⑥⑦ ﴾ [الإسراء]

وفى الشدة والضيق لا يكذب الإنسان على نفسه ولا يخدعها ، فترى حتى الكفار عند الشدة يقولون : يا رب ، وتردُّهم الفطرة إلى الله الحق .

لكن ما دام الإيمان الفطرى بهذه القوة ، ما الذى يطمسه فى النفس الإنسانية ؟ قالوا : تطمسه الشهوات حين تتحرك فى اتجاه مخالف لمنهج الله ، فالمنهج يهدف إلى تهذيب الشهوات والغرائز والحدّ من عنفوانها ، ولا يُعَدُّ هذا تعدياً عليها ، وإلا فلماذا خلقها ؟

لا بُدَّ أن لها مهمة ، فالغريزة الجنسية مثلاً جُعلتْ لبقاء النوع ، ولم تُجعَل للشراسة والعربدة فى أعراض الآخرين ، كذلك جعل الله الغضب غريزة ولها مهمة ، فالحق أباح لك أنْ تغضب حين تُستغضب .

لذلك قالوا : مَن استُغضب ولم يغضب فهو حمار ، ومع ذلك يأمرنا ربنا بالحلم ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ⑧ ﴾ [المائدة] يعنى : لا يُخرجك الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، ولا يدعوك إلى الظلم ، فالحق سبحانه لا يكبت فيك هذا

---

(١) لا يجرمنكم شنآن قوم : أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم ، أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١٢١/١] .

الشعور ، لكن يقيده حتى لا نطغى بسببه .

وقصة سيدنا عمر فى هذا الموضوع وضعت لنا المبدأ ، فيُروى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - رأى قاتل أخيه زيد بن الخطاب فى المعركة ، فانصرف عنه ، فذَكَّروه : هذا قاتل أخيك ، فقال : وماذا أفعل به ، وقد هداه الله للإسلام ، فكأن الإسلام برَّد نار الثأر فى نفسه ، والإسلام كما علمنا يجُبُّ ما قبله[1] .

كذلك الإسلام يجبُّ الغضب - فلما واجه عمر قاتل أخيه قال له : يا هذا أدرْ وجهك عنى ، فإنى لا أحبك - قالها عمر بما عنده من غريزة الغضب - فقال الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء[2] ، يعنى : لا يهمنى تحب أم تكره ، المهم أن حقى محفوظ .

كذلك حب الاستطلاع غريزة ، جعلها الله فى الإنسان ليكشف بها أسراره فى الكون ، فلا تجعلها تلصُّصاً على أعراض الناس وأسرارهم .

إذن : ما جاء الدين ليكبت الغريزة أو ليقضى عليها ، إنما جاء ليعلو بها ويُهذِّبها ، ويقف بها عند حدِّ الاعتدال والمهمة التى خلقت

---

(١) عن عمرو بن العاص أنه حين جاء ليسلم قال : يا رسول الله ، إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر وما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها ، قال : فبايعته ثم انصرفت . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٢) قد ورد فى هذا المعنى عدة روايات ، منها ما قاله عمر بن الخطاب لطليحة الأسدى : قتلتَ عكاشة بن محصن لا يحبك قلبى . قال طليحة : فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين ، فإن الناس يتعاشرون على البغضاء . [عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/٩] ونقل ابن قتيبة (٣/١١) أن بعض الخلفاء قال لرجل : إنى لأبغضك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف .

من أجلها ؛ لذلك قلنا : إن الإسلام يجمع للمؤمن فى بعض المواقف بين الشيء ومقابله كما فى قوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

ورحم الله الإمام علياً - رضى الله عنه - حين قال[1] :

لئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْم إنَّنى ... إلى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايينِ أحْوَجُ

وَلِى فَرَسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَم ... ولِى فَرَس للجهْلِ بالجْهلِ مُسْرَجُ

فمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقوَّم ... ومَنْ رامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعْوَجُ

فالشدة مطلوبة ولها موضعها ، والذلة مطلوبة ولها موضعها ، إذن : الموقف الإيمانى هو الذى يصنعك ، والمنهج إنما جعله الله لتستقيم به أمور الحياة ، فإذا كلَّفك الله بشيء يصادم شهوة فى نفسكِ ، فلا تقُلْ إن الشرع صادم شهوتى ، بل خُذْها من باب الكرم الواسع ، وقُل وصادم شهوات الآخرين من أجلى ، فالشرع حين قال لك : لا تسرق وأنت واحد قال للملايين : ألاَّ يسرقوا منك .

وحين تصطدم الفطرة السَّوية والتديُّن الطبيعى بشهوات النفس يبحث الإنسان عن تديُّن يُرضى شهواته ويُشبع غرائزه ، فهو يريد أنْ يكون متديناً ، وفى الوقت ذاته يريد ألاَّ تُقيِّد شهواته ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، ومن هنا عبد الناسُ غير الله ، ودَعْك ممن عبدوا الأشجار والأحجار ، وتأمل الذين عبدوا الملائكة مثلاً ، هل أمرتهم بشيء أو نهتهم عن شيء ؟

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..

---

(١) أورد هذه الأبيات ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (٢٨٩/١) ولكن عزاها لمحمد بن وهيب وليس للإمام على .

(٢٢) ﴾ [سبأ] ولو بحثنا مسألة الشركاء بالعقل لظهر بطلانها وكذبها ، فإذا كان لله تعالى شركاء ، ومعه سبحانه آلهة أخرى ، فأين هم ؟ أدروْا بأن الله تعالى استبدَّ بالألوهية ، وشهد بها لنفسه ، وأعلنها صراحة من دونهم ؟ إنْ كانوا على دراية بذلك ، فلماذا تركوه سبحانه يستبد بالألوهية ؟ وإنْ كانوا لم يدروا بذلك فهم آلهة نيام ، وفى كلتا الحالتين لا يستحقون هذه الألوهية .

لذلك الحق سبحانه يمسُّ هذه القضية مساً جميلاً ، فيقول : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً** (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : لو كان صحيحاً وجود آلهة مع الله لَذَهبوا إليه ليناقشوه ، لماذا استبدَّ بالألوهية من دونهم ، أو لذَهبوا إليه ليتقوه ، وليتقربوا إليه .

وأرقى ما يعبد المشركون يعبدون الملائكة ، وكأن عبادتهم أصبحتْ قريبة من عبادة الله ، والله يقول عن الملائكة : ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** (٢٦) **لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

ويردُّ القرآن عليهم : ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يتقربون إلى الله ويتوسَّلون إليه ، الأقرب منهم يتوسَّل إلى الله ، ويحب أن يكون أكثر قُرْباً ، فإذا كان الأقرب هو الذى يبتغى الوسيلة والقرب ، فما بالك بالقريب ؟ وما بالك بالبعيد والأبعد ؟

إذن : أنتم أغبياء بعبادتكم الملائكة ، وهل تظنون أن خَلْقاً من خَلْق الله كالملائكة يرضى أنْ تعبدوه من دون الله ، أو يقبل أنْ يشفع لك عند الله ، هذا سَفَه فى التفكير .

فالحق سبحانه وضع شروطاً للشفاعة ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قال العلماء: يُشترط للشفاعة شرط في المشفوع له أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط في الشافع أنْ يُؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينتظر أنْ يُؤذَن له بها ، وهنا يضطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً : يا ترى أيُؤذن للشافع ؟ أم تُرَد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] يعني : أُزيل عنها الفزع . فالتضعيف في (فُزِّع) أفاد إزالة الحدث المأخوذ منه الفعل ، كما نقول (مرَّضه) يعني : أزال مرضه و (قشَّر البرتقالة) يعني : أزال قشْرتها ... إلخ .

﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] أي : قال القول الحق ، وأذن بالشفاعة لمن ارتضى .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ.. (٢٣) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ تُقبل الشفاعة ؛ لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعةُ المشفوعَ له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده : أنا لا أرضى أنْ تشفع

للمشـفوع له ، فـالذى انتفى نَفْع الشفـاعة لا قبـولها ، فـفَرْق بين أنْ توجد الشفاعة ، وبين أنْ تنفع الشفاعة .

وفى سورة البقرة آيتان فى الشفـاعة صدرهما واحد ، لكن العَجُز مختلف ، ففى الأولى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وهاتان الآيتـان من المواضع التى وقف أمـامهـا المسـتشـرقون ، وظنوا فيها مأخذاً على كـلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ، لكن فى الأولى قدَّم ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .. (٤٨) ﴾ [البقرة] وفى الأخرى قدَّم : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(١٢٣) ﴾ [البقرة] وفى الأولى قال ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عـدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان فى الشفاعة عن نَفْسـين . الأولى : النفس الشافعة . والأخرى : النفس المشـفوع لها ، الشافع له مـوقف مع الله ، والمشفـوع له ، له موقف قبل ذلك ؛ لأنــه لم يأْتِ بالشافع إلا لأنه لم يقـدر على إنهاء المسـألة بنفسـه ، فالضـمـير يعود فى الآية الأولى على الشـافع ، وفى الأخرى على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هنا : لا تجزى نفسٌ شافعة عن نفس مشفوع لها ، النفس الشافعة هى التى يُقبل منها الشـفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى تنفعها الشفاعة ، إذن : الآية الأولى تخصُّ الشافع ؛ لأنه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فـيعرض أنْ يدفع هو العدل ، ويكون كفيـلاً فيما على المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً .

أمـا الآية الأخرى فـهى فى المـشفـوع له ؛ لأنه يعـرض أن يدفع ما عليه أولاً فلا يُقبَل منه عدل ، فيبحث عمَّنْ يشفع له .

وسُمِّيت شفاعة ؛ لأن الشَّـفْع يقابل الوتر ، وصاحب الحاجة الذى يطلب الشفـاعة واحـد ، فإذا انضم إليه الشـافع ، فهمـا اثنان يعنى : شفع .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ [سبأ] علىٌّ أنْ يُناقَش فى أى قرار يتـخذه ، وكبـير يعنى أكبـر من الشافع ، وأكبـر من المشفوع له . فـالحق سبحـانه قال الحقَّ ونطق به ، وهذا يعنى أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشافع مهما كانت منزلته ، ولا بمشفوع له مهما كانت ذِلَّته ورِقَّته ؛ لأنه سبحانه هو العلىُّ الكبير .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى مناقشة المسألة مناقشة عقلية ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمـد : مَنْ يرزقكم من السموات والأرض ؟ لكن إذا كـان محـمد هو الـمستفـهم منهم ، فـمَنْ يجـيب ؟ بالطبع هم لن يجـيبـوا ؛ لذلك أجـاب الله (قل الله) فـهـذه حقـيقـة لا يسـتطيعـون مجابهتها ، ولو اعـترفوا بها لَقُلْنا لهم إذن : لماذا لم تؤمنوا بالله وهو رازقكم ؟

أيليق بكم أنْ تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا بآلهة أخرى لا تنفعكم ولا تضركم ؟ فاعترافهم بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ، ويقيم عليهم الدليل على سَفَه تفكيرهم ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعفيهم من هذا الحرج ، فأجاب بدلاً منهم .

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال ؛ لأن الإجابة لن تكون إلا على وَفْق مراده سبحانه وتعالى ، كما لو اشتريتَ مثلاً (بدلة) لشخص ما وفى موقف من المواقف أنكر جميلك ، فتقول له : مَن الذى اشترى لك هذه (البدلة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنت واثق أن الإجابة ستكون فى صالحك ، وأنه لا يستطيع الإنكار ، فلو أنكر ستقول له : تعال إلى التاجر الذى اشتريتها منه لنرى مَن الذى اشتراها ، فأنت إذن تملك إقامة الدليل عليه إنْ أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]

الهدى : هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال : أنْ تضلَّ عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات فى الدين ، والمتناقضان لا يجتمعان أبداً ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحد على هدى والآخر على ضلال . كثيرون لا يفهمون الفرق بين الضد والنقيض ، الضد شىء يضادّ شيئاً ، لكن لا ينفيه ، كما تقول مثلاً : الشىء الفلانى أحمر أم أخضر ؟ فيقول لك : لا أحمر ولا أخضر إنما أبيض ، إذن : الضِّدان لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هذا ولا هذا ، بل شىء آخر . أما النقيضان فإنِ ارتفع واحد ثبتَ الآخر ، كما هنا فى الهدى والضلال .

فمعنى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] إنْ كان أحدنا على الهدى فلا بُدَّ أنْ يكون الآخر فى الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن منهج خير فى جانب الإيمان ، ومنهج شرٍّ فى جانب الكفر ، فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفى نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لى بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول : أنا وأنتم على النقيض ، إنْ كان أحدنا على الهدى فالآخر فى الضلال .

بالله عليكم ، هل رأيتم حِجَاجاً أرقّ من هذا الحِجَاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه فى جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه فى جانبهم ، ومثال ذلك ، لو حلف رجلان على شىء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد : أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ؟ لا ، بل يقول : واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أوَّلى لا يُلزم أحداً .

لكن ، حين تبحث القضية يتضح لك مَنْ على هدى ومَنْ فى ضلال ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] كلمة ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤) ﴾ [سبأ] على تفيد الاستعلاء ، كأن الهدى لا يستعلى عليك ، وإنما تستعلى أنت على الهدى وتكون فوقه ، كأنه مطية تُوصِّلك للخير المطلوب وللطريق المستقيم ، فساعةَ تقرأ (عَلَى) فاعلم أن هناك مكاناً عالياً ، وهناك ما هو دون هذا .

وتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فالمغفرة تعلو الظلم ؛ لأن الظلم يقتضى أنْ تُعاقب ، فتأتى المغفرة فتعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم[1] ، والمعية لا تستقيم هنا ؛ لأنها تسوِّى بين الظلم والمغفرة وتجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ؟ إذن : لا بُدَّ أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] فقال ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] لأن الكِبَر كان يمنعه أنْ ينجب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة ، وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كِبَره[2] ، وقلنا : إن الكِبَر هو أقوى الأحداث التى يتعرَّض لها الإنسان ؛ لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم]

والعُتُو يعنى : الجبروت والقوة ، أما الكِبَر فضعْف وهُزَال وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قاومه بالغذاء وبالفيتامينات ، فلا شىء يَقْوى عليه أو يمنعه ؛ لذلك إذا تعددتْ الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا الكِبَر ، والإنسان بعد سنِّ السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ؛ لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة . يعنى : لا سببَ لها إلا كِبَر السن .

إذن : نقول ﴿لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤)﴾ [سبأ] أى : أن الهدى سيكون مطيتك التى توصلك إلى الجنة وإلى النعيم ، أما الضلال فقال ﴿فِى ضَلالٍ .. (٢٤)﴾ [سبأ] وكأنها ظلمة تحيط بالضالِّ وهو يتخبط فيها ،

---

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأنصارى فى كتابه « مغنى اللبيب » (١٢٦/١) أن على تأتى حرفاً بمعنى « المصاحبة كمع نحو ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] » .

(٢) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة [تفسير القرطبى ٣٧١٣/٥] فبين إسماعيل وإسحاق ١٣ عاماً .

لا يدرى أين يذهب ، ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ] واضح بيِّن .

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا تلطف آخر وارتقاء فى حجَاج الكفار يُظهر مدى حرص سيدنا رسول الله ﷺ على أنْ يستلَّ الضغينة من نفوس الكفار ، وتأمل : ﴿ لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ] فيجعل رسول الله الإجرام فى جانبه هو ولم يُسَوِّ هذه المرة بين الطرفين ، كما قال هناك ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ] إنما وصف فعْله بالإجرام وقال عن الكفار ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ] ولم يَقُلْ تجرمون .

وفى الآية دقيقة أخرى ، هى ورود (أَجْرَمْنَا) بصيغة الماضى ، كأن الإجرام حدث بالفعل ، أما هم فورد الفعل (تَعْلَمُونَ) بصيغة المضارع ؛ ليدل على أنه لم يحدث منهم بعد ، وهذا تلطف آخر ، وارتقاء فى النقاش ، وتودُّد إلى الخَصْم علَّه يرعوى ، فيفرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه .

وهذا الأسلوب الجدلى فى الآيتين لا يتأتَّى إلا من المجادل القوى الحجة الذى لا تنزله عنها زَلَّة سابقة من خَصْمه . ومثل ذلك قولنا فى المناقشة : سلَّمنا جدلاً بكذا وكذا ، ونرضى لأنفسنا بالأقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك على الحق ، وقوة الجدل لديك تجعلك على ثقة بأن البحث فى المسألة سينتهى لصالحك .

لكن ، مع ذلك كيف يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ أنْ ينسب الإجرام إلى نفسه ؟ قالوا : لأن الجُرْم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم تنتهى الآيات إلى خلاصة هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : لن نطيل معكم النقاش والحجة ؛ لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل اللهُ بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ] أى : يحكم ويقضى ، وفى بعض بلادنا حتى الآن يقولون للقاضى : الفتاح ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ] أى : الذى يحكم عن علم كامل ، ولا تَخْفَى عليه خافية .

وسُمِّى الحكم فَتْحاً ؛ لأنه يفتح شيئاً عن شىء ويحدث فُرْجة بينهما ، فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتبس الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، فيأتى الحكم فيفضُّ هذا الاشتباك ، وفَضُّ الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ : قُلْ لهم : أرونى الذين أشركتم مع الله ، وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التى يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿أَرُونِى .. ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ] ؟ قالوا : لأنه حين يطلب منهم هذا المطلب يعلم أنهم يَسْتحون أنْ يشيروا إليها ، ولا يجرؤون على ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار صمَّاء ، لا تضر ولا تنفع .

ومعنى ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] من الإلحاق ، وهو أنْ تأتى بشىء جديد تُلحقه بشىء ثابت ، فكأن ألوهية الله هى الألوهية الحق الثابتة ، وآلهتهم الجديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، أما هذه الآلهة فمُحْدثة طارئة باطلة ، لذلك ينفيها بقوله ﴿ كَلاَّ .. (٢٧) ﴾ [سبأ]

ثم يُضرب عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [سبأ] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها ، فالإله الحق هو الله .

وفى موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] ونعلم من دراساتنا النحوية أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها ، وأن المستثْنَى بعدها منصوب ، كما نقول : حضر الطلاب إلا محمداً .

فلو طبَّقْنا هذه القاعدة على هذه الآية لَكَان المعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لَفَسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تَفْسدا ، هكذا منطق الآية إذا أُخذَتْ (إلاَّ) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (إلا) هنا ليست حرفَ استثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير)[1] ، بدليل أن ما بعدها وهو لفظ الجلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى : لو كان فيهما آلهة غيرُ الله لفسدتا .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] جاء هنا أيضاً بضمير الغيبة (هُوَ) ، ومعلوم أن ضمير الغيبة لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : جاءنى على فأكرمتُه ، إلا مع الله سبحانه وتعالى ، فإن هو تسبق المرجع ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] لماذا ؟ قلنا : لأنه ضمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه .

---

(١) ولما كانت إلا بمعنى غير أُعْرب الاسم الذى بعدها (اللهُ) إعراب غيرِ فرفع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

معنى ﴿أَرْسَلْنَاكَ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] أى : جعلناك رسولاً ﴿إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] كلمة كافة تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل بعثة سيدنا رسول الله كان الرسول يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. ﴿١﴾﴾ [النساء] تفرَّقوا فى أنحاء الأرض هنا وهناك ، والعالم لا يزال فى طفولة فطرته ، ليس فيه ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ، ولكل بيئة منها داءاتها : فهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يعبدون الأصنام ... إلخ فيأتى الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا علاقة له بغيرهم .

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافّة ؛ لأن الله تعالى علم أزلاً أنه سيأتى على التقاء مع الدنيا كلها ، وعلى اتصال بين الجماعات التى كانت مُتفرِّقة ، وها نحن الآن نعيش عالم القرية الواحدة ، وما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه فى وقته ، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته ، فالداءات واحدة ؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الداءات فى كل المجتمعات ، هذا

معنى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له ، وليس شاهداً لغيره ، فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ؛ لأنه لم يأتِ بعده رسول .

قال العلماء فى كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعنى : للناس جميعاً ، ففى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : لم تَعُدْ هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية . وحين نتأمل كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] نجد لها مناسبة فى واقع لغتنا ، استقر على ألسنة العامة : نشاهد الخياط مثلاً حين يخيط ثوباً يُعمِل المقصَّ فى القماش ، فيقطعه إلى لُحمة وسُدة ، لكن تخرج خيوط الثوب من خلال أطرافه كما نقول القماش (بينسِّل) فيجمع الخياط هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون أطراف القماش إلى الداخل ، وهذه العملية نسميها (كفكفة) القماش ، أو نسميها الآن (السَّرْفلة) .

ومن ذلك كلمة (كَافَّة) يعنى : جَمْع شتات الناس فى كل زمان ومكان ، بحيث لا يخرج منهم جنس ولا جماعة ، ولا يشذّ عن منهجه أحد .

وعندنا فى الفلاحين نبات ينمو على حوافِّ القنوات اسمه النجيل ، وهو غير الحشيش المعروف ، والنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ، وتتشابك عيدانه وجذوره بحيث يمنع هذه الحوافّ أن تنهار ، أو يسقط منها الردم فيسدّ القناة ، فكأن النجيل أدى مهمة هى كفّ

الردم ومنعه أنْ ينهار يعنى : كفّ جنساً أن يشرد عن مهمته .

وكلمة ﴿ كَافَّةً .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] من كفّ الشيء يكُفُّه ، فهو كافٌّ ، وزيدت تاء التأنيث للمبالغة ، كما فى عالم وعلاَّم وعلاَّمة ، لذلك يقول ربنا عن نفسه سبحانه : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة] فإنْ قُلْتَ : لماذا لم يَقُلْ علاَّمة ؟ نقول : لأن علْم الله تعالى لا يترقى بلاغة وقلَّة .

فمعنى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : تكفُّهم وتمنعهم عن كل شر يفسد الصلاح فى الأرض ، وهذه هى مهمة المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : كلمة ﴿ كَافَّةً .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] إما وَصْف للناس بمعنى جميعاً ، وإما وَصْف لرسول الله بمعنى كافٌّ للناس عن الشر ، والتاء للمبالغة .

ومعنى ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] من البشارة ، وهى أنْ تخبر بخير لم يَأْت أوانه بعد ، ويقابلها النذارة ، وهى أن تخبر بشرٍّ لم يأْت أوانه بعد ، فميْزة البشارة أنها تخبرك بالخير القادم لك لتأخذ بأسبابه وتُقبل عليه وتجتهد فى سبيله ، وأنت مشتاق إليه ، كذلك النذارة تحذرك من الخطر المقبل لتنصرف عن أسبابه وتدفعه عنك .

ومثال ذلك : المعلم الذى يُبشِّر التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوق ، وينذر المهمل بالفشل والرسوب ، لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أنْ يزيد فى اجتهاده ، ومن الكسول المهمل أنْ يترك الكسل والإهمال ليتفوّق هو الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] أى :

لا يعلمون أنك الرسول الخاتم ، أو الرسـول الذى جاء ليمنع الشر عن البشرية كلها ويصلح حركتها . وما دام أكثر الناس لا يعلمون ، فمعنى ذلك أن القلة هى التى تعلم ، وهذه القلة العالمة هى خميرة الخير فى الوجود ؛ لذلك نرى الناس مهما بالغوا فى الإلحاد ، وفى الخروج عن منهج الحق لا بُدَّ أن تخرج من بينهم هذه القلة التى تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهى موجودة فى كل زمان ومكان وإنْ قَلَّتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

إذن : لا بُدَّ أنْ تبقى فينا هذه القلة كنماذج وخليّات للخير ، ولاستبقائه بين الناس مهما أظلمتْ الدنيا من حولهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠ ﴾

المتأمل فى كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل القرآن أبواباً منفصلة ، هذا للصلاة ، وهذا للزكاة ، وهذا للربا ... إلخ إنما يخلط هذه الأحكام فى نسق رائع ، ومزيج مشوِّق ، يراوح بين الأساليب ، فلا يملُّ منه قارئه ، ولا يزهد فيه .

القرآن ليس كتابَ قانون ، يُفرد فصلاً لكل جريمة ، إنما يتناول

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٠) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

الجريمة بأسلوب فريد ، فيذكر الجريمة ويُفظِّعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها النفوس ؛ لأن صاحب العقوبة يستحقها .

يقول تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] والوعد لا يكون إلا بالخير ، والوعيد يكون بالشر ، وعجيب أنْ يسمى الكفار القيامة وَعْداً ، فكان ينبغي أنْ يقولوا متى هذا الوعيد ، أو : أن الله تعالى لوى ألسنتهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وَعْد حق من الله ، وإنْ كان في حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة ، خاتمته البعث والحساب ، ثم الجنة أو النار . لكن هل وَعْد الله لا يتحقق إلا في الآخرة ؟ قالوا : لا بل يرونَ شيئاً منه في الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أنْ يعاقبهم في الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولَعربد غير المؤمنين دون رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجِّل لهم شيئاً من وعده ، فيرونْه في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهزمهم الله ، وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وأُسر منهم مَنْ أُسر ، فكما صدقت فيهم المقدمات ، فسوف تصدق المتواليات في الآخرة .

لذلك يخاطب الحق نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ لم يتحقق فيه وَعْد الله في الدنيا وتشاهده بعينيك ، فموعده الآخرة ، وإلا فهناك من الكفار مَنْ مات قبل بدر ، ولم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم ينَلْهم شيء من عقاب الدنيا .

وقولهم : ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] استبطاء للعذاب .

ثم يأمر الله تعالى نبيه أنْ يرد عليهم : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] هو يوم النصر عليهم ، كما فى يوم بدر ، حيث أذاقهم الله الذلة والهوان والموت ، وقضى على جبروتهم ، أو هو يوم القيامة .

والذى ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إنفاذه ، وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أنْ يفى بما وعد ، أو حتى يُؤخِّره لحظة واحدة ، وهو سبحانه العليم بأن الآيات الكونية لا تشذّ عما أراد سبحانه .

وسبق أنْ بينَّا أن البشر حين يَعدُون لا يملكون أسباب الوفاء بوعودهم ، لذلك علَّمنا ربنا - عز وجل - أنْ نحتاط لذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

لأن الله يحب لعبده أن يكون صادقاً ، فحين يعلق فعْله على مشيئة الله يُعفى نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن : اطرح المسألة على مَنْ يملك كل هذه العناصر ؛ لذلك نُسمِّى الوعد من الناس وَعْداً ومن الله الوعد الحق يعنى : الذى لا يتخلف أبداً .

ومعنى ﴿ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أنه : ميعاد مضبوط ، وكأن الحق سبحانه يريد بذلك أنْ يستقبل الإنسانُ كلَّ المعطيات التى منحه الله ، وأنْ تظل دائماً فى ذهنه لا يغفل عنها .

وجاء (يَوْمٍ) نكرة مبهمة ، والإبهام هنا هو عَيْن البيان ، كما

سبق أنْ أوضحنا ، فحين يبهم اللهُ مثلاً أجلَ الإنسان يظل دائماً متذكراً له ، ينتظره فى أى وقت ، ويتوقعه فى كل نفَس ، وفى كل لحظة دون أنْ يربطه بمرض أو غيره ، فالموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا[(1)] لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ[(2)] ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾

قولهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يدل على لجلجتهم ، ففى موضع آخر حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غُبارَ عليه ولا اعتراضَ ، الاعتراض على مَنْ نزل عليه القرآن ، كذلك من الغباء قولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] فاعترفوا أنه جاء بالهدى .

ومثله قولهم : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون]

---

(١) يريد كفار قريش . وقال ابن جريج : قائل ذلك هو أبو جهل بن هشام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٥٧١/٨) .

(٢) قال القرطبى فى تفسير الآية (٥٥٧١/٨) : « قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلّة علمهم » .

صحيح ، الباطل لجلج ، يتخبط هنا وهناك فى تفكير مُشوّش ليس له سيال واحد ، وهذا التخبط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا : إن المحقق الماهر هو الذى يصل إلى الحقيقة من خلال مناقشة المتهم مناقشة تُوقعه دون أن يدرى ، ذلك لأن المتكلم بالحق يحكى واقعاً على هيئة واحدة ، فمهما أعدْتَ عليه السؤال يُجب إجابة واحدة .

أمّا الكاذب فلا يحكى واقعاً ، إنما يحكى كذباً واختلاقاً لا بُدَّ أن ينتهى بتضارب فى أقواله ، كالكذاب الذى جاء يحكى للناس يقول : رجعت من (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر).

وقديماً ، قال العربى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما سبق أنْ قُلْته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع .

ومعنى ﴿ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل .

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يُقطع الرد عليهم فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : بين يدى الله ، ينتظرون الفصل والحساب .

تعلمون أن (لَوْ) أداة شرط تحتاج إلى جواب ، هذا الجواب حُذف من سياق الآية ليدلَّ على التهويل والتفظيع . وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم .. لرأيتَ أمراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كلَّ مذهب ، وتتصور ألوان العذاب والذلة التى يعانيها الكفار فى هذا الموقف بين يدى الله عز وجل ، فحَذْف الجواب هنا أبلغ من ذكره .

كنا نرى (زمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (البلطجى) الذى يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، وتقضى له حاجته اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى أيدى العدالة وتأخذه الشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطة بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندَّرون به : لو رأيتم ما حدث لفلان ؟ يعنى : حدث له أمر عظيم يناقض جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكته .

إذن : حُذف الجواب لنأخذه نحن على المحمل المخيف ؛ لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة .

لذلك ؛ وقف المستشرقون معترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا [1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] يقولون : نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نَرَ رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبِّه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أنْ تُشبِّه المجهول بالمعلوم ، والخفى بالجلى ، لكن هؤلاء يحاولون تصيُّد أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيهات لهم ذلك ، وكل اعتراضاتهم على كلام الله تأتى من عدم فَهْم للآيات وعدم وجود المَلَكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا النهج فى التشبيه نهجه العربى القديم حين قال [2] :

(١) الطلع : نَوْر النخلة الذى هو أصل ثمارها ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً . [القاموس القديم (١/ ٤٠٥)] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٠) : « هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برءوس الشياطين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر » .

(٢) هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى ، شاعر جاهلى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ، مولده بنجد عام ١٣٠ ق . هـ ، كان أبوه ملك أسد وغطفان ، قال الشعر وهو غلام ، جعل يُشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فأبعده أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طاف قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاه قيصر الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأنقرة ظهرت فى جسمه قروح ، فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق . هـ عن ٥٠ عاماً . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD].

أيقتُلنى والمشْـرَفىُّ مُضَاجِعى ومَسنُونة زُرْق كـأنياب أغْوال[1]

هكذا رأى العربـى القديم أن أسنَّة الرماح كـأنياب الأغـوال ، فهل رأى أحد الغـول ؟ إذن : القرآن عـربى ، وخاطب العـربَ بأساليـبهم ، فيكـفى لتـبشـيع الصـورة أن تحاول أنـت أنْ تتـخـيل صورة الغـول أو صورة الشـيطان لتذهب نفسُك فى بشـاعتها مَـذاهب شتَّى مخيـفة مُـفْـزعـة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسـامى الكـاريكاتيـر فى العـالم كله : ارسموا لنا صــورة الشيطان ، فسوف يرسمهـا كل واحد منهم حَسْب رؤيته هو ، وستأتى صور مخـتلفة بعضها عن بعض ؛ لأن أحداً منهم لم يرَ الشيطان ، إنما تخيَّله .

تُرَى ، لو حدد القـرآن شكل شجـرة الزقوم وقال لك : إنهـا مثل كذا أو كـذا ، أيعطيك هذا التـشبـيه بشـاعة أكثر ممـا أعطتْكَ رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربَّبَ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستـمر الآيـة فى وصف مـوقف هؤلاء الظالمـين بين يد الله تعالى، ويا ليـتها تنتهى عند الذلة والانكسـار ، إنما ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يتجادلون ويتنـاقشون ، يرمى كل منهم باللائمة على الآخـر ، ومعنى (يرجع) من المراجَعـة ، فواحد يقول ، والآخر يردُّ كـلامه ويُنكره ، وفـى القرآن مواضـع كثيـرة تحكى هذه المراجعة بين الأتباع والمتبوعين ، وهنا نموذج منها :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا (٣١) ﴾ [سبـأ] يعنى : الضـعفاء والمـقلدين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا (٣١) ﴾ [سبأ] وهم السادة الكبار المـتبوعون ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ] فيكفى من عظمـة القيامـة أنْ يقف المستـضعف

---

(١) البيـت من بحر الطويل . ذكـره له ابن سلام الجـمحى فى « طبـقات فـحول الشـعراء » ، وياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » .

أمام القوى ويراجعه ويواجهه - مع أن كلاهما خائب خاسر - ذلك لأن الضعف كان فى الدنيا والاستكبار والتبعية ، أما الآن وفى ساحة الحساب فقد تساوتْ الرؤوس ، وها هم الضعفاء يقولون لأسيادهم ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلٌّ يُرجع إلى الآخر قوله ، فلا بُدَّ أنْ يرد الذين استكبروا ، وأنْ يراجعوا الذين اسْتُضْعِفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ (٣٢) ﴾

يرد الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ] يعنى : ما منعناكم عن الهدى ، وما حُلْنَا بينكم وبين الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ] يعنى : بطبيعتكم ، فقد وجدتم طريقنا سهلاً ، وعبادتنا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتُم عقولكم ما تبعتمونا .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أولياءه يوم القيامة ، ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

الفعل أصرخ يُصرخ فهو مُصرخ ، اسم فاعل للذى يصرخ ويستجير بغيره لينقذه من أمر فوق طاقته وإمكاناته ، فإنْ أنقذه

يُقال : أصرخه يعنى : أزال صراخه والمفعول منه مُصْرَخ به ، والمعنى فى قول الشيطان : إننى لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تزيلوا صراخى ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً ولا ينقذه إلا عمله الصالح .

ثم يردُّ الذين استُضْعِفوا ويُرجِعون القول إلى الذين استكبروا مرة أخرى ، يقولون :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ[1] لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ ﴾

هذا استمرار فى المراجعة والحوار ، كُلٌّ يلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهموهم بالإجرام ، وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى تدين خفيف ، لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٣٣) ﴾ [سبأ] يعنى : المكر الذى ينشأ فى الليل ، والمكر الذى ينشأ فى النهار ، حيث قضيتم الليل والنهار تُلِحُّون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧٣) : « أسروا الندامة . أى أظهروها . وسر من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . وقيل : أى : تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها » .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا (٣٣) ﴾ [سبأ] يعنى : شركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (٣٣) ﴾[سبأ] فالندامة تعتصرهم ، ومع ذلك لا يجهرون بها ولا يُبْدونها حتى لا يشمت بهم الآخرون ، وفَرْق بين أنْ يندم الإنسان وبين أنْ تُلجئه الظروف ، لأنْ يعلن الندم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] الأغلال : القيود ، ومعنى ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا الجزاء : إياكم أنْ تأخذكم بهؤلاء رِقَّة على حالهم فى الآخرة ، وانظروا إلى ما فعلوه فى الدنيا من إجرام ؛ لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم الناس ، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) ﴾ [المطففين] إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهى وقتها ، وتهدأ آثارها ينسى الناسُ بشاعتها ، ولا يذكرون إلا بشاعةَ العقاب عليها ، أو تَرِقّ للمجرم قلوب الذين لم يشهدوا جريمته ؛ لذلك يُذكِّرنا الحق سبحانه بعدله ، وأنَّ هذا الجزاء جزاء وفاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، ولا ترحموهم فى هذا الموقف المخزى الذليل ، وضَعُوا عقوبتهم أمام جريمتهم يوم كذَّبوا الرسل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ(١) إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآية أنها ذكرتْ النذارة ، ولم تذكر البشارة ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم يَعُدْ لها إلا النذارة ، فهؤلاء قوم كذَّبوا الرسل ، ووقفوا من الدعوة موقفَ العداء والمكابرة . أما البشارة فتكون فى عموم الدعوة ، والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿ فِى قَرْيَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[سبأ] أى : فى أهل قرية ، والقرية اسم للمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإنْ كان يريد المكين ؛ لأن المكان كجماد مُسبِّح لله ، فيفرح بالمؤمن المسبِّح فيه ، ويحزن ويضيق بالكافر الذى يقيم فيه ؛ لذلك يقول العربى القديم : فلان نبا به المكان يعنى : المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم : أدريتَ أن فلاناً باع أرضه ؟ قال : بل باعَتْه أرضه .

وقوله ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾[سبأ] جمع مُتْرف وترف يترف أى : تنعَّم . أما أترف فتعنى أن النعمة أطغَتْه وفتنته ، فالحق سبحانه لم يمنع عبده أنْ يتمتع بنعمه ، المهم ألاَّ تُطغيه النعمة .

وقد يكون الترف والتنعُّم استدراجاً من الله للعبد ، وإملاءً له ، ومَدّاً له فى النعمة حتى يَطْغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى :

---

(١) قال قتادة : مترفوها هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وقادتهم فى الشر ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٧٠٤) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ (٤٤) ﴾[الأنعام] ولم يقُلْ لهم يعني ليس هذا الفتح في صالحهم مع أنه في ظاهره نعمة ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا (٤٤) ﴾[الأنعام] وتعوَّدوا النعمة وألفوها ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك ، ليس من الصواب قولُكَ لأخيك : فتح الله عليك والصواب : فتح الله لك . واقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر]

وحكوْا لنا عن سياسى كبير كان له خصم ، ففوجئوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الخَصْم إلى منصب كبير ، فتعجبوا : كيف يُرقى خصمه ؟ فقال : أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان السقوط مؤلماً ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترف قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

البعض يخطىء فَهْم هذه الآية ، فيقول : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦) ﴾ [الإسراء] أن الفسق مترتب على الأمر . والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ (٥) ﴾[البينة] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...(٩٠) ﴾[النحل] فالمعنى : أمرنا مترفيها بما يأمر الله به ، فما كان منهم إلا أنْ فسقوا فيها أى : فسقوا فى الأمر ، إذن : الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر .

الحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية الترف والإتراف يقول : أنا أنعمتُ على عبادى نعماً يتنعَّمون بها ، إنما كنتُ أريد أنْ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأنْ يُعدوا النعمة إلى غير المنعَّمين ليحصل فى المجتمع المسلم التكافل الاجتماعى المطلوب ، ولينزع هذا التكافل الغلَّ والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء .

فالفقير إذا رأى الغنى ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه ، يحقد عليه ، ويتمنى زوال نعمته ، فإنْ ناله منها شيء أحبَّ الغنى ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير .

أما من ناحية الغنىِّ ، فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عامة مطبوعٌ على النفعية لذاته وحب الخير لها ؛ لذلك عامله الحق سبحانه بهذا المنطق ، منطق النفعية حين يعطيه جزاءَ ما أنفق ، ويثيبه على ما يفعل من الخير ، قال له : الحسنة بعشر أمثالها ، غُض طرفك عن المحارم فى الدنيا أمتعك بالحور العين يوم القيامة .. الخ .

لذلك يقولون : إن التدين نفعية عالية ، فأنت مثلاً ما آثرتَ الفقير على نفسك ، وما أعطيتَهُ ما فى جيبك إلا لأنك تريد من الله تعالى أضعاف ما أعطيت . إذن : أنت حتى فى تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك .

والحق سبحانه يعطى الغنى وصاحب الهمة العالية الذى يكدح ويتعب ويُكوِّن الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد]

(١) يحفكم : يلح عليكم . ويكثر ويلح فى الطلب والسؤال . وقال قتادة : علم الله فى مسألة الأموال خروج الأضغان ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٥).

ويُحبّبهم فى الإنفاق بنفس هذا المنطق : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ..(٣٨) ﴾ [محمد]

إذن : مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضغْن[1] الغنى، كما أخرجتْ ضغْن الفقير ، فهى تُحدث استطراقاً إيمانياً ، واستطراقاً اقتصادياً فى المجتمع ، فصاحب المال يحمد الله على النعمة ، ولا يبخل بها على الفقير ، والفقير يحمد الله أنْ جعل النعمة فى يد مَنْ يجود بها عليه ، وهكذا يحدث التوازن فى المجتمع .

نعود إلى ما كُنَّا بصدده من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) ﴾ [سبأ] لماذا أنتم كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق - تبارك وتعالى - يريد من العباد ألاَّ يستعلى قوى على ضعيف ، وألاَّ يستعلى غنى على فقير ، وألاَّ يستعلى عالم على جاهل ، إنما يريد أن يعمَّ الخير ، فمَنْ كانت عنده خَصْلة من خصال الخير عَدَّاها إلى غيره .

أما هؤلاء فقد اختاروا الكفر ، واطمأنوا إليه ؛ لأن النعمة أطغتهم وأترفتهم ، فمالوا إلى البذخ وإلى المظالم حتى عَشقوا هذا كله ، فلما جاء الدين ليُعدِّل من سلوكهم صادموه ، وحاولوا طمسه والقضاء على دعوته ؛ لأنهم ألِفوا السيادة ، وألِفُوا الطغيان ، ولا يريدون أنْ تُسلب منهم هذه السيادة . وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت هناك حاجة للرسل ، إذن : ما جاء رسول إلا بعد أنْ عَمَّ الفساد وطَمّ .

(١) الضِّغْن : الحقد والعداوة والبغضاء . والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة وجمعها الضغائن . (لسان العرب مادة : ضغن) .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه خلق فى النفس الإنسانية مناعة إيمانية نتيجة الفطرة الأولية ، لكن الشهوات وتقاليد الظالمين تطمس هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُذكِّر يعيدها إلى الطبيعة والفطرة التى خلقها الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ [الغاشية] يعنى : ليس بادئاً .

والحق سبحانه يُبين أن الناس أمام الخير والشر أنواع ثلاثة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر]

فالظالم لنفسه هو الذى يفعل السيئة ، ولا يلوم نفسه ، ولا يندم على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ؛ لأنه يحرمها الجزاء والنعيم الأبدى . والمقتصد هو الذى يتردد بين الحسنة والسيئة ، فإنْ فعل سيئة تذكَّر ولام نفسه وتاب ، ثم يفعل الحسنة لتُكفِّر السيئة ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢)﴾ [فاطر] يُراد به أمة محمد ﷺ ؛ لأن الميراث يعنى أن الموروث ينتقل من السابق إلى اللاحق ، فأمة محمد ورثتْ الرسل جميعاً فى كل أمورهم الخيرية ، وتكفَّلَتْ بأن تردع الشر فى كل نواحيه ، وبذلك ورثوا الرسالات كلها ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلَّغتم مَنْ بعدكم ، رسولكم فوَّضه الله في أنْ يُشرِّع لكم ، وفوَّضكم أنتم في أنْ تحملوا منهجه من بعده ؛ لذلك انقطعتْ الرسالات بعده ﷺ ؛ لأن أمته ستقوم بمهمة الرسالة ، وهذا دليل على أنها أمة ، الخيرية فيها باقية إلى قيام الساعة .

وقولهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] بم أُرسل الرسلُ ؟ أُرسلوا أولاً بقضية التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالبلاغ عن الله ، أرسلوا بمعجزات ، أُرسلوا بأحكام ومناهج تحكم حركة الحياة . فهؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أنْ يعيشوا في ترفهم وظلمهم ، وأنْ يستبدوا كما يشاؤون .

لكن قولهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] دلَّ على غبائهم ؛ لأنهم لم يقولوا مثلاً بما جئتم به ، أو بما ادعيتموه ، إنما بما أُرسلتم به ، فهم يعترفون بأنهم مُرسَلُون ، فهذه كلمة الحق ساقها الله على ألسنتهم ، كما ساقه على ألسنتهم في قولهم : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] وقولهم لما فتر الوحي عن رسول الله : إن رب محمد قلاه[1] .

إذن : هم يعترفون لرسول الله بالرسالة ، والمرسل لا يُرسَل من مثله ، إنما من جهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند محمد : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ

(١) عن جندب بن عبد الله البجلي أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : وَدَّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

(١٦) ﴾ [يونس] لكن ، ما علة هذا الكفر ؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قلنا : إن الدين إنما جاء ليُحدث توازناً فى المجتمع واستطراقاً عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ، فمنطق هؤلاء الذين كفروا بالرسل أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا كله ، فعندهم المال والأولاد ، وعندهم كل مُتع الحياة .

﴿وَقَالُوا .. (٣٥)﴾ [سبأ] أى : فى حيثيات كفرهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا (٣٥)﴾ [سبأ] بل أكثر من ذلك يأخذهم غرورهم إلى أن يقولوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] لماذا ؟ يقولون : لأن الله ما كان ليعطينا هذا النعيم فى الدنيا ، ويضنّ علينا فى الآخرة .

لكن نقول لهم : أنتم واهمون ، فَفَرْق بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية ، الله تعالى أعطاكم بعطاء الربوبية الذى يشمل الجميع المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية فتكليف ، فالله يعطيكم فى الدنيا بعطاء الربوبية ، ويعاقبكم فى الآخرة بمقتضى الألوهية .

وهذه الحيثية منهم : ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا (٣٥)﴾ [سبأ] حجة عليهم لا لهم ، فمن أين لكم هذا الخير ؟ ثم إن كثرة الأموال كان يجب أنْ تحملكم على نواحى الخير ، وكثرة الأولاد كان ينبغى أنْ تجعلوا منهم (عزوة) لكم على الحق ، إذن : كفركم بعد هذه النِّعَم دليل على أنكم استخدمتموها فى الباطل وفى الظلم والطغيان .

وما أشبه قولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] بقول صاحب

الجنة : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾[الكهف] وهذا بَطَر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خَلْقه قرابة ولا نسب ، لينعم فى الدنيا وينعم فى الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الذرية ؛ لذلك يقول سبحانه محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤) ﴾ [التغابن]

والحمد لله أنه قال (مِنْ) ، فهى تفيد التبعيض ، يعنى : ما يزال فى بعض الأزواج وفى بعض الأولاد عنصر الخير موجود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾

أى (قُلْ) رداً عليهم فى اغترارهم بكثرة الأموال والأولاد : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٣٦) ﴾ [سبأ] يبسط : يُوسع الرزق بكرمه ، ويقدر : يعنى : يضيقه على مَنْ يشاء بحكمته تعالى . والرزق لازمة من لوازم الربوبية التى خَلَقَتْ ، والتى استدعت الإنسان للوجود ، فلا بُدَّ أن تضمن له مقومات حياته .

لكن الرازق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمسطرة) يعنى بالتساوى ؛ لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث فى المجتمع هذا الترابط وهذا الاتصال الجماعى .

وسبق أنْ أوضحنا أن ترابط المجتمع لا بُدَّ أنْ يكون ترابط

حاجة ، لا ترابط تفضّل ، فلو فرضنا أننا جميعاً تخرّجنا فى الجامعة ، أو أخذنا الدكتوراة ، فمن (يكنس) الشوارع ، ومن يمسح الأحذية ؟ لو جعلنا هذه الأعمال تفضّلاً من بعضنا ما قَبِلها أحد .

وقلنا : إن الرجل المتعجرف أو المتكبر أو الباشا لو عاد إلى بيته فوجد به رائحة كريهة فسأل فقالوا : المجارى بهنا كذا وكذا لا شكّ أنه لن يهدأ له بال حتى تنتهى هذه المشكلة ، وربما ركب سيارته ، وذهب بنفسه إلى السباك ليُخلِّصه من هذه المشكلة .

نقول فى هذه الحالة : إن السباك فاضل على الباشا فى هذا الوقت ، لأن الله أعطاه قدرة على نفسه لا يملكها الباشا أو حامل الدكتوراة ، وهذا السباك ما تحمَّل مثل هذا العمل إلا لحاجته إليه وإلا ما قَبِلَه .

لذلك أحسن الشاعر(١) حين قال :

النَّاس للنَّاس من بَدْوٍ وحَاضِرةٍ
بَعْضٌ لبعْضٍ وإنْ لم يَشْعُروا خَدَمُ(٢)

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية كلها خادمة ، وذرية مخدومة ، إنما أنت خادم فى شيء ومخدوم فى شيء آخر ، وهكذا كلنا خادم ، وكلنا مخدوم ، ليعلم الإنسان أياً كان

---

(١) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، شاعر وفيلسوف ، ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . أشهر كتبه « رسالة الغفران » . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD] - العصر الفاطمى .

(٢) لفظ البيت كما فى الموسوعة الشعرية :

والناس بالناس من حضر وبادية   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والقصيدة من بحر البسيط .

أنه ابن أغيار ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإنْ كان هو الأعلى عليه أنْ يُقدر هذا العلو ويعمل له ليظل على عُلُوه ، فإنْ رأى الأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدِّر له مهمته فى خدمته ، وأنه سيحتاج إليه فى يوم ما فى عمل لا يقدر هو عليه .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ..(٧١)﴾ [النحل] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فضَّل بعضنا على بعض فى هذه الأشياء ، لكن أىُّ بعض فضَّل ؟ وأىُّ بعض فضَّل عليه ؟ أنت مُفضَّل فيما لك فيه موهبة ، ومفضَّل عليه فيما لا موهبةَ لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر] وشكراً ، وكثَّر الله خيرك أنْ نسبتَ الإكرام لربك ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر] فيقول الحق (كَلاَّ) يعنى : أنت كذاب فى هذا القول ؛ لأن بَسْط الرزق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تضييقه دليل إهانة . وإلا كيف يكون بَسْط الرزق دليلَ التكريم ، والناس فيما يُرْزَقون لا يكرمون به اليتيم ، ولا المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لماً .

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : على الإنسان أنْ يتأدب مع الله فيما صنع ؛ لأن الله يعلم كيف يرزق ، وهو سبحانه يريد أنْ يجعل من الناس أُسْوة للناس ، فالغنى الذى افترى بماله يُبقيه الله حتى يرى فيه الفقير المفْترَى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن لله تعالى ألوهية ، ولله تعالى قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها فى الدنيا قبل الآخرة . وهذا المعنى خاطب الله به نبيه فقال : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا تتوقف على مهارة ، أو شطارة ، أو علم ، فهناك مَنْ سعى للرزق وزرع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءته جائحة اجتاحت زرعه فأهلكتْه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياك أنْ تفطن إلى ألوهية الأسباب ، وتغفل ألوهية المسبب .

والرزق مقسوم لصاحبه ، وإنْ حمله غيره ، فالجنين فى بطن أمه غذاؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإنْ حملتْه الأم ليس رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحمل توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإنْ لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم فى عملية الحيض ، ولم تنتفع به الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هى ، وهذا يساعدنا فى فهم قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ [الإسراء]

لذلك قالوا : ليس كل ما تملك رِزْقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعتَ به، فالشيء يكون فى ملكك وفى حوزتك تظن أنه لك ، ثم يضيع منك ، أو يُسرق أو يُؤمَّم أو تُصيبه جائحة .. إلخ بل أكثر من ذلك قد يكون طعاماً وتأكله بالفعل ، ويتمثل فى جسمك دماً يجرى فى عروقك ، ثم يسيل منك بسبب جرح ، أو عملية جراحية مثلاً : إذن : هذا الدم ليس رزقاً لك .

فالمؤمن ينبغى أنْ يطمئن إذن إلى عملية الرزق ، ويعلم أنها بقيومية الله التى ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لك ، مُسمّى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإنْ بُسِط لك فاحمد

الله ، وإن قُتِّر وضُيِّق عليك فاعلم أنها بحكمة الله ، واقرأ :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾ [الحجر]

ثم تُختتم الآية بقوله تعالى :﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾ [سبأ] فالأكثرية لا يعلمون حكمة الله فى تفاوت الأرزاق ، وهذا يعنى أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهمَّ اجعلْنَا من هذه الأقلية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧ ﴾

الكلام هنا مُوجَّه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم ، فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أبداً زلفى ، ولا قربى إلى الله ، لكن إن استغل هذا فى مرضاة الله وفى سبيل الله وفى أبواب الخير فهو من أعظم القربات .

المال يُنْفَق منه فى نواحى الخير ، والأولاد يُربوْن التربية الصالحة ليكونوا أسوة خَيْر فى مجتمعهم ، لذلك استثنى الله تعالى فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۝٣٧ ﴾[سبأ] أى : فيما أعطاه الله من نعمة المال ومن نعمة الأولاد .

﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ۝٣٧ ﴾[سبأ] وهكذا فتح الله الباب للنعمة ، حين تُستغل فى مرضاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل الأولاد نعمة ، فالمال قد يجرُّ صاحبه إلى الهلاك ، ويلقى به فى النار، والأولاد الذين ظننتَ أنهم لك عِزْوة وقوة قد تنقلب هذه العِزْوة عليك .

ورأينا كثيراً من الذين يبغون عن هذه العزْوة فى الباطل ، لكن يريد الله أنْ يُذلّهم بما فتنوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطب لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ، ويفرح بهذا النسب ويفخر به ، لكن أضمنتَ أنك سترضى هذه البنت ؟ وأنك لن تختلف معها فى يوم من الأيام ؛ لذلك كثيراً ما تنقلب هذه العزْوة وهذا الجاه على صاحبنا ، فيُذله الله من حيث ظنَّ هو العزة والكرامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ (٣٧) ﴾[سبأ] لا يأتى الضعف إلا فى جزاء الحسنة ، أما السيئة فلا تُضاعف ، إنما يكون الجزاء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿ الضِّعْفِ (٣٧) ﴾[سبأ] ولم يقُلْ الأضعاف ؛ لأن (الضعف) اسم جنس يصلح للقليل وللكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٣) ﴾ [العصر] فاستثنى (الذينَ) وهى جمع من المفرد (الإنْسَانَ) لأنه اسم جنس.

والضِّعْف أى : مضاعفة الحسنة ، أو مضاعفة الصدقة ، ومن معانى الضِّعف أنك إذا وزنتَ الأصل الذى أنفقتَه وجدته ضعيفاً بالنسبة لما أخذتَ عليه من الجزاء .

وليست المضاعفة هى نهاية العطاء عند الله ؛ لأن الحديث النبوى الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ : « الحسنة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف »(١)

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الصيام - باب فضل الصيام) حديث رقم ١٦٤ وكذا ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٤٣ ، ٥١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله » .

فالله تعالى يُضاعف لمن يشاء على قَدر النيات فى العطاء والبَذْل ، فواحد يعطى وفى نفسه أنه أعطى وبذل من ماله ومن جهده ، وآخر يعطى ويؤمن أنه مجرد مُناول عن الله ، فالمال عنده مال الله ، والعطاء من الله .

ومن صور العطاء ما تعلَّمناه من السيدة فاطمة ، فرُوى أن سيدنا رسول الله دخل عليها فوجدها تجلو درهماً لها ، فَسألها رسول الله عنه فقالت : لأننى نويت أنْ أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير .

ثم إن المتصدق بمجرد أنْ يُخرج الصدقة من يده تخرج قيمتها من قلبه ، ولا يتتبعها ، ولا تتعلَق نفسه بها ، أما حين يُقْرض قرضاً ، فإن نفسه لا تنساه وتتعلق به ، وكلما تحركتْ نفسه لطلب القرض صبر عليه ، فكان له الثواب على قَرْضه كلما صبر عليه .

لذلك أثار المستشرقون ضجة حول مسألة الجزاء على الصدقة وعلى القرض ، وادعَوْا تضارب الآية والحديث فى هذه المسألة ، ففى الحديث قال ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنةُ بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1]

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وبالجمع بين الاثنين يكون القَرْض حين يُضَاعف بعشرين لا بثمانية عشر ، والحمد لله فتح الله لنا ما أُغْلق من هذه المسألة ، فقُلْنا :

(١) عن أبى أمامة صدى بن عجلان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢ / ٣٤) .

لو أن رجلاً تصدَّق بدينار مثلاً ، فالله يجازيه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذى دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن : أخذ فى الواقع تسعة ، فحين تُضاعف تساوى ثمانية عشر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ] فى مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العمل إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هَبَاء لا قيمةَ له كأعمال الكفار الخيرية التى يأخذون الجزاء عليها فى الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إنْ لم يُترجم إلى عمل صالح .

﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] الغرفات جمع غرفة ، وهى المكان الذى يُبْنى عادة أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الذاتى ، لذلك نرى حتى الآن فى بناء الڤيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضى للاستقبال العام وللطعام ، فإنْ أراد صاحب البيت أنْ يرتاح يصعد إلى الدور العلوى الذى جُعل للاستقلالية والخصوصية.

وللإنسان خصوصيات ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً فى غرفة نومه ، فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الصالة تهيَّأ لها وارتدى الملابس التى تناسبها ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الشارع تهيَّأ أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادى ، أو مكان اجتماع القوم ، لكُلٍّ زى خاص وسَمْت خاص .

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للبنين ، وغرفة للبنات ، فإنْ لم تَكُنْ هناك سَعَة فى المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للبنت .

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قَدْره ، ويحفظ له هذه الخصوصية ، وهى خصوصية آمنة لا يُنغص أمنها فَزَع ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ]

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (١) أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾

نقول : سعى فلان بفلان عند السلطان ، يعنى : بوشاية وبإفساد ، وهؤلاء سَعَوْا فى آيات الله ليصرفوا الناس عنها ، ويشغلوهم عن سماعها .

ومعنى : ﴿مُعَاجِزِينَ (٣٨)﴾ [سبأ] مفردها مُعاجز ، والمعاجزة مفاعلة يعنى : واحد يعاجز الآخر أى : يريد أنْ يُعجزه ، إذن : المعاجزة معركة ، لكن إياكم أنْ تظنوا أنها بين مؤمنين وكافرين ، أو بين الرسل والمكذِّبين لهم ، لا إنما هى معركة عالية ، فالذين يُعاجزون يُعاجزون الله فى آياته ليبطلوها ، وليضعوا العقبات فى طريقها ، ومهما كان كيدهم فلن يعجزوا الله ، ولن يُفلتوا منه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ]

وهنا يقول : ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾[سبأ] ومعنى محضرون أنهم يحضرون رغماً عنهم ، فهى اسم مفعول من حضر ، فهم يُجَرُّون ويُشدُّون كالمقبوض عليهم ، ومنها كلمة (مُحضر) وهو الذى يُحضِر المتهم رغماً عنه .

---

(١) المعاجز : من يحاول أن يعجز غيره . وأعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه فلم يقدر عليه . [القاموس القويم ٢/٧ ، ٨]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلنا : يبسط يعنى يُوسِّع . ويقدر يعنى : يُضيق . وقد ورد هذا المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفتة جديدة ، فيقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن الخَلْق جميعاً خَلْقه وعباده ، وهو قادر سبحانه أنْ يعطى الجميع ، وأنْ يُوسِّع على الجميع ، لكن يريد أنْ يتحابَّ الخَلْق ، وأنْ يتكافل الناس ؛ لذلك وسَّع على بعضهم ، وضَيَّق على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولوَّح له بجزاء الإنفاق ، لينفق على أخيه الذى ضُيِّق عليه .

وهذه الآية تعطينا ملخصاً لاقتصاد العالم كله ؛ لأن معنى الاقتصاد موازنة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف له ، والواردات لوارد عليه ، إذن : لا بُدَّ أن يكون فى المكان الواحد فئة تعطى وفئة تأخذ ، لا بُدَّ أنْ يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق سبحانه لم يترك بَسْطة الغنى هكذا حرة ، كذلك لم يترك تقتير الفقير، بل جعل لهذا مَبْذلاً ، ولهذا مصدراً ..

فبعد أن أخبر سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] حكمها فقال : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يراعى مبدأ النفعية لصاحب المال ، ويراعى

حب الأغنياء للمال ؛ لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويتكفّل هو سبحانه بأنْ يخلفها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقول لهم : إذا أُحلْت على غنى فاتبع ، يعنى : إنْ كان لك دَيْن عند فقير فأحالك بدينك إلى غنى قادر على السداد فتحوَّل ؛ لأنك لا تضمن متى سيُوسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه .

وهكذا طمأن اللهُ الأغنياءَ بأنّ أموالهم لن تنقص بالإنفاق ؛ لأنها أحيلت إلى الله وتكفَّل هو بالسداد .

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »(١)

ولما أُهديَتْ لرسول الله ﷺ شاة تصدَّقَتْ بها السيدة عائشة ، وأبقَتْ لرسول الله كتفها ؛ لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلما عاد رسول الله سألها : ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيَتْ كلها إلا كتفها »(٢)

لماذا ؟ لأنه مال تحوَّل إلى ذمة الله ، وقد تعهد الله بأنْ يُخلفه ، وما بالك إنْ كان الإخلاف من الله القائل : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه . ولفظ الحديث عند مسلم : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، قال : وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : حديث صحيح . ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما بقى إلا كتفها . قال : « كلها قد بقى إلا كتفها » .

وأنت حييْتَ الله فى الفقير بتحية فلا بُدَّ أن يردَّها لك بأحسن منها ، بل ويُضاعفها لك أضعافاً كثيرة بما يفوق الحَصْر والعَدَّ ، ومثَّلْنا لذلك بالحبة يزرعها الفلاح ، فتُعطى سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فإذا كان هذا عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

فقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ (٣٩)﴾[سبأ] يريد سبحانه أنْ يُطمئن الغنيَّ بأن ماله لن ينقص ، ويُطمئن الفقير بأنه لن يتخلَّى عنه ، ولن يتركه للفقر ، بدليل أنه سبحانه اقترض من أجله ، فقال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ [البقرة] فالله يقترض من الخَلْق للخَلْق ، وهو قادر سبحانه أن يُوسِّع على الجميع ، إنما الهدف أنْ يتعايش الناس بوداد المعونة ، وأنْ يحب الغنيُّ الفقيرَ ، ولا يحقد الفقير على الغنى .

لذلك تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾[سبأ] قال سبحانه خير الرازقين ؛ لأن الرازق : كل مَنْ يمدُّ لك يده بما تنتفع به، وعليه فأبوك بالنسبة لك رازق ، والذى يعولك ويتكفَّل بك رازق ، كذلك ربُّك عز وجل رازق ، لكن فَرْق بينهما ، فأبوك رازق ؛ لأنه يأتى لك بالرزق ، لكن إنْ سألته من أين هذا الرزق يقول : من عند الله ، فهو سبب ومناول ، أما الحق سبحانه فهو خالق الرزق ؛ لذلك قال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ]

وسبق أنْ أوضحنا : إذا رأيتَ صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ ما يناسبه . إذن : حيثية الخيرية هنا أنه تعالى هو الرازق ، وهو خالق الرزق ، وهو الذى يُيسِّر لك أسبابه حتى يصل إليك .

وقالوا : خيرية الله فى الرزق ناشئة من ثلاث مسائل : **الأولى** : أنه سبحانه لا يُؤجِّل الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما خلقه لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك مُقوِّمات الحياة قبل أنْ يستدعيك إليها . **الثانية** : أنه لا يحاسبك على ما رزقك . **الثالثة** : لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك .

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يزال خير الرازقين ، وتأمل مثلاً فرعون لما ربَّى موسى عليه السلام امتنَّ عليه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]

والمعنى : كان ينبغى عليك يا موسى أنْ تُجاملنا ، وتحفظ جميلنا عليك ، وألاَّ تصادمنا هذا الصدام .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

وقوله تعالى : ﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

فى هذه الآيات كلها ، الحق - تبارك وتعالى - راعَى مواهب الخَلْق وقدَّر حركتهم الإيجابية فى الحياة ؛ لذلك أثبتَ لهم صفة من صفاته وهى الخَلْق ، ومعنى الخَلْق إيجاد شىء لم يكُنْ موجوداً ، فالإنسان يُعَدُّ خالقاً حين يصنع من الرمل (الكريستال) مثلاً ، والحق سبحانه لا يضنّ عليه فيسميه خالقاً ، لكن إنْ كان الإنسان خالقاً ، فالحق - سبحانه وتعالى - أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا : حيثيات هذه الخيرية فى عملية الخَلْق من عدة وجوه : منها : **أولاً** : أن الإنسان يَخلق من مادة موجودة ، أما الخالق سبحانه فيخلق من لا شىء من العدم . **ثانياً** : صنعة الإنسان تظل على حالة واحدة ، فلا تنمو ولا تتكاثر ، أما خَلْق الله ففيه حياة ، فهو يتغذَّى وينمو ويتكاثر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعاً ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة ، لكن لماذا يذكر رسول الله هذا اليوم ؟ قالوا : هنا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يَنْسَه وما تركه ، ولا تخلى عنه ، بدليل أنه سينتقم له من أعدائه ومُكذِّبيه فى هذا اليوم ، وكأن الله يقول له : سترى ماذا سنفعل بهم ، كما قال سبحانه فى آخر المطففين : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين]

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَـٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] معلوم أن الكفار عبدوا آلهة كثيرة ، فلماذا خَصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ؟ قالوا : لأنهم أعلى الأجناس التى عُبِدَتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ؛ لذلك قالوا عنهم : بنات الله ، فهم يظنون أنَّ الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أنْ يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إنْ عبدوهم ؛ لذلك ذكر هنا الملائكة ، ولم يذكر الشجر والحجر الذى عُبِد من دونه سبحانه .

لكن ، لماذا وُجِّه السؤالُ للملائكة المعبودين ، ولم يُوجَّه للعابدين الذين أشركوا ؟ لماذا لم يُوبِّخهم الله ويُقرِّعهم على عبادتهم دون الله ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه أراد أنْ يسمع المشركون من الملائكة أنفسهم الردّ ؛ لتكون الحجة عليهم أبلغ .

يقول سبحانه للملائكة : ﴿أَهَٰؤُلاء ۝٤٠﴾[سبأ] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾[سبأ] فأول ردِّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ ۝٤١﴾ [سبأ] يعنى : تنزيه لك يا رب أنْ يُعبد سواك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۝٤١﴾ [سبأ] يعنى : نحن فى ذُلِّية عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كونهم يعبدوننا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۝٤١﴾ [سبأ] يعنى : ما عبدونا ، إنما عبدوا الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ] فلماذا عبدوا الجن[1]؟ ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذى يقابل الإنس ، وسُمِّى الجن ؛ لأنه مستور عنَّا ، يرانا ونحن لا نراه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ۝٢٧﴾ [الأعراف]

والذين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم ، وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين ، لماذا ؟ لأن الجن كانوا يَسْترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأخبار والحقائق ، ثم يُوحُونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فيأخذها هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، إلا أنهم كانوا يدسُّون فى هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتى بعض الأحداث موافقة لما أخبروا به ، فيُفْتَن الناس بهم ، ويظنون أنهم يعلمون الغيب .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧٩) « أن حيّاً يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله » ، ولكن أورد أبو يحيى زكريا الأنصارى سؤالاً فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ٣٤٥) « إن قلت : كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك ، مع أنه لم يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال : « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله تعالى . فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرمانى جزم بأنهم عبدوا الجن أيضاً » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ فَالْيَوْمَ ﴿٤٢﴾ ﴾[سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[سبأ] أى : الملائكة ومَنْ عبدوهم من المشركين ﴿ نَفْعًا وَلا ضَرًّا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ] فإنْ كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرمون ، وأن لهم منزلة عند الله ؛ لذلك سيشفعون لهم فأفهموهم : أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أنْ يُؤذَن لكم فى الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحُونَ أنْ تكونوا شفعاء لمن عبد غير الله ؛ لأن إخلاصكم فى عبوديتكم لله تعالى يمنعكم أنْ تناصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم .

ومثل هذا الموقف شاهدناه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الذين آمنوا بالله وكفروا برسالته مُقدَّمون عنده على مَنْ كفروا بالله ، فعصبية محمد ﷺ لربه أكثر من عصبيته لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[سبأ] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون يظنون أن بها مأخذاً على كلام الله ، قالوا : القرآن يقول فى سبأ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ] ويقول فى السجدة : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

فهل كذَّب الكفار بالنار ، أم كذَّبوا بالعذاب ؟ ونقول : منهم مَنْ كان يُكذِّب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ [سبأ] لأن تكذيبهم مُنصَبٌّ على النار ، والاسم الموصول (التى) يعود إلى النار .

أما الذين آمنوا بوجود النار ، لكن ينكرون أنْ يُعذَّبوا بها قال الله لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة] لأن تكذيبهم للعذاب لا للنار ؛ لذلك جاء الاسم الموصول (الذى) العائد إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾

معنى ﴿ يَصُدَّكُمْ (٤٣) ﴾ [سبأ] : أى : يصرفكم ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ (٤٣) ﴾ [سبأ] وهذا دليل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد للآباء ، وهم بقولهم هذا لم يأتوا بجديد ، فقد أخبر الله عنهم بهذا ، وهم ما يزالون فى عالم الذرِّ يوم أخذ عليهم العهد والميثاق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

بعد أنْ قالوا فى رسول الله قالوا فى القرآن : ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى (٤٣) ﴾ [سبأ] الإفك : قَلْب الشىء عن موضعه أو قلب الحقائق ، ومن هنا سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكذب أنْ تقول قضية يناقضها

الواقع ، والصدق أنْ تقول قضية يؤيدها الواقع ، فحين تقلب الحقيقة فإنك تُغيِّر الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ ﴾ [النجم] فالمؤتفكة هى القرى التى قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ ﴾ [الأنعام] يعنى : كيف تُصرفون عن الحق، وتقلبونه إلى الباطل .

ولَيْتهم وقفوا فى وصف القرآن عند هذا الوصف ، إنما زادوا ﴿ مُّفْتَرًى ۝٤٣ ﴾ [سبأ] أى : متعمد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ ﴾[سبأ] معنى ﴿ إِنْ هَـٰذَا ۝٤٣ ﴾ [سبأ] ما هذا الذى جاء به محمد ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ ﴾[سبأ] وعجيب أنْ يصفوا ما جاء به محمد بالسحر ؛ لأن السحر تخييل لأعين الناس ، وليس ما يفعله الساحر حقيقة ، إنما هو توهم ؛ لذلك قُلْنا : هناك فَرْق بين السحر الذى جاء به السحرة وعصا موسى عليه السلام .

كان سحرهم كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ۝١١٦ ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ ﴾ [طه] مجرد تخيُّلات لا حقيقة . إنما لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة حقيقية ، ولو لم تنقلب حية حقيقية ما خاف منها موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ ﴾ [طه]

ولو لم تكن حية حقيقية ما آمن لموسى كبار السحرة ، فالقرآن يحكى عنهم أنهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ ﴾ [طه] يعنى المسألة ليست من موسى ، إنما من الله .

إذن : فأين ما جاء به محمد من السحر ؟ وإذا كان محمد ساحراً

سحر المؤمنين به كما تقولون ، فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خيار للمسحور مع الساحر . إذن : هذا القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يسأل : من أين جاءوا بهذا الكلام ، وبهذه الاتهامات ، هل آتيناهم كُتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟

ويجيب سبحانه ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] كذلك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] يعنى : رسول يخبرهم بهذا . إذن : من أين جاءوا به ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : أن ما قالوه فى رسول الله ، وفيما جاء به من الهدى تكذيب كما كذَّب السابقون ، فهو سنة مُتبعة وطبيعة فى المرسَل إليهم حين يأتى دين جديد ليُخرجهم عن طغيانهم واستبدادهم ويقضى على سيادتهم واستعبادهم للناس ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الدين ويُكذِّبوا الرسل ، لتظلَّ لهم وسائل الطغيان ووسائل الفساد .

فمعنى ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[سبأ: ٤٥] الأمم السابقة الذين كذَّبوا إخوانك الرسل السابقين ، فلستَ يا محمد بدْعاً فى ذلك .

﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾[سبأ: ٤٥] يعنى : الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها ما بلغتْ فى الرسالة وفى المنهج والحجة والبينة معشار ما آتيناك ؛ ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافى والمنهج الكامل الذى لا يمكن الاستدراك عليه .

أو : أن المعنى ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾[سبأ: ٤٥] أى : كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾[سبأ: ٤٥] يعنى : ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة ، وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، وأين هم من عاد وثمود وفرعون ؟

واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) ﴾ [الفجر]

فأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يُضرب بهم المثل فى : القوة ، والبطش ، والجبروت ، والطغيان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم .

والمعشار أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العُشْر ، فإذا أردتَ العشرات تقول عُشر ، وإذا أردت المئات تقول عَشير ، وإذا أردتَ الآلاف تقول معشار[1] .

---

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العُشْر جزء من عشرة ، أما العشير فهو جزء من مئة ، أما المعشار فهو جزء من الألف . فمراد الآية ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥) ﴾ [سبأ] أى : ما بلغوا جزءاً من ألف جزء مما أعطيناه وآتيناه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغة فى التقليل ، وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الماوردى . [عادل أبو المعاطى] .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : انظر كيف كان أخْذى للمكذِّبين ، فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أخْذ عزيز مقتدر ، ومعنى ﴿نَكِيرِ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : إنكارى عليهم بالتدمير والعقاب ، وإنكارى عليهم على قَدْر ما كانوا هم منكرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

بعد أنْ أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمَنْ سبقهم من المكذبين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يعنى : لهم ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] الوعظ ليس إنشاءَ حكم ، إنما هو تذكير بحكم سبق ونسيه الناس ، فالواعظ يُبيِّن للناس أموراً يعرفونها ويؤمنون بها من الدين ، لكن أنْستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور ، فهو مُذكِّر بها ، والعظَة لا تكون إلا من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك .

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا نموذجاً للوعظ فى قصة لقمان حين يعظ ولده : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. (١٣)﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : موعظة واحدة فيها كل الآحاد ، واستخدم السياق ﴿إِنَّمَا (٤٦)﴾ [سبأ] الدالة على القصر يعنى : لا أعظكم إلا بواحدة ، ما هى ؟ ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : إياك

أنْ تقوم لشهوة نفسك ، أو لسيادة تحافظ عليها ، إياك أنْ تقوم وأنت تريد الاستعلاء على هذا النبى ، إنما يكون قيامك لله ، يعنى : تتجرد عن هواك ، وتتجرَّد عن شهواتك وعن تعصُّبك .

وما دُمْتَ تتودد إليهم أنْ يقوموا لله فلا بُدَّ أن لله تعالى مكانة فى قلوبهم ، وهو سبحانه فى بالهم بدليل : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٥)﴾ [لقمان]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

إذن : كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ، وهو خالق السموات والأرض ؛ لأن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا ينكرها منكر ، مهما بلغ من الكفر والإلحاد ، لماذا ؟

لأن مسألة الخَلْق لم يدَّعها أحد لنفسه ؛ لأن الدعوى إنما تكون عند وقوع لبس بباطل يمكنَ أن يكون له رواج ، لكن هذه المسألة واضحة ، لا لَبْسَ فيها ، ومهما بحثوا فلن يجدوا خالقاً لهم وللكون من حولهم إلا الله ؛ لذلك يجادلهم بالمنطق فى هذه المسألة فيقول : أنتم أمام أمرين : إما أنكم خلقتم هذا الخَلْق ، أو أنكم خُلِقْتم من غير خالق .

فالأولى مردودة ؛ لأن أحداً لم يَدَّع الخَلْق ، والأخرى مردودة ؛ لأن أتفه من السماء والأرض ، وأتفه من الإنسان لا بُدَّ له من صانع يصنعه ، فالحذاء الذى تلبسه فى قدميك ، أليس له صانع ؟

إذن : السماء والأرض والإنسان لا بُدَّ أن لهم صانعاً على قدر عظمهم ، وكيف ينكرون هذه المسألة وهم يعترفون بعضهم لبعض بأبسط الأمور ، ويعرفون صاحبها ويفخرون به ، ففلان كان يئد البنات ، وفلان كان عنده جفنة طعام يأكل منها كذا وكذا من

الضِّيفان ، وفلان كان أشجع العـرب .. إلخ وكَثُر فى شعرهم قولهم : أنا ابن فلان ، وأنا ابن فلان .

إذن : مسـألة الخَلْق هذه لا يجـرؤ أحد منهم علـى أنْ ينكرها ، وما دامـوا يعترفـون لله تعالى بالخَلْق ، فـعليهم أنْ يقومـوا لهذا الإله الذى أقروا له بـالخلق ، وأنْ يُخلصوا فى قـيامهم له ، فـلا يكون فى بالهم أحد سـواه ، وعندها ثِقُوا تمامـاً أنكم ستصلون بهذا القـيام إلى الحق ؛ لأنه لا يُضبِّبُ الحق فى عـقول الباحثين فـيه إلا هوى النفس ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون]

والقيام المـراد هنا لا يشترط فيـه الجماعة ولا الجـماهيرية ؛ لأنه قيـام للتفكُّر ، فيـنبغى أنْ يكون ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦) ﴾ [سبأ] مثنى : يعنى : اثنين اثنين ، وفـرادى : واحداً واحـداً . بحيث يخـتلى كُلٌّ مع نفسه ليفكر فى أمر محمد بواقـعية وتجرُّد : كيف كان بينكم ، وكيف كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جرَّبتم عليه كذباً ، أو سحراً ، أو كهانة ؟ وهل سبق له أنْ ادَّعَى ما ليس لـه ؟ هل رأيتم عليه قبل بعثتـه علامة من علامات الجنون ؟ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

وهذا التـفكُّر فى حال رسـول الله يحتـاج إلى موضـوعيـة ؛ لذلك اختار أنْ ينفـردوا به ، إما مثنى مثنى ، وإما فرادى ، فـالإنسان حين يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير ينهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على غير الحق ، فرأيه فى هذه الحالة يكون أقرب للصواب .

والمنفـرد إنْ تفكَّر وصل إلى الحق ؛ لأنه لن يغـشَّ نفسـه ، ولن يخدعها ، ولن يستكبر أنْ يعـود للحق ، أما إن كانوا جماعة فلا بُدَّ أن يحـاول كل منهم أنْ يثبت حـجتـه ، ولو اضطر للكذب وللخـداع كمـا

نراهم فى مثل هذه المواقف ، كُلٌّ يحلف أنه على الحق وغيره على الباطل .

فكأن الحق بهذه الطريقة فى التفكير يحمينا ويعصمنا من غوغائية الجماهيرية فى الحكم ، هذه الغوغائية التى نشاهدها مثلاً فى المظاهرات ، حيث يهتف كُلٌّ بما يريد ، فتختلط الأصوات ، وتتداخل الهتافات ، فلا تستطيع أنْ تميزها .

لذلك لما تكلم شوقى رحمه الله عن موقعة (اكتيوم) بين كليوباترا وخصومها وقد هُزِمَتْ فيها ، إلا أن أبواقهم صوَّرَتْ الهزيمة على أنها نصر ، وأخذتْ الجماهير الغوغائية تُردِّد ما يقولون ، فقال شوقى :

اسْمِعِ الشعْبَ دُيُونُ ∴ كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافاً ∴ بحياتَىْ قَاتلَيْه
أثَّر البهتانُ فيه ∴ وانطَلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ من بَبْغاء ∴ عقلُه فى أُذُنيْه!!

فالحق يُعلِّمنا كيفية التفكُّر مثنى أو فرادى ، ويحمينا من الغوغائية .

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المستشرقين على قوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

ووجه اعتراضهم : إذا كان الله تعالى يمتنُّ علينا بعلم ما نكتم ، فما الميزة فى علم الجهر ، وكلنا يعلم الجهر ؟ ونقول : الخطاب هنا للجماعة ، فالحق سبحانه يعلم ما تكتمون جميعاً وما تعلنون ، إنِ اختلطت أصواتكم وتداخلت فهو يعلمها ، ويرد كلَّ صوتٍ إلى

صاحبه ، وعِلْم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ؛ لأن المكتوم يمكن أنْ تكونَ له أمارات تدل عليه ، أمّا علم الجهر المختلط ، فيصعب أنْ تُميِّز بعضه من بعض .

كذلك إنْ كانوا مثنى مثنى ، فالاثنان كما تقول : الرأى والرأى الآخر ، ولو انهزم أحدهما أمام الآخر فهزيمته مستورة ؛ لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه : أريد أن أجلس أنا وأنت على انفراد . لأنكما طرفا المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبِّب لواحد منكما إحراجاً ، أو إذلالاً ، يتسبب فى تغيُّر مسلكك أمامه .

ومعنى ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] ليس القيام الذى يقابله القعود ، إنما مَنْ قام بالأمر يعنى : فعله وأدَّاه ، وإنْ كان قاعداً ، ومن ذلك نقول : فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدى وظيفة فلان . أى : يقوم بها .

ومعنى ﴿مَا بِصَاحِبِكُم ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] جنون ؛ لأنهم قالوا على رسول الله أنه مجنون ، وعجيب منهم وهم أعرف الناس به ، أنْ يصفوه بالجنون ، وهم لم يَرَوْا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه الذى عاش فيه ، بل كانوا قبل البعثة يقولون عنه : الصادق الأمين ، فكما ظهر كذبهم فى قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم فى قولهم (مجنون) .

ولو خَلاَ الواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكّر فى شخص رسول الله لوصل بنفسه إلى الحق ، ولو أدار فى عقله هذه الاتهامات لوجد أن رسول الله ﷺ برىء منها ، وما دام منفرداً فى هذا التفكُّر ، فلن يخجل أبداً أنْ يعود إلى الحق ؛ لأنه لن ينهزم أمام أحد .

وقد تناول القرآن الكريم كل افتراءاتهم على رسول الله ، وأظهر بطلانها ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى - هنا لم يذكر لنا نتيجة التفكّر والبحث مثنى وفرادى ؛ لأنه معلوم وواضح ، إلا أنه قال عنه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ]

شيء آخر : هل آمن الناس كلهم برسول الله بعد أن سمعوا منه قرآناً مُعْجزاً لنقول : إن القرآن هو المعجزة التى تثبت صدْق الرسول؟ نقول : لا ، إنما منهم مَنْ لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم مَنْ آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أنْ قال محمد : إنى رسول الله . وأولهم السيدة خديجة ، والصِّدِّيق أبو بكر ، فما حيثية إيمانهم برسول الله ؟ وما المعجزة التى عرفوا بها صدْقه ؟ حيثيته ومعجزته عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهى كافية لأنْ يؤمنوا به إنْ قال : أنا رسول الله إليكم . أما القرآن فهو معجزة وتحدٍّ لمن جحد .

لذلك نرى سيدنا رسول الله يُذكِّر قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما بُعث صعد إلى الصفا ، ونادى فى القوم ، فلما اجتمعوا حوله قال : « أرأيتم لو حدثتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى جاءت لتُغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقى ؟ » قالوا : ما جرَّبنا عليك منْ كذب ، فقال : « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لتوِّهم : أنت كذاب تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥٥) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨/٧٣٨ - فتح البارى) .

ورُوِى فى إسـلام سيـدنا عبـد الله بن سلام ، وكـان أحد أحبار اليهود أنه لما اطمأنَّ قلبـه للإيمان بعد ما رأى من أوصاف رسول الله التى ذُكِـرت فى كـتبـهم ، وتأكَّـد أنه رسـول الله ذهب إليـه وقـال : يا رسول الله لقـد شرح الله صدرى للإيمـان ، وتعلم يا رسول الله أن اليـهـود قـوم بُهْتٌ ، فـإذا أسلمتُ قـالوا فىَّ مـا ليس فىَّ ، فـادْعُـهُمْ يا رسول الله ، واسـألهم عنى ، وسوف أعلن إسلامى أمامـهم بعد أنْ تسـمع رأيهـم فىَّ ، وفـعـلاً دعـاهم سـيـدنـا رسـول الله وسـألهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيـدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حَبْـرنا ، وجمعوا له كل أوصـاف المدح ، عندها قال ابن سـلام : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : أشهـد أنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت شرُّنا وابن شرِّنا[1] .

فقال : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

وتلحظ أن الذين صـادمـوا رسـول الله فى أول البـعـثـة ، والذين اتهمـوه بالكذب من أهله وأقرب الناس إليه ، وعمـه هو الذى قال له : تبـاً لك ألهـذا جمـعتنا ؟ وهنا مـوطن حكمة وحـجة فى بعـثة سـيدنا رسـول الله ، جعلهـا الله ليعلم النـاس أن مكانة قريش وسـيادتهـا فى الجزيرة العـربية لم تكن هى التى صنعت رسالة مـحمد ليسـودوا بها العالم ، فـأعدى أعدائه كـانوا من قريش ، ولم يجد رسـول الله نُصْرَة فى مكة ، إنما كانت نصرته فى يثرب .

لذلك سبـق أن قلنا : إن الإيمان بمحـمد هو الذى خلق العـصبـية

(١) أخـرجه البـخارى فى صـحيـحه (٨/١٦٥ - فـتح البـارى) والبيـهقى فى دلائل النبـوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا »

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء] كأنه فى طىِّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿فَهُوَ لَكُمْ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْت هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم في عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأت في كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذي قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء] يعني : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحي أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى في بيته ، وفي رعايته .

وكلمة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أنني أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعني شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته في سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معي من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُغلي أجري على قدر معاناتي وما تحملتُه في سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأيِّ شيء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم الصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبي (٢٥٤٤/٣) ، وابن كثير في تفسيره (١٤٩/٢) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم :﴿ءأُنزِلَ عَلَيْه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. ﴿٨﴾﴾ [ص]، وقالوا : ﴿لَوْلا نُزِلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

فهم يـعترفـون بالقرآن ويعـلمون أنه ذكْـر ، وأنه لا غبارَ عـليه ، المـشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحـد منهم من عظماء القـوم ؛ لذلك أراد الحق سبحـانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مـصطفًى يصـطفيـه الله ، لا مـصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَـسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَـهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هى مـا ينتفع به الناس ، إما فى الدنيـا ، وهذه رحمة تشمل المـؤمن والكافر ، وإمـا رحمة فى الآخـرة ، وهذه للمؤمن دون الكافـر ، وهذه الرحـمـة الأخروية دائمة باقـيـة فى نعـيم لا يفـوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أَكِلُ إليكـم اختـيـار مَنْ يرحـمكم فى الآخـرة ؟ هل أقـسم لكم الرحمة الموقوتة . وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القـرآن معـهم منحًى آخر بعد أنْ وعظـهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التى كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أى : رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربى سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والقذف : الرمى بشدة ، وهى كلمة تُوحى بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطىء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التى ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج فى هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أى : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذى يرمى الطير مثلاً وهو فى الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التى تناسب الدقة فى هذه العملية ، فقال : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨)﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذى يقذف الله به هو المنهج الذى أنزله من السماء يقذفه لغاية وهى الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والغاية المقصودة هى وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحى أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان[1] ، فهذا تخبُّط لا سند له .

---

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسى ، وكان يفضل علياً على النبى ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعث ليدعو إلى على فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستانى ٢/ ١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..﴿١٧﴾﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .

ومعنى رابياً : طافياً على السطح ، وفى هذا إشارة إلى أن الباطل لا نفعَ فيه ، ولا بقاءَ له مهما علا ، وأن وجوده كوجود هذا الغثاء ، الذى لا قيمةَ له ، ولا فائدة منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ ﴾

نلحظ أنه ﷺ نسب الضلال إنْ حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ نسب الهداية إلى الله وإلى الوحى المنزَّل عليه ؛ لأن الله إذا أنزل منهجاً هادياً لإنسان مختار ، ومجال الاختيار أنْ تُوجد بدائل يختار العقل منها ؛ لأن العقل لا مهمة له فى الأمر الواحد الذى ليس له بديل ، فمثلاً : تقول أريد أنْ أسافر إلى الفيوم ، فلا تجد إلا طريقاً واحداً ، فلا عملَ للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول : أريد أنْ أسافر إلى الإسكندرية ، فتجد طريقين : الزراعى وصفته كذا وكذا ومميزاته كذا وكذا ، والصحراوى وصفته كذا ومميزاته كذا .

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً ، إلا فى الأمور القضائية القدرية ، فقد جعلها الله قهريةً لا اختيارَ للإنسان فيها ؛ لأن تدخُّلَه فيها يفسدها .

ولا تظن أنك وحدك مختار فى الكون ، فكُلُّ ما حولك من السماء والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجبال اختاروا مرة واحدة ، ثم سحبوا اختيارهم الكلىّ على كل الجزئيات التى تأتى بعد ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فالجمادات اختارت من البداية أنْ تكون مقهورة لله عز وجل ، وأبَتْ تحمُّل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال : أستطيع بعقلى أن أختار بين البدائل ، وفاته أنه أدرك وقت التحمُّل ، ولم يدرك وقت الأداء ، وما يطرأ عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان .. إلخ ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوماً جهولاً ، يعنى : ظلُوماً لنفسه ، جهولاً بالعواقب .

والمنهج الذى وضعه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن وللكافر ، فالله هدى ودلَّ الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع مختاراً ، فمنهم مَن اختار شهوات نفسه فى الدنيا ، ورأى أنْ يتمتع بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم مَنْ تأمل هذا المنهج ، فوجده من مُطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ، فهو - إذن - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج لصلاح الخَلْق .

والإنسان عموماً يحب الخير لنفسه ، لكن يختلف الناس فى فهمهم للخير ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه :﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : لا تعجل فى دعائك ، وارضَ بما اختاره لك ؛ لأن حكمك وفَهْمك للخير على قَدْر علمك بالخير ، لكن أنا أعلم منك به ، وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك .

لذلك قلنا : إننا نسمع كثيراً مَنْ يقول : أنا أصلى وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُسْتَجب لى ، نقول : لأنك دعوتَ بالخير بفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ؛ لذلك لم يُجِبْ دعاءك .

وكثيراً أيضاً ما نسمع أماً تدعو على ولدها الوحيد فى ساعة غضب تقول : (إلهى أشرب نارك ، إلهى يجيينى خبرك) بالله ، لو أن الله أجاب دعاءها ، ماذا كانت تقول فى ربها ؟ إذن : عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الخير لك ، لأنه يعلم حمق دعائك ، وهو رب لا يرضى لك بآثار هذا الحمق ؛ لذلك يُعدِّل لك ما أخطأتَ فيه .

أمر آخر فى هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقى ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما نقول (بغددة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإجابة المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢) ﴾[النمل] فلو كنتَ مضطراً لأجابك ؛ لأن المضطر استنفد كل الأسباب الموهوبة له من الله ، وعجزَتْ قوته ، فلجأ إلى الله المسبِّب سبحانه ، وأغلبنا يدعو الله عن غير اضطرار .

إذن : حين لا يُجاب دعاؤك ، فاعلم أنه دعاء بشرٍّ تظنه أنت خيراً ، والخير فى ألاَّ يجيبك الله ، أو أن دعاءك عن غير اضطرار .

نعود إلى كلامنا عن المنهج الذى وضعه الله لهداية الناس جميعاً ، ونقول : الذى آمن بهذا المنهج واهتدى به يعينه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] والذى انصرف عنه وضلَّ كذلك يزيده الله من الضلال ، ويختم على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ، ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد .

إذن : طالما هناك اختيار فى قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هداية ، ويوجد ضلال ، الهداية تجلب الخير والثواب ، والضلال يجلب الشر والعقاب ، هنا الحق سبحانه يُوضِّح لنا أن الضلال يُنسب إلى النفس ، أما الهداية فتُنسب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩)﴾ [النساء]

وقال سبحانه قبلها : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)﴾[النساء] لماذا ؟ لأنه سبحانه جعل الطريقين ودلَّ الجميع ، فإنْ نظرتَ إلى الفعل فالله هو الذى أمدَّك ، كما قال سبحانه : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾ [الإسراء]

فالله أعطاك مثلاً اللسان تنطق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة الكفر والعياذ بالله ، فاللسان لم يَعْصك ، لا فى هذه ولا فى تلك ، فمَن الذى أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قلنا : لم يكفر كافر قهراً عن الله ، أما عدم رضائه عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا : الرجل الذى أعطى لابنه جنيهاً مثلاً - وهو قوة شرائية - وقال له : اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن يُرضينى أنْ تنفقه فى شىء نافع ، فالذى أعطاه القوة الشرائية أبوه ، والذى ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أنْ يحجر عليه ويسلبه هذه القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يذهب الإنسانُ إليه وهو مختار ، وهو قادر ألاَّ يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ، وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه - كما سبق أن قُلْنا - يريد قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع .

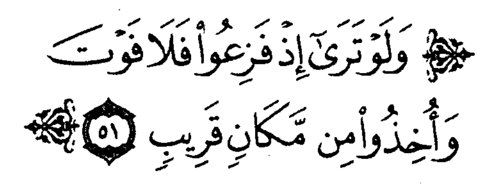
فقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] يعنى : أنا وأنتم سواء فى هذه المسألة ؛ لأن الضلال نتيجة للسيئات التى تقترفها النفس ، فهى سبب الضلال ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] أما الهداية فمن الله ؛ لأنها بسبب منهج الله ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ]

لكن النبى ﷺ متفق وأمته فى نسبة الضلال إلى النفس ، لكن يختلف عنهم فى الهداية ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] فالهداية جاءته ﷺ من الله مباشرة قبل أنْ يبعث له رسولاً بالرسالة ، وقبل أنْ ينزل عليه وحى السماء ، أما هداية الأمة فبواسطة الرسول الذى يُبلِّغ منهج الله ويأتى بالمعجزة .

فهداية رسول الله كانت بدايةً لما اختاره الله رسولاً على هذا الوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] سميع أى : يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نَفَس ، وهو سبحانه مع سمعه قريب منى لا يبطىء علىّ فى الإجابة ؛ لأن الفعل من الله تعالى لا يحتاج إلى علاج ومزاولة ، إنما الفعل من الله بكُنْ .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ ليُسلِّيه :



قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ ﴿٥١﴾﴾[سبأ] أسلوب شرط ورد عدة مرات فى القرآن الكريم ، وتلحظ أن السياق لم يذكر له جواباً ، واقرأ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١) ﴾ [سبأ]

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا .. (٢٧) ﴾ [الأنعام]

فالجواب هنا محذوف ؛ لأنه معلوم من السياق ، فالتقدير هنا : ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيتَ شيئاً عظيماً وأمراً عجيباً يريح قلبك ، وينتقم لك جزاءَ ما كذَّبوك وعاندوك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فالذين طغَوْا وتجبَّروا فى الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عُتَاة وفراعنة تراهم فى الآخرة حين يصيبهم فزعها (بسابس) قططاً وأرانب .

ومعنى ﴿ فَلا فَوْتَ (٥١) ﴾[سبأ] لا مهربَ ولا نجاةَ لهم ؛ لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شىء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينقذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفى صدرك وصدور المؤمنين الذين أوذوا معك فى سبيل نشر دعوة الحق .

فكما وقفوا فى وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقفَ الذلة والمهانة ، وتأمل : ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١) ﴾[سبأ] ﴿ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ (٢٧) ﴾[الأنعام] ﴿ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ (٣٠) ﴾[الأنعام] يعنى : ينتظرون أنْ يُؤذَن لهم ليروْا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عبدوهم من دون الله ، لكن يُفاجأون بأن شفعاءهم وكبراءهم يسبقونهم إلى النار ، ويتقدمونهم إلى العذاب كما تقدَّموهم فى الضلال .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ من كُلِّ شيعة أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عتيًّا (٦٩)﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التى ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ فى حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذِل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقى شرَّه ، وفى إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً فى مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللى حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل فى الذهن .

ومعنى : ﴿وَأُخِذُوا (٥١)﴾ [سبأ] أُهلكوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعنى : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ (٥٢)﴾

سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فَزِعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ (٥٢) ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] يعنى : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[1] (٥٢) ﴾ [سبأ] أى : تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾ [سبأ] كلمة(أنّى) يعنى: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم فى موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم فى الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعنى : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتى (أنّى) بمعنى من أين كما جاء فى قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا (٣٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغى لولى الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأت لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشيء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أُخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا فى مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل فى تناول أى خير لهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٢]

اللَّهِ (٣٧) ﴾[آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف فى الشتاء ، أو فاكهة الشتاء فى الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبَّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّتْه هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

عندها قال فى نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقنى الولد بعد أنْ بلغْتُ من الكبَر عتياً وامرأتى عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التى نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكَّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومنْ ذلك ما رُوى عن سيدنا أبى بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأَخَواك . فى وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هى السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك. تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . [انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨)] .

الصِّديق ، وهو - رضى الله عنه - لم يكُنْ علم الغيب ، إنما عُلِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يعلم ما فى الأرحام إلا الله ، فلا أحد يعلم ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه قال لأهل المدينة : « المحيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت فى المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤)﴾ [لقمان]

فرسول الله ﷺ لم يكُنْ يعلم غيباً ، إنما عُلِّم الغيبَ من علاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثيراً ما نرى بعض أهل الصلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكى .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كان المسمِّى هو الله سبحانه فهو وحده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لما وهب لسيدنا زكريا الولد وسماه (يحيى) لم يفطن الناس إلى هذه التسمية ، وأنها من الله تعنى أن هذا الولد سيحيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفى هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شهيداً ، فتتصل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قَاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب « الجهاد والسير » أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أَحمْزَةَ عَمّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ على شُـهَداء الأرْضِ أجمعهمْ طُـرّا
وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادة عِصْمَةٌ من المْوتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْن بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التى استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفـادت منها السيدة مريم بعد ذلك حـين حملت بلا ذكورة ، فتـذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمـران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنَّى) فى قـوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ] هى بمعنى كـيف ، ومثلها قـول السيدة مريم لمـا بُشّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [مريم]

ومثل قـوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نَقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة] ، وهـل الإيمـان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقـول : الإيمان خـلاف الاطمئنان هنا ، فـالإيمان بأن الله يحـيى الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لـم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحيـاء الموتى ، إنما يسأل عن كيفية ذلك ، فالاطمئنان المقصود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتجربة حسِّيـة فى مسألة ذبح الطير ؛ لأن الكيفية كما قلنا لا تُقَال إخباراً إنما تُشَاهد .

فالحق سـبحـانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمـان فى هذا الوقت ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيـدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سـبـأ] التناوش تناول الشىء بيُسْر ، وهم يريدون تناول الإيمـان فى آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضيـاع فرصـته ، يريدون إيمـاناً بلا تكاليف ، وأنَّى لهم ذلك ، وهم أبْعد ما يكونون عن الإيمان ؛ لأن محل الإيمـان فى الدنيا ، فهذا القول منهم أشبه بقول أصـحابهم الذين قالوا : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

يعنى : عرض عليـهم الإيمان وهم فى بحـبوحة الدنيـا وسعتـها ، فكفـروا به ، والـدنيـا هى مـحلُّ الإيمـان ومـحلُّ التـكاليف والأوامـر والنواهى ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنَّوا الإيمان وقالوا آمنا وهم فى هذا ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾[سبأ] يعنى : يتكلمون بالظن فيما لا عـلْم لهم به ، يريدون أنْ يصلوا إلى غرضـهم ، وهو أنْ ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القـذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى فى غيـر محله ، وفى غير وقـته ، والقرآن هنا أثبت لهم قَـذْفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قَذْفاً ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] ، لكن شتَّان بين الاثنين .

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقَذْف من بعيد قَذْف لا يصيب الهدف ، وهم فى قَذْفهم لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون المؤثرات التى تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علاَّم الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

نقول : حُلْتُ بين الخصمين يعنى : فصلْتُ بينهما ، وجعلتُ بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتباك حتى لا يبلغ كل منهم أشُدَّه فى المعركة ، أو ينال مراده من خَصْمه ، فالحق - سبحانه وتعالى - جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون .

والاشتهاء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أنْ يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكِّنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ؛ لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرُّف ، كذلك يَشْتهون انطماس الدعوة حتى لا تقف مناهج الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبى ﷺ فى رمضان : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ،

وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت[1] الشياطين[2] » ومع ذلك تحدث في رمضان ذنوب وجرائم . إذن : هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أنْ يفضح العاصين الذين يتهمون الشيطان ، ويُلْقون عليه تبعة كل ذنوبهم . إذن : ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمَّارة بالسوء .

وسبق أنْ أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وقلنا : إذا وقفْتَ أمام معصية بعينها لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ؛ لأن النفس تريد شيئاً بعينه ، أما الشيطان فإنْ عزَّت عليك معصية أخذك إلى أخرى ، المهم أن تعصى الله على أيٍّ وجه ، وبأية طريقة .

فقوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] دلَّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوةَ نفس ، لا مدخلَ للشيطان فيها ، لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم ، وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تَبْقَ إلا شهوات النفس فاشتهوا أنْ يطمسوا الدعوة ، وأنْ يذلوا مَنْ آمن ويجعلوه عبرةً لمن يفكر في الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا ، وسارت الدعوة على خلاف ما اشتهوا ، فمن ذُلَّ وضُرب وأُهين من المؤمنين ثبت على إيمانه ، ومَنْ كان يفكر في الإيمان لم يَرْهَبَهُم ، ولم يخف مما فعلوه بإخوانه المؤمنين .

---

(١) صفدت : أي شُدَّت وأوثقت بالأغلال . والأصفاد هي الأغلال وقيل : القيود . [لسان العرب - مادة : صفد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فإنْ قلت : كيف أسلم اللهُ المؤمنين الأوائل لأنْ يعذبهم الكفار ، وأنْ يُهينوهم ويُخرجوهم من أرضهم ؟ نقول : كان هذا لحكمة عالية أرادها الحق سبحانه ، وهىَ أنْ يُمحِّص إيمان المؤمنين ، بحيث لا يثبت على إيمانه إلا قوى العزيمة الذى يصبر على تحمل الشدائد ، فهؤلاء هم الذين سيحملون منهج السماء ودعوة الحق إلى العالم أجمع ، فلا بد أن يكونوا صفوة تختار دين الله وتضحى فى سبيله بكل غالٍ ونفيس .

لذلك أراد سبحانه أنْ تتزلزل هذه الدعوة فى بدايتها عدة مرات، وأن ترى بعض الفتن التى تُغربل الناس ، وتُخرِج المؤمنين فى جانب ، والمنافقين فى الجانب الآخر ، وهذا ما حدث بالفعل فى مسألة الإسراء والمعراج مثلاً ، وفى رحلة الطائف ، كلها فِتن تُمحِّص المؤمنين .

لقد ضيَّق الكفارُ على المؤمنين الخناقَ ، حتى جلس رسول الله يفكر فى أمرهم ويفتش فى رقعة الأرض المعاصرة له ، أيها تناسب أصحابه ، ويأمنون فيها على أرواحهم وعلى دينهم ، فلم يجد ﷺ إلا الحبشة ، فقال لأصحابه : « اذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم أحد عنده »[1] .

وفعلاً كان النجاشى عند ظن رسول الله ، فأكرم المؤمنين ، ورفض أنْ يُسلِّمهم إلى وفد قريش ؛ لذلك كافأه رسول الله بأنْ وكله

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١).

فى أن يُزوِّجه من أم حبيبة[1] ، وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصَّر هناك ، وظلَّتْ أم حبيبة على إيمانها ، فدلَّ ذلك على صدْق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها ، إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتهوا إيذاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرةً ، فلم يصلوا من ذلك إلى شيء ، فاشتهوا التآمر على رسول الله وقَتْله ، ودبروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال] فخيَّب الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم وفتيانهم ، وهو يحثُو التراب على وجوههم ، ويقول : « شاهت الوجوه»[2]

والله يقول : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ٩﴾ [يس]

وهكذا حالَ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أنْ يسحروا رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فَسَحره لبيد بن الأعصم[3] ، واستعانوا فى ذلك بإخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) هى : رملة بنت أبى سفيان ، صحابية ، من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية ، كانت من فصيحات قريش ، ومن ذوات الرأى والحصافة ، تزوجها رسول الله بعد أن تنصَّر زوجها وهما فى الحبشة عام ٧ هجرية . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول . [الأعلام للزركلى ٣/٣٣] .

(٢) ورد قول رسول الله هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (١/٣٦٨)، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٣) لبيد بن الأعصم يهودى من بنى زُرَيق ، وكان قد أسلم نفاقاً ، وقد كان ساحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير » انظر : فتح البارى لابن حجر العسقلانى (١٠/٢٢٦)

لِيُجَادِلُوكُمْ (١٢١) ﴾[الأنعام] لكن خيَّب الله مَسْعاهم فى السحر أيضاً ، ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا على أنفسكم ، فرسول الله معصوم من الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] يعنى هذه القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هى سنة مُتبعة فى الأمم السابقة ، ومعنى ﴿ بِأَشْيَاعِهِم (٥٤) ﴾[سبأ] بأمثالهم من الكفار فى الأمم السابقة .

والأشياع : جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأى يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكان حقاً أم كان باطلاً ، فقوله تعالى هنا : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] دلَّ على أنهم كانوا على باطل ، أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] فهذه على الحق .

والمعنى : أنهم أُخذوا كما أُخذ أمثالهم من الكافرين مع الفارق بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدافع عن دين الله وعن نبى الله ؛ لذلك حدثتْ فيهم الزلازل والخسْف والصيحة والمسخ .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تكُنْ مأمونة على أنْ تدفع عن دين الله بسيفها، أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتْ السيف ودافعتْ عن دينها ؛ لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها خَسْف، ولا مَسْخ ولا إغراق . مما حدث لسابقيهم .

لذلك لما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عليهم :

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه الملَك يعرض عليه الانتقام من كفار قومه ، فيقول : لا ، لعل الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول لا إله إلا الله . وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكما كانوا ألدَّ أعداء الإسلام صاروا قادته الفاتحين .

وقد تألم المسلمون كثيراً ؛ لأن هؤلاء نجوْا من القتل ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفى شهادة لعكرمة[2] أنه ابن أبى جهل ، وأنه لما ضُرِب ضربة قوية فى موقعة اليرموك احتضنه خالد وهو يعانى سكرات الموت ، فقال : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلُّوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا فى صالح الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذى قال له : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، وهو الذى قال عن رسول الله لما مات ولده

---

(١) يقال : ما بالدار ديَّار . أى ما بها أحد . والداريُّ : الملازم لداره لا يبرح ولا يطلب معاشاً . [لسان العرب - مادة دور] .

(٢) هو : عكرمة بن أبى جهل بن هشام المخزومى القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام . كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة ، وحسن إسلامه ، فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وكان عمره ٦٢ سنة . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] . وذكر ابن سعد فى طبقاته (٩/٤٠٨) : « قُتِل يوم أجنادين شهيداً » .

إنه أبتر[1] يعنى مقطوع الذرية ، لأن أولاد البنات يُنسَبون إلى آبائهم ، كما قال الشاعر[2] :

فَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِيَــةٌ مُسْتَوْدَعَاتٌ وللأَحْسَابِ آبَاءُ[3]

ومن العجيب أن أبا لهب قدَّم للإسلام كما قدَّم خالد وعمرو وربما أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صدْق كلام الله ، وعلى صدْق رسول الله فيما بلَّغ عن ربه ، فلما قال لرسول الله : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال فى سعَة الدنيا ، وما يزال مختاراً حراً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يجرؤ أنْ ينطق بكلمة التوحيد ، ولو نطق بها لَكَان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

---

(١) قال عطاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③﴾[الكوثر] : نزلت فى أبى لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة (ابن كثير ٤/٥٥٩) وليس هذا الابن هو إبراهيم ، فإن إبراهيم ولد لرسول الله من مارية بالمدينة المنورة وليس بمكة والأقرب أنه القاسم .

(٢) هو : محمد بن هارون الرشيد العباسى يلقب بالأمين العباسى ، خليفة عباسى ، ولد فى رصافة بغداد عام ١٧٠ هـ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (١٩٣ هـ) بعهد منه ، خلفه أخوه المأمون بعد عامين ، كان شجاعاً أديباً رقيق الشعر مكثراً من إنفاق الأموال سيء التدبير ، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النُّدَماء . مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة للأمين العباسى ، من بحر البسيط ، يقول فيها :

لا تحقرن امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأحساب آباء
فَرُبَّ مُعربة ليست بمنجبة وربما أنجبت للفحل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله . وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صِدْق كلامه ، وصِدْق رسوله .

ثم تُختم السورة بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] كانوا فى شك من أمر رسول الله ، ونُصْرته عليهم ، وعدم تخلِّى ربه عنه ، مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرسل وأقوامهم على مَرِّ موكب الرسالة كانت للرسل ؛ لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قضية ذُكرت فى الكتب السابقة كما ذُكرت فى القرآن فى أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله الباقى الذى تكفَّل الله بحفظه ، فهو يُتلَى كما أُنزل إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

لذلك سبق أنْ قلنا : إنْ هُزِم الإسلام فى معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد اختلَّ ، ولو نصرهم الله مع اختلال شرط الجندية فيهم ما قامتْ للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه فى أُحُد ، لما خالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذَّرهم من هذا ، وقال

لهم : لا تتركوا أماكنكم مهما حدث[1]، فلما تركوا أماكنهم التفَّ عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإنْ كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا فى أُحُد ؛ لأن المعركة (ماعت) ، ولو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهَانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره فى أُحد وانتصرنا ، إذن : نقول : الذى هُزِم فى أُحد هو مَنِ انخذل عن جندية الإيمان ، أمَّا الإسلام فى حدِّ ذاته فقد انتصر .

إذن : كانوا فى شكٍّ من الغاية التى ينتهى إليها رسول الله ، والشك هنا فى رسول الله لأن لديهم قضيةً عقدية هى الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شىء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

والشك يعنى عدم الجزم وعدم اليقين ، وبيَّنا ذلك بأن نسَبَ الكلام فى الكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علَّم الله سبحانه آدم الأسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضى متكلماً ومُخاطباً ، ولا بُدَّ أن يكون المخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربى لا يفهم الإنجليزى ، ولا الإنجليزى يفهم العربى ، لا بُدَّ من علم بالتواضع فى اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر .

والكلام المفيد هو الجملة التى يحسُن السكوت عليها ، بأن تعطى

---

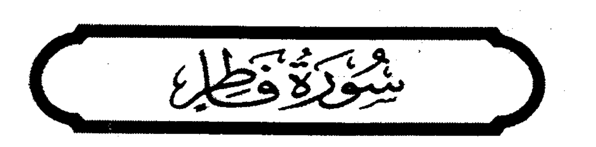
(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/١٠) أن رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : « انضح الخيل (ادفعهم عنا) بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبَلك » ، ولكنهم خالفوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش ينهزمون فنزلوا ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، وفطن خالد ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً فى جيش الكفار ، فأغار على المسلمين وأعمل فيهم الطعن آمناً من نبل الرماة .

معنى مفيـداً ، فلو قُلْت مثلاً (محمد) فهى مفـردة من مفردات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة ، فتقـول : محمد كريم ، فأسندتَ الكرم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه .

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتـقد المتكلّم به ، فإنْ كان لهذا الكلام وجود بالفـعل بأن وُجد شخص اسمـه محمـد ، وصفته الكرم ، فـهذا الكلام المـعتقـد جازم بالحكم والـحكم واقع ، فإنْ كـان المتكلم غـير جازم بالحكم ، متردداً فيه فهذا شك ، فالشك فيه نسبة متأرجحة بين النفى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان ، فإنْ رجحت واحدة فهى ظن ، والأخرى المرجوحة وهم .

إذن : كم نسـبة للكلام غـير الـمجـزوم به ؟ ثلاث : الشك والظن والوهم . أما الكلام المجزوم به فإنْ كان له واقع ، وتستطيع أنْ تدلل عليه فهو علم ، وإنْ لم تستطع أنْ تُدلل عليـه فهو تقليد ، وإنْ جزمتَ به وليس له واقع فهذا جهل ، وهذه الثلاث نِسَب الكلام المجزوم به : علم ، وتقليد ، وجهل .

إذن : الكفـار جازمـون معـتقـدون فى أن الله هو الخـالق ، لكنهم شاكُّون فى مسألة البلاغ عن الله ، وأنهـا جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾[سبـأ] الشك ذاته يُوقِع فى الارتيـاب والقلق .


سُورَةُ فَاطِر

سـورة فاطر[1]



﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

تعرَّضنا للسور التى بُدئت بالحمد لله ، وهى : الأنعام ، والكهف ، وسبأ . وهنا فى فاطر ، والحمد فى كل منها له معنى وله مناسبة ؛ لأن الإنسان احتاج إلى إيجاد من عدم ، ثم وسائل إبقاء فى الحياة الدنيا ، ثم احتاج إلى إيجاد بعد البعث ، وأيضاً وسائل إبقاء فى الآخرة .

فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المنهج ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ

---

(١) سورة فاطر سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٩٠) وهى السورة رقم (٣٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم ، فهى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب النزول ، وتسمى أيضاً سورة الملائكة لذكرهم فيها .

(٢) الفاطر : الخالق . والفَطْر : الشق عن الشىء . والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ① ﴾[فاطر] حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتها . [تفسير القرطبى ٨/ ٥٥٩٠] .

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ۝ ﴾[الكهف] ؛ لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبيِّن للناس الحق والباطل لتفانى الخَلْق ، وما استقامتْ لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه فى الدنيا وفى الآخرة .

وهنا فى فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ۝ ﴾[فاطر] ؛ فذكرتْ الحمد على وسائل الإبقاء كلها ، المادى منها المتمثل فى مُقوِّمات الحياة المادية ، والمعنوى منها المتمثل فى منهج الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إنْ توجه للبشر ، فمردُّه إلى الله ؛ لأنك حين تحمد البشر تحمده على شىء قدَّمه لك ، هذا الشىء ليس من ملْكه فى الحقيقة ، ولا من ذاته ، إنما هو من فيض الله عليه ، فهو مناول عن الله ، وإنْ قدّم لك عملاً فإنما يقدِّمه بالطاقة التى خلقها الله فيه ، وبالجوارح التى انفعلتْ بخَلْق الله فيه ، إذن : فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى .

ثم يأتى بحيثية من حيثيات حَمْد الله ، فيقول ﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ۝ ﴾[فاطر] ومعنى فاطر السموات والأرض : خالقها ومُبدعها على غير مثال سابق يُحتذى به ، وهذه مسألة تستحق الحمد ؛ لأن الله تعالى كرَّم الإنسان الخليفة فى الأرض ، فسَوَّدهُ على سائر الأجناس وكرَّمه بالعقل الذى يختار بين البدائل .

وبعد ذلك بيَّن سبحانه إنْ كان خَلْق الإنسان مُعْجزاً ، وإنْ كان هو السيد المخدوم من جميع الأجناس ، فإنَّ خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس وأعظم ؛ لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهى السموات والأرض .

والسماء هى كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السماء التى ينزل منها المطر ، كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] ، وليست هذه هى السماء المقابلة للأرض .

والله تعالى يقول فى خلق السموات السبع : ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقًا (٣)﴾ [الملك] يعنى : ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إذن تتنزل الملائكة ومسكنهم السماء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤)﴾ [القدر]

الحق سبحانه يُقرِّب لنا وظيفة الملائكة ، وأنها خاصة بالسماء صعوداً وهبوطاً ، فقال فى آية فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ (١)﴾[فاطر] فعملهم إذن فى السماء ، لكن كيف يَنْفُذون من السماء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قالوا : ينفذون ؛ لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك ، فالإنسان مثلاً خُلِق من طين ، والطين له جِرْم ومادة لا تمكنه أنْ ينفذ من شىء .

أما الجن فقد خلقه الله من النار ، وللنار أيضاً جِرْم ومادة ، لكن ألطف وأشفّ من الطين ؛ لذلك ينفذ الجن من الأشياء المادية ، بدليل أنك لو جعلتَ مثلاً تفاحة خلف جدار ، فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحسُّ طعمها ولا رائحتها ، لكن لو أوقدتَ ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تُحسّ بحرارتها فى الجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجن كما تنفذ الحرارة .

أما الملائكة فهى أرْقى الأجناس وأعلاها ، خلقها الله من نور ، وهو ألطف وأشفّ من الطين ومن النار ؛ لذلك لا يحتاج النور إلى منافذ ، أرأيتم مثلاً الأشعة التى تخترق الجسم وتعطينا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ؛ هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء .

وقوله سبحانه ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] الملائكة جنس من المخلوقات ، قال الله عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ﴾ [الأنبياء] والملائكة أقسام : فمنهم العالُون ، وهم المهيَّمون فى الله ، ولا عملَ لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء لا يدرُونَ شيئاً عن هذا الكون ، ولا صلةَ لهم به ؛ لذلك لما أَبَى إبليس أنْ يسجد لآدم كما أمره الله ، قال الله له : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾ [ص]

ومن الملائكة قسْم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أُمروا بالسجود لآدم ، وكأن الله تعالى يقول لهم : هذا المخلوق هو الذى ستكونون فى خدمته ، ومنهم : المعقبات ، كما قال سبحانه :﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١١ ﴾[الرعد] يعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمنع عن الإنسان أمراً قضاه الله عليه .

إذن : حفْظهم لنا حفْظ من باطن حفْظ الله لنا ؛ لذلك يقولون مثلاً (العين عليها حارس) ، ونرى مثلاً من يسقط من الطابق الثالث أو الرابع ، ولا يصيبه مكروه ؛ لأن الله سبَّب له أسباب النجاة ، وحفظته الحفظة .

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، الذين قال الله عنهم : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾[النازعات] وهم الذين يُدبِّرون أمور الخَلْق بأمر الله ، ومنهم الكتبة الذين يكتبون الأعمال : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] إما إلى الرسل من البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التى

تتعلق بهذا الكائن الإنسانى . ثم وصفهم فقال : ﴿ أُولِي (١) ﴾ [فاطر] أصحاب ﴿ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١) ﴾ [فاطر] وهذا الوصف دلَّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت ، بل منهم مَنْ له مثنى ، ومَنْ له ثلاث ، ومَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله فى ذلك ما يشاء ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١) ﴾ [فاطر]

وكأن الخالق سبحانه يقول لنا : إنْ كنتم لم تروْا إلا جناحين للطائر ، فلا تتعجبوا ولا تنكروا أنْ يكون للملَك أكثر من ذلك ؛ لأنه خَلْق الله الذى يزيد فى الخَلْق ما يشاء ، والذى له سبحانه طلاقة القدرة ، فخَلْق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصَبُّ على شكل واحد ، وخَلْق الله ليس مخبزاً آلياً يُخرِج لك الأرغفة متساوية .

وتتجلى طلاقة القدرة فى الخَلْق منذ خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، فإنْ كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت جمهرة الناس ، فطلاقة القدرة تخرق هذه القاعدة فى كل مراحل القسمة العقلية لها ، فالله خلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

فما دام أن الذى يزيد فى الخَلْق هو الله ، فلا تتعجب ولا تُكذِّب حين تسمع الحديث النبوى ، قال ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح »[1] صدِّق ؛ لأنك لستَ مسئولاً عن الكيفية ، إنما عليك أنْ تُوثق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤١٢ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] قال قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت » . وقد قوَّى ابن كثير إسناده فى تفسيره (٤/٢٥١) .

الكلام : صدر من الله أو لم يصدر ، صَحَّ عن رسول الله أو لم يصح ، كُنْ كَالصِّدِّيق لمَّا حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال الصِّدِّيق : « إنْ كان قال فقد صدق»[1].

لذلك ، فالذين يبحثون فى عِلَل الأحكام عليهم أنْ يَدَعُوا البحث فيها ، ويكفى أنْ يُوثِّقوا مصدرها ، فإنْ كانت من الله فعلىَّ أن أفعل لمجرد أن الله أمرنى بذلك ، فَعِلَّة الحكم أن الله أمر به ، فهمتُ حكمته أو لم أفهم .

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع اللهُ الصومَ ليدرك الغنىُّ ألَمَ الجوع ، فيعطف على الفقير ، وهذا يعنى أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرنى بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أنْ تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه فى هذه المسألة إلا طبيب مثله ، لكن هل هناك مُسَاوٍ لله فيسأله : لماذا فُرِض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝١﴾[فاطر] دليل على طلاقة القدرة التى لا يعجزها شىء ، ومن طلاقة القدرة أنْ ترى الطويل والقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ؛ لأن منطقة الصدر والبطن متقاربة الطول ، إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ؛ لأن

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

معظم الطول فى السيقان والأوراك ؛ لذلك تنظر إلى رجلين وهما جالسان ترى طولهما واحداً ، فإنْ قاما ظهر الفارق ، وهذا يسمونه (الحبتر)[1]

من طلاقة القدرة اختلاف الخَلْق فى الشكل ، وفى اللون ، وفى الطباع ، وفى الذكاء ؛ لذلك من وقت لآخر نرى طفلاً برأسين ، أو بيد فيها ستة أصابع ، أو دابة بخمسة أرجل ، من طلاقة القدرة أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً فى الكليات العسكرية أو البوليس ، وترى آخر جبهته نصف وجهه ، أو أنفه كذا وكذا .. إلخ . هذا جرىء القلب ، وهذا رعديد جبان ، هذا فصيح اللسان ، وهذا عَيى لا يكاد ينطق ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

من طلاقة القدرة أنْ يؤلف الله سبحانه بين الأجناس المتباعدة تآلُفَ مصلحة وانتفاع ، ففى السودان مثلاً بيئة تعيش فيها التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شراستها إلا أن الله ألَّف بينها وبين الطيور ، فجمعتهم مصالح مشتركة : التمساح يخرج إلى البَرِّ ثم يفتح فَاهُ ، فيأتى الطائر ويدخل فم التمساح ، ويُنظف له أسنانه ويتغذَّى على بقايا طعام التمساح ويخلِّصه من الفضلات ، فإذا أحسَّ الطائر

(١) الحبتر : القصير ، وكذلك البُحْتر . والحبترة : من أسماء الثعالب . [لسان العرب – مادة حبتر] .

بقدوم الصياد صوَّت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

إنك تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الزرافة أو الجمل ، وعنق الدب مثلاً ، فكُلٌّ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا : الحواس الخمس . واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا : الخمس المعروفة ، وبالفعل عرفنا بعدها حواسَّ أخرى ، كحاسة البَيْن التى نعرف بها مثلاً سُمك القماش ، وعرفنا حاسَّة العَضَل التى نعرف بها ثقل الأشياء .

كما أن أعضاء الإنسان وحواسّه تؤدى مهمتها مع اختلافها من شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشُم بالأنف وهكذا ، لكن ألم تسمع ؛ فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى لنا التاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير المعتاد(١) ، هذا كله زيادة فى الخَلْق ، يختصُّ الله بها مَنْ يشاء .

لذلك يقول الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوظَ ... فَلا عتَابَ ولاَ مَلاَمَه
أَعْمى وأَعْشَى ثُمَّ ذُو ... بَصَرٍ وزرْقَاء اليمَامَه

وزرقاء اليمامة يُضرب بها المثل فى حِدة البصر ، فيقولون : أبصر من زرقاء اليمامة .

---

(١) هى : الزرقاء ، من بنى جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل فى حدة النظر وجودة البصر . قالوا : إنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام . وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميرى لما أقبلت جموعه تريد غزو «جديس» رأتهم الزرقاء وأنذرت جديساً ، فلم يصدقوها ، فاجتاحهم حسان . [الأعلام للزركلى ٣/٤٤]

ويُلخِّص الشاعر[1] قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة فى البصر ، فقال :

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاة الحىِّ إذْ نظرَتْ .:. إلى حمام شِراعٍ وَارد الثَّمَدِ[2]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا .:. إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وكان عندها حمامة واحدة ، فتمنَّتْ أنْ ينضم هذا السرب ونصفه إلى حمامتها ، وبذلك سيكون عندها مائة :

فَعَدوه فَألْفَوْهُ كما حكمَتْ .:. ستاً وستِّين لَمْ تنقُصْ ولم تزد[3]

فتأمل هذه الفتاة تنظر إلى سِرْب الحمام وتعده ، وتضيف إليه نصفه ثم تضيف حمامتها ، فيكون لديها مائة حمامة ، هذه قوة فى البصر ، وقوة فى الملاحظة .

كذلك حاسة الشم فيها عجائب مما يزيده الله فى هذه الحاسة عند مَنْ شاء أن يزيده ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند الذين يبيعون الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة ، لكن قليل مَنْ يميز بين هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة إلا أنه يستطيع أن يُميِّزها فيقول لك : هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

---

(١) الشاعر هو : النابغة الذبيانى ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى الغطفانى المضرى ، أبو أمامة ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتُعرض عليه أشعارهم ، كان حظيا عند النعمان بن المنذر ، عاش عمراً طويلاً ، توفى عام ١٨ ق . هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها خمسون بيتاً مطلعها : يا دار مية بالعلياء فالسند . و « الثمد » هو الماء القليل الذى لا مادّ له . وقيل : هو الذى يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .

(٣) لفظ هذا البيت كما فى كتاب « أدب الكتاب » لأبى بكر الصولى (توفى عام ٣٣٥ هـ) :

فحسبوه فألفوه كما زعمت .:. تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

فكملت مائة فيها حمامتها .:. وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

فل ، وهذه كذا ، وهذه كـذا ، فإنْ خُلِط له عـدة أنواع يقول لك : هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فـقد تميَّز فى هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلى بـفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رمـاه إخوته فى البـئر ، وانتـهى الأمـر به إلى أنْ صار على خـزائن مصـر كلها ، وجاءه إخـوته يطلبون المـيرة[1] إلى أن أعطاهم قمـيصه ليجعلوه على وجـه أبيه فيرتد له بصره ، العجـيب هنا أنه لما فصلت العـير يعنى : خـرجت من مصـر وعن حيـزها السكانى لأن المنطقـة السكنية تكـثر الروائح فيـها وتختلط ، فلمـا خرجوا بقـميص يوسف خـارج المـدينة ، قال يـعقـوب عليـه الســلام - وهو آنذاك - بأرض فلسطين : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ (٩٤)﴾ [يوسف] ، لأن فى قـمـيص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقـدُّم العلم عـرفنا أن الـرائحـة هى أقـوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصـمة كبصمة اليد أو بصـمة الصوت ؛ لذلك حتى فى لغـتنا العاميـة نقول (مش ح اخللى لفلان ريحـه) ، وكأن الرائحة هى آخر أثر يمكن أنْ يتبقَّى للإنسان فى المكان .

كـذلك يزيد الله فى الخلق مَـا يشـاء فى حـاسـة الذوق ، وبعض الناس حـرفتـه وعمله أنه ذوَّاقـة يذوق الطعـام ، ويزيد الله فى الخَلْق ما يشاء فـى حاسة اللمس ، وكلنا رأى الصراف فى البنك بـمجرد أنْ تلمس أصابعه العملة يعرف جَيِّدها من زائفها .

كل هذه المعانى نفهـمها من قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره (يجلبه) الإنسان . قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام . والميَّار : جالب الطعام . [لسان العرب - مادة مير] .

(١)﴾[فاطر] ثم تختم الآية بما يُطمئِن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾[فاطر] هذه هى العلة ، يعنى : لا تتعجب ، فهى قدرة الله التى لا يُعجزها شىء ، وشىء هذه تعد جنس الأجناس ؛ لأنها تشمل من الذرَّة إلى المجرَّة ، وهو سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ، فكأنه موجود فى علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر .

وبعضهم قال : (يَزِيدُ فى الحَلْق) بالحاء[١] ، والمراد : جمال وعذوبة الصوت[٢] ؛ لأن الصوتَ وسيلةٌ لنقل خواطر المتكلم إلى السامع ، وهذه يكفى لها أىُّ صوت ، فإنْ كان الصوت جميلاً عَذْباً ، فهذه زيادة وفضل من الله.

ومن أغرب ما رواه لنا تاريخ العرب[٣] ، ويُعَدُّ دليلاً على الزيادة فى الخَلْق ، والمواهب التى يختصُّ الله بها مَنْ يشاء ما رُوى عن نزار ابن معد بن عدنان ، وقد رزقه الله أربعة من الأولاد هم : مُضَر . ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ،

---

(١) لم أقف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) (٣٣٨/٤) : « المعنى أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جريج : إنها حُسْن الصوت . وقال قتادة : الملاَحَة فى العينين والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الحظ الحسن ، وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة » .

(٢) قال الزهرى وابن جريج : يعنى حسن الصوت . وقال قتادة فى معنى الآية : المَلاحة فى العينين ، والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . [تفسير القرطبى ٥٥٩١/٨] . وقاله أيضاً ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٧] والأصح هو أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء من أجنحة وغيرها .

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزى فى كتابه « الأذكياء » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموى فى « ثمرات الأوراق فى المحاضرات » (٢٤٩/١) .

فلمـا أحسَّ نزار بدُنُوِّ أجله جـمع أولاده الأربعة وقـال لهم : أريد أنْ أدلَّكم على تركتكم منى قبل أن أموت : القبة الحمراء لمضر ، والفرس الأسود والخباء الأسود لربيـعة ، والشمطاء لإياد ، ومجلس القوم وندّيه لأنمـار . وإنِ اختلفتم فاذهبـوا إلى الأفـعى الجرهمى بنجـران يُفسِّر لكم كلامى.

فلمـا مات نزار اخـتلف أولاده ، فذهبـوا إلى الأفعى الجـرهمى ، وهم فى طريقهم إلى نجـران - وكانت من أرض اليمن - رأى مُـضَرَ فى ناحـية الطريق مـرعىً رعَتْ فيه إبـل ، وفى الجانب الآخـر مرعى أحسن منه لـم يُمَسّ ، فقال : إن الجـمل الذى رعى هنا أعور . فـقال ربيعة : وهو أزور يعنى : أعرج . وقـال أنمار : هذا الجمل أبتر يعنى مقطوع الذيل . وقال إياد : وإنه لشرود .

وبينما هم على هذه الحـال قابلهم رجل ينشُد بعيـره يقول : هل رأيتم بعيراً شرد منى ؟ فقـال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال : وأزور؟ قال : نعم ، قال : وأبتر ؟ قال : نعم ، قال : وشرود ؟ قال : نعم ، هو شرود ، وأنتم أخـذتموه ، فاحتكموا إلى الأفـعى الجرهمى ، لأنهم كـانوا على مقـربة من نجران ، فلمـا سألهم قـالوا : ما أخـذنا الجمل .

فقال : إذن كيف وصـفتموه لصاحبـه هذا الوصف ؟ قال مُضَر : لما رأيتُه رعى جـانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيـعة : لما رأيتُ أثر خُفِّه على الأرض وجدت اليُمْنى سليمة البصمة على الرمال ، والأخرى غـير ذلك ، فـعرفتُ أنه أزْور ، وقال إياد : رأيـت بَعْره فى مكان واحـد ، فـعرفت أنه أبـتر ؛ ولو كـان له ذيل لفـرَّق بَعْـره هنا وهناك ، فقـال أنمار : لمـا رأيتُه يأكل من أمـاكن متـفرقـة عرفْتُ أنه

شرود . فقال الأفعى الجرهمى : خَلُّوا سبيلهم ، فتلك فراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألهم : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أنْ نحتكم إليك ، ثم قَصُّوا عليه مقالة أبيهم ، فقال : القبة الحمراء التى لمضر . أعطوه كل شىء أحمر كالدنانير والنُّوق الحمر ؛ لذلك سُمِّيت مضر الحمراء بعد أن صار مُضَر علَماً على القبيلة .

وقال : والفَرَس الأدهم [1] والخباء [2] الأسود لربيعة يعنى : أعطوه كل شىء فيه سواد ، والشمطاء لإياد : أعطوه رُذَال [3] المال و(المدعبلات) من الغنم . أما أنمار فله الفضة البيضاء والمجلس .

وبعد أن فسَّر لهم وصية أبيهم أراد أنْ يكرمهم ، فأمر كهرمانه أن يذبح لهم ذبيحة ، ويُعد لهم طعاماً وشراباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون ، وهو يتأمل فراستهم ، فقال ربيعة : ما رأيتُ أطيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه غُذِّيَتْ بلبن كلبة ، فلما شربوا من الشراب قال مُضَر : شراب طيب لولا أنْ كَرْمته زُرعت على قبر ، ثم قال أنمار : هذا الرجل من سَرَاة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن أبيه ، فقال إياد : والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض .

---

(١) الدهمة : السواد . والأدهم : الأسود ، يكون فى الخيل والإبل وغيرهما . [لسان العرب - مادة : دهم]

(٢) الخباء من وبر أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل فى المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : أنه أتى خباء فاطمة وهى فى المدينة ، يريد منزلها . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة خبا] .

(٣) الرذال : هو الردىء من كل شىء . والرذال : ما انتُقِى جيده وبقى رديئه ، والأرذل من كل شىء : الردىء منه . [لسان العرب - مادة : رذل] .

ثم قام الأفعى الجرهمى واستدعى الراعى الذى ذبح لهم الشاة ، وسأله : ما هذه الشاة التى ذبحتَها لنا ؟ فقال له : ماتت أمها بعد ولادتها ، ولم يكُنْ عندنا شياه مرضعة ، فأرضعتُها من كلبة ، ثم سأل كهرمانه عن الشراب فقال : هو من العنبة التى زرعْتَها على قبر أبيك ، فلم يَبْق إلا أنْ يسأل عن نسبه إلى أبيه ، فذهب إلى أمه وقال لها : يا أمى ، أخبرينى مَنْ أنا ؟ ومَنْ أبى ؟ فأحسَّتْ الأم أنه سمع شيئاً فقالت له : لقد كان أبوك مَلكاً مطاعاً ، وذا نعمة ومال ، إلا أنه لم ينجب ، فخشيتُ أنْ يذهب هذا المُلْك وهذا المال إلى غيره ، فحدث ما حدث .

عندها عاد إلى ضيفانه وقال لهم : لم تعودوا فى حاجة إلىَّ ، وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم . فإنْ سألتَ الآن : وكيف عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ نقول : إنها فراسة وقوة ملاحظة تدخل تحت هذه الآية ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

ما دام أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق ، فمقتضى الخَلْق أنْ يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى بقاء حياته ؛ لذلك يُنزل سبحانه المطرَ فيحيى الأرضَ بالنبات ليزرع الإنسان ويأكل ويشرب ، وهذا قوَام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً قوامَ حياته الروحية المعنوية ، فيُنزل عليه ما يحفظ قيمه ، وما يُنظم

حياتــه بأدب مع غيـره ، وهذا هو المـنهج الذى قال الله فـيـه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وهذه الرحمة إنْ أرادها الله بعبد ، فـلا أحدَ يمنعها عنه ﴿مَا يَفْتَحِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] يعنى : يعطى ويمنح ﴿فَلا مُمْسِكَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] فلا مانع ولا حابس لها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] لا معطى ﴿لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] أى : من بعد الله .

وتأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿مَا يَفْتَحِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] مقابلها يغلق ، لكن الحق سبحانه لم يَقُل : وما يغلق ، إنما ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] لماذا ؟ قالوا : لأن المغلَق ربمـا تمكَّن أحد من فتحه بالحيلة أو بالقـوة ، أما ﴿مَا يُمْسِكْ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] فلا أحـدَ يستطيع أنْ ينال شيئاً أمسكه الله .

ومن معانى هذا الفتح وهذه الرحـمة : الرسالة التى خَصَّ الله بها سيدنا رســول الله ؛ لذلك قال الكفار ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

وقالوا : ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴿٨﴾﴾ [ص]

فردَّ الله عليهم :﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

يعنى : تأدبوا مع الله ، فـهو الذى قـسم لكم أمـور الدنيا وأمـور المـعايش ، أيتـرك لكم ولأهوائكم أنْ تُقـسِّـموا الوحى ، وأنْ تجـعلوه ينزل على مَنْ تهوون ؟

والفتح : إزالة حـاجز بين شيئـين ، ومنه حِسىٌّ كما نفـتح الباب

أو الشنطة مثلاً ، كما ورد فى القرآن : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف]

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالوحى الذى اختص الله به سيدنا رسول الله ﷺ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿٧٦﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : من الوحى الموجود فى التوراة من صفة النبى ﷺ ، هذا فَتْح معنوى بالخير وبالبركة .

ومن معانى الفتح : الفصل وفضّ الإشكال بين الخصوم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وعلّة قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر] ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، ولا إله غيره ، فلو كان معه إله آخر لكان له رأى آخر ، أمَّا الحق سبحانه وحده فيتصرف فى مُلْكه تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول للشيء كُنْ فيكون أن الشيء يطيعه ؟

فالله يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشيء سيطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقول له لا تطع ، لذلك أول مَنْ شهد بالألوهية والوحدانية الواحدة هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، لذلك أقبل على الأشياء بكُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، ونفذت .

واقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ بوعى وحَقّ لها أنْ تسمع ، وأن تطيع ؛ لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إنْ أطاعتْ .

وبعد أنْ شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات شهدتْ بذلك الملائكةُ شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادةَ التدليل :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾[فاطر] نعم ، مادام أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ، ويمسك عَمَّنْ يشاء فهو عزيز ، والعزيز هو الذى لا يُغْلَب ولا يُمَانع ، لكن هذه العزة وهذه الغلبة ليست صادرة عن بطش أو ظلم أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [فاطر] فهو سبحانه حكيم فى عطائه ، حكيم فى منعه ، والحكمة ـ كما قلنا ـ هى وَضْع الشىء فى موضعه المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

الحق سبحانه يمتنُّ على عباده ويُذكِّرهم بنعمه عليهم ، ويذكر أول هذه النِّعم ، وهى نعمة الخَلْق من عدم ، وأراد سبحانه أنْ يبرز لهم هذه المسألة إبرازاً يشاركه - سبحانه وتعالى - فيه ، فلم يأت الأسلوب فى صورة الخبر : أنا خلقتكم . إنما جاء فى صورة الاستفهام ليقولوا هم ويُقِرُّوا ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ (٣) ﴾ [فاطر]

ومعلوم أن الخبر عُرْضة لأنْ يُكذَّب ، أمّـا الاستفهام فلا تستطيع أن تكذبه ، وأنت لا تستـفهم عـن شيء فعلْتَـه إلا إذا كنتَ واثقـاً أن الإجابة ستأتي على وَفْق مرادك ، فحـين ينكر شخصٌ جميلَك لا تقول له : فعلتُ لك كـذا وكذا ؛ لأنه ربما كذَّبك ، إنما تـقول : ألم أُقدِّم لك كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُـقرَّ بجميلك ، فلن يجد إجابة عن سؤالك إلا الإقرار .

كذلك الحـق سبحـانه يُقرِّرهم بنعـمه ليكون الإقـرارُ حجةً عـليهم ويسألهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ③ ﴾[فاطر] ثم يذكر هو سبحـانه النتيجة ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ③ ﴾[فاطر] ولم يقولوها هم؛ لأنهم (مربوكـون) وكان المنطق : مـا دام هو سبحـانه الخالق الرازق فعليهم أنْ يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة الغائب ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ③ ﴾[فاطر] ولم يقُلْ إلا أنا ، كأنه سبـحانه هو الشاهد في هذه المسألة ، كأنه يتكلم عن الغيب .

وقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ ﴾[فاطر] يعني : كيف بعـد هذا تُصرفون عن توحيده وعـن الإيمان به ، وتُؤفكون من الإفك ، وهو قَلْبُ الشيء عن موضـعه وصَـرْفه عن مـحله ، ومن ذلك المؤتفكة ، وهـي القرى التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقَلَبها على وجهها .

والإفْكُ أيضـاً بمـعنى الكذب ؛ لأنه يقلب الحـقيـقـة ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم : كيف تقلبـون الحقائق ؟ وكيف تصرفون خَلْق الله ورِزْق الله إلى غيره سبحانه ؟ يعني : قولوا لنا علّة ذلك .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الوحدانية والألوهية أراد أنْ يتكلم سبحانه عن مُرْسَل الألوهية إلى الخَلْق :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف] لستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ، فمن قبلك كذِّبوا ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأن السماء لا ترسل رسولاً إلا حين يعمُّ الفساد ، ويفتقد الناسُ الوازعَ والرادع ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع .

وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل في النفس الإنسانية رادعاً ذاتياً يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهي النفس اللوامة ، فإنْ توارتْ هذه النفس وغلبتْ عليها النفس الأمَّارة بالسوء جاء دور المجتمع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنْ فسد المجتمع فلا بُدَّ أنْ يأتي رسول جديد بمعجزة جديدة ليجدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله .

وكوْنُ رسالة محمد هي الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيظل فيها الخير ، وستظل مأمونة على دين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾[فاطر] أي : في الآخرة ، فمَنْ كذَّبك من قومك إمَّا أنْ يأخذه الله في الدنيا كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، وإما أنْ يُؤخِّر له العذاب في الآخرة .

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع ، فبعد أنْ تحدث عن الألوهية والوحدانية ، وتحدَّث عن الرسول ، يتحدث عن المسألة الثالثة التي اختلفوا فيها ، وهي البعث والحَشْر والحساب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾

يعني : وعده حَقٌّ في أنكم ستُردُّون إلى الله في الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به في كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطي المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإنِ اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربي في الناس وازعَ الرغبة في الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن في إحسانه ، ويرعوى المسيء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ في عالم مليء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتي الوقت الذي ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم في نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القولُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونَ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (٥)﴾[فاطر] أى : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارئ ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف] فتعليق فعلْك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلَكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا (٥)﴾[فاطر] لا تخدعنّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر في ذاته ، وهذا هو الذي تغرُّه الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شيء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفى ذَماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هى الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذى يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك فى الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك فى الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل فى الدنيا رغم غنَاك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما فى الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا يهددها موْتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا فى كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالى المكر الحسن .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل

غرورها ، فيقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ [١] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] أى : الشيطان ، فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر خارجى ، وإما أنْ يوجد شيطان سُوء يغرُّك ويُوسوس لك ، إذن : أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشيطان بهَمْزه ونَزْغه ، وقد حذرنا ربنا منه ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

تعنى : تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبقة منذ أبيك آدم ، وكُرْهه لك واضح مُعْلَن ، فينبغى أنْ يكون لك معه موقف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعْلَن العداء ، فلا يجوز لك أنْ تهادنه أو تستكين له وتطيعه ؛ لأنك حين تطيعه يستمرئ عداوته ضدك ، إذن : لا بُدَّ أنْ تعاديه ، وأنْ تُوقفه عند حدِّه ، كيف ؟ أضعف الإيمان أنْ لا تطيعه ، فإنْ أردتَ أن تكون أقوى منه فانتقم منه وغِظْه بأنْ

---

(١) الخيل المسومة . أى : المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات . [القاموس القويم ١/٣٣٧] . وقال ابن عباس : المسوَّمة الراعية والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . والمطهَّم من الخيل : الحسن التام ، كل شيء منه على حدته فهو بارع الجمال. [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : طهم] .

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن يأمرك بالشر ، فاجتهد فى الخير ، وكأنك تسخر منه وتُلقِّنه درساً لا يملك بعده إلا أنْ ينصرف عنك ؛ لأنك وظَّفْتَ عداوته لصالحك وانتفعتَ بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أنْ تأخذ بهذا المبدأ مع أيِّ عدو آخر ، سواء أكان من شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك حافزاً على الخير وعلى عشق كل ما هو جميل ، فالعاقل مَن استفاد من عدوه أكثر من استفادته من صديقه .

وصدق القائل[1] :

عدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنَّةٌ   فَلا أذهب الرحمَنُ عنِّى الأعَاديا
هُمُوا بَحَثُوا عَن زَلَّتى فَاجْتنبْتُها   وهُمْ نافَسُونِى فاكتسبْتُ المَعَاليا

فالمؤمن الحق يستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه فى نواحٍ كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويجتهد ليتفوق على عدوه ، لا أنْ يتكاسلَ حتى يكون دونه منزلةً ومرتبةً ، يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى لا يعطى لعدوه فرصة أنْ يشمت فيه .. إلخ

كذلك نقول : إن بعض الصفات المذمومة فى الناس فيها جوانب خير لو تأملناها ، فالبخيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل وضعه تجده هو الذى يُعين الكريم على كرمه ، كيف ؟ رأينا كثيراً فى القرى هذا النموذج : رجل كريم لا يساعده دَخْله على القيام

---

(١) القائل هو أبو حيان الأندلسى ، وهو محمد بن يوسف بن على ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥٠ شيخاً ، كان صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع ، توفى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً . والبيتان من قصيدة له فى ديوانه ، وهو ينتمى إلى العصر المملوكى .

بمتطلبات هذا الكرم وتبعاته من السماحة والبذل والعطاء والمجاملة .. إلخ ، فكان كل فترة يبيع قطعةَ أرض لينفق منها ، فلمَنْ يبيع الكريم أرضه إذا لم يكن هناك البخيل الممسك ؟ فكأن البخيل يعين الكريم على كرمه .

وإذا كان الكريم يأسرك بكرمه ويتدان له بجميله ، فليس للبخيل جميل عليك ، ولست أسيراً له فى شىء ؛ لذلك عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

جُزِىَ البخيلُ علَىَّ صالحةً   منِّى لخفَّتِه على ظَهْرِى

يعنى : ليس له جميل عندى يجعلنى عبداً لإحسانه .

ومعنى ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ⟨٦⟩﴾[فاطر] أن تشحن كل طاقاتك وكل مواهبك لتربِّى فيك المناعة اللازمة ضد إغراءاته ووسوسته لك بالسوء ، فإنْ أردتَ الارتقاء فى مناهضته ، فزدْ من الحسنات التى يكرهها ، فإنْ جاءك فى الصلاة ليفسدها عليك فَغِظْه بأنْ تخشع فيها ، وتزيد فى تحسينها .

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⟨٦⟩﴾[فاطر] يعنى : أصبح له حزب وجماعة يحاول أنْ يُكثِّرها ؛ لذلك قال تعالى فى موضع آخر: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ⟨١٩⟩﴾ [المجادلة]

ومعنى حزب : جماعة تعصَّبوا لفكرة يعملون من أجلها فى مقابل جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم .

والعلَّة فى أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون فى منهج الله والخارجون عنه فى مقابل حزب الإيمان والطاعة ، هذه هى العلة .

أما قوله تعالى ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾[فاطر] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها : أنك تريد الشيء لعلة ، لكن تنتهي إلى علَّة أخرى ضد مطلوبك .

وقوله : ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾[فاطر] دلَّ على أن بينهم وبين النار أُلْفة ، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارتْ بينهما مصاحبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حزبَ الشيطان يذكر الحكم عليه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٧)﴾[فاطر] وفي المقابل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾

الأسلوب في ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (٨)﴾[فاطر] أسلوب استفهام ، لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوي ، ومَنْ لم يُزين له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم مَنْ يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفى بها لا يتعداها ، ومنهم مَنْ يتعدَّى فيفعل السيئة ويدَّعى أنها حسنة ، وهذا مصيبته أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة ، وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى : ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ۝٨ ﴾[فاطر] ، وهذا اختلال فى الرؤية وضلال .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۝٨ ﴾[فاطر] وهذه الآية وقف عندها كثيرون ، يقولون : إنْ كان الله هو الذى يهدى ، وهو الذى يُضل . فلماذا يُحاسب الإنسان ؟ ولا بُدَّ لتوضيح هذه المسألة أنْ نُبين معنى يهدى ويُضل . يهدى يعنى : يدلُّه على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمَنْ سمع هذا الإرشاد وسار على هُدَاه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وزيادة الهدى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧ ﴾ [محمد]

أما الذى أغلق سمعه فلم يسمع ولم يَهْتَد فضَلَّ الطريق وانحرف عن الجادة ، فأعانه الله أيضاً على غايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يدخل قلبه إيمانٌ ، ولا يخرج منه كفر ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١٧ ﴾ [فصلت]

فمعنى ﴿ هَدَيْنَاهُمْ ﴾ يعنى : دللناهم وأرشدناهم لطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضلُّوا فأضلهم الله . يعنى : زادهم ضلالاً .

وسبق أنْ أوضحنا هذه القضيـة وقلنا : هَبْ أنك تريد أنْ تذهب إلى مكان مـا ، ووقفتَ عند مفـترق الطرق لا تدرى أيهـما يُوصِّلك إلى غـايتك فذهبتَ إلى رجل المـرور تسأله أين الطريق ، فدلَّك عليه فـشكرته وعرفتَ له جميله ، فلما رآك مُطيعاً له ، شـاكراً لفضله قال الله : لكن أمامك فى هذا الطريق عقبةً سأسيـر معك حتي تتجـاوزها ، هكذا يعامل الحق سبـحانه المهتدين : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴿٥٦﴾ ﴾[القصص] وخاطبه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشورى] فأثبت لـه ﷺ الهداية بمعـنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفى فى حـقِّـه الهـداية بمعـنى المعـونة على الهـدى ، فالذى يُعين هو الله .

ثم إن الحق سبـحانه لم يتـرك هذه المسألة هكـذا ، إنما بيَّن مَنْ يهـديه ومَنْ يُضلُّه ، فـقال سـبحـانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[المـائدة] وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[الصف] وأىُّ هداية للإنسـان بعد أنْ كـفر بالله ، وفَـسَق عن منهجـه ، وأفسـد فى البلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] يعنى : لا تُهلك نفسك حـسرة على عدم إيمـانهم ، وهذا المعنى شـرحه الحق سـبحـانه فى قـوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فرســول الله ﷺ كان حريصــاً على هداية قومــه ، يألم أشدَّ الألم حين يــشرد أحد منهم عــن طريق الإيمان ؛ لذلك قــال تعالى عن نبـيه محــمد : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ثم يقول ســبحانه مُسلِّيـاً رسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فـاطر] يعنى : لا تَخْـفى عليـه خـافـية مـن أفعـالهم ، وســوف يجازيهم ما يســتحقون من عقاب على قَـدْر ما بدر منهم من إعراض ، فاطمئن ولا تحزن .

بعد ذلك ينقـلنا الحق سبحــانه إلى بعض الآيات الكونية الخــاصة بنعمه سبحانه على الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾

مـعنى : يرسل الرياح يعنى : يـحركـهـا ، وبتـحـريك الرياح يتم استـيعـاب خيـر الوجـود كله ، ألاَ ترى أن الريح إذا سكنتْ يتضــايق الإنسان ويحاول تحريكهـا بنفسه بيده أو بالمروحة مـثلاً ؛ لأن حيِّزَك فى التنفس لا يتم إلا بتــحريك الهــواء ، وتغييــر ثانى أكســيد الكربون ليحل محلَّه الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ؛ لذلك يقولون : إذا لم يمرّ عليك الهواء فمُرّ أنت عليه . يعنى : حرِّكه أنت .

ونتيـجة حــركة الرياح إثارة الســحب ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : تُهيِّجه وتُحركه من أماكنه ، بـحيث يذهب بعد تجمُّعه إلى حيث أراد الله أنْ ينزل المطر ، إذن : حــركة السحــاب ليست ذاتيــة ، وإنما

تابعة لحركة الرياح ، وهذه المسألة تساعدنا فى فهم قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

فالجبال التى نحسبها ثابتة هى فى الحقيقة تمر وتتحرك كحركة السحاب ، وكما أن السحاب لا يمر بذاته ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كالأوتاد ؛ لذلك تتحرك بحركتها : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

البعض لم يفطن إلى حركة الأرض التى تتبعها حركة الجبال ، فقال فى قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل] أن هذا فى الآخرة ، لكن أين هى الجبال فى الآخرة والله يقول عنها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] ثم ، كيف يمتنُّ الله عليها ويحتج ببديع صُنْعه فى حركة الجبال فى الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحنين القلوب وعَطْفها إلى الإيمان .

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها ، فيقول تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ[2] عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى] والمراد : السفن التى تُسيِّرها الرياح ، فإنْ قُلْتَ : فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذى طرأ على السفن ، وبعد أنْ تلاشتْ القلاع وحَلَّ محلها الآلات التى تُسيِّر السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] كالصوف ذى الألوان المختلفة . [القاموس القويم ٢ / ٤٠] .

(٢) ركد الماء والريح : هدأ وسكن . وركدت السفينة : هدأت بعد اضطرابها . أو سكنت حركتها لسكون الريح التى تسيِّرها . [القاموس القويم ١ / ٢٧٤] .

نقول : نعم ستظل الآية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله ؛ لأن الاختراعات الحديثة لم تفاجىء خالقها عز وجل ، ومَنْ قال : إن الريح هو الهواء ؟ الريح هو القوة أياً كانت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦)﴾ [الأنفال] يعني : قوتكم أيّاً كانت قوة هواء ، أو قوة كهرباء ، أو قوة بخار ومحركات .. الخ

ونلحظ في أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿أَرْسَلَ (٩)﴾[فاطر] جاء في صيغة الماضي ، لكن (تثير) في صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه : فأثارت سحاباً ، قال : أرسل يعني : أمر أنْ ترسل ، فهذه مسألة انتهت وفُرغ منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة مُتجدِّدة مستمرة في كل لحظة ، فناسبها المضارع الدال على الحال والاستقبال .

أو : أن المعنى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩)﴾[فاطر] جاء في الماضي ؛ لأن الكلام عن الغيب ، والاسم الظاهر غيب وهو لفظ الجلالة ، ثم انتقل من الغيب في ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ (٩)﴾[فاطر] إلى مقام المتكلم ، فقال ﴿فَسُقْنَاهُ (٩)﴾[فاطر] كأن الله يلفتك بالنعمة إلى غيب هو الله تعالى ، فحين تستحضر أنه الله الذي فعل أصبحْتَ أهلاً لمكالمة الله لك .

ومثال ذلك ما قُلْنا في سورة الفاتحة : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾[الفاتحة] هذا كله غيب إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]

ولم يقُلْ : إياه نعبد لينقلك من الغيب إلى الخطاب المباشر معه سبحانه ؛ لأنك أصبحتَ أهلاً لأنْ تخاطبه ويخاطبك بعد أنْ آمنتَ بالحيثيات الأولى فى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : سُقْنا السحاب ، أو سُقْنا الماء بعد نزوله فى جداول وأنهار إلى الأرض التى لا نَبْتَ فيها ، والتى يمكن أن تنتفع به ، وهذا أدلّ على قدرة الله ، وتأمل مثلاً ماء النيل الذى يروى السودان ومصر أين نزل ؟ وهذا دليل على أن رزقك سيأتيك مهما بَعُد عنك مصدره .

فإذا ما استقر الماء فى الأرض كانت النتيجة ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : أحييناها بالنبات ، ثم يجعل الحق سبحانه من نعَم إحياء الأرض الميتة دليلاً على نعمة أخرى موصولة فى الآخرة ، فيقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : البعث يوم القيامة وإحياء الموتى من قبورهم .

فَخُذْ مما تشاهد من إحياء الأرض الميتة دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فكما أن الماء ينزل على الأرض الميتة فَيُحييها ، كذلك حين تنزل الروح على مادة الإنسان المدفونة فى الأرض يحدث لها النشور والبعث ، وتدب فيها الحياة .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلماء لما حللوا جسم الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ستة عشر عنصراً . أولها : الأكسوجين . وآخرها : المنجنيز . وهى نفسها عناصر التربة التى ينمو فيها النبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

التأبِّى على الرسالات تأبٍّ على أن يكون المؤمن الذى يُكلَّف بتكليفات تبَعاً لرأى غيره وطَوْع أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض الناس يرى فى هذه الطاعة خَدْشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أنْ يكون الأعلى الذى لا يأمره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العزَّة فى نفوسهم .

والحق - سبحانه وتعالى - هنا يُصحِّح لهم معنى العزة ويُبيِّن غباءهم ، فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أى : العزة الحقيقية لا المدَّعاة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فالعزة الحقيقية ألاَّ تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجودَ لها إلا فى رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسانُ فى الدنيا من القوة والجبروت لا بُدَّ أنْ يُغلب ، ولا بُدَّ أنْ يقهره الموت ، فإنْ كنتَ مُغْرماً بعزة لا تزول ، فهى فى جنب الله .

لذلك فالله تعالى يُعلِّمنا الحكمة ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعلم بك وأعلم بضعفك ، وأنك فى حاجة إلى مَنْ تتوكل عليه ليقضى لك الأمور التى فوق طاقتك ، فإياك أنْ تلجأ إلى غيرى ، فأنا الباقى الذى لا يموت ، فإنْ توكلْتَ على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أنْ يقضى لك حاجتك ، كذلك مَنْ أراد العزة فليكُنْ فى حضن الله يعتزُّ بعِزَّته ، ويتقوَّى بقوته ، ومَنْ كان فى حضن الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه .

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو فى الغار ، ومعه الصِّدِّيق - رضى الله عنه - فيقول الصِّديق : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول سيدنا رسول الله وهو واثق بربه : « يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما »[1] وحكى عنه القرآن قوله :

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة]

فهذه الطمأنينة التى ملأتْ قلب رسول الله منشؤها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضى أنْ يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه ، فإذا كان الله تعالى لا يُرى ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا يُرى.

ومعنى ﴿ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] يعنى : كل ألوان العزة ، وهذه المسألة من المسائل التى تكلَّم فيها المستشرقون ، يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله ، يقولون : إن الله يقول﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وفى آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

ولا تعارض بين الآيتين ؛ لأن العزة فى الأصل لله ، وعِزَّة الرسول من التحامه بالعزيز ، وعزة المؤمنين من التحامهم بعزيز العزيز ، فهى عزة موصولة من الله تعالى لمَن اعتزَّ به ، وأول مَن اعتزَّ بالله رسوله ، ثم المؤمنون به .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بلفظ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] دائماً نخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه فى كل مكان ، وليس له مكان ، لذلك يحتج البعض على هذه المسألة فيقول : كيف أن الله ليس له مكان ، وسيدنا رسول الله لما أراد الله أنْ يُكلِّمه أصعده إلى السماء السابعة ؟

نقول : كان الصعود لمكان الرائى لا لمكان المرئى ، فالرائى لا يرى إلا من هذا المكان ، فمثلاً لو أننا سمعنا الآن ضجة خارج المسجد ، وهذه النافذة التى تُطل على هذه الضجة عالية ، فماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تعرف ما يدور بالخارج ، لا بُدَّ لك أنْ تصعد هذا العلو لترى ما يحدث ، فالأحداث هى هى ، لكن مكان الرائى يختلف .

ومعنى ﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] هذا وصف عام لكل كلام يدلُّ على منهج خير ، وقد أعطانا القرآن مثالاً لذلك فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة ، فقالوا هى : كلمة لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا التحديد يُضيِّق المعنى الواسع الذى أراده الله تعالى منها ، والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة : كل كلام يؤدى إلى خير .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] بعد أن تكلم سبحانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العمل الصالح ؛ لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة الطيبة دون أنْ تُؤدى مطلوبها ، ودون أنْ يترجمها إلى عمل ، وربما قالها نفاقاً مثلاً ، كالذين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله احموه بهذه الكلمة دنياه ، ولا تتعرضوا له ما دام نطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء فى الآخرة ؛ لأن الجزاء يتأتَّى من العمل الذى يخدم مدلول الكلمة . فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذى يُرفع إلى الله ، ويحميك فى الدنيا ، ويحميك فى الآخرة ، ويجمع لك الخيرين .

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول : مكر بفلان ومكَره يعنى : خدعه ويتعدَّى بنفسه كما فى ﴿ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وأصلها يمكرون المكْرات السيئات ، فهى وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء] أى : الأعمال الصالحات . أو مكر : فعل مكراً ، فيكون المعنى : والذين فعلوا السيئات .

ثم يبين سبحانه جزاء المكر السيء : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أنْ تسرق شيئاً من الله ، وتظن أنه لن يدرى بك ، وغفلتَ أنك تُبيِّت المكر سراً ، وهو سبحانه يعلم السِّر والنَّجْوى ، وأنك حين تمكر وحين تُبيِّت تُبيِّتُ على قدر إمكاناتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيِّت على قدر إمكاناته ، وقدرته تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك يبوء هذا المكر بالخسران وبالبوار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فهو مكْر بائر ، كالأرض البُوَار التى لا تنبت ولا تنتج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

﴿ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرٌ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال ، فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقوّمات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُقومات حياته المادية والمعنوية الروحية ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أنْ يبدأ فيه ، وقُلْنا : إن الذى صنع (التليفزيون) أو الثلاجة لم يصنعها ثم قال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قدَّر غايتها ، وحدَّد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان قدَّر حركته فى الحياة وما يسعده فيها ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبحانه حينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ۝ ﴾ [فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول : أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذَّب ، فإنْ خُوطب : أنت فعلت . من الجائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب : هو فعل ، فقد برئنا من الادعاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ (١٩١)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف واللهُ تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصِف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق من عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ (١١) ﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿ مِّن طِينٍ (٢) ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بينَّا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم فى كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر فى أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّى نفسك فأعمل عقلك فى المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾[الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتى فى المستقبل مُضلُّون يُضلُّونكم فى هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شىء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتَات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ①﴾ [النساء] يعنى : من جنسها ، من جنس خَلْقها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ⑫⑧﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخَلْق ، ويستخلف خليفته فى الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يُمدَّه بالمنهج الذى حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضى أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لستَ أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذى يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل فى الكون ، والأصيل فى الكون هو الذى يحفظ ما وُهب له ، هو الذى لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُسْتخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذى سيأتى منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ⑪﴾ [فاطر]

وفى موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ⑤﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هى التى أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكَثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا[1] »[2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3]:

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيدَ الهَمِّ ... تَزْويجَ أولادِ بناتِ العَمِّ

فليسَ بنَاجٍ من ضَوَى وسَقَمِ ... بأبى وإنْ أطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْف النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضَاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب - مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٤١/٢) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٣١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تلدْهُ بنْتُ عَمٍّ قريبة فيضْوَى وقد يَضْوى سَلِيلُ الأقَارب[1]

وآخر يبتعد عن بنت عمه فى الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوزْتُ بنتَ العَمِّ وهْىَ حَبِيبةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوىَ علىَّ سَلِيلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر]

عمليـة حَمْل الأنثى تتم نتيـجة الالتقاء بيـن الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل فى مسألة حمل المرأة ، أهى المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سـمعنا من التحاليل التى أجروْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[2] :

مَا لأبى حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا غَضْبانَ ألاَّ نَلدَ البَنِينا

تَاللَّه مَا ذَاكَ فى أيدِينَا ونحن كالأرْضِ لغَارسِينَا

* نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطِينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى ، ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا :

فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد - باب قولهم فى النوادر والمُلَح :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البَنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذلك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ⑪﴾[فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشىء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شىء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[1] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ⑪﴾[فاطر]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٠٧) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله.

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) فى الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون فى خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعنى : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجرى لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنْ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشيء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١١) ﴾ [فاطر] يُعمَّر يعنى : يمد الله فى عمره ، وعندنا فى اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلا عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعَمَّر ، والمُعمَّر يعنى : طويل العمر .

وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن فى اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء فى أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعنى هذا أنك تصدقتَ بدرهم ، ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ (١١١) ﴾ [البقرة]

وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (٨٠) ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] أى : فى اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث فى الأعمار وفى فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم فى اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذى يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأىّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجةَ عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيِّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التى لا حدودَ لها ﴿ قَالَ كَلَّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح فى الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سَيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشئ الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندى من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرة التى لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هى القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتى بالخَلْق فى كل مراحل القسمة العقلية المنطقية فى هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هَيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[1] سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) الفرات : العَذْب . فقوله تعالى : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ.. ﴿١٢﴾﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢/ ٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾﴾ [فاطر] تاكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١/ ٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا فى صورة حسية مُشاهدة ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى فى الحسِّ ، كذلك فى القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشىء واحد هو الماء ، فهما وإنِ اشتركا فى الشىء الواحد وهو الماء فهما مختلفان فى النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] أى : شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ (١٢)﴾[فاطر] سهل المرور فى الحلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب فى التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحى ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفى ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقى بنفس الماء ، لكن يخرج الطَّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحببْ مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلم ، بل يعرفها الإنسان فى وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح فى البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغَى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهى إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة فى الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هى مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذى تجرى به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء فى بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع فى منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرْجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع فى منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية فى البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح فى البحار والمحيطات ، وقلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد فى نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للرىّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافى لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] فى المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ

كَالبَحْرِ يُمطِره السَّحَابُ ومَا لَهُ فَضْلٌ عليهِ لأنه مِنْ مَائِهْ

ومعلوم أن الماء فى الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْراً (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) ﴾ [الذاريات]

فالماء الذى خلقه الله فى الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى فى جسمه من نسبة المائية وهى ٩٠ فى المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهى إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

---

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابى ، وقد ذكرهما له ابن معصوم فى كتابه « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصرِ » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشَاهَد دليلاً على صِدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ ..(١٢) ﴾[فاطر] أى : من الماءيْن العذب والمالح ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحيَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٢) ﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نِعَم البحر :﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢) ﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شَقّاً فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾[الرحمن] يعنى : كالجبال الشامخة . نقول : ومتى ظهرتْ السفن العملاقة التى تُوصَف بهذا الوصف ؟ إنها لم تظهر إلا فى العصر الحديث ، وكانت قَبْلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذى أخبر سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجارى الآن فى صناعة السفن ، حتى إنه لَيُخيَّل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر .

وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢) ﴾[فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله فى حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾[فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى : لعلكم بعد كل هذه النعم تقابلونها بالشكر ، وفى هذا إشارة إلى قِلَّة مَنْ يشكر .

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ (١٣) ﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان فى بعض الأحايين ، لكن يطول الليلُ فى الشتاء فيأخذ جُزْءاً من النهار ، ويطول النهار فى الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طُول أحدهما نَقْص من الآخر ، هذا معنى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣) ﴾[فاطر] يعنى : يُدخِل هذا فى هذا .

وظاهرة إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ناشئة من ميل المحور ، فالحق سبحانه كما وزَّع الماء وحفظه فى البحر الواسع ، كذلك وزَّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور المائل لاحترقتْ الجهة المقابلة للشمس وتجمدتْ الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذى يعيش عند القطب الشمالى أو القطب الجنوبى حرارته ٣٧°مثل الذى يعيش عند خط الاستواء ، لأن الجسم البشرى مبنىٌّ على هندسة خاصة تحفظ له حرارته المناسبة أيّاً كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التى تناسبه مع أن الأعضاء كلها فى جسم واحد ، والحرارة تُشِعُّ وتستطرق فى المكان كله .

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدى وظيفته الطبيعية إلا فى درجة حرارة ٤٠°، والعين لا تزيد حرارتها عن ٧°، فمَنْ يمنع حرارة الكبد أن تستطرق فى الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (١٣) ﴾[القمر] يعنى : ذلَّلهما للإنسان ، وجعلهما فى خدمته دون قدرة له عليهما ، ودون إرادة منه ، فالشمس والقمر آيتان فى الهيكل العام للكون لا دَخْلَ للإنسان فيهما ، ولو كان له دَخْل لَفَسد أمرهما وما استقام ، وصدق الله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ ..(٧١) ﴾ [المؤمنون]

فإنْ قُلْت : إفساد الإنسان فى الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون إفساده للسماء ؟ قالوا : ألم يتمنَّ قوم أنْ تسقط السماءُ عليهم ، فقالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (٩٢) ﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحقُّ أهواءَ هؤلاء لَخَرِبَتْ الدنيا .

وهذه مسألة تكلمتْ فيها المدرسة الفلسفية فى ألمانيا أمام مدرسة أخرى ، وكان لهما رأيان متناقضان ، وهما فى عصر واحد ، وكل منهما تتخذ من رأيها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله ، وهذا عجيب .

فواحدة تقول : لا شذوذ فى العالم ، فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (بالميكانيكا) ، ولو كان لهذا الكون إله خالق لاختلف الخَلْق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول : إن الكون لا يسير على نظام ثابت ، بل يحدث فيه شذوذ فى الخَلْق ، بدليل أن البعض يُولَد مثلاً مُعوَّقاً ، ولو كان للعالم إله خالق لجاء الخَلْق واحداً مستوياً لا اختلافَ فيه .

سبحان الله ، فهم يريدون الإلحاد على أىِّ وجه ، فمزاجهم أنْ يلحدوا .

ونقول لهؤلاء : تعالوا نردّكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء : يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود ، ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود ، لكن الجهة مُنفكة ، كيف ؟

النظام الثابت الذى لا شذوذَ فيه موجود فى الكون العلوى الذى يسير على رتابة ونظام لا يتخلَّف ، فحركة الشمس والقمر والكواكب والأفلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختلُّ أبداً ، والآن استطعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والخسوف ، وفعلاً نشاهده فى وقته بالضبط .

إذن : إنْ أردتَ الثبات دليلاً فَخُذْه من الأفلاك العليا ؛ لأنها لا بُدَّ

أنْ تُبنى على نظام ثابت لا شذوذَ فيه ، وإلا لاَخْتلَّ الكون كله .

فإنْ كنت تريد الشذوذ فشاهده فى الجزئيات ؛ لأن شذوذَ الجزئيات لا يؤثر على النظام العام للكون ؛ لذلك ترى : هذا سليم ، وهذا أعمى ، وهذا أعور .. إلخ . إذن : الثبات فى موضعه لحكمة والشذوذ فى موضعه لحكمة ، وهذا وذاك دليلان على وجود الإله الخالق القادر .

وقوله تعالى ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] أى : الشمس والقمر يجرى كل منهما إلى وقت معلوم يتم فيه فَنَاؤهما ونهايتهما ﴿ ذَلِكُمُ ﴿١٣﴾ ﴾[فاطر] أى : الذى فعل هذا وقدَّره ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴿١٣﴾ ﴾[فاطر] أى : العالم المحسّ المشَاهَد لك ، أما الذى لا تراه من مُلْك الله فهو عَالَم الملكوت ، وهو ما غاب عنك ، ولا تدركه حواسُّك .

لذلك لما نجح سيدنا إبراهيم فى الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة] أعطاه الله منزلة عظيمة ، وأطلعه على الملكوت الذى غاب عن غيره ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٧٥﴾ ﴾[الأنعام] وما يترتب من عالم المُلْك المشاهد لنا ناشىء عن عالم الملكوت الذى لا ندركه .

والحق سبحانه وتعالى يشير إلى هذا العالم - عالم الملكوت - فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]

كيف ، ونحن ما اتقينا الله إلا بالفرقان أى : بالقرآن ، فما معنى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] ؟ قالوا : الفرقان هنا أن يُريك الله ملكوتَ السموات والأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنْ كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا ، وسخَّر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدَّعاة المزعومة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] فما القطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يجده يُولى اهتماماً كبيراً للنخلة ، وأول ما خاطب خاطب العربَ ، وهم أول مَنْ وُوجهوا بالإسلام ودُعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى البيئة العربية ، ولها فى ديننا منزلة ، حتى أنه نُسب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عمتكم النخلة »[(١)]

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى قاله لم يَقُلْهُ من فراغ ، ولا بُدَّ أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[(٢)]

فلما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه : لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فبكَّر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ،

---

(١) تمام الحديث : « فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال : ضعيف . قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣/ ١٩٤) : « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف الخفاء ١/ ١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وتمامه « وإنها مثل المسلم ، فحدِّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله بن عمر : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة » .

إن ابنى عبد الله قال عن الشجرة التى ذكرتَ أنها النخلة . فقال : صدق ، فقال عمر : فوالله ما يسرنى أنْ يكون لى بها حُمر النعم ، يعنى : فرح أن يفهم ابنه[1] مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات النسب بين الإنسان والنخلة ، وأنها ربما تكون قد خُلِقَتْ من بقية طينة سيدنا آدم ، فقالوا : إن رائحة طلع النخلة الذى يتم به التلقيح هى نفس رائحة المنىِّ عند الإنسان ، وهذا يرجح صِدْق قول مَنْ قال إنها عمَّتنا .

وفى خَلْق النخلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفى أن كل ما فيها نافع ، ولا يُرْمى منها شىء ، وقد جعلها الله موضعاً للمثَل والعبرة ، فلما حدَّثَ العرب عن الهلال ، قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس]

والعرجون هو السُّبَاطة التى تحمل البلح حين تيبس تلتوى وتتقوَّس ، فقرَّب لهم الأعلى بذكْر الأدنى المعروف لهم .

خُذْ مثلاً نواة التمرة ، وهى أهون ما يكون ، إلا أن الله تعالى كرَّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالاً توضيحية . ذكر القطمير الذى معنا فى هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾[فاطر] وهو الغشاء الشفاف الذى يحيط بالنواة ، ونجد مثله بين بياض البيضة وقشرتها .

وذكر النقير فى قوله سبحانه : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) أخرج هذه الرواية البخارى فى صحيحه (١٣١) ، وفيها أن ابن عمر قال : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا .

نَقِيراً (١٢٤)﴾[النساء] والنقير تجويف صغير ، أو نقرة فى ظهر النواة .

وذكر الفتيل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)﴾[النساء] والفتيل خيط أبيض تجده فى بطن النواة ، وهذه الثلاث : القطمير والنقير والفتيل تُضرب مثلاً للشىء اليسير المتناهى فى القلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

قوله ﴿إِن تَدْعُوهُمْ (١٤)﴾[فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوه ويتوسل إليه ويكلمه .. الخ ، لكن هيهات فهذا حجر لا يسمع ، فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ، ومعنى ﴿لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ (١٤)﴾[فاطر] أى : الآلهة التى لا تعقل ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره .

لكن ، لماذا عبد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعلمون أنها حجارة نحتوها بأيديهم ، ويرونَ أن هبَّة الريح تُوقع معبودهم ، وتُلقيه على الأرض ، وتكسر ذراعه ، فيحتاج إلى مَنْ يصلحها ، شىء عجيب أنْ تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين فى النفس البشرية .

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وآفة التدين أن له مطلوبات ، فما

المانع أنْ يذهب الإنسانُ إلى تدين يرضى هذه الفطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبِدت الأصنام ، وعُبدت الكواكب والأشجار وجُعلَت آلهة .

ومعنى العبادة : أنْ يطيع العابد أمر معبوده وينتهى عن نَهْيه ، فإذا لم يكن هناك أمر ولا نهى ، فالعبادة ساقطة باطلة ؛ لأنك تعبد إلهاً بلا منهج ، وإلا فبماذا أمرتهم هذه الآلهة وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : على فرض أنهم عبدوا بشراً يسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة . ومثال ذلك : الذين عبدوا عيسى عليه السلام من دون الله .

وقد تناول الشاعر هذه المسألة حين تخيَّل أن غار ثور يَغَار من غار حراء ؛ لأن النبى ﷺ جعله مكاناً للخُلْوة وللتعبُّد ، وفيه نزل عليه أول الوحى ، فلما نزل النبى ﷺ فى هجرته بغار ثور فرح ثور ، ورأى أن الرءوس قد تساوتْ ، فحراء لبعثة رسول الله ، وثور لهجرته ، التى كانت منطلقاً للدعوة .

يقول الشاعر[(١)] :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حين تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يَغْذُوك بالأَنْوار

فَحراءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بِهِما اشْفَعْ لأُمَّة الأَحْجَار

عَبَدُونَا ونحْنُ أعْبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأَسْحَار

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

تَخـذُوا صَـمْـتتنا عَـلَيْنَا دَليـلاً   فَـغـدَوْنَا لـهـم وَقُـودَ النَّارِ

قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كمَا قَدْ تجنَّوْه   عَـلَى ابْـنِ مَـريمَ والحوَارِى

لِلْمغَـالِى جَزَاؤهُ والمغَالَى فِـيه   تُنجِيـه رحـمـةُ الغفَّـارِ

فـالحجـر ذاته يأبى أنْ يُعبـد من دون الله ، ويعلم فى حـقيـقتـه قضية التوحيد ، ويخِرُّ لله مُسبِّحاً ، فما بالك بالبشر ؟

لذلك سنرى فى موقف القيامة العجب من المعارك والمناقشات بين العابد والمعبود ، والتـابع والمتبوع ، يقول تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة] وقال حكايةً عن الذين ضلُّوا : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت]

وهـنا يقول سـبحانه : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر] أى : هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتخـذتموهم آلهة سيتبرأون منكم ومن شرككم ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر] أى : عالم ببواطن الأمـور ، وكـأن الله تعالـى يقول لك : أنـا أخبـرك بمـا سـيكون فى المستقبل فَخُذْ من صدقى فيما مضى دليلاً على صدقى فيما هو آتٍ ، ومن صدقى فيما تشاهد دليلاً على صدْقى فيما غاب عنك .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

النداء فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ⑮ ﴾[فاطر] نداء عام للناس جميعاً ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ﴿ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑮ ﴾ [فاطر] هذه حقيقة يُذل الله بها كبرياء الذين تأبَّوْا على الإيمان بالله ، وتمردوا على منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : ما دُمْتم قد أَلِفْتم التمرد فتمردوا أيضاً على الفقر إنْ أفقرتُكم ، وعلى المرض إنْ نزل بكم ، تمردوا على الموت إن حان أجلكم ، إذن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها .

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑮ ﴾[فاطر] أى : الغنَى المطلق ، ومعنى ﴿ الْحَمِيدُ ⑮ ﴾[فاطر] أى : المحمود كثيراً ، والغنى لا يُحمد إلا إنْ أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى الممسك لا يُحمد بل يُذَم .

ثم يُذكِّرهم الحق سبحانه بحقيقة أخرى غابت عنهم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑯ ﴾[فاطر] كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ㊳ ﴾[محمد] ومعنى : خلق جديد : الشىء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه ، مثل الثوب الجديد يعنى الذى فُرِغ من خياطته ولم يُلْبَس بعد .

وإعادة الخَلْق أو الإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن على الله ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑰ ﴾[فاطر] يعنى : ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأتى له الخَلْق طواعية ، ويؤمنون به سبحانه ، وهم قادرون على الكفر ولهم مُطْلَق الاختيار ، وهذا الاختيار موطن العظمة فى دين الله .

وسبق أنْ مثَّلنا هذه القضية بأنه لو أن لك عبدين أمسكتَ الأول

إليك بسلسلة ، وتركتَ الآخر حراً ، وإنْ ناديتَ على أحدهما لبَّى وأجاب ، فأيهما يُعَدُّ الأطوع لك . كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكراهية ، فالله سبحانه كما قلنا لا يريد قوالبَ تخضع ، إنما يريد قلوباً تخشع .

والإتيان بخَلْق جديد أمر هَيِّن يسير على الله تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكُنْ فيكون ، وهذا من الله تعالى لا يحتاج إلى زمن .

ولو أردتَ أن تستقصى هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾[يس] تجد أن الشيء فى الحقيقة موجود بالفعل ، لكن فى عالم الغيب والأمر ، له أن يظهر لنا فى عالم الواقع ؛ لذلك لما سُئِلَ أحد العارفينَ قال : أمور يبديها ، ولا يبتديها.

وتلحظ فى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) ﴾[فاطر] ذكر ضمير الفصل (هو) فلم يَقُلْ الحق سبحانه : والله الغنى ، وهذا الضمير أفاد توكيد الخبر وقصر الغنَى على الله سبحانه وتعالى ، لذلك قلنا : إن هذا الضمير لا يأتى إلا فى المواضع التى تحتمل شبهة المشاركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فجاء هنا بضمير الغائب (هو) لأن الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء من المرض كلها مظنة أنْ يشاركه فيها أحد من الخَلْق ، أما فى الحديث عن الموت فقال : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] ولم يأْتِ هنا بضمير الغائب ؛ لأن الموت والإحياء لله وحده ، ولا

شبهةَ فيهما ، ولم يدَّعهما أحد لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر] حِمْل نفس أخرى ؛ لأنها هى الأخرى مُثْقَلة بحِمْلها ، والوزر هو الحِمْل الثقيل الذى لا يطيقه الظهر ، ومنه قوله تعالى فى مسألة الوحى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح] يعنى : أتعبك نتيجة التقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصَّد جبينه عرقاً من لقاء جبريل ، وهو الذى قال مُصوِّراً هذا اللقاء : « ضمَّنى حتى بلغ منى الجهد »[1] وعاد إلى أهله يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى . ومع هذا كله لما فتر الوحى اشتاق إليه وتمناه أنْ يجىء ، لأنه ذاق حلاوته ، وحلاوة الشىء تُنسيك ما تلاقيه من المتاعب فى سبيله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى ، قاله ابن حجر فى فتح البارى (١/ ٢٤) .

والمعنى : لا تحمل وزر وذنب نفس أخرى مُثْقَلة بالذنوب والآثام ، وقد شرح الحق لنا هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس] فكلٌّ مشغول بنفسه ، مُرْتَهَنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ؛ لذلك يقول الوالد لولده : يا بُنى حمْلى ثقيل علىَّ ، فخُذْ عنى شيئاً منه . فيقول الولد : حسبى حمْلى يا أبى .

كذلك هنا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا (١٨) ﴾[فاطر] أى : نفسى مُثْقَلة بالآثام تطلب مَنْ يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولكن هيهات ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١٨) ﴾ [فاطر] أى : لو كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمل نفسٌ وِزْر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحِمْلها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّب الحق سبحانه قَوْل الذين كفروا حين يتعرَّضون لحمل خطايا أتباعهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]

إذن : هذه مسألة واضحة ، فكلٌّ مشغول بنفسه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط إما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمنقذ يستنجد به ، وإنْ لم يكن قريباً ولا صديقاً ، لكن يوم القيامة ستنحلُّ كل هذه العُرَى ؛ لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التضحيات .

لذلك لما سمعتْ السيدة عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألت رسول الله : كيف يقف الناس عرايا ينظر بعضهم إلى عورة بعض ؟ فأجابها رسول الله أن كل امرىء مشغول بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أنْ ينظر أحد لعورة أحد فى هذا الموقف(١) .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموها الخير الكثير الذى أراده الله لهم ، ظلموها حين غرَّتهم الدنيا بنعيمها الفانى ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقى الدائم .

والإنذار : التخويف من شَرٍّ قبل أوانه لتتوقَّاه ، والفرصة سانحة قبل أنْ يداهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أنْ تحثَّ ولدك على المذاكرة وتحذره من الإهمال الذى يؤدى إلى الفشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ليتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال .

والإنذار والتخويف لا يُجدى إلا مع مَنْ يؤمن بما تُخوِّفه به ، فحين ينذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا مَنْ يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة .

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] الخشية هى الخوف ، لكن بحب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٥٣) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فأنت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تخافه وأنت كاره له ، إنما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا الخوف رجاء وطمع فى رحمته تعالى ، فأنت تسير فى رحلة حياتك بجناحين : خوف من العذاب ، ورجاء فى الرحمة .

والإنسان ينبغى ألاَّ ينظر إلى الفعل فى ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل ، فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم[1] عند رسول الله ، فحكى الله عنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فى حين سمعه آخر[2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[3] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فَلاَنَ قلبه له ورَقَّ فأسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

---

(١) المقصود بهم المنافقون . ذكره السيوطى فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٥٤) وابن كثير فى تفسيره (٤/١٧٧).

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحددوا وصفاً للقرآن ليجتمع رأيهم فى رأى واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم فى موسم الحج . فقال بعضهم : هو كاهن . فقال الوليد : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . وقال بعضهم : مجنون . فقال الوليد : لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . وقال بعضهم : شاعر . فقال الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه فما هو بالشعر . ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . [ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ١/٢٨٣ ، ٢٨٤] .

(٣) الطلاوة : الرونق والحُسْن . [لسان العرب - مادة : طلى] .

فَرْق بين مَنْ يسمعه وهو له كاره ، فيغلق عليه وبين مَنْ يستقبله بقلب واعٍ مفتوح لإشراقات القرآن وتجلياته .

ألاَ ترى أن الحديد يستجيب لك حين تطرقه وهو ساخن ، فيصير كالعجينة فى يدك ، أما إنْ طرقْته وهو بارد فإنه لا يتفاعل معك ، كذلك قلنا مثلاً : إنك فى اليوم البارد تنفخ فى يدك لتشعر بالدفء ، وتنفخ أيضاً فى كوب الشاى مثلاً لتبرده ، فكيف تجتمع هذه المتضادات لفعل واحد ؟ نقول : لأن الفاعل وإنْ كان واحداً إلا أن المستقبِل للفعل مختلف .

كذلك إنذاره ﷺ إنذار واحد ، لكن استقبله قوم بخضوع ورغبة فى الهداية فآمنوا ، واستقبله قوم بعناد وإصرار فلم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا بثمرته .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ⁽١٨⁾ ﴾ [فاطر] دلتْ على أن الإيمان اكتمل فى نفوس هؤلاء اكتمالاً يستوى فيه مشهد الحكم بغيبه . ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

ولما سأل سيدنا رسول الله ﷺ أبا ذر : « كيف أصبحتَ يا أبا ذر؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم[(١)] »

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس أبا ذر ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، وذلك فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للذين استجابوا لإنذار رسول الله وانتفعوا به : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ⑱ ﴾[فاطر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يقيمون الصلاة أى : يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرنا هى العبادة الوحيدة التى لا تسقط عن المكلَّف بحال ، فقد يطرأ عليك ما يُسقط الزكاة أو ما يُسقط الصيام أو الحج فلم تَبْقَ إلا شهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله . وهذه يكفى أنْ تقولها ولو مرة واحدة .

أما الصلاة فهى العبادة الوحيدة الملازمة للمسلم ؛ لأن الصلاة فى حقيقتها استدامة الولاء لله تعالى ، فَرَبُّك يدعوك إلى لقائه خمس مرات فى اليوم والليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟ أيكون بها عَطَب بعد ذلك ؟

أما إذا أردتَ مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فَدُونه أبواب وحُرَّاس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا تملك أنت من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، إنك تستأذن فى أوله ولا تملك الانصراف فى آخره .

أما لقاؤك بربك فخلاف ذلك ، ففى يدك أنت كل عناصر اللقاء ، فأنت تبدؤه متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجى ربك فيه بما تريد، تبثّه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب .

وبعد أنْ ذكر الحق سبحانه هذه العبارة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ⑱ ﴾[فاطر] يعنى : عبادتك عائدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى منها بشىء ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

فهو سبحانه غنى عنَّا ، ونحن بعبادتنا لله لم نزده سبحانه صفة كمال لم تكن له ؛ لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلَّفنا . لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً ، ذلك أنِّى جوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كن فيكون»[(١)] .

إذن : نحن صَنْعة الله ، وما رأينا صانعاً يعمد إلى صَنْعته فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويُهذِّبها ويعتنى بها ، حتى إنْ أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه فى النهاية لصالحك .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : المرجع والمنقلب يوم القيامة ليفصل بين الخصوم ، ولينال كل ما يستحق ، فمَنْ أفلت من العقاب فى الدنيا فهناك مصير سيرجع إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧).

هذه حقائق يقررها الحق سبحانه ، فالمتناقضان لا يستويان ، لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتفادى الأخطار ، أما الأعمى فلا بُدَّ له من مرافق يتطوع بصداقة عينه السليمة للعين الغائبة ، لذلك نقول : إنْ أعطى الأعمى للعمى حقه صار مبصراً ، كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، فحين ينادى على مَنْ يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده ، أما إنْ تعالى فسرعان ما (يندب) على وجهه .

والعمى والبصر حسِّيات توضح المعنوى ، فالمراد لا يستوى الجاهل والعالم ؛ لأن حركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية : تأتى وتذهب ، تزرع وتقلع .. إلخ وحركة قيمية معنوية ، وهى الروحانيات والأخلاقيات العالية ، مثل معانى : الإيمان ، الصدق ، الوفاء ، العدل ، الرحمة .. الخ .

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسىٍّ يهديك حتى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور معنوى يهدى خُطَاك كى لا تضلّ ، هذا النور المعنوى هو المنهج الذى قال الله فيه :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

[المائدة]

فالشمس هى النور الحسى ، والقرآن هو النور المعنوى ؛ لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بالنُّورين.

الحق سبحانه سبق أنْ ذكر لنا التقابل بين الماءيْن العذب والمالح ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] نعم ، لا يستويان ، لكن العلاقة بينهما علاقة تقابل كالليل والنهار ، لا علاقة تضادٍّ كالأعمى والبصير ، بدليل أن الله جمعهما معاً ، فقال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] فإن اختلف المتقابلان ، فلكل منهما مهمة يؤديها ، فهما متساندان لا متعاندان .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول : ﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] ، لأن النور هو مصدر الإبصار فالمبصر لا يرى شيئاً فى الظلمة .

هذا فى العمى والبصر الحسى ، أما القيم والمعنويات فلها مقياس آخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو أعمى بصيرة . والأعمى فى المعنويات هو الذى يجهل الحكم الذى يهديه إلى منطقة الحق فى كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام .

وحين تتأمل أسلوب هاتين الآيتين . تجد فيهما ملمحاً من ملامح الإعجاز فى كلام الله ، فالأولى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ [فاطر] قرنت بين الاثنين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] فذكرت (لا) النافية الدالة على توكيد عدم الاستواء ، فلم يَقُل الحق سبحانه كما فى الأولى : ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد تجتمعان فى الشخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافراً ويؤمن ، فيطرأ عليه الوصفان ؛ لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما الظلمات والنور فهما متقابلان لا يجتمعان .

كما تلحظ فى دقة الأداء القرآنى ؛ لأن الحق سبحانه هو المتكلم ، فقال : ﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾[فاطر] فالظلمات جمع والنور مفرد ؛ لأن مذاهب الضلال شتى ، فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد الأصنام ، وهذا يعبد الملائكة .. الخ . أما النور فواحد ، هو منهج الله المنزل فى كتابه .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلِّم أصحابه هذا الدرس خَطَّ لهم خطاً مستقيماً ، ومن حوله خطوط متعرجة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجتمعان ، كذلك ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه أعاد ذكر الفعل المنفى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحى والميت .

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ؛ لأن كلمة الأحياء تعنى المؤمنين الإيمانَ الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باقية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأبَّوْا على منهج الله . أو : أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هى العيش بمنهج ربهم الذى يؤدى بهم إلى الحياة الحقيقية الباقية التى قال الله عنها :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة المرادة فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤) ﴾ [الأنفال] كيف وهو يخاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إذن : المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التى لا تنتهى بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

ومن المعانى التى نفهمها من عدم استواء الأحياء والأموات أن الحىَّ خلقه الله وأمدَّه بأجهزة نفسية : عقلاً ، وأعصاباً ، وعضلات ، وسمعاً وبصراً .. الخ وهذه الأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أنْ يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنِعَم أخرى ، ثم ليعلم أنه فى رحلة حياته لا بُدَّ أنه سيموت ، لكن ربه عز وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عَيْن البيان ، وليظل على ذكْر له طوال الوقت وينتظره فى كل لحظة ، فعمرك محسوب بعدٍّ تنازلى ، وسهم الموت أُطلق فى اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال فى التكليفات فقال : لا يستوى الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوى نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المآل ، فيقول : ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) ﴾[فاطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفى موضع آخر قال : ﴿ ظِلاً ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء] والحَرُور كناية عن العذاب وشدة حَرِّه .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ومُسلِّياً له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر] النبى ﷺ جاء على كفر

وجهالة من قومه ، فكانت دعوته أنْ يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويُخرِجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان .

وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه يكاد يُهلك نفسه فى سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر] أى سماع هداية وإقبال ، وإلا فَهُمْ جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماعُ إعراض وسماعُ إقبال ، منهم مَنْ يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ، ومنهم مَنْ يسمع ثم يُعرِض وينصرف عما سمع ؛ لذلك قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : يا محمد ، لقد أديتَ ما عليك نحوهم ، وخاطبتَهم خطابَ هداية ، وخطابَ تهديد ووعيد فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] فجعلهم الله لعدم سماعهم كالأموات ، وإلا فرسول الله خاطب أهل قليب بدر من الكفار حين وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل أليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

فقال عمر : أتكلمهم وقد جيَّفوا ؟ قال ﷺ : « والله ، ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »[1]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسُحِبوا ، فأُلقوا فى قليب بدر .

فالمعنى : ما أنت بمسمع السماع المؤدى إلى الهداية ، كما أنك لا تُسمع مَنْ فى القبور ؛ لأن زمن السماع وقبول الهداية انتهى بالموت .

لكن إذا كان رسول الله لا يُسمع مَنْ فى القبور ، فما مهمته ؟ يقول سبحانه بعدها :

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

إنْ هنا بمعنى ما النافية : ما أنت إلا نذير أى : مُحذِّر من المعصية ومن العذاب ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يُخفِّف عن رسوله ، فيحدد له هذه المهمة فحسب ، وليس له أنْ يزيد عليها بما يشقُّ عليه حتى يكاد يُهلك نفسه ، فيقول له : مهمتك فقط الإنذار ، أما الهداية فمن الله فأرِحْ نفسك ، فلو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لجاءوا طائعين مُسخَّرين كغيرهم من المخلوقات .

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق : هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً لتوضيح الحق والباطل ، فيقول سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا

مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

وقد ترجمنا هذه العلاقة بين الحق والباطل ترجمة عصرية فقلنا : لا يصح إلا الصحيح ، نعم لأن الباطل وإنْ أخذ صورة الحق مرة بعض الوقت ، فهو كالزَّبَد الذى سرعان ما تزيحه الرياح لتكشف وجه الحقيقة الناصع والحق الواضح .

وقوله تعالى لنبيه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] يدل على أنه الرسول الخاتم الذى لا رسول ولا نبى بعده يغير شيئاً مما جاء به ، فالنبى جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير أبداً ، ولا يستدرك عليه أحد بعده . لذلك فإن آفة البشرية الآن أنها تحكم العصر وتطور الأوضاع فى الحكم على المخالفات الشرعية ، فحين نتعرض لمخالفة نسمع مَنْ يقول إنه التطور الذى لا بُدَّ منه ، وهؤلاء هم دعاة (عَصْرنة) الدين ، يعنى تطويع الدين ليلائم العصر .

وهذا يعني أن تطور العصر هو المشرع ، فى حين أن المفروض أن العصر هو الذى يستقبل تشريع السماء ويبنى حركة حياته على هَدْيه ونوره ؛ لأن الحركة التى تُبْنى على هُدَى السماء هى الحركة العليا من الرب الأعلى الذى يعلم حقيقة الخير لك ولا يستدرك عليه ، أما إنْ شرع لك إنسانٌ مثلك ، فحتى هو لو دَلَّك على الخير فهو خير من وجهة نظره وعلى قدر علمه ، فلا بُدَّ أنْ يكون فيه نقص وقصور ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بعده مَنْ ينقضه ويستدرك عليه .

لذلك رأينا حتى غير المسلمين تُلجئهم أقضية الحياة إلى أن يأخذوا بحلول الإسلام للتغلب على مشاكلهم ، وهم بالطبع لا يأخذون أحكام الإسلام حباً فيه ، إنما لأنهم لم يجدوا حلاً فى غيره . ومن هذه القضايا قضية الطلاق التى طالما أثاروا حولها الشكوك وظنوها

مـأخـذاً على الإسـلام ، والآن فى إيطـاليـا يقـررون الطلاق ، لا لأن الإسلام شرَّعه ، إنما لأن مشاكلهم لا تُحَلُّ إلا به .

وهذه المسألة توضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]

لذلك سُئِلْنا فى بعض رحـلاتنا : القرآن يقول : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف] وفى آية أخرى : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] فكيف تم نـور الله ومع الإسـلام ديانات أخرى كـثيرة ، مـا زالت موجـودة ، وأغلبها أكـثر من الإسـلام عدداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى ﴿ مُتِمُّ نُورِهِ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] أنْ يصير الناس جمـيعاً مـسلمين ، ولو كان الأمـر كذلك ما قـال الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُـشْـرِكُـونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف] ﴿ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] إذن : الحق سبـحانه يقرر وجـود الشرك والكفر مع الإسـلام . والمعنى : أن الله مُتم نوره يعنى مع كفـرهم ومع شـركهم طوال المـدة ، إلا أنهم لن يقـدروا على إطفـاء هذا النور ، فسـوف يظل ، وسـوف يتـغلب على أحكامهم ويظهر عليـها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضـيتهم إلا فى هذا النور .

وقوله تعالى : ﴿ بَشِيـراً وَنَذِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] البشـير : الذى يُخـبر بالخيـر قبل أوانه. والنذير : الذى يُحذِّر من الشـر قبل أوانه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] إنْ هنا بمعنى ما النافـية ، مثل : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر] فـالمعنى : مـا من أمـة إلا خلا فـيهـا نذير يعنى : جاءها نذير ومضى .

والأمة : الجماعة من الناس ، تجمـعهم أرض واحدة ، أو يجمعهم

سلوك واحد ، أو عقيدة واحدة . ومن معانى كلمة أمة ما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴿١٢٠﴾﴾[النحل] يعنى : جامعاً وحده كُلَّ خصال الخير ، بحيث لو جمعت كل صفات الخير فى أمة تجدها فى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وإذا كانت الأمم السابقة مضى فى كل منها نذير ، فرسول الله هو النذير الأخير ، لماذا ؟ قالوا : لأن واقع العالم فى القديم كان بعيد التواجد منقطعاً بعضُه عن بعض لصعوبة الاتصال ، فالجماعات تعيش منفصلة لا اتصال بينها ، فترى لكل بيئة داءاتها وعيوبها وعاداتها ، فيأتى الرسول ليعالج داءات قومه فحسب ، فسيدنا نوح عليه السلام جاء للذين عبدوا وَداً وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسْراً ، وسيدنا لوط عليه السلام جاء ليعالج داء الشذوذ فى قومه .. الخ

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء على ميعاد مع التقاء الدنيا كلها ، حين تداخلت الحضارات والمجتمعات ، فصار العيب فى أمة عيباً فى كل الأمم ، وزاد هذا الالتقاء حتى أصبحنا اليوم نرى ونسمع ما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا فى التَّوِّ واللحظة ، كذلك نرى ونسمع سلبيات وعيوب الآخرين وكأنها فى بلادنا ، إذن : ستتوحد الداءات ، وتتوحد النقائص ، ويصبح العالم كله بيئة واحدة ، لذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية ، وبُعث سيدنا رسول الله للناس كافة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾

يعنى : يا محمد ، خُذْ لك أُسْوة من إخوانك الرسل السابقين ، فقد كُذِّبوا جميعاً ، وهذه سنة مُتبعة ، ولستَ أنت يا محمد بدْعاً من الرسل . وقلنا : إن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد وعَزَّ العلاج ، فلا وجودَ للنفس اللوامة التى تُردع صاحبها عن المعصية ، ولا للمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، يعنى : لا مناعة فى الذات ، ولا مناعة فى المجتمع ، فقد فسد هو الآخر ، واجتمع أهله على الضلال ، عندها لا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة تناسب الزمن الذى جاء فيه .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٢٥) ﴾ [فاطر] لأن الرسول ما جاء إلا ليواجه الفساد فى المجتمع ، وطبيعى أنْ يواجهه الضالون والظالمون والمتجبرون المستفيدون من هذا الفساد ، وأنْ يُكذِّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ (٢٥) ﴾ [فاطر] بالبينات يعنى : بالشيء الواضح الذى يُبيِّن أن المتكلم صادق فى التعبير والبلاغ عن ربه ، وهذه هى المعجزة ، إذن : فالرسول جاء بالمعجزة لتكون دليلاً على صدقه فى البلاغ عن ربه ، فليست المعجزة هى هدف الرسالة ، إنما هدف الرسالة تبليغ الأحكام والمنهج .

ويعنى ﴿ وَبِالزُّبُرِ (٢٥) ﴾ [فاطر] أى : الكتب السماوية المنزلة مثل : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، لكن خصَّ هنا الزبور والقرآن (الزبر والكتاب المنير) ؛ لأن الزبور الذى أُنزل على سيدنا داود امتاز بأنه مكتوب ، ومكتوب بحروف منقوشة بارزة ، لذلك كانت ثابتة ليست بمداد يُمْحَى مثلاً ، فهى أشبه بالنقوش

الحجرية ، ويسمونها (الأُويمة)[1] .

والكتاب المنير هو القرآن الكريم ؛ لأنه النور المعنوى الذى ينير للناس طريق الحياة ويهدى حركتهم ، فإنْ كانت الشمس هى النور الحسىّ الذى يهدى حركتك للحسيات ، فالقرآن هو النور المعنوى الذى يهدى مَنْ آمن به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذه سُنّة الله فى المرسلين ، أنْ يأخذ الكافرين بهم والمعاندين لهم ، أرأيتم نبياً أسلمه الله أو انهزم أمام قومه المعاندين ؟ لقد وعد الله رسوله بالنصرة وبالتأييد ، فقال سبحانه :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] لذلك إنْ رأيتَ جندياً لله انهزم فى شىء ولم يَغْلب ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية تخلَّف ، وأول شرط للجندية لله الطاعة ، فإنْ خالف الجندىُّ أوامر الله فلا بُدَّ أنْ يُهزم ، لذلك قلنا : إن المسلمين انتصروا فى بدر وهم فئة قليلة ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولم يَمْض على بدر سنة واحدة ، وحدثتْ أُحُد ، صحيح لم يُهزم المسلمون لكنهم أيضاً لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) ذلك لأن الرُّماة خالفوا أمر رسول الله وتخلَّوْا عن أماكنهم ونزلوا لجمع

---

(١) قال الزبيدى فى « البصائر » : « سمى كتاب داود زبوراً ، لأنه نزل من السماء مسطوراً وقيل : هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ، والكتاب لما يتضمن الأحكام » انظر كتاب « تاج العروس » للزبيدى ـ مادة : زبر .

الغنائم ، وأراد الله تعالى تأديب عباده المخلصين فلا بُدَّ أنْ يهزَّهم هذه الهزَّة العنيفة ، ويرَوْا هذه النتيجة ؛ لأنهم خالفوا .

لذلك قلنا : إن الإسلام انتصر فى أُحُد ، وإن كان المسلمون لم ينتصروا ؛ لأنهم لو انتصروا مع مخالفة أمر رسول الله لَهَانت على المسلمين أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أوامره وانتصرنا فى أُحُد إذن : كان لا بُدَّ من هذه النتيجة المائعة ليعلم المسلمون أهمية الطاعة والأُسْوة برسول الله .

كذلك فى حُنَين لما رأى الصِّدِّيق أبو بكر كثرة المسلمين ، فقال : لن نُغْلَب اليوم عن قلة - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فأراد الله أنْ يكسر هذا الغرور فى المسلمين ، فكان التفوق للكفار فى بداية المعركة حتى أحرجوا المسلمين ، لكن تداركتهم رحمة الله ، وكأن الله أراد أنْ يُصحِّح لهم الخطأ فحسب ، لا أن تنزل بهم الهزيمة .

وحين نتأمل معنى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٢٦) ﴾ [فاطر] نجد أن الأَخْذ يدل على قوة الآخذ وقوة الجذب التى تستوعب كل أعضاء المأخوذ ، فعلى مستوى البشر نقول : أخذ فلان يعنى ساقه أو شدَّه من مَجْمع ثوبه وملَكه بقبضة يده ، أما لو قُلْت أخذه الله فأَخْذُ الله شديد ، أخذ عزيز مقتدر .

لذلك يقول بعدها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ [فاطر] أى : نكيرى واعتراضى على ما فعلوا . والنكير هو الشىء الذى تستنكره وتغضب منه ، وما بالك بقوم أنكر الله مسلكهم وغضب عليهم ؟ لا بُدَّ أنْ يأخذهم أَخْذاً يُرضِى أولياءه ، ويُرضِى المؤمنين به .

فقوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ [فاطر] يعنى : قُلْ لى يا محمد هل قدرتَ على مجازاتهم بما يستحقون ؟ وهذا المعنى

واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذين أَجْرَمُوا كَانُوا من الَّذين آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) ﴾

تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرنا ببعض نعمه علينا ، ثم يُتبع ذلك ببعض المطلوبات ، وهكذا ليُؤنس قلبك بالإحسان إليك لتستجيب لمطلوباته . والحق سبحانه حين يُذكِّر عباده بهذه الآية الكونية ، آية إنزال الماء من السماء بعد أنْ بيَّن لنبيه أَخْذه الشديد للكافرين ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : دَعْك من أمر هؤلاء الكافرين ، فأنا قادر على معاقبتهم ، وتأمل فى هذه الآية الكونية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٧) ﴾ [فاطر]

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ (٢٧) ﴾ [فاطر] أى : تشاهد ؛ لأن الجميع يرى

---

(١) الجدَّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر] أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٩] .

(٢) الغربيب : الشديد السواد ، وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

الماء ، وهو ينزل من ناحية العلو ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، وقد تأتى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] بمعنى : ألم تعلم . وهذا فى الأشياء التى لم يَرَها رسول الله كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، لكن خاطبه ربه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] ليدل على أن إخبار الله له أوثقُ وأصدقُ من رؤية العين .

ومسألة إنزال الماء من السماء أى من ناحيتها ، وإلا فالسماء شىء آخر ، المطر إنما ينزل من السحاب القريب من الأرض . نقول : مسألة إنزال الماء من ناحية السماء يبدو أمراً طبيعياً ، فبخار الماء ينعقد فى السماء على هيئة سُحُب ممتلئة بالماء ، والماء له ثِقَل ينزل إلى أسفل بجاذبية الأرض ، لذلك يرتب الله على إنزال المطر إخراج النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر] فإنْ قُلْتَ : إن نزول الماء من السماء أمر طبيعى قد يُشك فيه أنه من فعل الطبيعة ، فهل إحياء الأرض وإنبات النبات مختلف الثمرات والألوان أيضاً من فعل الطبيعة ؟

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر] تفيد العُلُو من المُنزِل والدُّنُو من المُنزَل إليه ، حتى لو كان هذا الأمر معكوساً وأتى الإنزال من أسفل إلى أعلى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] والحديد فى الواقع نُخرجه من باطن الأرض ، لكن سماه الله إنزالاً ؛ لأن المراد به الإتيان منه أعلى لأدنى بصرف النظر عن

جهته أعلى أو أدنى .

ونحن نشاهد عملية إنزال الماء من السماء ، لكن لم نشاهد عملية البخر التى تتم على سطح الماء فى الأرض ، ثم صعودها إلى طبقات الجو العليا حيث تتكوَّن السُّحب عن طريق التكثيف ، والإنسان لم يكُنْ يعلم شيئاً عن هذه العمليات حتى تقدَّمتْ العلوم ، وعرفنا عملية تقطير الماء .

أما عملية إخراج النبات والثمرات المختلفة الألوان فهى واضحة مُشَاهدة فى البساتين والحقول ، فكلنا يرى بدائع الألوان واختلاف الأشكال بحيث لا تتناهى حصراً ؛ لأن ألوان الطيف إنْ كانت هى الألوان الأصلية فيمكن أن يتولَّد منها مَا لا حصر له ، فاللون الأسود مثلاً لو أضفْتَ إليه قطرة واحدة من اللون البني مثلاً يعطيك لوناً آخر ، فإنْ أضفتَ قطرتين يعطيك لوناً ثالثاً ، وهكذا لا تتناهى الألوان ، وهذه المسألة نشاهدها الآن فى صناعة الأقمشة ، فقد تعددت ألوانها بدرجات مختلفة وزركشات لا حصر لها . إذن : نقول : إن الألوان كائن لا يتناهى .

ولك أن تتأمل تداخل الألوان وتناسقها فى زهرة أو وردة فى الحديقة ، وسوف ترى فى ألوانها الإعجاز المبهر ، فالحبة واحدة ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، لكن تولَّد من هذا كله هذا الشكل البديع وهذه الألوان المتداخلة المتناسقة ؛ لأن الحدث آثار المحدث ، فإذا كان المحدثُ محدودَ القدرة ظهرتْ آثاره كذلك محدودةَ القدرة ، وإذا كان المحدث فائقَ القدرة تأتى آثاره فائقة القدرة ، أما الحق سبحانه فله طلاقة القدرة ؛ لذلك تأتى آثاره كذلك .

وتلحظ في سياق الآية أن الحق سبحانه لم يتكلم عن إنزال المطر من السماء قال ﴿ أَنزَلَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر] بصيغ ضمير الغائب ، لكن لما تكلّم عن إخراج الثمرات قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر] فنقلنا إلى ضمير الجماعة المتكلمة الدالّ على التعظيم ؛ لماذا ؟ لأن إنزال الماء من السماء ليس هدفاً في ذاته ، فليس هو المهم ، بدليل أن الماء قد ينزل على الأرض السّبخة فلا تستفيد به ، أما عملية إخراج الثمار فهى العملية المهمة التى أنزل اللهُ الماءَ من أجلها ؛ لذلك ذكرها بضمير الجمع الدالّ على التعظيم ، فالحق سبحانه يُعظِّم نفسه فى الفعل كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

ونحن نعرف فى عُرْفنا أن الحدث يختلف باختلاف المحدث ، فإنْ أحدثه فرد واحد أتى الحدثُ على مستوى قدرة هذا الفرد ، فإنْ تكاتفت فيه جماعة جاء على مستوى هذا التكاتف ؛ لذلك نسمع عند سَنِّ القوانين التى تحكم الشعوب يقول القائد أو الملك : نحن رئيس الجمهورية ، أو نحن ملك مصر ، أو نحن سلطان كذا وكذا ؛ لأن مسألة سَنِّ القوانين ليستْ مسألة فردية يقررها الحاكم أو الملك ، ولا ينطق بها باسمه ، إنما يشاركه فيها رعيته ، وينطق باسمهم جميعاً.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حين يُحدِّثنا عن فعل من أفعاله يُحدِّثنا بضمير الجمع ، أما إنْ تكلم عن ذاته سبحانه تكلّم بضمير المفرد ، مثل : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

وإنزال الماء فى صورته أمر واحد ، أما الإخراج ففيه تلوُّن للمخرج ، فالماء المنزَّل من السماء واحد ، لكن آثار الماء متعددة ، فهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أحمر .. الخ ، فهذه العملية تحتاج إلى تعظيم يناسبها .

لكن ، هل الإخراج للثمرات هكذا مباشرة ؟ أم الإخراج للنبات الذى

يعطى الثمرات ؟ الإخراج للنبات الذى يعطى الثمر ، فالحق سبحانه يذكر لنا الشىء بنهاية المطلوب منه وهو الثمر ، وهذا الثمر يأتى مختلفاً فى ألوانه ، مع أن البيئة واحدة ويُسْقى بماء واحد ، وحين تتأمل الألوان فى الثمار تجد فيها طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه الألوان لم تُجعل هكذا لمجرد الشكل والزينة ، إنما جُعلَتْ هكذا لحكمة أرادها الخالق سبحانَه ، منها أن هذه الألوان تجذب الحشرات المخصِّبة .

ولو تأملتَ هذه الألوان لوجدتها متعددة حتى فى اللون الواحد ، ألاَ ترى أن بياض الثلج مثلاً غير بياض الثوب ، غير بياض الجير ؛ لذلك يصفون الألوان فيقولون أبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر مدْهَام .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن آية من آياته فى النبات يُحدِّثنا عن الجماد ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾[فاطر] ، ففى الجمادات أيضاً ألوان نشاهدها مثلاً حين نشقُّ الصخر لاستخراج ما فى باطن الأرض ، ترى مثلاً الجرانيت والرخام والعقيق بألوان مختلفة كذلك .

وكلمة ﴿ جُدَدٌ (٢٧) ﴾[فاطر] جمع جُدة ، وهى الخط الفاصل بين شيئين ، رأيتم طبعاً الحمار الوحشى المخطط ومدى تناسق هذه الخطوط ، ترى مثل هذا فى طبقات الجبال ، وهى مختلفة البياض ومختلفة الاحمرار .

ومعنى ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾[فاطر] تقول : أسود غرْبيب يعنى : شديد السواد . فالغربيب أشدُّ درجات السواد نسبةً إلى الغراب لشدة سواده .

بعد أن ذكر الحق سبحانه جنس النبات وجنس الجماد يذكر أن هذا الاختلاف موجود أيضاً فى الإنسان وفى الحيوان - وهذه هى أجناس الوجود ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

إذن : فالاختلاف في كل الأجناس ؛ لأن الخَلْق قائم على طلاقة القدرة ، فالناس مع كثرتهم مختلفون ، وهذا إعجاز دالّ على طلاقة القدرة ، فالخَلْق ليس على قالب واحد يُخرج نسخاً متطابقة ، إنك تنظر إلى الرجل فتقول هو شبه فلان ، لكنَ إذا دققتَ النظر لا بُدَّ أنْ ترى اختلافاً ، إذن : طلاقة القدرة تقتضي اختلاف كل أجناس الوجود : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

ومعنى الدوابّ : كل ما يدبّ على الأرض عدا الإنسان والأنعام التي هي البقر والغنم والإبل والماعز .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]

والخشية هي الخوف الممزوج بالرجاء ، وهذا من العلماء عمل من أعمال القلوب ، وأنت تخاف مثلاً من عدوك ، لكن لا رجاءَ لك فيه ، إنما حين تخاف من الله تخافه سبحانه وأنت ترجوه وأنت تحبه ، لذلك قالوا : لا ملجأ من الله إلا إليه .

والعلم إما علم شرعي ، وهو علم الأحكام : الحلال والحرام والواجب والسنة .. الخ . أو علم الكونيات ، وهذه الآية وردت في سياق الحديث عن آيات كونية ولم يُذكر قبلها شيء من أحكام الشرع ؛ لذلك نقول : إن المراد بالعلماء هنا العلماء بالكونيات والظواهر الطبيعية ، وينبغي أن يكون هؤلاء هم أخشى الناس لله تعالى ؛ لأنهم أعلم بالآيات الكونية في : الجمادات ، والنبات ، وفي

الحيوان ، والإنسان ، وهم أقدر الناس على استنباط ما فى هذه الآيات من أسرار الله تعالى .

وكونيات الوجود هى الدليل على واجب الوجود ، وهى المدخل فى الوصول إلى الخالق سبحانه وإلى الإيمان به ؛ لذلك كثيراً ما نجد فى القرآن :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ [الروم]

وإذا كان العلم قضية يقينية مجزوماً بها وعليها دليل ، فإن الحق سبحانه وتعالى نزَّل لنا علم الشرع وحدَّد لنا حدوده ، فلا دَخْلَ لنا فيه ، لذلك عصمه الله وأحكمه ؛ لأن الأهواء تختلف فيه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون] . أما علم الكونيات فقد تركه الخالق سبحانه للعقول تبحث فيه وتستنبط منه وتتنافس فيه ، بل وتسرقه بعض الدول من بعض .

وآفة العصر الحديث أنْ يُدخل علماء الشرع أنوفهم فى الكونيات ، أو أن يُدخل علماء الكونيات أنوفهم فى أحكام الشرع ، وقد رأينا مثلاً لما قالوا بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس ، أسرع بعض علماء الشرع فاتهموا هؤلاء بالكفر ، وهذا خطأ فادح ، وكان عليهم أنْ يأخذوا من الحق سبحانه ما عصم به الأهواء من أنْ تختلف ؛ لأن شكل الأرض وحركتها مسألة كونية لا صلَة فيها بالحلال والحرام .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾[النحل] فأهل الذكر فى العلوم الشرعية غير أهل الذكر فى العلوم الكونية ، ويجب أنْ يحترم كل منهما تخصص الآخر فى مجاله ، ولا يَنْسَىٰ علماء الشرع أن علماء الكونيات هم الذين يكتشفون لنا أسرار الله فى الخَلْق ، وهم الذين يُربُّون فى نفوسنا أدلة الإيمان بواجب

الوجود الذى تصدر عنه أحكام الحلال والحرام .

والحق سبحانه وتعالى خلق الكون على هيئة الصلاح ، فلو دخلْتَ مثلاً غابة من الغابات الأنُف - يعنى : التى لم يدخلها أحد ، وما زالت على طبيعتها كما خلقها الله - لا تجد فيها قذارة ولا رائحة كريهة ولا قمامةً ولا غُصْناً مكسوراً .. الخ ، بل تراها نظيفة متناسقة ، فالفضلات بها غذاء لحيوانات أخرى ، فنظافتها ذاتية .

وأذكر أننا رأينا فى وادى فاطمة فى السعودية عَيْنَ ماء تروى الوادى من حولها ، وفى أحد الجداول رأينا أسماكاً صغيرة فى حجم واحد مثل عُقْلة الأصبع فسألت صاحب البستان : هل يكبر هذا السمك ؟ قال : لا بل يظل على هذه الصورة ، وهو ما جاء إلا بعد أنْ ألقينا بعض فضلات الطعام فى الماء فظهر ليتغذَّى عليها ثم يختفى ، وكأن له مهمة محددة هى نظافة الماء ، ولما جئنا إلى مصر وجدنا بها هذا السمك فى « مُتْحف الأحياء المائية » يقوم بنفس هذه المهمة ، وهى تنظيف أحواض الأسماك من الفضلات .

لذلك نقول : لا يأتى الفساد فى الطبيعة إلا حين يتدخَّل فيها الإنسان ، بدليل أن المخلوقات التى لا دخل للإنسان فيها تسير بنظام محكم دقيق لا اختلاف فيه ؛ لذلك حين ترى فى الكون مثلاً أزمة فى القوت ، فاعلم أنها نتيجة حركة خاطئة للإنسان ، أو نتيجة تكاسل عن استنباط خيرات الأرض .

إذن : على علماء الشرع ألاَّ يُدخلوا أنفسهم فى الكونيات ، وقد علَّمنا ذلك رسول الله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل يعنى : تلقيحه ، فلم يثمر النخل ، فلما رأى رسول الله ذلك قَبِلها فى نفسه وقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] يعنى : المسائل الكونية والعلمية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مَرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والمعملية التجريبية ، هذه أمور لا دخْلَ لأحكام الشرع فيها ، لكن آفة العلماء اليوم ألاَّ يلتزم كُلٌّ بما يخصُّه .

لذلك خَصَّ الله هنا علماء الكونيات ؛ لأنهم الأقدر على التمعُّن فى أسرار الله ، فالحق سبحانه ملأ كونه بأسرار تتناسب مع تطور العصر ومُضىِّ الزمن ، فالأسرار التى عرفها الإنسان فى العصر الحجرى مثلاً غير التى عرفها فى العصر الحديث ، وشاءتْ حكمة الله أنْ يجعل لكل سرٍّ من أسراره ميلاداً يظهر فيه ، بحيث لا تظهر الأسرار فى زمن واحد ، ويستقبل الإنسان باقى الزمن بدون جديد .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الحق سبحانه أظهر للإنسان ما فيه مقومات حياته ، ثم ترك الأمور البدهية التى يعرفها الناس ليترقوا فيها ، فالإنسان مثلاً استخدم بدهية أن الماء ينساب من أعلى إلى أسفل ، ورقَّى هذه البدهية وأصبح يستقبل الماء فى بيته من الصنبور (الحنفية) ، بعد أنْ كان ينقل الماء من الآبار والأنهار ، ويتحمل فى سبيل ذلك المشاق ، فلما أعمل عقله فى بدهيات الكون ترقَّى وجنى ثمرة هذا الترقِّى .

لذلك تجد أن أعقد النظريات العلمية والالكترونية مأخوذة فى بدايتها من بدهيات ، وقلنا فى علم الهندسة : إنك تبرهن على صدق النظرية للمائة باستخدام النظرية التسعة والتسعين ، وهكذا حتى تصل إلى النظرية الأولى ، وهى قائمة على بدهية من بدهيات الكون ، لا تختلف فيها العقول .

لذلك دائماً يدعونا الحق سبحانه إلى التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر .. الخ وما توصل إليه البشر الآن من آلات ووسائل حديثة مثل : الغسالة ، والثلاجة ، والتلفاز .. الخ ما هى إلا ثمرة هذا الفكر الذى رقَّى البدهيات ، حتى وصل بها إلى ما وصل إليه الآن ، ومَنْ أراد أن يقف على هذا الترقى ، ويرى قدرة الله فى توارد الصناعات وارتقاءاتها من

حلقة إلى حلقة فليذهب إلى (ديترويت) ليرى هناك معرض (فورد) الذى يضم ارتقاءات الصناعات من إبرة الخياطة للصاروخ .

إذن : الكون فيه أسرار يكتشفها الإنسان ، ولكل سرٍّ ميلاد يظهر فيه ، إما نتيجة بحث للإنسان أو حتى صدفة ، ومن لُطْف الله تعالى أن الملاحدة لما اكتشفوا بعض أسرار الكون قالوا اكتشفنا ، ولم يقل أحد منهم : اخترعنا . وكأن الله تعالى صرفهم وألهاهم عن النطق بكلمة الاختراع ولوى ألسنتهم حتى لا يجترئوا على الله ، فالجاذبية مثلاً موجودة منذ خُلقت السموات والأرض ، ودور الإنسان أنه اكتشف هذا السر ؛ لذلك الذى يقول اخترعت نقول له : هذا كذب والصواب أنك اكتشفتَ.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر] عزيز لا يُغلب ، وغفور لكم إنْ بدر منكم سهو أو تقصير فى استنباط أسرار الله فى كونه ، يغفر لهم إنْ أخطأوا فى تجربة من تجاربهم ، فسوف يأتى مَنْ بعدهم ويصححها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه العلم الكونى ، وأنه وسيلة لخشية الله ومعرفة أسراره فى كونه أراد سبحانه أنْ يلفت أنظارنا وأنْ يحذرنا : إياكم أنْ تُفْتنوا بالعلم الكونى فينسيكم مهمتكم فى أنْ تتلقَّوا عن الله ما يُسعدكم ، فتحدَّث سبحانه عن المنهج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [فاطر] وهذا هو العلم الشرعى والذِّكْر الذى يعصم الناس من اختلاف الأهواء .

ومعنى ﴿ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [فاطر] أى : تلهج به ألسنتهم ، وتعيه قلوبهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ (٢٩) ﴾ [فاطر] وهذه عبادة تشترك فيها كل الجوارح ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً (٢٩) ﴾ [فاطر] والإنفاق يخصُّ الناحية المالية ، فهو دليل على سماحة النفس بما تنفق ، وحُبها للبذل والعطاء فى السِّر والعلانية ، وبالإنفاق تكتمل لهذه النفس الصفات الطيبة ، ويجتمع لها عمل القلب وعمل الجوارح فى طاعة الله .

وقوله ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ (٢٩) ﴾ [فاطر] يعنى : أن الإنفاق ليس من مالك الخاص ، إنما من مال الله الذى رزقك ، وجعلك مُسْتخلَفاً فيه وما نفقتُكَ إلا سبب ، والأسباب فى الكون ستر ليد الله فى العطاء .

وهؤلاء الذين ينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

فالإنفاق فى سبيل الله تجارة مع الله ﴿ لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] أى : لن تكسد ، وأنت حين تنفق على المحتاجين ، وحين تطعم الجائع إنما تُحبِّب الله إلى خَلْقه أرأيت لو أن ملكاً من ملوك الدنيا له عبيد ، أليس مكلَّفاً بإطعامهم وسدِّ حاجتهم ، وهذه من سمات العظمة فيه ، كذلك الحق سبحانه هو خالق هؤلاء الفقراء ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، وهو سبحانه المكلّف باقتياتهم .

إذن : حين تطعمهم أنت فكأنك تؤدى مهمة الله عز وجل ، وتُحبِّب خَلْق الله إلى الله ، فالحق سبحانه حين يعطف مخلوقاً على مخلوق يقول : كأن عبدى يعيننى على خَلْقى ؛ لأن الله تعالى استدعى الخَلْق

للوجـود ، وتكفَّل بأن يُغنيـهم ، فـحين يأتى عـبـده الغنى ويكون فى عَوْن الفقير يقول سبحانه : كان عبدى فى عون أخيه بقدرته ، فلا بُدَّ أنْ أكون فى عـونه بقدرتى ، فـالعبـد لا يكون أبداً أكرم من خـالقه ، وكيف يعطف العبـد وهو لم يخلق شيئاً ، ولم يستـدع أحداً للوجود ، ولا يعطف الخالق سبحانه ؟

فإنْ قلتَ : ما دام الحق سبحانه قد استدعى الخَلْق للوجود ، فلماذا لم يضمن لهم الحياة الكريمة التى لا يحتاجون فيها لعطف أحد غيره ؟

نقول : أراد الحق سبـحانه أنْ يزرع بذور المحبـة والتعاطف بين خَلْقه ، أراد مـجتمعـاً مسلماً قائمـاً على المحبة وعلى التـعاون وعلى التكافل ، ثم وَعَد سـبحانه السخىَّ الـمعطى بأنْ يعامله بقدر سـخائه وعطائه هو سبحانه .

هذه هى التـجـارة مع الله التى لا تبـور ، والبَوْر والبَـوار . أى : الفسـاد وهو يصيب التجارة من ناحـيتين : إما فساد فى الربح ، كأن تتـعبك التـجارة ولا تربح ، أو فـســاد فى الربح وفى الأصل يعنى : تخسر أصل التجارة ، ومعلوم أن الإنسـان لا يتاجر إلا بقصد الربح ؛ لذلك قال أهل المعرفة وأهل الـتجارة مع الله : إنْ أردتَ الربح المحقق فتاجر مع كريم وهبك ما تجود به ، وبعد ذلك يجازيك عليه .

لذلك كـان أحد الصــالحين يهشّ فى وجه السـائل ويبشّ ويقول له : مرحباً بمَنْ جاء ليحمل عنى زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وسُئـل الإمام على - رضى الله عنه - : يا أبا الحـسن ، أريد أنْ أعرف نفـسى ، أأنا من أهل الدنيـا ؟ أم من أهل الآخرة ؟ فـقال : إنْ كنتَ تهشّ لمن يعطيك أكـثر مَـمَّنْ يأخذ منك ، فأنت مـن أهل الدنيا ؛ لأن الإنسـان يحب مَنْ يعمر ما يحب .

ورسول الله ﷺ قال له صحابى : أنا أكره الموت ، فقال له الرسول : « ألكَ مال ؟ » قال : نعم ، قال : « أتتصدَّق به » ؟ قال : لا ، قال : « إن المال يحب صاحبه ، فإنْ كنتَ تحبه فى الآخرة أحببتَ أن تموتَ للآخرة ، وإنْ كنتَ تحبه فى الدنيا أحببتَ أنْ تظلَّ معه فى الدنيا »[1] .

واستخدام أداة النفى (لن) هنا له ملْحظ ، فلن تنفى الحال والاستقبال ؛ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يدرك ثمرة الخير فى هذا العطاء ، وقبل أنْ يرى نتيجة صدقه ؛ لذلك يطمئنه ربه بأن هذه تجارة مع الله لن تبور ، وسوف ينتظره جزاؤها فى الآخرة وقوله تعالى : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿٢٩﴾ [فاطر] أى : على أى حال ، أما نفقة السر ، فالحكمة منها أنها تبعد صاحبها عن الرياء أو المباهاة ، وهى أيضاً ستر لحياء الآخذ ؛ لذلك كان بعض العارفين إذا أراد أنْ يعطف على فقير أو محتاج يحتال على ذلك بحيلة تحفظ للمحتاج ماء وجهه ، فيكلِّفه مثلاً بعمل بسيط ، ثم يعطيه المال على أنه أجره على العمل ، لا على أنه صدقة .

والبعض يتأدب فى هذه المسألة ، فيعطى المحتاج على أنها قرض وفى نيته أنها صدقة ، وربما أكد هذا المعنى ، فقال لصاحبه : ربنا يُعينك على السداد ، لكن إياك (تاكله) .

وبعضهم يعطى الصدقة على أنها أمانة ، لكن يقول للآخذ : إذا تيسَّر لك هذا المبلغ وأصبح فائضاً عن حاجتك فأعطه محتاجاً إليه ،

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/٢٣٢) أن رجلاً قال : يا رسول الله مالى لا أحب الموت ؟ فقال : هل معك من مال ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : قدِّم مالك ، فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدَّمه أحب أن يلحقه ، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه » قال الحافظ العراقى : لم أقف عليه .

وقُلْ له يعطيه بدوره إلى مَنْ يحتاج إليه بعده ، وهكذا تتنامى الصدقة ، وتدور على ما شاء الله من المحتاجين إليها .

هذا عن صدقة السر ، أما العلانية فالحكمة منها أنها تمثل زاجراً للواجد حتى لا يبخل ولا يضنّ بما عنده ، كذلك تحمى صاحبها من ألسنة الناس ، وتحمى عِرْضَه أنْ يخوضَ الناس فى حقه فيقولون : يبخل رغم غنَاه . كما أن الإنفاق علانية يُعَدُّ نموذجاً وأُسْوةً للغير فى العطاء .

وقال العلماء : يُراد بالسر الصدقة الزائدة على الفريضة ، وهذه ينبغى فيها الستر ، ويُراد بالعلانية الزكاة المفروضة ؛ لأن الجهر فى العبادة مطلوب كما هو الحال فى الصلاة مثلاً ، والمتأمل يجد الزكاة أوْلَى بالعلانية من الصلاة ، فمن اليسير إقامة الصلاة فى أوقاتها ، أما الزكاة فقد تكون واجداً لكن تشح نفسُك وتبخل بالعطاء .

وأنت حين تُنفق تنفق على مَنْ ؟ على محتاج غير قادر أو مسلوب القدرة ، ومَن الذى سلبه القدرة ؟ الله ، لذلك كلفك الله أنْ تنفق على مَنْ سلبه القدرةَ ، وأنْ تعينه : أولاً حتى لا يحقد عليك ، وحتى يتمنى لك المزيد من الخير ؛ لأن خيرك سيعود عليه ، لذلك كنا نرى أهل الريف مثلاً يحزنون ويبكون إنْ ماتت بقرة فلان أو جاموسة فلان ، لماذا ؟ لأنها كانت تسقى الفقراء من لبنها ، وتحرث أرض المحتاج .

ثانياً : وهذه حكمة أسمى من الأولى ، وهى أن النفقة على غير القادر تجعله لا يغير خواطره على ربه وخالقه وتحميه من الاعتراض على قَدر الله الذى منعه وأعطى غيره ، وضيَّق عليه ووسَّع على الآخرين .

النفقة على غير القادر تجعله يشعر أنه أحظُّ حالاً من الغنى ، ولم لا وهو يُساق له رزقه دون تعب منه ودون عناء ؟ ويأتيه الغنى إلى بابه ليعطيه حقه فى مال الله . لذلك قال العلماء : الفقير شرط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير .

لذلك يعلمنا سيدنا رسول الله ﷺ ، فيقول : « .. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[(١)]

والحق سبحانه وتعالى لما تكلَّم عن المحسنين الذين يكلِّفون أنفسهم فَوْق ما كلَّفهم الله ، ومن جنس ما كلَّفهم الله ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⁽١٥⁾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ⁽١٦⁾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⁽١٧⁾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⁽١٨⁾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⁽١٩⁾ ﴾ [الذاريات]

فالحق غير المعلوم هو الصدقة ، أما الزكاة المفروضة التى هى حق الفقير فى مال الغنى فقد وردتْ فى صفات المؤمنين فى سورة سأل[(٢)] فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ⁽٢٤⁾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⁽٢٥⁾ ﴾ [المعارج]

لذلك ، فالزكاة لا تَخْفى ، بل تُؤدَّى علانية ، لأنك تُؤدِّى حقاً عليك للفقير ، حتى أن بعض فقهاء الأندلس رضى الله عنهم قال : لو مُكنت بولاية أمر على المؤمنين ، فرأيتُ مَنْ يمنع الفقير حقَّه بمقدار نصاب لأتيتُه لأقطع يده ، فتأمل هذا الاجتهاد من العلماء ، وكيف ساووا بين منع الفقير حَقَّه والسرقة .

وسواء أكان الإنفاق سِراً أم جهراً وعلانية ، فلا بُدَّ أن تتوفر له النية الخالصة كما علَّمنا ربنا فى الحديث القدسى : (الإخلاص سر

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) هى سورة المعارج ، سميت بسورة سأل لأن أولها قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ⁽١⁾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ⁽٢⁾ ﴾ [المعارج] .

من أسرارى ، أودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده)[1]

وأنت فى عطائك تتعامل مع الله ، والله واجد ماجد كريم ، لا يبخسك حقك ، وتجارتك معه سبحانه لا بُدَّ أنْ تكون رابحة ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

كذلك يحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من الرياء الذى يحبط الأعمال، ويفسدها ويحرم صاحبها من ثمرتها يوم القيامة ، حيث يقال له : فعلتَ ليقال وقد قيل.

ويحذرنا سيدنا رسول الله أن تكون أعمالنا كأعمال الكافرين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ.. (٣٠) ﴾ [فاطر]

أى : أنهم سيأخذون جزاء أعمالهم وعطائهم بوفاء من الله ، ثم يزيدهم بعد ذلك من فضله تكرُّماً ، قالوا هذه الزيادة أن تقبل شفاعتهم فيمن يحبون ، فإنْ شفعوا لأحد من أحبابهم قَبِل الله شفاعتهم ، لماذا ؟ لأن لهم أيادىَ سابقة على الفقراء والمحتاجين من عباد الله ، يكرمهم الله من أجلها ، ويتفضَّل عليهم كما تفضَّلوا على عباده .

﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ [فاطر]

ولك أنْ تسأل : لماذا ذُيِّلت الآية باسم الله (الغفور) ، مع أنها تحدثت عن أعمال الخير من تلاوة كتاب الله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، فأىُّ شىء من هذه يحتاج إلى المغفرة ؟

قالوا : ذكر هنا المغفرة ، لأن العبد حين يضع شيئاً من هذا

---

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٣٧٦) من حديث الحسن البصرى مرسلاً ، ضعفه الحافظ العراقى والحافظ ابن حجر العسقلانى والشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/٦٣٠) .

الخير قد يُداخله شيء من الغرور أو الإعجاب أو غيره مما يشوب العمل الصالح ، فيغفرها الله له ، ليلقى جزاءه خالصاً ؛ لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »(١)

وقوله ﴿ شَكُورٌ ۝٣٠ ﴾[فاطر] صيغة مبالغة من شاكر ، فكأن الله تعالى بعظمته يشكر عبده ، بل ويبالغ فى شكره ؛ لأن العبد فى ظاهر الأمر عاون ربه فى أنْ يرزق مَنْ كان مطلوباً من الله أنْ يرزقه ؛ لذلك يشكره الله ولا يبخسه حقه ، مع أنه فى واقع الأمر مُنَاول عن الله .

وأنت حين تقرؤها : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ ﴾[فاطر] وتعلم أنه تعالى يشكرك لا تملك إلا أنْ تشكره سبحانه ، وعندها يزيدك من النعمة ، إذن : نحن أمام شكر دائم لا ينقطع ، وعطاء لا ينفد .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٣١ ﴾

الوحى فى معناه العام كما قلنا : إعلام بخفاء ، فإنْ كان جهراً وعلانية فلا يُعَدُّ وَحْياً ، فأنت مثلاً يدخل عليك جماعة من الضيوف فتنظر مجرد نظرة إلى خادمك يفهم منها ما تريد دون أنْ يشعر أحد بك ، هذا يُعَد وحياً . كذلك الوحى الشرعى لا يأتى علانية ، إنما خُفية بين الله تعالى ورسوله ﷺ .

الوحى يختلف باختلاف الموحِى ، والموحَى إليه ، والموحَى به .

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يدعو قائلاً : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمتُ أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت » .

فالله تعالى يُوحى للجماد ، كما أوحى للأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

ويُوحى للنحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨) ﴾ [النحل]

وأوحى للبشر من غير الرسل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ (٧) ﴾ [القصص] وأوحى للحواريين .

أما الوحى الشرعى الذى يتعلّق بالتكاليف فَوَحْى من الله وخطاب إلى الرسُل بمنهج ليبلغوه عن الله ، وليس مجرد خاطر أو إلهام كالوحى السابق ، ومن الوحى أنْ يُوحى الشياطين إلى أوليائهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ [الأنعام]

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ (٣١) ﴾ [فاطر] أى : من القرآن . أو من اللوح المحفوظ ﴿ هُوَ الْحَقُّ (٣١) ﴾ [فاطر] أى : القرآن هو عَيْن الحق ، وقد عرفنا من دراساتنا النحوية أن المبتدأ يأتى دائماً معرفة ، لأنك ستحكم عليه ، ولا يمكن أن تحكم على مجهول فتقول مثلاً : زيد مجتهد . فزيد معروف لك حكمتَ عليه بأنه مجتهد ، إذن : المجهول هو الخبر ، لذلك يأتى نكرةً دائماً ، فإذا قلتَ زيد هو المجتهد ، فإن هذا يعنى أنه بلغ من الاجتهاد مبلغاً ، بحيث إذا أُطلق الاجتهاد لا ينصرف إلا إليه .

كذلك فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ (٣١) ﴾ [فاطر] : أى : لا ينصرف الحق إلا إليه ، وهو عَيْن الحق ، ومعنى الحق الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتضارب ، وحتى لا يفهم أحد أنه ما دام القرآن هو الحق فغيره من الكتب السابقة باطل ، قال سبحانه : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (٣١) ﴾ [فاطر]

فالقرآن حق ومُصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية ، فهى أيضاً حق؛ لأن القرآن صدَّق عليها ، ولم يأتِ مخالفاً لها .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

فكأن الحق سبحانه يعطى للقرآن صَوْلة الخاتم النهائى فى الإكمال البشرى ، فإنْ جاء حكم فى الكتب السابقة ثم نزل حكم آخر فى القرآن فلنأخذ بالحكم الأخير ؛ لأنه نسخ الأول لمصلحة يقتضيها العصر وطبيعة التكاليف التى تتدرج حسب حالات الأمم .

فكأن الحق سبحانه ميَّز رسوله ﷺ بميزة لم تتوفر لغيره من الرسل ، وهى أن الرسل السابقين كانوا يُبلِّغون ما يُوحَى إليهم لأممهم ، لكن الله أذن لرسوله أن يُبلِّغ عن الله وفوَّضه أنْ يُشرِّع لقومه ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

وهذه الآية ترد على الذين يقولون بأخْذ القرآن دون السنة ، هذه الفرْية القديمة الحديثة التى نسمع مَنْ ينادى بها من حين لآخر ، وهم لا يعلمون أن نصَّ القرآن يُلزمهم بالسنة واحترامها والأخذ بها ؛ لأنها مُوضِّحة للقرآن ، مُبيِّنة له ، شارحة لما أُجمل فيه ، وإلا فماذا يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] ؟

ولو قُلْتُ لك : هل فى دستورنا مادة تنصُّ على فَصْل الموظف الذى يتغيَّب عن عمله خمسة عشر يوماً ؟ لا توجد هذه المادة فى الدستور ، إنما هى قانون وضعه جماعة من المختصين المفوضين فى ذلك ، حيث يُؤلَّف للخادمين فى الحكومة والعاملين بها لجنة تضع لهم القوانين بالتفويض ، كذلك فُوِّض رسول الله من قِبَل ربه عز وجل فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وأنْ يُوضِّح لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر] الخبير : هو الذى يعلم خبايا كل الأشياء على حقيقتها ، والبصير : هو الذى لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فقد تعلم الشيء لكن لا تراه ، والحق سبحانه يجمع فى القرآن كثيراً بين الخبير البصير كما في هذه الآية[1] ، أو بين اللطيف الخبير[2] لأن الخبرة تحتاج إلى بصر وتحتاج إلى لُطْف . واللطيف كما قلنا هو الذى يتغلغل فى الأشياء ولا يمنعه مانع .

لذلك قلنا : إن أعنف الأشياء فَتْكاً هى الدقيقة اللطيفة التى لا تُرى بالعين المجردة ، وكنا (زمان) نسميها الميكروب ، والآن ظهر الڤيروس ، أظن أنه ألطف وأدقّ من الميكروب ، وأشدّ منه فَتْكاً .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالذى يبنى بيتاً مثلاً ، ويريد أن يحتاط للحيوانات والحشرات الضارة ، فيضع شبكة من الحديد مثلاً على الشبابيك ، لكن لا بُدَّ أن تتناسب هذه الشبكة مع دقَّة الشيء الذى تخاف منه ، فالذى يمنع الذئاب ، غير الذى يمنع الفئران ، غير

---

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى] .
وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء]
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء].
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

(٢) ورد اقتران اللطيف بالخبير فى القرآن خمس مرات :
- ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج] .
- ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان] .
- ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك] .

الذى يمنع الذباب والناموس .. الخ .

إذن : كلما دَقَّ الشىء عَنُفَ واحتاج إلى احتياط أكثر ؛ لأنه يتغلغل فى أضيق شىء وينفذ إليك دون أنْ تشعر به .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر] أن الله تعالى هو القادر وحده على أنْ يُشرِّع لعباده ما يناسبهم فى كل زمان ومكان ؛ لذلك تعددتْ الكتب السماوية لما اختلفتْ الداءات ، فلما التقى العالم واتصل جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

الكتاب هو القرآن ، إذن : هذا الميراث كان بعد سيدنا رسول الله ﷺ وهو دليل على أن المرحلة التى بعد رسول الله مرحلة ميراث للكتاب وللمنهج ، يرثه العلماء عن رسول الله ؛ لذلك جاء فى الحديث : « إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[(1)]

فالنبى ﷺ كان هو المبلِّغ والمعلِّم حال حياته ، أما بعد وفاته فقد وَكَل الله هذه المهمة إلى العلماء . ومعنى ﴿ أَوْرَثْنَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] يعنى :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٩٦) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٣) ، وأبو داود فى سننه (٣٦٤١) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

طلبنا منهم أنْ يفعلوا فيه فعْل الوارث فى المال ؛ لأن الوارث للمال يُوجِّهه وجهةَ النفع العام ، وهذه هى وجْهة الرسالة أيضاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة] فنحن ورثة محمد ، ومَنْ علم منَّا حكماً فعليه أنْ يبلغه . فالرسول شهيد على مَنْ بلَّغهم ، كذلك أمَته سيكونون شهداء على الناس الذين يُبلِّغونهم .

ومعنى ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] أى : اخترنا وفضَّلنا على سائر الأمة ، ثم يُقسِّم الحق سبحانه هؤلاء إلى ثلاثة أصناف : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ (٣٢) ﴾ [فاطر] ظلمها بالتقصير فى حَقِّ هذا الكتاب الذى ورثه ، فلم يعمل به كما ينبغى أنْ يعمل ، بل قد يرتكب كبيرة والعياذ بالله .

وهذا الصنف ظلم نفسه ؛ لأنه حرمها الثواب ، فكُلُّ تكليف يطلب منك العمل اليسير ويعطيك عليه الجزاء الوفير ، فحين تُقصِّر فى اليسير من العمل فإنك لا شكَّ ظالمٌ لنفسك .

﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ (٣٢) ﴾ [فاطر] يعنى : يعمل به فى بعض الأوقات ، فيخلط عملاً صالحاً بآخر سيء.

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣٢) ﴾ [فاطر]

اللهم اجعلنا منهم إنْ شاء الله ، وكلمة (سابق) تدل على أن هناك سباقاً ومنافسة : أىّ المتسابقين يصل أولاً إلى الغاية الموضوعة للسباق ، وأهل هذا الصنف يتسابقون فى الخيرات .

وقوله تعالى : ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] دلتْ على أن كلمة التوحيد لها ثمن ، والإيمان برسول الله له ثمن ، والعمل بما جاء به رسول الله له ثمن ، وإنْ كان من بين هؤلاء المصطفين مَنْ يظلم نفسه بالتقصير بل وارتكاب المعاصى ، وهو مع هذا كله من المصطفين ؛

لأنه قال لا إلـه إلا الله ، والحق سبحـانه لا يُسوِّى بين مَـنْ قال هذه الكلمــة ومَنْ جـحــدها « لا إله إلا الله حـصْـنى ، مَنْ قـالهـا دخل حصنى »(١)

لذلك ذكـر الحق سبحـانه لهؤلاء المـؤمنين الذين وَرِثوا الكتـاب وصفين : ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] فوصفهم بالاصطفاء ، والعبودية له سبحانه .

إذن : نزل الكتاب على محمد ﷺ وورثـتْ أمته الكتاب من بعده ، فهى امتداد لرسالته ؛ لذلك أَمِن الله هذه الأمة على أنْ تحمل منهج الله إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة ، فى حين لم يأْمَن غيرنا .

وقد تكفل الحق سـبحانه بحفظ هذا الكتـاب ، ولم يكِلْ حفظه إلى أحد كـما حدث فى الكتب السـابقة على القرآن ، كـما قال سبحـانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا (٤٤) ﴾ [المائدة] طُلب منهم أنْ يحفظوه ، لكنهم قصَّـروا فَنَسُوا بعض الآيات ، وحرَّفوا بـعضها ، وكـتَموا بعضــها ، بل ومنهم مَـنْ كـان يأتى بكلام مـن عنده ويقـول هـو من عند الله ، ولأن القرآن هو الكتاب الخاتم حفظه الله بنفسه ، ولم يأْمَن أحداً على حفظه .

فإنْ قُلْتَ : كيف يكون الظالمُ نفسَـه من المصطفين ، وهو مرتكب للذنوب وربما للكبائر؟ نقول : بمجرد أن يقول العبد أشهد ألا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله ، فـهو مُصْطفىً ، اصطفـاه الله على الكفار بهذه الكلمة ، وإنْ حدثت منه المعصية بعد ذلك .

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكرته موسوعة أطراف الحديث (٢/٨٢) ، تهذيب تاريخ دمشق .

والحق سبحانه وتعالى حين يذكر الذنب ويُجرِّمه ويضع له عقوبة، فهذا إذْنٌ بأنه سيقع ، فمثلاً جرَّم الله السرقة ووضع لها حَدّاً ، وجرَّم الزنا ووضع له حداً ، فكأن مثل هذه الأمور تحدث فى مجتمع المسلمين ، أما الكذب مثلاً فلم يضع له حَدّاً ولا عقوبة ، لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله لما سُئِل : أيزنى المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال : لا[1] .

فكأن المؤمن يُتوقَّع منه الزنا والسرقة ، ولا يُتوقَّع منه الكذب ، فهو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذب يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب ؛ لأنه ينطق بلا إله إلا الله ، فإنْ كان كذاباً ما يدرينى أنه صدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ؛ لذلك لم يجعل الله له عقوبة ؛ لأنه لا يُتصوَّر من المؤمن .

والمقتصد : هو الذى تساوتْ حسناته وسيئاته ، وخلط عملاً صالحاً بآخر سيء ، وفى موضع آخر يقول تعالى فى حق هذا الصنف : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

يقول النحاة : إن عسى تدل على الرجاء ، وأغلب الرجاء التوقّع واحتمال الحدوث ، على خلاف (ليت) التى وُضعت للتمنى ، والتمنى يكون لشىء بعيد أو مستحيل الحدوث ، فهى لمجرد إظهار المحبوبية للشىء المتمنَّى فقط ، ولا تدل على رجاء .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشـبابَ يَعُـود يَوْماً   فَـأخْبِـرهُ بِمَا فَـعَلَ المشـيبُ[1]

وسبق أنْ قُلنا : إن عسى وإنْ دَلَّتْ على رجـاء حدوث الفعل ، إلا أنها درجـات بعضـها أوثق من بعض ومـراتب ، فمثلاً إنْ كـان الرجاء فى بشر مثلك كـأن تقول : عسى فلان أنْ يعطينى . فـهذا رجاء على درجة معـينة من احتمال التـحقق ، فإنْ قُلْتَ عسى أن أعطيك بصـيغة المـتكلم ، فـهى أقـوى من الأولى وأوثق ، فـإنْ قُلْتَ : عـسى الله أنْ يعطيك فهى أوثق ؛ لأنه رجـاء فى الله ، فإنَّ قوله سبـحانه : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ (١٠٢)﴾ [التوبة] فعسى هنا للرجاء المحقق ، إذن : هذه من أرجى الآيات التى ينتظرها المقتصد المقصِّر فى حَقِّ ربه .

أما السـابق بالخيرات ، فهـو الذى يعمل بالأمر ويُتـمه ويأتى به على أكمل أوجه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

وتأمل مثـلاً قوله تعالى فى سـيدنا إبراهيم عليـه السلام : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة]

يعنى : أتمَّ ما أمـر به أولاً بالقدرة العادية ، ثم بالحـيلة والقدرة العقلية ، فلمـا أمره الله مثلاً بأنْ يرفع القـواعد من البيت : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (١٢٧)﴾ [البقرة] ماذا طلب منه ؟ وماذا فعل هو ؟

طلب منه أنْ يرفع قواعد البيـت ، وكان يكفى فى طاعة هذا الأمر

---

(١) أكثر المصادر على أن هذا الـبيت لأبى العتاهية ، نسبه له الجاحظ فى « البـيان والتبيين » (كتاب العـصا) . وكذلك أبو هلال العسكرى فى كـتابه « ديوان المعانى » فـصل الشباب والشيب ، وكذلك الراغب الأصفهانى فى « مـحاضرات الأدباء » ، ولكن عزاه الزوزنى لحاتم طىء فى « حماسة الظرفاء » باب الكبَر والشيب .

أنْ يبنى القواعد على قدر ما تطوله يده من الارتفاع ، لكنه زاد على ذلك واستخدم الحيلة العقلية ، فبعد أنْ وفَّى الأمر وأدَّاه أراد أنْ يزيد شيئاً من عنده ، وأن يحسن العمل فوق ما طُلبَ منه ، فكان يأتى بالحجر الضخم ويضعه كـ (السقالة) ، ويقفَ عليه ليرفع البناء بقدر ارتفاع الحجر ، وولده إسماعيل يناوله .

كذلك لما ابْتُلى فى شبابه بالإحراق صبر ووثق بالله ، فلما جاءه جبريل عليه السلام يعرض عليه المساعدة ، وهو الواسطة بينه وبين ربه أَبَى وقال : أما إليك فلا ، يعنى : أنت وَصلْتنى بالله فلم يَعُدْ بينى وبين ربى واسطة .

وهذه مسألة عجيبة ، ودرجة من الإيمان عالية ، وثقة بالله لا يتطرق إليها شك ولا ارتياب ؛ لذلك أنقذه الله وخرق له العادة ، وأبطل من أجله قانون النار والإحراق ، فقال سبحانه للنار ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وتأمل هذا الاحتياط من رب الأمر ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لذلك قال العلماء : لو أن الأمر كان للنار كُونى برداً (وفقط) لتحولتْ عليه برداً قاتلاً ربما أشد من النار .

ثم إن هذا الابتلاء وقع لإبراهيم عليه السلام فى نفسه وهو صغير والإنسان قبل أنْ يكون له ولد يكون كل حظه فى نفسه ، فإنْ رُزق الولد انتقل حظّه إلى ولده فيحبه أكثر من حُبه لنفسه ، ويتمنى أن يُعوِّض فى ولده ما لم يستطعه فى نفسه ، لذلك يقولون : إن الإنسان لا يحب أن يكون أحدٌ أفضل منه إلا ولده ، إذن : عصبية الإنسان فى حبه لولده أكثر من عصبيته لنفسه .

وسيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجح فى الابتلاء فى النفس ابتلاه الله فى الولد ، وتعلمون أن سيدنا إبراهيم رزقه الله بالولد على كِبَر وبعد يأس من الإنجاب ، فجاء إسماعيل على شوق من

إبراهيم حتى إذا شَبَّ الولد وبلغ مبلغ السعى مع أبيه يأتيه الأمر من السماء أنْ يذبحه ، وجاء هذا الأمر فى صورة رؤيا ، والرؤيا تحتمل التأويل ، لكن إبراهيم عليه السلام لم يؤولها ، وأخذها على الحقيقة .

وهذا الابتلاء فى الحقيقة ينطوى على ابتلاءات أربع : **الأول** : أن يذبح الولد الذى جاءه على كِبَر وبعد طول انتظار . **الثانى** : ألاّ يذبحه شخص آخر فيكون غريماً لإبراهيم عليه السلام . **الثالث** : أنْ يذبحه هو بيده . **الرابع** : أنْ يشرك ولده معه فى الابتلاء وألاَّ يأخذه على غِرَّة .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام لما هَمَّ بتنفيذ ما أُمرَ به لم يُردْ أنْ يأخذ ولده غِرَّة لعدْة أمور : **أولاً** : حتى لا يُتَّهم بالقسوة والغلظة . **ثانياً** : لكى لا تتغير خواطر الولد نحو والده فيتهمه بما لا يليق . **ثالثاً** : ليشركه ولده معه فى الابتلاء وفى الثواب ، وفى الرضا بقضاء الله ؛ لذلك قال له : ﴿ **يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فكأنه يأخذ رأيه فى الموضوع : ﴿ **قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقل مثلاً : افعل ما تريد ؛ فالأمر انصياع وخضوع لأمر الله : ﴿ **سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وهكذا اشترك الاثنان فى الرضا ، وفى الصبر ، وفى الجزاء وخطفَ إسماعيلُ الفوز فى الابتلاء فى آخر الشوط ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا** (١٠٣) ﴾ [الصافات] الولد وأبوه ﴿ **وَتَلَّهُ**[1] **لِلْجَبِينِ** (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : هَمَّ بذبحه ، أو كاد يفعل ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ** (١٠٤) **قَدْ صَدَّقْتَ**

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات] أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

وحين تتأمل هذه القصة تجد أن الحق سبحانه قابلَ هذه الابتلاءات الأربعة ، بعطاءات أربعة : أنقذ إسماعيل من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحاق . ومن وراء إسحاق يعقوب ، ثم جعلهم جميعاً من الأنبياء فضلاً من الله .

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ [فاطر] نعم ، الحق سبحانه يعاملنا بالفضل الكبير ، ويعطينا مُثُلاً ليُحبِّبنا فى الدين ، فالحسنة عنده بعشر أمثالها ، أو يزيدها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها .

ومَنْ غلبت حسناته سيئاته يُرْجَى له الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته حسناته فهو مُرْجأ لأمر الله ، إنْ شاء عذبه بعدله ومآله إلى الجنة، وإنْ شاء غفر له بفضله ، فإنْ بادر بالتوبة النصوح وأخلص بدَّل الله سيئاته حسنات .

حتى أن بعض الظرفاء يقول : ليتنى كنت من أهل الكبائر . وجاء فى دعاء العارفين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وعاملنا بالإحسان لا بالميزان ، وعاملنا بالجبر لا بالحساب .

يعاملنا ربنا بالفضل بدليل أنه أدخل الظالم لنفسه ، وأدخل المقتصد فى ساحة المصطفين من عباده .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه هذا الفضل الكبير فيقول :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) ﴾

تلحظ أن ﴿ جَنَّاتُ (٣٣) ﴾ [فاطر] جمع ، فهى جنات عِدَّة ، لا جنة واحدة ، وجنات (عدن) يعنى : إقامة دائمة لا تنتهى ، ووصف الجنّات هنا بالدوام لأن آدم عليه السلام سبق أنْ أُدخل الجنة ، لكن خرج منها ، أما جنة الآخرة فدائمة باقية لا يخرج منها مَنْ دخلها .

وقوله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣) ﴾ [فاطر] تلحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا التحلية والزينة قبل الضروريات ، وهذا يعنى أن الضروريات جاهزة مفروغ منها ، وهذه التحلية ستكون فى الآخرة من الذهب ومن الحرير ، وهى من المحرَّمات على الرجال فى الدنيا ، أما فى الآخرة فشىء آخر .

وكلمة (أساور) جمع أسورة وأسورة جمع سوار . مثل فؤاد وأفئدة ، فهى جمع للجمع ليدل على كثرتها ، وأنك ستُحلَّى إن شاء الله فى الجنة بأساور كثيرة تملأ الذراع من المعصم إلى العَضُد ، ومعلوم أن السوار هو ما يتحلى به المعصم وتلبسه النساء للزينة فى الدنيا ، كُلٌّ حسب إمكاناتها ، حتى أن بعض الغنيات يلبسْنَ أسورة عريضة فى العضد يسمونها (دُمْلُك) لفرط غناها .

وعجيب أن نرى بعض الرجال يتعجَّلون حلية الجنة ، لكن من غير طريقها ، فيلبسون الأساور ، وهو ما يُسمَّى الآن (الانسيال) .

وذكر الحق سبحانه أساور الذهب فى الحلية ؛ لأن الملوك قديماً كانوا يلبسونها ويتحلَّوْن بها ، وكان لكسرى سواران لهما قصة فى تاريخنا ، فلما أسلم سراقة بن مالك[1] ، وكان نحيلاً تشبه ذراعاه

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان ، صحابى ، كان فى الجاهلية قصاصاً للأثر ، أخرجه أبو سفيان ليقتص أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف عام ٨ هجرية ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . توفى عام ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

ذراعَىْ الماعز[1] ، وكان بعض الصحابة يسخرون منه ، فنهاهم عن ذلك سيدنا رسول الله ﷺ وقال قولة عرفوا معناها فيما بعد ، قال : « كيف بهما - يعنى ذراعى سراقة - فى سوارى كسرى ؟ ».

فلما فتح المسلمون بلاد فارس وغنموا قصور كسْرى وأمواله جاء السِّواران من نصيب سُراقة عند توزيع الغنائم ، فلما رآهما عمر فى يديه قال : صدق رسول الله ﷺ[2] .

وهذه الأساور ﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣) ﴾ [فاطر] الذهب معلوم أنه من الجبال ، واللؤلؤ من حلْية البحر .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى هنا : فلما تكلم عن الأساور جاء بجمع الجمع ليدل على الكثرة ، لكن لما تكلم عن الثياب قال ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) ﴾ [فاطر] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا ، لأنك لا تحتاج إلى العديد من الثياب إلا لتردَّ عن نفسك البرد أو الحر ، وليس فى الجنة شىء من هذا .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾

---

(١) ذكر أبو عبد الله الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى أخبار الأقطار » « أن سراقة كان رجلاً أزب كثير شعر الساعدين » أثناء ذكره هذا الخبر .

(٢) أخرجه أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٢٥) من حديث عمر بن الخطاب أنه أتى بفروة كسرى فوُضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يدى سراقة قال : الحمد لله سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم . قال الشافعى : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : كأنى بك قد لبست سوارى كسرى » .

هذا قَوْل المؤمنين ساعة يتمتعون بنعيم الجنة ، فهم لا ينسوْنَ المنعِمَ سبحانه ، فيحمدونه أولاً على أنْ شَرَعَ لهم المنهج الذى أوصلهم إلى هذا النعيم ، ويحمدونه على أنْ نجَّاهم وأنقذهم من الكفر وهداهم إلى الإيمان . إذن : هذا حمد مركب .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٣٤) ﴾ [فاطر] هى آخر ما يقوله المنعَّمون فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

ومن لُطف الله بعباده وعَطْفه عليهم يُعلِّمهم كيف يحمدونه سبحانه ، ويُعلِّمهم هذه الكلمة الموجزة المكوّنة من مبتدأ وخبر : الحمد لله ، ذلك لأن الناس مختلفون فى القدرة على الأداء البيانى والتعبير البليغ ، فواحد بليغ قادر على صياغة الأسلوب الجميل وتنميق العبارات ، وآخر لا يجيد شيئاً من هذا ؛ لذلك علَّمنا الله تعالى كيف نحمده بلفظ سهل ميسور يتساوى فيه الجميع .

لذلك جاء فى مناجاة رسول الله لربه : « .. لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »(١)

وقلنا : إن كلمة (الحمد لله) تستوجب سلسلةً لا تنتهى من الحمد ، فحين تقول على النعمة : الحمد لله . فهذه الكلمة فى ذاتها نعمة تستوجب الحمد ، وتستحق الحمد ، وهكذا يظل الحق سبحانه محموداً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

وقوله سبحانه ﴿ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ (٣٤) ﴾ [فاطر] هذه نعمة ثالثة

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

تستحق الحمد ، فالحمد أولاً على النعم ، وثانياً على أنك حمدتَ الله على نعمه ، وثالثاً تحمد الله الذى أذهب عنك الحزن ، والحَزَن كل ما يُحزنك أو يغمُّك ، أو هو استدامة الحزن فى الإنسان .

فالإنسان يسعد بالنعيم فى الدنيا ويُسَرُّ به ، لكن يُنغِّصه عليه مخافة زواله ، فيعيش مهموماً حزيناً ، يخاف أنْ تفوته النعمةُ أو يفوتها هو بالموت ، أما فى الآخرة فلا يفكر المرء فى شىء من هذا أبداً ، فقد ذهب هذا الفكر مع ذهاب الدنيا ، والجزاء فى الآخرة باقٍ دائم ، لا يفوتك ولا تفوته .

وقولهم : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾ [فاطر] كأنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير ، وأنهم ما أدَّوا حق الله كما ينبغى ، وأن ما هم فيه من النعيم ما هو إلا لأن ربهم غفور يتجاوز عن تقصيرهم ، وشكور يشكر لهم العمل الصالح بعد أنْ وفَّقهم له وأعانهم عليه .

ثم يذكر الحق سبحانه إقرارهم بما وهبهم الله من نعيم ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾

معنى : ﴿ أَحَلَّنَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أدخلنا وجعلها محلاً لنا ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : الإقامة الدائمة والمراد الجنة ، فالجنة دار إقامة دائمة . أما الدنيا فما هى إلا معبر إلى الآخرة ، ولا تُسمَّى دار إقامة . وهذه الجنة جعلها الله محلاً لهم ليس بأعمالهم ، إنما بفضل من الله وتكرُّم ، حتى إنْ كان لك عمل صالح فهو راجع إلى تشريع الله لك . إذن : كله يعود إلى فضل الله.

وقولهم : ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : فى الجنة ﴿ نَصَبٌ

﴿ ٣٥ ﴾ [فاطر] أى : تعب ومشقة ﴿وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر] يعنى : إعياء وفتور نتيجة التعب من حركات الأجهزة . والإنسان منَّا فى سعيه فى الدنيا يتعرض لكثير من المشاق ، حتى أننا نقول يضرب فى الأرض يعنى : يسعى فكأنها عملية مرهقة شاقة يعود الإنسان منها مُتْعباً مُنْهكاً ، هذا هو اللُّغُوب إلى أنْ ترتاح منه وتستجم ، وتعود لك قوتك ونشاطك للعمل من جديد .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق]

وقال بعضهم : النَّصَب : تعب الجوارح . واللغوب : تعب الصدور ، ويُراد به الهم الذى يشغل بال الإنسان .

وهذا المعنى قال فيه شوقى رحمه الله :

لَيسَ بِحِمْلٍ مَا أطَاقَ الظهْرُ ... مَا الحملُ الاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

والإمام على رضى الله عنه لما سُئِلَ عن أشدِّ جنود الله فى الأرض ، قال : الهَمّ . فإنْ تسلط على إنسان أقلقه وأقضَّ مضجعه ؛ لذلك قالوا : والهمّ يغلب النوم ، فكان أشد منه[1] ، وما يزال الهم بالإنسان حتى يصير نحيلاً بعد البدانة ، كما قال المتنبى:[2]

---

(١) ذكره أبو على القالى فى ذيل الأمالى والنوادر (١٩٣/٣) أن على بن أبى طالب قال : أشد جنود ربك عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد خلق الله عز وجل الهمُّ .

(٢) المتنبى هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكندى ، أبو الطيب ، ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ شاعر حكيم ، نسب إلى كندة بالكوفة ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً ، وتنبأ فى بادية السماوة لذلك سمى بالمتنبى ولكنه تاب ورجع عن دعواه ، مدح كافور الإخشيدى بمصر ثم هجاه ، ومدح عضد الدولة بن بويه فى شيراز ، توفى قتيلاً عام ٣٥٤ هـ .

والهَمُّ يغتنم[1] الجَسيمَ نَحَافَةً ويُشيبُ نَاصيةَ الصَّبىِّ ويُهرِمُ

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان المصطفين من عباده ، وعن جزائهم فى جنات عدن لتستبشر النفس ، وتتفتح إلى بشارات الأتقياء يذكر سبحانه ما يقابل ذلك من نذارات الأغبياء ، وذكْر المقابل يزيد المعنى وضوحاً ، وهو سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

اللام فى ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦) ﴾ [فاطر] تفيد الملكية والاختصاص ، كما نقول : فلان له كذا وكذا ، فكأنهم يتعلَّقون بها ، وهى تتعلق بهم تعلُّق المالك بالمملوك ، وساعةَ يدخلونها والعياذ بالله يودُّون الخلاص منها ولو بالموت ، على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بكَ داءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمانيا[2]

---

(١) الصواب : (والهم يخترم) كما فى ديوان المتنبى : وهو من قصيدة له من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

(٢) هذا البيت للمتنبى أيضاً وهو مطلع قصيدة له فى ديوانه ، وهى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٤٧ بيتاً .

نعم : يتمنَّوْنَ الخلاص ولو بالموت ، لكن هيهات لهم ذلك ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف] فالموت ليس عذاباً ، بل هو بالنسبة لهم راحة من عذاب أشدّ وأبْقى .

وأذكر أن بعض المستشارين ادعى أن كتاب الله ليس فيه دليل على رَجْم الزانية المحصنة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى فى الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء]

على اعتبار أن الرجم لا يتجزأ ليكون فيه نصف رجم ، وما دام الرجم لا يتجزأ فلا رجمَ إذن . فربنا سبحانه وتعالى ألهم وقلنا والحمد لله : علينا أن نحدد أولاً ما العذاب ؟ العذاب : إيلام حَيٍّ ، وإذا ما جمعنا آيات القرآن فى الموضوع بعضها إلى بعض ، وَضُحَتْ لنا الصورة وظهر المعنى ، فالله يقول فى قصة هدهد سليمان عليه السلام : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴿٢١﴾﴾ [النمل] إذن : الموت أو الذبح أو القتل ليس عذاباً . والرجم إماتة ، والإماتة إنهاء للعذاب .

والحق سبحانه وتعالى حين قال هذا النص شاء الله سبحانه أن يجعل لنبيه ﷺ بياناً بهذا النص ، وفَرْق بين حكم تأخذه بالنص ، وحكم تأخذه بالتطبيق الفعلى من المشرِّع ﷺ ؛ لأن النص يمكن لك أنْ تؤوله ، أما التطبيق الفعلى من رسول الله فلا تأويلَ فيه ، وقد ثبت أن رسول الله رجم بالفعل .

ولو كان الأمر كما يدَّعى المستشار لكانت الآية : فعليهن نصف ما على المحصنات دون أنْ تذكر العذاب ، فقوله تعالى : ﴿مِنَ الْعَذَابِ ﴿٢٥﴾﴾[النساء] يعنى : لا من غيره ، فهو بيان للنصف ، نصف العذاب ، والرجم ليس عذاباً ، بل إنهاء للعذاب .

ثم يخبر سبحانه عن حال أهل النار ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا (٣٦)﴾ [فاطر] أى : أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر ، فالإنسان مثلاً فى الدنيا قد يُبْتلى - والعياذ بالله - بأنْ يُعتقل ويُضرب مثلاً ليُقرَّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أطرش) يعنى : لا يشعر بالألم لكثرة الضرب ؛ لذلك مثل هؤلاء يُضرب جَلْدة ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشيء ، ويصدق فيه قول الشاعر :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لجُرْحٍ ميِّتٍ إيلامُ [1]

أو قَوْل الآخر :

وكنتُ إذَا أصَابَتْنى سِهَامٌ ... تَكسَّرَت النِّصَالُ على النِّصَالِ [2]

إذن : عذاب الدنيا قد يُخفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهى فقدان الإحساس بالعذاب حين يفقد الجلد اتصاله بالمخ ، أما عذاب الآخرة فلا يُخفَّف عنهم مهما طال بهم ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦)﴾ [النساء]

---

(١) هذا البيت للمتنبى أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها :

لا افتخَارٌ إلاَّ لمَنْ لاَ يُضامُ ... مُدْرِك أوْ مُحاربٍ لاَ ينَامُ

وهى فى ديوانه من بَحر الخفيف ، عدد أبياتها ٤٣ بيتاً .

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف فى صدره واتحاد العجز :

- إبراهيم الطباطبائى : فصار إذا أصابته سهام
- أحمد الغروى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- المتنبى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- جرمانوس فرحات : فصرت إذا أصابتنى سهام
- حفنى ناصف : ولاقت مثلها الصعدات حتى
- عبد الرحمن الموصلى : وصار إذا أصابته سهام

فهو للمتنبى أيضاً من قصيدة له فى ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾

معنى ﴿ يَصْطَرِخُونَ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : يصرخون ويصيحون مستغيثين طالبين للنجدة . والصراخ : استنجاد بمَنْ يخلصك من شدة أو ضائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق لا قدَّر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة .

وهؤلاء يصطرخون﴿ فِيهَا (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : فى النار يقولون فى صراخهم ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر] أولاً : عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التى أنكروها فى الدنيا ، وكفروا بها ، الآن ينطقونها ، لكن بعد فوات أوانها . ثم أقرُّوا على أنفسهم بأن عملهم فى الدنيا لم يكُنْ صالحاً ، وهذه حيثية تُحسب عليهم لا لهم ، وتزيد من عذابهم لا تُخففه عنهم .

ثم لو أجابهم الله - وهيهاتَ لهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

إذن : هذا مجرد كلام حين الضائقة ، ولو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه ؛ لذلك يرد الله عليهم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧) ﴾ [فاطر] يعنى : مددنا لكم العمر فى الدنيا بما يكفى للتذكُّر وللاعتبار لمَنْ أراد أنْ يتذكر أو يعتبر .

﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (٣٧) ﴾ [فاطر] الرسول الذى ينذركم ويحذركم من

عاقبة أفعالكم ، ومع ذلك لم تعودوا إلى الجادة ، ولم تراجعوا أنفسكم إلى أن فات الأوان .

﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : ذوقوا العذاب ، ومعنى ﴿ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : مُعين . والنصير هو الذى يدفع عنك بقوة ، ويدخل معك المعركة ، وفى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ [الشورى] والولى : هو القريب الذى يدفع عنك برجاء واستمالة وتحنين ، وهؤلاء لا لهم ولىٌّ ، ولا لهم نصير فى هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) ﴾

جاءت هذه الآية كتعليل لما قبلها ، فالحق سبحانه يعلم كل ما غاب فى السموات وفى الأرض ، ويعلم خفايا الصدور ومكنوناتها ونواياها وما يعلق بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار ، وعلم أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لَعادوا لما كانوا عليه ، فهذه تجربة لن تتكرر ؛ لذلك أنهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾

معنى : ﴿ خَلَائِفَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] خلفاء : يخلف بعضكم بعضاً . وفى آية أخرى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : خليفة لله فى أرضه ؛ لذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه ، لنباشر بها مهمتنا فى الأرض ، فإنْ وجدتَ فينا قدرة على العمل فهى من قدرة الله، وإنْ وجدت فى تصرفاتنا حكمة فهى فيض من حكمة الله ، وإنْ وجدت فينا عزة فهى من عزة الله .. الخ .

هذا هو معنى الخلافة ؛ لأن الإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كلَّ ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه ، ليس ذاتياً فيه .

وسبق أنْ قلنا مثلاً : إنك لمجرد إرادتك أنْ تقوم من مكانك تجد نفسك قد قُمْت دون أنْ تعرف ماذا حدث فى أعضائك وعضلاتك ، وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أنْ تتحرك ، هذه فى الحقيقة صفة من صفات الخالق سبحانه وهبك شيئاً منها ، بدليل أنه سبحانه إنْ سلبك هذه القوة لا تستطيع القيام ، وقد سلبها بالفعل من غيرك ليبين لك أن قوتك ليست ذاتية فيك ، فلا تغترَّ بها .

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر فى صناعة (الأوناش والبلدوزرات) فترى الحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة ، وتحتاج إلى أنْ يضغط السائق على زرٍّ معين لهذه الحركة ، أما أنت فلا تحتاج فى حركة أعضائك إلى شىء من هذا .

فبمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعضلاتك ، وتؤدى لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشىء ، فإذا كنتَ أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أنْ تأمر عضواً من أعضائك ، ولا عضلة من عضلات جسمك ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

أتنكر أنه سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ؟ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

أنت حينما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيَّها تأمر ، فالأعضاء والعضلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدرى أنت ما يدور بداخلك لتؤدى هذه الحركة ؛ لذلك سوَّاك الخالق سبحانه على صورة تنفعل لك أعضاؤك بمجرد إرادتك ، أما الخالق سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها : كُنْ . لأنه سبحانه يعلم الآلة التى تتحرك .

وأيضاً الخالق سبحانه لم يترك لك أمراً على جوارحك ، إنما ذلَّلها لك وطوَّعها لإرادتك ؛ لأنك لا تضمن إنْ أمرتها أنْ تطيعك وتستجيب لك ، أمّا الخالق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته ، بدليل أن الإنسان حين يُسْلَب القدرة على الحركة ، أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أنْ يحرك أصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يستدعى الخليفة إلى الوجود خلق له قبل أن يخلقه ، وضمن له قُوتَه ومُقومات حياته وضرورياتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للعقول أن تعمل ، وأن تستنبط من الضروريات ما يُترف الحياة ويثريها .

إذن : أنت أيها الخليفة لله فى الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بالطاعة والانقياد ، فإنْ كفرتَ بعد ذلك ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] كفرت يعنى لم تُطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعنى الستر ، وكفر بالله يعنى : ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكافر بكفره ؛ لذلك قلنا : إن الكفر أول دليل على الإيمان ، فلولا وجود الله ما كان الكفر .

وكما أن هناك كفراً بالله الذى استخلفك ، هناك كفر بما اسْتُخلفْتَ فيه ، كُفْر بالنعمة بأنْ تنسى واهبها لك والمنعِم عليك بها ، ومن كفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ، وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفْر النعمة أيضاً ألاَّ تؤدى حقَّ الله فيها ، وأنْ تسترها عن مُستحقها المحتاج إليها .

وما يعانيه العالم الآن من أزمات فى القوت ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ، وإما نستنبطها لكن تشح بها نفوسنا وتبخل ، بدليل أننا عِشْنا فترة طويلة فى الوادى الضيق ، ولم نحاول استنباط خيرات الصحراء ، فلما تنبهنا إلى ضرورة غزو الصحراء وتعميرها أصابنا هوس الاستنباط ، فزرعنا الترف ولم نزرع الضروريات فتجد السوق عندنا مليئاً بالبرتقال والموز والعنب والكنتالوب والفراولة .. الخ ونحن (نشحت) رغيف العيش ، ونستجدى غيرنا ضروريات حياتنا .

إذن : الجزاء هنا من جنس العمل ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] أى : يُجزى به ، فالذى كفر بالمنعِم له جزاؤه ، وجزاؤه العذاب فى الآخرة ، والذى كفر بالنعمة له جزاؤه ، وجزاؤه أنْ يموت جوعاً وأنْ يُذلَّ لغيره ، وإنْ ذُلَّ لغيره فلن ينفذ أمراً ولا نهياً ، ولن يهتم بدين ولا بمنهج .

ورحم الله أجدادنا الذين قالوا : (اللى لقمته من فاسه كلمته من راسه) .

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً عاقبة الكفر ﴿ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] نعم ، الكفر يُزيد صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل ؛ لأنك كفرت بمَنْ ؟ كفرتَ بالله ربك وخالقك ورازقك وواهبك النِّعَم ، وكل كفر بشىء من هذا يستوجب لك كراهية وبُغْضاً من الله ، وهذا البغض يزيد بالاستمرار فى الكفر والتصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ خَسَارًا (٣٩) ﴾ [فاطر] وأىُّ خسارة بعد الكفر بالله ، الخسارة هنا كبيرة ؛ لأنها هلاك وخسران لخيرَىْ الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ﴾

الخطاب فى (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى أخبرونى عنهم ، وليست مجرد استفهام عن الرؤية كما لو قُلْتُ لك : أرأيتَ فلاناً أمس ؟ تقول : نعم أو لا ، أما هنا فالمراد الإخبار عن الحال وطلب منهم هم أنْ يخبروا عن حال شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حكَماً فى هذه المسألة .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى : أخبرونى إنْ كانوا هم انفردوا بالخَلْق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَـٰوَاتِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى : شاركونى الخَلْق وكانت أيديهم بيدى يخلقون معى ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ (٤٠) ﴾ [فاطر] كتاباً يبيح لهم الشرك ، ويكون حُجَّة لهم فى شركهم .

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فالحق سبحانه لا ينفى مشاركتهم له سبحانه فى الخلق فحسب ، إنما ينفى مجرد مشاهدتهم لهذه المسألة ، فليس لهم علْم بالخَلْق ولا صلةَ لهم به ، ولا يستطيعون أنْ يخبروا كيف خُلقت السمواتُ والأرض ، ولا كيف خُلقوا هم أنفسهم .

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وهى إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للحكم بعدها ﴿ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وإنْ هنا بمعنى ما النافية ، يعنى : ما يَعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ، والغرور هو الخداع الذى يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق ؛ ليجذب الناس إليه ، ويزخرفه لهم ليغرَّهم به .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار] يعنى : ما أغراك بمعصيته ؟ وما شجَّعك على عصيان أوامره ؟ وكأن الحق سبحانه يُعلِّمنا الرد بقوله تعالى (الكريم) فالذى غرَّنا بالله كرمه وفضله .

فالمعنى : بل كل هذا باطل ، فشركاؤهم ما خلقوا شيئاً ، وما شاركوا فى خَلْق شىء ، ولا آتيناهم كتاباً يكون حُجَّة لهم ، كل هذا خداع منهم وزخرفة ، والحقيقة أنهم يَغُرُّ بعضُهم بعضاً ، ويخدع بعضهم بعضاً بهذه الأباطيل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

نَعَم ، الله وحده هو الذى يُمسك السموات أنْ تقع على الأرض ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعنى : تتحرك من أماكنها ، وتسقط وتتهدم ، ولو تركها الخالق سبحانه ما استطاع أحد أنْ يُمسكهما ﴿ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] أى : سواه ، وهذه المسألة لله وحده ، ليس له فيها شريك ولا معارض ، وهى من صميم ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ، لأنه سبحانه خلق السموات بغير عَمَد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان]

وأرنى غير الله يستطيع أنْ يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير عَمَد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشرى بناء كوبرى مثلاً يمتد لعدة مترات بدون دعائم فى وسطه ، مع أنهم يستعيضون عن ذلك بدعائم أقوى فى أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها الكبارى المعلَّقة ، فأين هذا من رفع السماء ؟ والسماء كما قلنا : هى كلُّ ما علاك ، فالله يمسك السماء بما فيها من نجوم وأقمار وكواكب ومجرات ، ويمسك الأرض أنْ تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم .

ولما تكلم العلماء فى هذه المسألة قالوا : إنها الجاذبية التى تمسك الأشياء ، لكن إنْ كانت الجاذبية للأرض ، فلماذا لم تجذب النجوم مثلاً ، وهى بين السماء والأرض ؟

إذن : المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل مخلوق فى السموات والأرض ما يحفظ توازنه ويمسكه أنْ يقع .

و(إنْ) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] يعنى ما يمسكهما ، فهى بمعنى أداة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة]

وتُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر] ولك أنْ تسأل : ما علاقة هاتين الصفتين لله تعالى الحليم والغفور بمسألة إمساك السموات والأرض ، وهى مسألة كونية ؟

قالوا : لأن هذه المسألة يكثر حولها الجدال ، وكثيراً ما يتعدى الإنسانُ حدوده فيها ، فيسأل عمّا لا ينبغى له الخوض فيه ، وعن كيفية إمساك السموات والأرض ، وهو يمشى فى أنحاء الأرض ، ويركب الطائرة فى جَوِّ السماء ، فلا يرى شيئاً ، ولا يرى أعمدة .

وهذه مسألة لا دخلَ لنا فيها ، ويكفى أن الخالق عز وجل أخبرنا عنها بقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان] أى : لا يوجد لها عُمد بالفعل ، أو لها عمد ، لكن لا ترونها ويصح المعنيان ، وعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ .

فالحق سبحانه حليم لا يعاقب المتجرئين عليه ، الخائضين فى حقه ، بل إن المنكرين لوجوده سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ولولا حِلْمه تعالى كان (دربكها) على رؤوسهم .

وقد ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كِسفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا ربِّ ائذن لى أنْ أسقط على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخَلْقِى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم .. »[1]

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

إذن : لولا حلْم الله علينا ومغفرته لذنوبنا ما أمسك السموات والأرض ، ولتهدَّم هذا الكون على مَنْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : اجتهدوا فى القَسَم والحلف بأغلظ الأيمان ﴿ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ (٤٢) ﴾ [فاطر] رسول ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ (٤٢) ﴾ [فاطر] أشد هداية ﴿ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : أهْدى من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة .

والحق سبحانه يُوضِّح لنا هذا المعنى فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات]

وهذا كله قولهم بأفواههم ، ويعلم الله أنهم كاذبون ، لكنه سبحانه يُرخى لهم العنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم : دَعْكم من الأوَّلين ، وها هو الذكر الذى طلبتم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾ [فاطر] يعنى : إعراضاً وتباعداً عن الحق وعن الهداية ، لماذا ؟ لأن الذكْر الذى جاءهم جاء على يد محمد ، ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لَقَبلوه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف] فيرد

الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

عجيب منهم أنْ يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واختيار رسول الله كما يحبون ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

كيف والله قد قسم بينهم أبسط أمور حياتهم فى الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً .

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبارَ عليه ، وأنهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، وأنه كهانة ، وأنه شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غُبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على محمد بالذات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عِلَّة نفورهم ، فيقول :

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يقبلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء ليُنزلهم من عالى السيادة إلى العبودية المقترحة المستطرقة بين كل الخَلْق ، وهم ألفوا السيادة وتشقّ عليهم المساواة ، وأن يكونوا هم وعبيدهم كأسنان المشط .

وكأن الحق سبحانه يرد عليهم : يا مَنْ تستكبرون عن قبول الحق بما لكم من السيادة ، أَمَا كان يليق بكم أنْ (تخزوا) على

عرضكم ، وتسألوا أنفسكم : منْ أين لكم هذه السيادة ؟

بالله ، لو أن الله تعالى مكَّن أبرهة من هدم الكعبة فى حادثة الفيل ، وانصرف الناس إلى كعبة أخرى فى صنعاء ، أكانت لكم سيادة ؟ أكانت لكم مهابة أو ذكْر بين الناس ؟ إذن : كان عليكم أنْ تُعملوا عقولكم ، وأن تتأملوا هذه المهابة من أين ، وهذه الأرزاق التى تُسَاق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تُحرِّمون على الناس أنْ يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب .

واقرأوا قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يجيب الحق سبحانه فى السورة بعدها : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعنى : ما فعلتُ هذا بأصحاب الفيل إلا من أجل قريش ، واستبقاء سيادتها ، وتوفير القوت والأمن لها ، لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجى وصادموا رسولى ، وعاندوه وكادوا له .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [فاطر] أى : برسول الله ، وبمَنْ آمن معه ليردُّوهم عن دينهم ، ولو علموا حيثية استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمَنْ جعلهم كبراء .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له ، وتآمروا عليه ، وآذوا المؤمنين به وعذَّبوهم ، لكن جعل الله كيدهم فى نحورهم ، كما

قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] أي : يسجنوك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل ألوان الاحتيال ، فلم يُفلحوا ، حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيَّبَ الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بينهم وهم نيام ، وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم لما يئسوا من القضاء عليه بالحيلة لجئوا إلى الجن ، واستعانوا بهم ليسحروا رسول الله ، لكن نجَّاه الله منهم ، ثم حاولوا دسَّ السُّم في طعامه ﷺ .

وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا جهودكم ، فلن تُطفئوا نور الله، ولن تصدوا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسخرية ، ولا بالإيذاء والمكر والتبييت ، ولا حتى بالسحر .

ومعنى : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] يعني : ينزل بهم ويحيط بهم ، وينقلب عليهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ (٤٣) ﴾ [فاطر] يعني : فما ينظرون إلا سنت الأولين في الرسل السابقين ، والسنة هي الطريقة والعادة المتبعة والموجودة ، فهل وجدوا في الرسل السابقين وفي الأمم السابقة أن الله أرسل رسولاً ثم خذله ، أو تخلَّى عنه ، ولم يهلك أعداءه والمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سُنة متبعة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) ﴾ [فاطر] لماذا لا تتبدَّل سنة الله ولا تتحوَّل ؟ لأن الله تعالى أولاً ليس عنده بِدَاء ، ومعنى البِدَاء أنْ تفعل شيئاً ثم يَعِنّ لك أنْ تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد ، لا ثاني له ، ولا شريك له ، فلا أحدَ يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾

الاستفهام في ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَينظُرُوا.. (٤٤)﴾ [فاطر] استفهام يفيد التعجُّب ، يعني : كيف يكون منهم هذا ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ (٤٤)﴾ [فاطر] أي من المكذِّبين الذين أخذهم الله ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (٤٤)﴾ [فاطر]

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

نعم ، كانوا في حركة حياتهم وفي أسفارهم يمرُّون على قُرى عَاد وثمود ، وقوم لوط وقوم صالح .. الخ وكانوا يرونْ آثارهم ومـا حَاق بهم من الدمار والخراب بعد أنْ كذَّبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارة وقصور لا مثيل لها .

كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحضارات التى جابت سمعتُها الآفاق لم يستطيعوا أن يضعوا لحضاراتهم ما يصونها من الاندثار .

ولنا ملحظ فى قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر]

فمنذ عهد قريب كنا نعتقد أن السير فى الأرض يعنى على الأرض ؛ لأننا نسير عليها لا فيها ، إلى أن اكتشفنا أن الأرض فيها الأقوات ، وسيد الأقوات الهواء ، بدليل أنك تصبر على الماء لعدة أيام ، وتصبر أكثر منها على الطعام ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق أو زفير ، لو حُبس عنك لفارقتَ الحياة .

وعرفنا أن هواء الأرض من الأرض ؛ لذلك يدور معها ويرتبط بها إذن : نحن بهذا المعنى لا نسير على الأرض ، إنما نسير فيها ، حتى الذى يحلق بالطائرة فى طبقات الجو العليا أيضاً يسير فى الأرض ؛ لأن الهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً .

وليتأكد لك أن الهواء سيد الأقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضَعْ فيه تربة زراعية بوزن معين ، وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زِنْ الثمار التى أخذتها من الشجرة وزِن ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة نقصتْ بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الخمسة والتسعين فمن الهواء .

فكأن الهواء هو المغذِّى الأساسى للنبات ؛ لذلك نقول : إنه الأصل فى القوت ، على خلاف ما كنا نعتقده من أن التربة هى الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا[1] التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم (٦٦) ﴾ [المائدة] فذكر الفوقية قبل التحتية .

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا.. (٤٤) ﴾ [فاطر] يريد من الكفار أنْ ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامنا ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشَاهَد ، فقال ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا (٤٤) ﴾ [فاطر] لأنهم ساروا بالفعل ؛ لِذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ؛ لأنهم كانوا أمة لها تجارة فى الصيف إلى الشمال ، وفى الشتاء إلى الجنوب .

وفى هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار مَنْ سبقهم ، فهل رأوا فى السابقين رسولاً هُزِم من المكذبين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الذين أخذهم الله كانوا أشدَّ منهم قوةً ، لكنها قوة البشر مهما بلغتْ من التقدم ماذا تفعل أمام قوة الله ، فلا تنظر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة مَنْ أرسله ، ومَنْ تكفَّل بحفظه ونصرته .

إذن : هذه معركة ليست بين خَلْق وخَلْق ، إنما بين خَلْق معاندين للخالق سبحانه ، فهل تُعجِزون الله ؟ لذلك ينفى الحق سبحانه أنْ

---

(١) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الذين لا يريدون أن يفهموا يطعنون فى القرآن بأنه يتناقض مع نفسه ، فمن جهة يرمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالكفر ، ومن جهة أخرى يطالبهم أن يقيموا التوراة والإنجيل ويطالبهم بالرجوع إليهما كما فى هذه الآية . إنهم يتجاهلون أن الذى أنزل القرآن هو الذى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، والإسلام يعترف بالأديان قبله ، فهناك تواصل ، فلماذا يقفون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيمن عليها حاكم على ما فيها ، فلو أقاموا التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى لا ما اخترعوه هم وأضافوه لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن . فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

يكونوا معجزين ، وينفى أن يكونوا معاجزين ، وفَرْق بين الاثنين : معجز إنْ أعجزه ولو مرة يعنى : أتى بما يعجزه ، إنما مُعاجز فيها مشاركة ومفاعلة ، كأن الإعجاز كان بينهما سِجَال ، وفيه أَخْذ ورَدٌّ .

فكأن الحق سبحانه يُملى لهم ويمهلهم ، فيجعل لهم الغَلَبة فى بعض الجَوْلات ليستنفد كل أنواع الحيل ، ويستنفد كل قُواهم ، إذن : مهما كانت قوتكم ، ومهما استعنتُم وتقوَّيتم بحضارات أخرى فلن تُعجزوا الله ؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شىء ، وليس له سبحانه شريك أو مقابل يساعدكم ، فهو إله واحد يساعد المؤمنين به وينصرهم ، وأنتم لا ناصرَ لكم ، والحق سبحانه أهلك المكذِّبين قبلكم ، وكانوا أشد منكم قوةً ، والذى يقدر على الأشدِّ أقدر من باب أَوْلَىَ على الأضعف .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد أنْ يؤكد أمراً واقعياً من الممكن أنْ يأتى به فى صورة الخبر ، فيقول : لقد ساروا فى الأرض ، ورأوا كذا وكذا ، لكن عدل عن الخبر هنا إلى الاستفهام ، يعنى : اسألوهم أساروا أم لم يسيروا ؟

والحق سبحانه لا يسأل هذا السؤال إلا وهو واثق أنهم سيقولون سِرْنا ، وهذا يؤكد الكلام ؛ لأنه إقرار من المخاطب نفسه ، كما أن الاستفهام بالنفى أقوى فى تقرُّر المخاطب من الاستفهام بالإثبات .

ومسألة السير فى الأرض أخذتْ حظاً واسعاً من القرآن الكريم ؛ لأن الله تعالى يريد من الناس أنْ ينظروا إلى الآيات الكونية ، وأنْ يتأملوا فى الكون ليقفوا على أسراره ، وعلى دلائل القدرة فيه ؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه مرّة بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩) ﴾[النمل] ومرة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا (١١) ﴾ [الأنعام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا : السير فى الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى : ﴿فَانظُرُوا ۝٦٩﴾ [النمل] للسير المراد منه الاعتبار والتأمل فى آيات الله ، وفى هندسة الكون العجيبة التى تدلُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ثُمَّ انظُرُوا ۝١١﴾ [الأنعام] فهى للسير الذى يُرَاد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق ، فحتى إنْ سِرْتَ فى أنحاء الأرض طلباً للرزق وللاستثمار لا تنْسَ ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا تحرم نفسك من النظر فى الآيات وفى مُلْك الله الواسع ، خاصة إذا اختلفتْ البيئات .

فالبيئة الصحراوية البدوية كبادية الحجاز مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للون الأخضر ، وفى إندونيسيا مثلاً ذهبنا إلى أماكن تكسوها الخضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض خالية من النبات ، وفى كل من هاتين البيئتين خيراتها وما يُميِّزها عن الأخرى ؛ لذلك قالوا فى المثل : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ۝٤٤﴾ [فاطر]

سبق أنْ تكلَّمنا فى معنى يُعجزه ، الآية هنا لا تنفى أن شيئاً فى السموات أو فى الأرض يُعجِز الحق سبحانه ، إنما تنفى مجرد أنْ يكون هذا أو يُتصوَّر ، فهذا أمر لا يُتصور ولا يكون أصلاً .

وقوله : ﴿مِن شَيْءٍ ۝٤٤﴾ [فاطر] من هنا تنصُّ على العموم يعنى :

من بداية مـا يقال له شيء كـما تقـول : ما عندى مـال ، فيـجوز أنْ يكون لديك مال ، لكن قليل لا يُعْتَدُّ به ، فإنْ قلتَ : ما عندى من مال فقـد نفيتَ وجود كل مـا يُقال له مـال ، مهمـا كان قليلاً ولو قـرشاً واحداً .

وقوله تـعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾ [فاطر] يُبـيِّن علة أنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، فـالله تعالى عليم بعلم محيط لا يعزب عنه شيء ، فإن بيَّتوا شيئاً علمه الله وعلم مكانه ، ثم هو سبحانه قدير ، عالم بقـدرة ، وهذان هما عُنْصـرا الغَلَبة العلم والقـدرة ، تعلم الشيء وتقدر أنْ تردَّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا (٤٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى رحـيم يُوالى نعمه حتى على الكافرين به ، والعاصين لأوامره ، ولو أن الله تعالى آخذهم بظلمهم - وظلمهم كثير - ما ترك أحداً منهم ، فلماذا يعاملنا الله هذه المعاملة ؟ ولماذا يمهلنا هذا الإمـهال ؟ قـالوا : لأنه تعالى ربنـا وخالقنا ، ويعلم أن الإنسـان ضعيف أمام شهوات نفسـه ، ضعيف أمام هواه وأمام شيطانه ؛ لذلك سبق حلْمُه غضَبه ، وسبق عفوُه مؤاخذته ، وقال سبحانه ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى]

وورد فى الأثر أن الحق سبـحانه يخاطبنا بقـوله تعالى : « .. لو

لم تذنبوا لخلقتُ خلقاً غيركم يذنبون ، فيستغفرون فأغفر لهم »[1] وإلاَّ فكيف يُوصَف الحق سبحانه بأنه توَّاب غفَّار ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنفسه سبحانه كل صفات الكمال ، وأولها الوجود الواجب ، ثم الحياة ، وكل الصفات تابعة لهاتين الصفتين .

وهذه الصفات لله تعالى يمكن أنْ تقسم إلى قسمين : قسم له مقابل : وهى صفات الفعْل من الله تعالى ، مثل : المحيى يقابلها المميت ، والمعز يقابلها المذل ، وقسم ليس له مقابل وهى صفات الذات مثل : الحى العزيز القهار الحليم ، فهى صفات لا نقيضَ لها .

والحق سبحانه لا يُؤاخذ الناسَ بما كسبوا . أى : من التعدى والظلم ؛ لأن الله خلق الإنسان ، وخلق له شهوات وغرائزَ ، وكل أمور الدين جاءت لتُعلى هذه الشهوات ، وتسمو بهذه الغرائز ، لا لتمحوها ، جاءت لتهذبهاَ لا لتقضى عليها ، وإلا لو أن الحق سبحانه أراد ألاَّ تحدث هذه التعديات وهذا الظلم ما جعل الغرائز أصلاً .

فمثلاً غريزة الجنس خلقها الله لعمارة الكون ، ويريد الله من الإنسان أنْ يُعلى من هذه الغريزة بحيث تكون فى الحلال وتحت مظلة الشرع ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق فى هذه المسألة حين تتم فى النور وتحت مظلة شرع الله ، وعلى كلمات الله ، وكيف نفرح بها ونعلنها ونفخر بها ، أما لو تمت فى الخفاء بعيداً عَمَّا شرعَ اللهُ فنحاول كتمانها ، والتخلص من ثمرتها إنْ كان لها ثمرة ، وإنْ ظهرت للناس كانت وصمةَ عار لا تُمحَى .

لذلك جاء فى الحديث أن رجلاً من الصحابة كان شديد الغيرة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٩) كتاب التوبة ولفظه : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء قوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

على بناته ، فلما تقدم رجل لخطبة واحدة منهن ذهب ليخبر رسول الله ، فتبسَّم رسول الله وقال له : « جدع الحلال أنف الغيرة »[1]

يعنى : الأمر الذى كنت تغار منه ولا تقبله ، الآن تفرح به وتدعو الناس إليه ، لماذا ؟ لأنه جاء من طريق الحلال الذى شرعه الله ، وكلمة الحق هى التى أبرزتْ العواطف ، وجعلتْ المهيِّج المثير مُسْعِداً لا غضاضة فيه .

كذلك غريزة حب الاستطلاع موجودة فى الإنسان ليتأمل الكون من حوله ، ويبحث عن أسرار الله فيه ، وما جعلها الله للتلصُّص على الناس ، وتتبُّع عوراتهم وأعراضهم . كذلك الأكل والشرب غريزة جعلها الله لأنها مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ، وينبغى أنْ تكون فى هذه الحدود حدود استبقاء الحياة ، لا أنْ تتحوَّل إلى نَهَم وشَراهة ، وتصل إلى حَدِّ التُّخمة .

والغريزة جعلها الله فى الإنسان لحكمة ، فالولد مثلاً يتحمل أبوه مشقة تربيته والإنفاق عليه ، ويظل الولد عالةً على أبيه طيلة خمس عشرة سنة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالعملية الجنسية ، وجعل فيها لذة الجماع لزَهدَ كثيرون فى الإنجاب ، كذلك الأم تتحمل مشقة الحمل والولادة والرضاعة .. إلخ ، حتى أنها لتُقسم فى الولادة أنها لا تحمل مرة أخرى ، لكن عندما يذهب ألم الوضع ، ويكبر الولد تشتاق إلى غيره .. وهكذا .

---

(١) ذكر أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » فصل الاستعارة والمجاز أنه ﷺ رأى علياً مع فاطمة فى بيت فردّ عليهما الباب . وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » . وذكر الميدانى فى « مجمع الأمثال » أن هذا كان ليلة زُفَّت فاطمة إلى على ، وقال : هذا حديث يُروى عن الحجاج ابن منهال يرفعه . وانظر أيضاً : أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز ـ فصل استعاراته ﷺ » ، وابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية – ما جاء فى الحلوم والثبات » .

وحين تتأمل مسألة الغريزة تجد أن الخالق سبحانه جعل فى الإنسان الغريزة ونقيضها ، فتراه فى موقف رحيماً وفى موقف آخر غَضُوباً ، أو عزيزاً فى موقف ، ذليلاً فى موقف آخر ، وهاتان الغريزتان لا تجتمعان فى الإنسان فى وقت واحد ، فالظرف الإيمانى يحكم عليه مرة بأن يكون عزيزاً ، ومرة بأن يكون ذليلاً .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن : الخالق عز وجل جعل فيك الغرائز المتناقضة ، لا يكبت شيئاً منها ، لكن لتُستعمل كل غريزة منها فى موقعها المناسب .

ومعنى : ﴿ يُؤَاخِذُ (٤٥) ﴾[فاطر] يعنى : يعاقب ويجازى ﴿ بِمَا كَسَبُوا (٤٥) ﴾ [فاطر] نقول : كسب واكتسب ، كلمة كسب تدل على وجود تجارة فيها ربح ومكسب زيادة على رأس المال ، وهى تدل على المكسب الذى يأتى طبيعياً ، أما اكتسب ففيها مفاعلة ، وهى على وزن افتعل ، ففيها افتعال وتكلُّف .

لذلك يستعمل القرآن كسب فى الخير واكتسب فى الشر ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦) ﴾[البقرة] لأن فعل الخير يأتى منك طبيعياً ، لا تكلفَ فيه ولا افتعال على خلاف الشر ، فيحتاج إلى محاولات وإلى حيَل واحتياط وتلصُّص .. الخ .

لذلك قلنا : إن الطاعة لا تُكلِّف الإنسان شيئاً ، أما المعصية فهى التى تكلف الكثير ؛ لأن الطاعة تأتى منك طبيعية ، أما المعصية

فتحتاج إلى حِيَل واحتياط وافتعال .

فإن قُلْتَ : فما بَالُ قوله تعالى فى السيئة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة]

نقول: استعمل القرآن كسب مع السيئة ؛ لأنه يتحدث عن الذين أسرفوا على أنفسهم ، وبالغوا فى المعصية حتى أحبوها وعشقوها ، بل ويتحدثون بها ويجاهرون ، وحتى أن المعصية تأتى منهم طبيعية ، كأنها طاعة ، ويفعلونها بلا افتعال ولا احتياط ، فهى فى حَقِّهم كسبٌ لا اكتساب ، ويفرحون بها كأنها مكسب فلا يُؤنِّبون أنفسهم ، ولا يلومونها ، ولا يندمون على معصيتهم .

والآية هنا بنفس هذا المعنى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا..﴿٤٥﴾﴾[فاطر] يعنى : عشقوا المعصية والظلم وفرحوا به كأنه مكسب . ثم يأتى جواب الشرط : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..﴿٤٥﴾﴾[فاطر] معنى الدابة : كل ما يدبّ على الأرض . أى : يمشى عليها الهُوَيْنَا ، لكن غلبتْ الكلمة على ما يُركب ويحمل الأثقال .

لذلك قال العربى لآخر : لقد أَعْيَيْتنى شبَّ ودبَّ يعنى فى شبابك ، وفى شيخوختك ، وأنت تدبّ وتمشى الهُوَيْنا .

لكن ، ما ذنب الدوابِّ تتحمل عاقبة ظلم الإنسان ؟ قالوا : العلاقة هنا أن الدابة مخلوقة مُذلَّلة لخدمة الإنسان وراحته ، فمعنى هلاك الدواب أنْ تمتنع راحة الإنسان ، وأنْ يمتنع المطر وتجدب الأرض ، وعندها لا يجد الإنسان قُوته ، لا من لحوم الدواب ولا من نبات الأرض ، وفى هذا إذلال للإنسان الذى يرى وسائل حياته وأسباب راحته تُسلَب منه دون أنْ يفعل شيئاً ، ولا يقدر على شىء .

وحين نتتبع آيات القرآن نجد أنه تكلَّم عن هذا المعنى فى موضعين :

الأول: فى سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

والآخر هنا فى فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ [فاطر]

قد يرى البعض فى الآيتين تكراراً ، وحاشا لله أن يكون فى كلامه تكرار، فإذا تأملتَ لوجدتَ بينهما خلافاً ، يجعل لكل منهما معناها الخاص . فالأولى تتكلم عن ظلم الناس ، والأخرى عمَّا اكتسبوه من السيئات عامة ، وكل من اللفظين يعطيك لقطة جديدة لأننى قد أظلم ، لكن أندم على ظلمى ، ولا أفرح به ، ولا أتمادى فيه ، أما إنْ صار عادةً لى حتى عشقته ، فهو اكتساب وافتعال بالمعنى الذى ذكرنا .

الأولى تقول : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] والأخرى : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] كذلك فى تذييل الآيتين ، ففى الأولى يتحدث الحق سبحانه عن الزمن والأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، وفى الأخرى يتحدث عن الجزاء ، وأن الله تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يخفى عليه منهم شىء ، إذن : فالآيتان متكاملتان ، ليس فيهما تكرار أبداً .

وضمير الغائب فى ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] و﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] هذا الضمير متصل بالآية قبلها : ﴿ .. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (٤٤) ﴾ [فاطر] فالضمير يعود

على أقرب مـذكور ، وهو الأرض ، ويفهم هذا المرجع أيضـاً بالقرينة العقلية ؛ لأن المعنى ينصرف إليها .

وهذه الآية لها مـعنا قصة ونحن صـغار فى كُتَّاب الشـيخ حسن رحمه الله ، وكان الشيخ يكلف العريف أنْ يُصحِّح لنا الألواح ، وفى هذا اليوم جلس الشيخ حسن يصـحح لنا بنفسه ، لكن فى هذا اليوم لم أكُنْ صحـحت اللوح (وطلعت خالص) وانتظرت الفلَكة والمقـرعة (تشتـغل) ، لكن الشيخ قال لى : اسـمع أنا سأعلمك كـيف تقرأ هذه الآية دون أنْ تخلطـهـا بآية النحل ، لا تـجـمع الظائين ولا السـينين يعنى : إن قلت (بِظُلْمِـهِمْ) فلا تقل (عَلَى ظَهْـرِهَا) وإنْ قلتَ (بِمَا كَسَبُوا) فـلا تقل (لاَ يَسْتَأْخِرون سَاعةً) وهكذا كان شـيخنا رحمه الله يعايـش القرآن ويتفـاعل معه ، وصـدق الله العظيم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) ﴾ [القمر]

وكان لى مـعه أيضاً ـ رحمـة الله عليه ـ قصة أخـرى ، ما زلت أذكـرها فى سورة الشـورى ، وجلس الشـيخ يُصـحِّح لنا اللوح وكنا هربنا ولم نصحح ، فلما جلستُ أمام الشيخ قرأت (حم عسق) وقد مرت بنا حم وطه وغيرهما لكن لم يمر بنا مثل (عسق) فقرأتها كما هى عَسَقْ ، فضربنى الشيخ فقرأتُ أيضاً عَسَقْ فضربنى ، وفي المرة الثـالثة عـرف أننى لم أصحح اللـوح على العريف ، فـقال : قُلْ عـين سـين قاف ، فظـلت ملازمـة لى لا أنسـاها حـتى الآن ، رحمـهم الله ورَضى عنهم أجمعين .

والمـراد بالأجل فى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ (٤٥) ﴾[فـاطر] أى : القـيامـة والعذاب ، أو جـاء أجل إفنائهم بعذاب يستأصلهم ، وعـرفنا أن عذاب الاستئـصال مثل الصـيحة والرجفـة والخسف .. الخ لا ينزل إلا على

يأس من هداية القوم ، بحيث لم يَعُدْ هناك أمل فى هدايتهم ، كما جاء فى قصة سيدنا نوح - عليه السلام - لما قال : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

لكن إنْ كان هناك أمل فى أنْ يؤمن بعض القوم فلا ينزل بهم مثل هذا العذاب .

أو : يراد بالأجل هنا أجل الأمة ، كما قال سبحانه : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ (٤٩) ﴾ [يونس] فكأن الآجال ثلاثة : أجل للدنيا ونهايته قيام الساعة ، وأجل للشخص الواحد بانتهاء عمره ، وأجل للأمة كلها حين يأتيها عذاب عام يقضى عليهم جميعاً مرة واحدة .

أو : لكل أمة أجل تنتصر فيه ، وتغلب مع وجود المعاندين والكافرين ، كما حدث لسيدنا رسول الله ﷺ لمَّا انتصر المسلمون فى بدر ، فقد كان لأمة الظلم والكفر أجل انتهى بالإسلام وقوة المسلمين ، مع أن الأمل كان بصيصاً من نور ، بحيث يغلب اليأسُ على الأمل .

حتى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - يقول لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أيُّ جمع هذا ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا ؟

فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون ، قال : صدق الله[1] ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فقد اشتدتْ شوكة الإسلام ، وقوى

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت تأويلها يومئذ » .

المسلمون ، وأذنت دولة الكفر بالزوال ، انتهى أجل الأمة الكافرة الظالمة ، وبدأ أجل الأمة المؤمنة .

لذلك حين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ .. (٢٢) ﴾ [فاطر]

نجد أربعة متقابلات ، الأولان منها مطابقان لحاله ﷺ مع أمته قبل انتشار الإسلام فى فترة غلبة الجاهلية على سيدنا رسول الله وأتباعه فى مكة ، فالأعمى أى : الجاهل بالحكم ، والبصير العالم به ، والظلمات يعنى : الضلال والكفر ، والنور هو الإيمان ، لأنهم كانوا عمياً ، فأراد الله أنْ يُبصِّرهم ، وكانوا فى ظلمات الجهل والضلال فأخرجهم الله منها إلى نور الإيمان .

أما المتقابلان الأخيران فيطابقان حاله ﷺ مع أمته بعد أن أرسى الإسلامُ دعائمه ، وتمكّن من نفوس المؤمنين ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾ [فاطر] فتراه بدأ بصفة الإيجاب فلم يقل الحرور ولا الظل كما قال ﴿ الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأن الحديث هنا عن أمة النصر وأمة الإيمان ، فناسب أنْ يبدأ التقابل بصفة الخير التى تناسب هذه الأمة الجديدة .

وفى هذا المعنى إشارة لطيفة إلى انتهاء أجل الجاهلية وظلماتها وعماها ، وإيذان ببداية أجل جديد ، لأمة الإيمان الوليدة التى تستظل بواحة الإيمان بعد أنْ أحياهم الله بالإيمان وكانوا أمواتاً بالكفر ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين مَيْت وميِّت ، الميِّت بالتشديد هو مَنْ يؤول أمره إلى الموت وإنْ كان حياً ، ومن ذلك خطاب الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[الزمر] يعنى : سيؤول أمرك إلى الموت . أما ميْت بالسكون فهو الذى مات بالفعل .

إذن : نستطيع أن نقول ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ۝٤٥﴾[فاطر] أى : بنُصْرة الإيمان على الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝٤٥﴾[فاطر] كلمة عباد وعبيد جمع لعبد ، ومع أنهما جَمْع لمفرد واحد إلا أن معناهما مختلف ؛ لأن الإنسان العبد ملْك سيده ، وما دام ملْكه فهو مطيع لأوامره ، والإنسان المؤمن له اختيار ، فالله تعالى يخاطبه وهو يطيع أو يعصى ، فى حين أن العبد لا يعصى سيده إنْ كان من البشر .

نعم قد يخالف أمر الله ، لكنه لا يخالف أمر سيده ، كيف ؟ قالوا : لأن الله تعالى هو الحليم الغفار ، أما السيد من البشر فلا يخلو من جبروت ، أو طغيان ، أو استبداد وتسلُّط .

وفَرْق بين طاعة العبد وهو مختار أنْ يعصى وطاعته وهو مقهور على الطاعة ، وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بعبدين سعيد وسعد ، سعيد شُدَّ إلى سيده بسلسلة لا يستطيع الفكاك منها ، وسعد أُطلق حُراً لا يقيده شيء ، وحين ينادى السيد على أحدهما يأتيه ، فأيهما أطوع ؟ لا شك أن سعداً أطوع من سعيد ؛ لأنه يأتى سيده وهو قادر مختار ألاَّ يأتى ، أما سعيد فلا يملك إلا أنْ يجيب ؛ لأنه لو عصى لجذبه السيد من السلسلة .

كذلك الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، ووضع لهم هذه القاعدة : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۝٢٩﴾[الكهف] مَنْ شاء أطاع ، ومَنْ شاء عصى ، وهذا تصرُّف العبيد مع سيدهم ، فإنْ قال العبد :

يا ربِّ أنت خلقتنى ورزقتنى وجعلتَ لى الجوارح ، وجعلتنى مختاراً ، وأنا عبد من عبيدك ؛ لذلك أتنازل عن اختيارى لاختيارك ، وعن مرادى لمرادك ، لقد اختار هذا العبد أنْ يكون مقهوراً لربه مسخراً كما سُخِّرت السماء والأرض .

وهؤلاء هم العباد ، وهم الصفوة من الخَلْق الذين آثروا مراد الله على مراد أنفسهم ؛ لذلك يتحدث عنهم الحق سبحانه ويعطينا صورة لهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : متواضعين غير متكبرين ، وعلامَ التكبر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا [1] (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان]

هذه صفات ثمان ترسم لنا صورة كاملة لمن استحقوا أن يكونوا عباد الله ؛ لذلك يخاطبهم ربهم فى موضع آخر : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ومن رحمة الله بعباده أن الحسنة تمحو السيئة ، كما قال

---

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/٥٢] وقال الزجاج : هو أشد العذاب . وأيضاً هو ما لا يُستطاع أن يُتفصَّى منه . [لسان العرب – مادة : غرم] .

سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[1] مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

بل وأعظم من ذلك ، ألاّ تقتصر رحمة الله على محو السيئة ، إنما تُبدَّل السيئة بعد التوبة حسنة : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

وحول معنى (عباد) و (عبيد) الذى أوضحناه سمعنا مَنْ يعترض ويقول : فى القرآن ما يناقض هذا المعنى ، وهو قوله تعالى فى موقف القيامة يخاطب الكبراء والسادة الذين أضلُّوا الناس وزيَّنوا لهم الكفر : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

ونقول : ليس بين الآيات تعارض كما تقولون ؛ لأن الحديث هنا عن الآخرة ، وليس فى الآخرة اختيار ، فلا فَرْق بين (عباد) و (عبيد) فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾[فاطر] ذكر هنا صفة البصر ؛ لأنها أقوى وسائل العلم والإدراك ، فللعلم وسائل متعددة ذكرها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

فالسمع أول وسائل الإدراك ، وهو أول جارحة تتنبه وتؤدى مهمتها فى المولود ، بدليل أنك تضع مثلاً أصبعك أمام عينه ، فلا تطرف ، أما إنْ صرخْتَ فى أذنه ينزعج ويستجيب للصوت ، والسمع كذلك هو الحاسة التى لا تتعطل أثناء النوم ؛ لأن بها يتم الاستدعاء ،

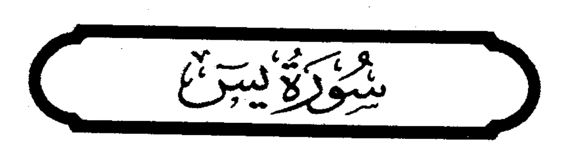
---

(١) الزلفة : الطائفة من الليل وجمعها زُلَفٌ . قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] أى : أوقاتاً وساعات من الليل . قيل : فى أوله . وقيل : فى أى وقت فيه . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

والسمع هو الوسيلة الأولى فى القيم والمعنويات ، وبه يستقبل الإنسان منهج الله .

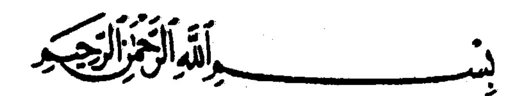
أما البصر وإنْ جاء فى المرتبة الثانية إلا أنه أكبر من السمع وأقوى ؛ لأنك قد تسمع عن الشيء ، لكن لا تلتفت إليه ، فإنْ تحوّل من السمع إلى البصر فقد وصل إلى قمة الإدراك الذى لا شكَّ فيه ؛ لذلك يقولون : ليس مع العين أين . والشيء الذى تسمع عنه قد يكون كاذباً ، أمَّا الشيء الذى تبصره فإنه لا يكون إلا حقاً .

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - حين يريد أن يؤكد لنا معلومة ، يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ (٢١)﴾[الزمر] لأن الذى تراه العين هو الآكد . وأبو جعفر لما قال لمقاتل : عظنى يا مقاتل ، قال له : أعظك بما سمعتُ ، أم بما رأيتُ ؟ بالله أجيبَوا أنتم بماذا ؟ قال : عظْنى بما رأيتَ ، نعم لأنك قد تسمع كذباً ، أمَّا إنْ رأيتَ بالعين فهو الحَق .


سُورَةُ يسٓ

سورة يس[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(يس) يصح أنْ تكون حروفاً مُقطَّعة مثل (الم) و (طه) ، ويصح أنْ تكون حروفاً مُقطّعة صادفتْ اسماً ؛ لذلك من أسمائه ﷺ : يس وطه ، ولا مانع أن يكون الاسم على حرفين ، بل على حرف واحد مثل (ن) فى قوله تعالى :﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم] وقد جُعِل علَماً على سيدنا ذى النون[2] عليه السلام ، كذلك ؛ (ق) أصبح

---

(١) سورة يس هى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن ، وقبل سورة الفرقان ، فهى السورة رقم ٤٠ فى ترتيب النزول ، وقد حكى القرطبى فى تفسيره (٥٦٣٥/٨) الإجماع على أنها سورة مكية ، ولكنه قال : « إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ⑫﴾ [يس] نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ » وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٦٦/٣) هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى ولكنه قال : « فيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم » .

(٢) النون : الحوت وذو النون لقب يونس بن متّى عليه السلام ، سماه الله ذا النون لأنه حبسه فى جوف الحوت الذى التقمه . [لسان العرب - مادة : نون]. أما (ن) التى فى سورة القلم فقد ورد فيها أقوال منها : أنه الحوت . ومنها أنه الدواة . انظر حكاية هذه الأقوال فى تفسير ابن كثير (٤٠٠/٤ ، ٤٠١) ، ولكن قال الأزهرى : (ن والقلم) لا يجوز فيه غير الهجاء ، ألا ترى أن كُتَّاب المصحف كتبوه ن ؟ ولو أُريد به الدواة أو الحوت لكتب نون . [لسان العرب - مادة : نون]

عَلَماً على الجبل المعروف . إذن : هذه حروف مُقطَّعة ، يمكن أنْ تُنقل إلى العَلَمية ، ويُسمَّى بها[1] .

وكثيراً ما تحدَّثنا عن الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، وكلما مَرَّ بنا حروف مُقطَّعة لا بُدَّ أنْ نتحدث عَمَّا تحتمله من المعاني ، والذي يثبت في الذِّهْن أن الحرف له اسم ومُسمَّى ، اسم الحرف لا يعرفه إلا المتعلم ، أما مُسمَّى الحرف فيعرفه المتعلم ويعرفه الأمي ، الأمي مثلاً يعرف الفعل (أكل) ويقول : أكلتُ ، لكن لا يستطيع أنْ يتهجَّى حروفه ؛ لأنه لا يعرف إلا مُسمَّى الحروف ، أما المتعلم فيعرف اسم الحرف فيقول : ألف فتحة ، وكاف فتحة ، ولام فتحة . فكيف إذن عرف محمد ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق بها ، وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ؟ الجواب : أنه عُلِّم وعُرِّف من ربه عز وجل .

والقرآن جاء معجزة يتحدَّى القوم فيما نبغوا فيه ، والعرب كانوا أهلَ فصاحة وبيان ، ويكفي أنهم كانوا يقيمون المعارض والأسواق للكلمة ، كما نقيم نحن الآن المعارض للصناعات المتميزة ، ومعروف عند العرب سوق عكاظ وسوق المربد والمجنة .. الخ .

وقد بلغ من اهتمامهم بالكلمة والأسلوب أنْ يُعلقوا القصائد

---

(١) ورد في تأويل قوله تعالى : ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ [يس] عدة أقوال :
- هو اسم من أسماء محمد ﷺ . قاله سعيد بن جبير . ودليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ [يس] بعدها .
- معناه : يا سيد البشر . قاله أبو بكر الوراق .
- معناه : يا إنسان . أراد محمداً ﷺ . قاله ابن عباس .

وهناك قول آخر ذكره القرطبي في تفسيره (٥٦٣٨/٨) بالإضافة إلى ما سبق ونقله عن الإمام مالك أن يس اسم من أسماء الله ، حتى أنه كان يكره التسمي باسم يس . قال ابن العربي : الذي يجوز التسمي به هو (ياسين) بهذا التهجي . والله أعلم .

الشهيرة عندهم على الكعبة ، وسُمِّيت هذه القصائد « المعلَّقات » ، وهى أشهر ما عُرِف من الشعر الجاهلى .

وكَوْن القرآن يتحداهم هذه شهادة لهم بالتفوق ، فالضعيف لا يُتحدى بل القوى ، كما نرى الآن مثلاً فى تحطيم الرقم القياسى فى مجال من المجالات .

وتحدِّى القرآن للعرب فى الفصاحة والبلاغة مثل تحدِّى سيدنا موسى للسحرة ، وتحدِّى سيدنا عيسى للأطباء ، إذن : هذه سنة متبعة فى جميع الأمم يتحداها الحق سبحانه بما نبغوا فيه . كذلك القرآن الكريم جاء بلغة العرب وحروفهم وكلماتهم التى ينطقون بها ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، لماذا مع أن مادة الكلام واحدة ؟

قالوا : لأن المتكلم بالقرآن هو الحق سبحانه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمَثَل - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : لو أردتَ اختبار مجموعة من عمال النسيج أيُّهم أمهر لا يصح أنْ تعطى أحدهم مثلاً حريراً ، وآخر قطناً ، وآخر صوفاً ؛ لأن المادة الخام مختلفة ، إنما تعطى الجميع مادة واحدة ، ثم تنظر فى نسيج كل منهم ، كذلك القرآن ولغة العرب ، المادة واحدة لكن المتكلم هنا العرب ، والمتكلم هنا الحق سبحانه .

وحين تتأمل حروف العربية تجدها ثمانية وعشرين حرفاً ، والحروف المقطَّعة فى القرآن أربعة عشر ، فهى إذن نصف الحروف العربية . وللفخر الرازى[1] - رحمه الله - جدول مدهش ينظم هذه

---

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، قرشى النسب ، أصله من طبرستان ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) (طهران الآن) وإليها نسبته ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، يقال له « ابن خطيب الرىّ » أقبل الناس على كتبه فى حياته يتدارسونها ، كان يحسن الفارسية . من تصانيفه « مفاتيح الغيب » « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

الحروف ، ويوضح أنها وُضعت هكذا لحكمة ، ووُضِعَتْ بقدر وحساب ، هذه الحروف الأربعة عشر تقسم كما يلى :

مجموع حروف اللغة ثمانية وعشرون حرفاً ، التسعة الأوائل بداية من الألف إلى الذال لم تأخذ الحروف المقطعة منها إلا حرفين : الألف والحاء ، وتركت منها سبعة أحرف أما التسعة أحرف الأخيرة ، وتبدأ من الفاء فقد أخذتْ منها الحروف المقطعة سبعة أحرف هى : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وتركتْ منها الفاء والواو ، فهى إذن على عكس التسعة الأُول .

أما الحروف العشرة فى الوسط ، والتى تبدأ من الراء وتنتهى بالغين ، فلها نَسَق آخر ، حيث أخذت الحروفُ المقطعة منها الأحرف غير المنقوطة ، وهى الراء والسين والصاد والطاء والعين ، وتركت منها الزاى والشين والضاد والظاء والغين .

كذلك حين نتأمل مثلاً حروف الحلْق تجد الخاء فى المجموعة الأولى لم تُذكر فى الحروف المقطعة ، وذُكِرت الميم فى المجموعة الأخيرة .

وهكذا نرى أن هذه الحروف لم تُوضع هكذا اعتباطاً أو كما اتفق، إنما وُضعت بقدر ونظام له حكمة ووراءه أسرار ، وُضعت بهندسة مقصودة الذات فهى مثل سنان المفتاح ، والله سبحانه وتعالى يفتح بها لمَنْ يشاء ، ومن حكمته تعالى أنه لم يُعْط كل أسرار هذه الحروف لجيل من الأجيال ، إنما وزَّع عطاءها على مَرِّ الأزمان بحيث لا يستقبل جيل من الأجيال كلامَ الله بلا عطاء ، وليظل القرآن نوراً يضىء جنبات الدنيا إلى قيام الساعة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

هذه السين الدالة على الاستقبال نطق بها سيدنا رسول الله ﷺ وقال ﴿سَنُرِيهِمْ ۝٥٣﴾ [فصلت] وظهرت فى عهده أسرار، ونطق بها مَنْ بعده من الأجيال المتعاقبة، وظهرت لها أسرار، وسنظل ننطق بها وتتجلَّى لنا أسرارها إلى قيام الساعة، وإلى أنْ تظهر الآية الكبرى وهى القيامة. إذن: فعطاء القرآن عطاء مستمر لا ينقطع أبداً.

لذلك لما تناقشنا مع بعض المستشرقين فى سان فرانسيسكو حول موضوع المخترعين والمكتشفين الذين خدموا البشرية وأسعدوها باختراعاتهم واكتشافاتهم. قال أحدهم: عجباً للمسلمين! لماذا لا يدخل هؤلاء المكتشفون الذين أسعدوا البشرية الجنة؟ فأوضحنا له أنهم نعم خدموا البشرية، لكن لم يكُن الله فى بالهم حين اكتشفوا ما اكتشفوا، بل كان فى بالهم الشهرة والمجد والذِّكْر بين الناس، وقد نالوا ما يريدون فخلّدنا ذكْراهم وأقمنا لهم التماثيل .. الخ فينطبق عليهم الحديث: « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1]

إذن: هؤلاء العلماء الذين خدموا البشرية وأسعدوها وهم غير مؤمنين بالله ما هم إلا خَدَم سخرَّهم الله لخدمة البشر، فهم كالشمس والقمر وغيرهما، سخرهما الله للإنسان لفائدته ولمنفعته، ما هم إلا جنود من جنود الله يخدمون هذا الحرف فى ﴿سَنُرِيهِمْ ۝٥٣﴾ [فصلت] ليظل يعطى على مَرِّ الأزمان، وفى كل المستقبل.

هؤلاء العلماء غير المؤمنين بالله مَثَلهم كمثَل خادم عندك قُلْتَ له: احمل هذا الحجر مثلاً، فقال لك إنه ثقيل علىَّ لا أقوى على حَمْله، فإنْ قلت له: استعِنْ بمَنْ يحمله معك ربما قال لك لا أجد، لكن إنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥)، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢)، والنسائى فى سننه (٦/٢٣، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

قُلْتَ له احمله وسوف تجد تحته كنزاً هو لك فإنه سيحمله وحده ، فى هذه الحالة : أَحَمَله احتراماً لأمرك ؟ أم حمله طمعاً فى الكنز ؟

كذلك لما تقدمتْ العلوم اكتشفوا أن الخمر تضر بالكبد ، فأقلع كثيرون عن شربها مخافة ضررها ، وبعد أنْ عرف العلة ، أمَّا المؤمن فيقلع عنها قبل أنْ يعرف هذه الحقيقة ، يقلع عنها لأن ربه عز وجل نهاه عن شربها فينتهى ثقةً منه فى حكمة ربه ، واحتراماً لأمره ، ولو لم يعرف العلة .

ولأن سورة يس ، ثبت فى الحديث أنها قلب القرآن[1] فيجب أن نستهل الاستعاذة والتسمية قبلها ، كما استهللناها فى السُّوَر قبلها ، فالحق سبحانه الذى أنزل القرآن معجزة وكتاب هداية على سيدنا رسول الله ليصحح للمؤمنين به حركة حياتهم قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

وقلنا سابقاً : إن علة هذا الأمر من الأعلى أن الشيطان حينما عصى ربه فى السجود لآدم ، وحدث الحوار بينه وبين ربه قال : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] يعنى : حتى لا يتميز آدم وبنوه عنِّى فى المعصية ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فقوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] أى : فى أنْ يسلكوا طريقاً غير الطريق الذى رسمه الله لهم ، والطريق الذى رسمه الله لهم هو الصراط المستقيم الذى قال فيه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

نعم ، لأن الشيطان لا يأتى الخمارة ولا أماكن القمار والمعصية ، إنما يتعرض لأهل الطاعات ليفسد عليهم طاعتهم ، والصراط المستقيم

---

(١) عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » أخرجه أحمد فى مسنده [٥/٢٦]

هنا هو منهج الله الذى وضعه لإسعاد البشرية ، فإبليس بدل أنْ ينتظر إلى أنْ تنفذ منهج الله فى حركة الجوارح طاعة ومعصية يأتى للأساس الذى تأخذ عنه تلك الجوارح منهج الحركة ، فإذا قرأتَ القرآن جاء ليفسد عليك القراءة .

لذلك يُعلِّمك ربك - عز وجل - الاستعاذة ، أولاً لتقطع على الشيطان هذا السبيل ؛ لأنه لن ينتظرك حتى تقرأ ، وحتى تأتى بثمرة هذه القراءة فى حركة الحياة ، بل يأتى إلى القرآن نفسه فيفسده عليك من البداية ، فإنْ أردتَ أن تنتصر عليه فاستعذ بالله منه .

وحين تستعيذ منه بالله فإنك تلجأ إلى ركن قوى ودرع وَاقٍ لا ينفذ إليك منه شىء من وسوسة الشيطان وهَمْزه وغَمْزه ؛ لذلك كان الشيطان واعياً حين قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهم الذين يحتمون منه فى حمَى ربهم وخالقهم .

أما قوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فالحق سبحانه خلق الإنسان ، وجعله سيد هذا الكون ، وسخَّر له كل شىء ، ومما سخَّر له سخر أبعاضه لإرادته ، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته ، فإنْ كان مؤمناً قال : الله واحد . وإنْ كان غير ذلك قال : الله ثالث ثلاثة ، كذلك سخَّر له العين تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم كذلك الرِّجْل ، فكل جوارحك سخَّرها الله لك إنْ أردتَ منها طاعة أطاعتْ ، وإنْ أردتَ منها معصية عصتْ ، فالإرادة هى التى تملى ما تريده ، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة فى مهمة ما ، فعلى الكتيبة أنْ تطيع أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء ، حتى لو كانت هذه الأوامر فى غير

صالحهم ، وليس لهم أن يعترضوا عليه حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكَوْا له ما كان من قائدهم المباشر ، كذلك طاعة الجوارح لإرادة الإنسان فى الدنيا .

أما فى الآخرة فسوف تُسْلَب منه هذه القيادة لجوارحه ، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق الأعلى سبحانه ، ففى الآخرة لا سلطانَ لأحد إلا الله :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فإذا كنتَ تريد عملاً من الأعمال ، هذا العمل يتطلب منك أولاً طاقة عقلية فكرية تخطط له ، ثم يتطلب قوة فى الجوارح لتفعل ، مَن الذى خلق لك العقل المفكر ؟ ومَن الذى أمدَّ جوارحك بالقوة والطاقة الفاعلة ؟ أهى تأتمر لك وتفعل مطلوبك بقوة ذاتية فيك ؟ أم بتقدير الله لها ؟

إذن : عليك أنْ تُقبل على كل فعل ، فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً وعملاً بقولك بسم الله ، وحين تقولها فكأنك تقول للجوارح : أنا لا أطلب منك بقوتى ، ولكن من باطن قوة بسم الله ، فبسم الله أفعل لا بى .

بدليل أن الله تعالى إنْ أراد سلب الإنسان ذاتية الحركة وذاتية الطاقة والفكر فتُشلّ الجوارح ويُشلّ التفكير ، إذن : أَقْبل على كل أعمالك ببسم الله الذى يُعينك عليها .

ثم أنت فى الأعمال تحتاج إلى حكمة ، وإلى قدرة ، وإلى علم .. الخ ، فمَن الجامع لكل هذه الصفات ؟ إنه الله . إذن : فقُلْ بسم الله الجامع لصفات الكمال كله الممدّ خَلْقه بها ، فهو سبحان العالم الذى يمدّك بالعلم ، القادر الذى يمدك بالقدرة ، الحكيم الذى يمدّك بالحكمة ، العزيز الذى يمدّك بالعزة ، القهار الذى يمدّك بالقهر .. الخ .

ألسنا نسمع القاضى يقول عندما يجلس للحكم : بآسْم الشعب يعنى : هو لا يحكم بذاته ، إنما يحكم بقوة الشعب ، كذلك المؤمن يقول : بسم الله عند كل عمل يعنى أيتها الجوارح ، أطيعينى من باطن طاعتك لله .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بقوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة] لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، فكان منهم المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وربما غفل الإنسان عن منهج الله فصدرتْ منه صغائر بل وكبائر ، فكيف يقبل على عمله ببسم الله ؟ وكيف يستعين به سبحانه وقد عصاه ؟

لذلك يقول له ربه عز وجل لا تستح أنْ تقول بسم الله ، لأننى رحمن رحيم ، أغفر لك وأتجاوز عمَّا كان منك ، ولن أتخلَّى عنك ، إذن : تشجَّع ولا تترك الاستعانة باسمى مهما كان منك من ذنوب ، واعتمد فى ذلك على أنِّى رحمن رحيم .

وقد رُوِى أن الأصمعى[1] سمع رجلاً يقول - وهو يطوف

(١) الأصمعى هو عبد الملك بن قُريب الباهلى أبو سعيد ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، وُلد بالبصرة عام ١٢٢ هـ ، كان كثير التطواف فى البوادى ، أخباره كثيرة جداً ، كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر ، له « الأضداد » « خلق الإنسان » ، « الإبل » توفى بالبصرة عام ٢١٦ هـ عن ٩٤ عاماً [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤]

بالكعبة - اللهم إنى عاصيك وأستحى أنْ أطلب منك ، لكن أطلب ممَّنْ ، وليس فى الكون إلا أنت ؟ فقال له الأصمعى : يا هذا ، إن ربك قد أجابك لحُسن مسألتك له .

والحق سبحانه وتعالى حين يُعدِّد نعمه على عباده يقول ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم] نعم ، لأن عَدَّ الشىء مظنة إحصائه ، ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص جامعات ومعاهد للإحصاء لم يُقبل أحد على عَدِّ نعَم الله ؛ لأنها لا تُعَدُّ ، بل النعمة الواحدة مطمور فيها مَا لا يُحصى مَن النعم ؛ لذلك لم يقُل سبحانه : وإنْ تعدوا نعَم الله ، بل نعمة الله ، فالنعمة الواحدة مستور فيها ما لا يُدركُ من النعمَ .

ونلحظ فى هذه الآية أنها وردتْ فى موضعين ، لكن لكل منهما تذييل ، فواحدة : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنت أيها الإنسان المُنْعَم عليه مع ما تُقَابل به نعَم الله من الظلم وكفران النعمة ، فربُّكَ المنعم سبحانه يقابل ظلمك وكفرك لنعمه باستدامة النعم ؛ لأنه غفور ورحيم .

وللعلماء أقوال فى (يس) قالوا : الياء للنداء و (س) من أسمائه ﷺ ؛ لأن عادة العرب أنْ تحذف بعض حروف الكلمة ، وتُبقى على الحرف المميز قوى الجرْس ، فمثلاً كلمة إنسان ، السين أقوى حرف فيها ؛ لذلك ورد قول النبى ﷺ : « كفى بالسيف شا »[1] والمراد : شاهداً .

---

(١) عن سلمة بن المحبِّق قال : قيل لأبى ثابت ، سعد بن عبادة ، حين نزلت آية الحدود وكان رجلاً غيوراً : أرأيت لو أنك وجدت مع امرأتك رجلاً ، أى شىء كنت تصنع ؟ قال : كنت ضاربهما بالسيف . أنتظر حتى أجىء بأربعة ؟ إلى ما ذاك قد قضى حاجته وذهب . أو أقول : رأيت كذا وكذا . فتضربونى الحد ولا تقبلوا لى شهادة أبداً . قال فذكر ذلك للنبى ﷺ . فقال : « كفى بالسيف شاهداً » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٦٠٦) وأبو داود فى سننه (٤٤١٧) وتمام الحديث : « ثم قال : لا ، لا ، أخاف أن يتتابع فيها السكران والغيران » .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَـذَا التَّدلُّلِ   وإنْ كنتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِى فأجْمِلِى[1]

والمراد : فاطمة .

ونحن فى حديثنا اليومى نختصر بعض الحروف ، فحين ننادى مثلاً يا أحمد ، بعضنا لا ينطق الدال ، وخاصة فى لهجة الدمايطة . إذن : فحَذْف بعض الحروف وإبقاء بعضها مما له جَرْس قوى أمر وارد فى لغة العرب .

وقال آخرون : بل اسمه ﷺ (يس) وحُذفت ياء النداء والخطاب لمحمد ﷺ .

الحق سبحانه وتعالى علَّم الإنسان الأسماء كلها ، يعنى : علَّمه الكلمة المطلوبة له فى التخاطب ، وبعد ذلك ساعةَ يتكلم الإنسانُ ويتخاطب يتواضع ويصطلح على أسماء أخرى ، فالإنسان مثلاً الآن يعرف (التليفزيون) ويتعارف على هذا الاسم ، فهل علَّم الله آدم اسم (التليفزيون) ؟ لا إنما اصطلح عليه الإنسان بما علَّمه الله .

فالمعنى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٣١) ﴾ [البقرة] أى : الصالحة لتخاطبه الآن فى البيئة البدائية ، وعليه هو أنْ يُنمى لغته ، فيضع لهذا الشىء اسم كذا ، وهذا اسم كذا .

ونحن نعرف أن الحروف قسمان : القسم الأول : حروف مَبْنى يعنى مهمتها بناء الكلمة ، دون أن يكون لها معنى غير ذلك ، كما نقول مثلاً : كتب ، فالكاف والتاء والباء حروف تُبنى منها هذه الكلمة

---

(١) هو من قصيدة لامرىء القيس من بحر الطويل عدد أبياتها ٧٧ بيتاً ، وهى معلقته الشهيرة التى أولها : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . والصرم : القطع والقطيعة . ومعنى البيت : يا فاطمة دعى بعض دلالك ، وإن كنت وطنت نفسك على فراقى فأجملى فى الهجران .

دون أنْ تعطى معنى آخر زيادةً على معنى هذا الفعل الذى كوَّنته الحروف .

القسم الثانى : حروف معنى ، وهى أن يكون للحرف معنى يدل عليه بذاته كما نقول : كتبتُ . فهذه التاء الأخيرة تحمل معنى آخر غير معنى الكتابة ؛ لأنها تدل على الفاعل المتكلم فإنْ جاءت مفتوحة دلَّتْ على الفاعل المخاطب ، وإنْ جاءت مكسورة دلَّتْ على المؤنث ، وهكذا .

وقُلْنا : إن اسم الحرف قد يصادف عَلَماً على شيء ، فالسين مثلاً اسم لنهر معروف ، والعين حرف معجم لكن سُمِّى به أشياء كثيرة : العين الباصرة ، وعين الماء ، والعين بمعنى الجاسوس ، والعين للنفيس من المال من الذهب أو الفضة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [يس] هذه الواو تسمى واو القسم فما دخلتْ عليه كاليمين ، لكن هل المطالب التى يريدها المتكلم من المخاطب تأتى بالقسم أم بالدليل ؟ تأتى بالدليل ، وقد يأتى اليمين فيه الدلالة على الغرض المراد . فمثلاً يقول لك صاحبك : يا أخى أنت لم تُقدِّرنى ، لأننى مررتُ بأزمة ، فلم تقف بجانبى فتقول له : وحياة الشيك الذى كتبتُه لك يوم كذا ، وحياة الهدية التى أخذتها يوم كذا ، فتحلف له بالدليل على صدْقك .

كذلك هنا الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ : أنت مرسل وأنا أحلف بالقرآن لأنه دليل على أنك رسول صادق .

كلمة قرآن مصدر لقرأ تقول قرأت قراءة وقرآناً ، ولا بُدَّ أن الزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فقلنا قرآناً لنفرق بين قراءة القرآن وقراءة غيره ، وهى أيضاً تدل على أنه كتاب مقروء ، ومرة أخرى يسميه الكتاب لأنه مكتوب ، فالقرآن إذن مقروء من الصدور ، مكتوب فى السطور.

ومرة أخرى يسميه الذِّكْر ، لأنه يُذكِّرنا بعهد الفطرة الأولى التى

قال الله فيها : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا التذكير بالعهد الأول يُعَدُّ رحمة من الله بنا ، فمن رحمة الله بنا أن يُذكِّرنا إذا نسينا أو غفلنا ، فمنذ أنْ خلق آدم وإلى الآن ، الحق - تبارك وتعالى - يُذكِّر عباده ، فكما يُلقِّن الوالد ولده حركة الحياة يُلقِّنه أولاً حركة هذا الدين ، ولا بد أنْ يستمر هذا التلقين وهذا التذكير ، وأنْ يتوالى من جيل إلى جيل ؛ لأن طبيعة الإنسان فيه غفلة وفيه نسيان ، وتحدث منه معصية .

لذلك الذين قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف] كاذبون فى هذا القول ؛ لأن آدم وأمته فى البداية كانوا على هُدىً ، فلماذا لم تتبعوهم ؟ إذن : أنتم اتبعتُم الآباء الضالين لا المهتدين .

كذلك حين تتأمل مسألة جمع القرآن تجد أن الذين جمعوا القرآن كانوا يتحرَّوْن فى الآية قبل تسجيلها أن تكون مكتوبة أولاً فى قرطاس أو فى الرقاع والعظام التى سُجِّل عليها القرآن أولاً ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، لماذا ؟

قالوا : لأن القرطاس لا هوى له ، فيغير ما كتب فيه ، أما الإنسان الحافظ فهو عُرْضَة للخطأ والنسيان والغفلة ، فلا بُدَّ أنْ يكون معه آخر يُذكِّره على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

والقرآن وصفه الله بالحكمة ، وهى وَضْع الشىء فى موضعه الحق ليؤدى مهمته ، وكلُّ المعانى الدينية مأخوذة من مُحسَّات قبل الدين ، فمثلاً الفَرَس يركبه الإنسان ليُوصِّله إلى مراداته ، فإنْ كان

مرادك من ركوب الفرس التنزُّه بين الحقول سار بك سَيْراً بطيئاً كسَيْر الحنطور مثلاً ، وإنْ أردتَ به قَطْع المسافة جرى بك كالريح .

لذلك جعلوا للحصان لجاماً يُوضَع في حنكه ليكبح سرعته ، ويتحكم فيه ، هذا اللجام يُسمى الحَكَمَة[1] ومنها الحِكْمَةُ التي تكبح جماح الأهواء ، كي لا تشرد وتضع المسائل في موضعها ، فالإنسان له هوىً يميل به ، وينحرف بحركته عن الجادة ، فيأتي القرآن بالحق الواضح الذي يُقوِّم هذا الميل ويُصلحه ، والقرآن في الحقيقة حكيم ، لأنه محكم من الحكيم الأعلى سبحانه ، إذن : فالقرآن كلام من الحكيم ، وهو بالنسبة للإنسان كالحَكَمة للفرس .

ولحكمة القرآن اختصّ بأشياء ، فتناول القرآن لا يكون كتناول غيره من الكتب ، فالكتاب العادي أتناوله في أيِّ وقت وعلى أيِّ حال كنت جُنُباً أو مُحدثاً ، أما القرآن فلا يمسُّه إلا طاهر[2] ، لأنك مع القرآن تُقبل على مقدس له خصوصية ، فإياك أنْ تتناوله وأنت غير طاهر ، كما قال الحق سبحانه[3] : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

---

(١) حكَمَة اللجام : ما أحاط بحنكي الدابة ، فهي تأخذ بفم الدابة ، والحكمة : حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . وفي الحديث : « ما من آدمي إلا في رأسه حكمة » وفي رواية : في رأس كل عبد حكمة إذا همَّ بسيئة ، فإن شاء الله تعالى أن يقدعه بها قدعه .[لسان العرب - مادة : حكم]

(٢) اتفق الأئمة ولم يخالف أحد من الصحابة في ذلك على حرمة مس المصحف وحمله بالنسبة للجنب . أما المحدث حدثاً أصغر فقد ذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي وابن حزم وغيرهم إلى أنه يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف ، وأما القراءة له بدون مس فهي جائزة اتفاقاً . [قاله الشيخ سيد سابق في فقه السنة ٤٣/١ وما بعدها] .

(٣) في هذه الآية قولان :

الأول : المطهرون هنا هم الملائكة . قاله ابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . فعلى هذا القول فالآية لا تخص قراءة القرآن على وضوء أو غير وضوء .

الثاني : أي المطهرون من الجنابة والحدث . والمراد بالقرآن هنا هو المصحف . وقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر » .

فالحق سبحـانه جعل لك هذه الضوابط النفسية لتـعرف أنك مُقبِل على كتاب له تميُّز عن سائر الكتب الأخرى .

كذلك للقـرآن خصوصيـة فى حروفه ، فـالحروف هى التى تُكوِّن الكلمات ، فهى عبارة عن نبرات صـوتية ، لكل منها منطقة فى أعضاء الكلام ، فمثلاً حروف تخرج من الجوف والصدر هى :

هَمْـزٌ فَهَـاءٌ ثُمَّ عَـيْنٌ حَـاءُ مُهْمَلَتَـانِ ثُـمَّ غَـيْنٌ فَـاءُ

فإنْ خرجنا من منـطقة الجوف نجد الحروف اللسـانية التى تُنطق من اللسان بداية من : (لغلوغه) ثم وسطه ثم طرفـه . فالقاف مثلاً تخرج من أقصى اللسان ، والشين والجيم من وسطه ، والضاد واللام والراء من طرفه ، كـذلك هناك حروف تخـرج من الشَّفة ، كـالفاء من باطن الشَّـفة السفـلى ، والباء من باطن الشـفتـين معاً ، كـذلك الواو يشترك فى نطقها الشفتان .

ولكى نقرأ القـرآن قراءة صحيـحة لا بُدَّ أنْ نلتزم بهذه المـخارج الصـوتية ، على خـلاف قراءة أىِّ كـتـاب آخر ، فـلا يُشتـرط له هذا الشـرط ؛ لذلك نقول : إن كـمال القـرآن لا يتعـدى ما دام له طريقـة معينة ونغمة مضبوطة ، فلا بُدَّ أن تُراعى .

فمثلاً لو أنك تتكلم فى خطبة عـادية تقول : أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، لقد اسـتدعانى فلان لألتقى به فى مكان كذا .. لو نطقتَ هذا الكلام بنغمة القرآن وطريقته لكان شيئاً غير مقبول (بايخ) أمَّا إنْ كان هذا النَّغَم فى القرآن ، فإنه يأتى جميلاً متناسقاً .

إذن : كـمـال القرآن لا يُتـعـدَّى حـتى فى نطقـه ؛ لأن هذا شىء مُختصٌ به وحده دون غيره من الكـلام ، فإنْ عدَّيْتَ خصـائص القرآن إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل .

أذكر ونحن صغـار أنهم كانوا ينصحوننا بقـراءة كتب الأدب مثل

كتب المنفلوطى مثل « العبرات » أو « النظرات » لنتعلم الأسلوب الجميل فى كتابة الإنشاء ، وبالفعل كان أسلوبنا يتحسَّن ويترقّى بقراءة كتب الأدب ، ونكتسب منها تعبيرات جديدة ، فإنْ جئتَ إلى حافظ القرآن الذى جوَّده على القراءات العشر أو الأربعة عشر ، وقرأتَ له كلمة أو مقالاً ، فإنك تجد أسلوبه لا يتأثر بالقرآن لماذا ؟ لأن كمال أسلوب القرآن لا يُتعدَّى .

إذن : نفهم أن حكمة القرآن جاءت من هذه الخصوصية : فى حروفه حكمة ، وفى كلماته حكمة ، وفى نَظْمه ، وترتيله ، وفى أسلوبه الذى لا يُبَارى ولا يُنقَل إلى غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا هو جواب القسم ، الحق سبحانه يرد على كفار مكة ، ويقسم لهم : إنك يا محمد لمن المرسلين ، والمتكلم حين يرى المخاطب خالى الذِّهْن عن الأمر الذى يتحدث فيه يُلقى له الكلام طبيعياً بدون تأكيد ، فإنْ كان شاكاً فى الكلام أو مُنكِراً له أكّد المتكلمُ كلامه بمؤكِّد يناسب الشكَّ أو الإنكار .

لذلك الحق سبحانه يؤكد هنا كلامه بأكثر من مؤكد ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[يس] فاستخدام التأكيد بإن واللام ، وقبل ذلك القسم؛ لأن الكفار منكرون لرسالته ﷺ ، وعلى قدْر الإنكار يكون تأكيد الكلام .

وتأمل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[يس] وكانت النتيجة الإنكار ﴿ قَالُوا مَا

أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

لـذلك يؤكدون كـلامهم بأكثر من مؤكـد : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

وقلنا : إن هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً فى صورة اليمين ، كأن الله يقول : الذى يقرأ القرآن لا بُدَّ أنْ يؤمن بأنك يا محمد مُرسَل من الله ، لماذا ؟ لأنهم أمة كلام وتذوُّق ، وما وُجِدت أمة من الأمم حتى المعاصرة تقيم مـعارض للكلمة ، أما العرب فى جاهليتـهم فقد أقاموا للكلمة أسواقـاً ومعارض يتبارى فـيها الخطباء والشـعراء كل عام فى المربد وعكاظ وذى المجنة[1] وغيرها .

وقد بلغ اهتمـامهم بالكلمة أن يعلقوا أروع قصـائدهم على أستار الكعـبة ، وما دام العـرب أمة كـلام ، إذن : كان عليـهم أنْ يستقـبلوا القرآن بهذه الملَكة ، وألاَّ يخفى عليـهم إعجازه ، لكنهم كذَّبوه وقالوا : سحر وقـالوا : شعر وقالوا : افـتراء . فلما أعيتـهم الحيل ولم ينالوا من ذلك شـيئاً قـالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] يعنى : القرآن لا غـبار عليه إلا أنه نزل على محـمد ، هذه آفته عندهـم ؛ لأن ملَكتهم البلاغية لا يصـح أن تقف أمام القرآن أو تُكذِّبه .

لذلك كانوا حتى وهُمْ على كـفرهم يحبون سماع القـرآن ، يتخفَّى الواحـد منهم ، ويذهب يتـسَّمع القـرآن من رسـول الله ليلاً ، وربمـا

---

(١) قـال أبو بكر الأزدى فـيمـا ذكـره المرزوقى فى كـتـابه « الأزمنة والأمكنة » باب أسـواق العرب : « أسـواق العرب الكبيـرة كانت فى الجـاهلية ثلاث عشـرة سوقاً ، فـأولها قيـاماً : سـوق دومة الجندل ، ثـم صحـار ، ثم دبا ، ثم الشـحر ، ثم رابيـة حـضرمـوت ، ثم ذو المجاز ، ثم نطاة خيـبر ، ثم المشقر ، ثم حجر باليـمامة ، ثم منى ، ثم عكاظ ، ثم عدن ، ثم صنعاء »

تقابل الاثنان منهم عند حجرات رسول الله ، فسأل أحدهما الآخر : ماذا أتى بك إلى هنا يا فلان ، فلا يملك إلا أنْ يقول : جئتُ لزيارة خالتى المريضة ، والآخر يقول جئت لكذا وكذا !! لكن هيهات فحالُه يُغنى عن مقاله[1].

لذلك تأمل قول الشاعر فى هذه المسألة :

انْظُروهُمْ وقَدْ تَسَلَّل كُلٌّ بَعْدمَا انفَضَّ مجلِسُ السُّمَّارِ

اخْتِلاساً يَسْعَى لحجرةِ طه لِسَماعِ التنزيل فى الأسْحارِ

اعْذروهم حسنه فلَمَّا تَراءَوْا علَّلوها ببَارِدِ الأعْذَارِ

لذلك كان الواحد منهم حينما يسمع القرآن من رسول الله ويعود إلى قومه ، فيقولون : لقد رجع فلان بغير الوجه الذى ذهب به .

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤)

الصراط : هو الطريق ، وله معنى آخر يوم القيامة ، هو الصراط المضروب على متْن جهنم يمرُّ عليه البَارُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ويختلف المارُّ عليه باختلاف عمله فى الدنيا ، فواحد يمرُّ عليه كالبرق

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٣٧) طبعة دار التراث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا (وتكرر هذا ثلاث ليال متوالية) حتى إذا كانت الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، وفى القصة طول فلتراجع هناك عن رأيهم فيما سمعوه .

الخاطف ، مع أنه أَحَدُّ من السيف وأدَقُّ من الشعرة ، وآخر يمرُّ عليه كأسرع جَوَاد ، وآخر يمر عليه حَبْواً ، وآخر يقع فى جهنم[1] ، والعياذ بالله .

وحين تمر على الصراط لن يكون معك عَصًا تحفظ بها توازنك كلاعب السيرك مثلاً ؛ لأن الذى يزنُ حركتك على الصراط هو القرآن الذى استمسكْتَ به فى الدنيا ، فكأن المؤمن حين يمرُّ على الصراط لا يكون توازنه من تحته إنما من أعلى ، من جهة القرآن ، فهو أشبه بالكبارى المعلَّقة التى لا يحملها شىء من تحتها ، لكنها مشدودة من أعلى بما يمسكها ويحفظ توازنها ، كذلك حال المؤمن على الصراط .

والصراط فى معناه العام هو الطريق المستقيم الذى يوصلك للغاية من أقرب مسافة وأيسرها ، لكن عبارة القرآن ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④﴾[يس] فيها إشارة إلى أن الصراط له مهمة ، هى أنْ يُوصِّلك إلى الغاية المرادة ، فالصراط فى خدمتك .

ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ هُدًى ⑤﴾ [البقرة] البعض يفهم أن الهداية تقتضى التكاليف وتقييد الحركة ، وأن فى الهداية مشقة وعنتاً ، لكن لفظ الآية يعنى خلاف ذلك ، فمعنى ﴿ عَلَىٰ هُدًى ⑤﴾ [البقرة] أنك تعتلى الهدى ، وكأنه مطية لك تُوصِّلك لغايتك المجيدة ، فهو يحملك ، لا تحمله أنت .

ووَصْفُ الصراط بأنه مستقيم ، لأننا تعلمنا فى الهندسة أن الخط

---

(١) أخرج أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لجهنم جسر أدق من الشعرة وأحدّ من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم رب سلم ، فناج مُسلَّم ، ومخدوش مُسلَّم ، ومكوّر فى النار على وجهه » أخرجه أحمد فى مسنده [٦/ ١١٠] وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/ ٣٥٩] وقال : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق » .

المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فحين تريد مثلاً الانتقال من مكان إلى مكان ، فـ (من) للابتداء ، و (إلى) للغاية التى تريدها ، وما دُمْتَ لا يعنيك إلا البداية والغاية ، فالتيسير يقتضى أنْ تسلك أقرب الطرق وأقصرها وهو الخط المستقيم ؛ لأن كل التواء فى الطريق أو منعطف يكون فى خط السير مُثلَّثاً من ضلعين، ويكون الطريق المستقيم هو الضلع الثالث .

ومعلوم أن مجموع أىِّ ضلعين فى المثلث أطول من الثالث ، إذن : يطول عليك الطريق ؛ لذلك يُحدِّثنا القرآن عن الصراط المستقيم ، وعن سواء السبيل يعنى : الجهة اليمين تساوى الجهة اليسار .

لكن ، لماذا كان طريق المؤمنين صراطاً مستقيماً ؟ لأن الله تعالى هو الذى شرعه فى منهج خَلْقه ، ولأنه مُنزَّل من الله .

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلَ ۝٥ ﴾ [يس] فاعلم أنه من جهة العلو ، وإنْ كان المنزَّل فى باطن الأرض ؛ لأنه فى واقع الأمر جاء من الأعلى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالحديد لا تنظر إلا أن مقرَّه فى الأرض ، لكن انظر إلى عُلُوِّ خالقه ؛ لذلك أعطاه الله صفتين : صفةً دنيوية ، وأخرى دينية .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالبأس الشديد لأعداء الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فهذه للآخرة ، وفيه منافع للناس أى : فى الدنيا ؛ لذلك تجده المعدن الشائع الانتفاع به ، والأكثر قوةً وصلابةً .

وقوله تعالى ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ؛ لأن التنزيل من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت مختار تطيع أو تعصى ، فالحق الذى شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير ؛ لأنه سبحانه لا يعود عليه شىء من طاعتك ولا تضره معصيتك .

إذن : أنت المقصود من هذه المسألة ؛ لأن الله تعالى عزيز عن خلْقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرتَ إلى العاصى المخالف لمنهج الله ، فالله عزيز قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذك من قبضته تعالى ، وإذا نظرتَ إلى المطيع ، فالله رحيم .

وعلة الإنزال :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ (١)

الإنذار : التخويف من معطب مهلك ، ويشترط أنْ يكون الإنذار قبل وقوع الشىء ليؤدى الإنذار مهمته فى أنْ يردع الإنسان عنه ، فلا يقع فى أسباب الهلاك ، ويستطيع أنْ يحتاط لنفسه ، وأن ينجو بها .

---

(١) فى هذه الآية أمر دقيق جداً يجب الانتباه إليه ، فإن بعض المشككين فى القرآن قديماً وحديثاً يقولون : كيف يقول القرآن هنا ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝٦﴾ [يس] أى أن العرب لم يُنذروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير فى تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا هذا ، وفى آية أخرى يقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم] أليس إسماعيل من العرب؟

نقول : نعم ، إسماعيل رسول ونبى كما نص القرآن ، بل فى آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۝١٦٣﴾ [النساء] ، بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحت الآية ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..۝٨٤﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا فى الآية اسم موصول ، لا نافية . والمعنى على هذا : لتنذر قوماً **الذى** أُنذر آباؤهم . أى (مثل الذى) أو (بالذى) . لذلك قال : فهم غافلون أى أنهم غفلوا ونسوا ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، فأشركوا مع الله رب البيت الذى بناه ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ، ولكن علتهم هى الشرك ورفضهم أن يخرج من بنى هاشم رسول . والله تعالى أعلى وأعلم . [عادل أبو المعاطى]

ومعنى ﴿ مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ⑥ ﴾ [يس] ساعة تسمع (ما) تظن أنها نافية ، كذلك قال المفسرون . قالوا : لأنهم كانوا أى : الآباء أهل غفلة ، وعلى فترة من الرسل ، فلم يكُنْ لهم رسول ينذرهم . فإنْ قُلْنا : إن رسول الله ﷺ أُرسلَ نذيراً للناس كافة ، بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا : لا ، ليس نذيراً لنا ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى .

وحَلُّ هذا الإشكال أن نقول : نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرَّتْ عليهم جميعاً فترات اختلفوا فيها وضلُّوا ، ولم يأْتِ لهم نذير يردُّهم عن ضلالهم ، إذن : جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمروا على نذارته ، وها هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جديداً .

أو : أن (ما) هنا بمعنى اسم موصول أى : لتنذر قوماً بالذى أُنذر به آباؤهم ، كما أُنذِر آباؤهم من قبلهم . يعنى : لستَ بِدْعاً من الرسل .

وقوله : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ ﴾ [يس] الغفلة أنْ يوجد شيء كان بخاطرك ، ثم لم يتعلَّق قلبك به حتى يدخل فى مرتبة النسيان ، فلا تذكره إلا حين يأتى مَنْ ينبهك إليه ، ويُذكِّرك به ، والنسيان ليس وظيفة القلب ، إنما وظيفة العقل والذاكرة ، فلو أن القلب مُتعلِّق بالشيء ، فكلما طرأتْ عليه غفلة تعلَّق القلبُ بها يسدها ، فتظل فى الذاكرة لا تغفل عنها .

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ ﴾

الحق سبحانه وتعالى سطَّر أزلاً كلَّ ما يكون من مُسْتقبلى أىِّ دعوة دينية المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاختيار ، وكَوْنه تعالى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم يأتى الحدث منهم وفْق ما سجَّل ، هذا يعنى أن ما قاله قديماً حقٌّ .

والقرآن يقول مرة ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ ⑦ ﴾ [يس] ، ومرة ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ⑩ ﴾ [هود] ، ومرة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ ⑧٢ ﴾ [النمل]

وكلها تدل على أن ما سبق فى علم الله من الإخبار عن مختار اختار الهدى أو الضلال مُسجَّل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله به ، ولو كان العبد غير مختار لَقُلْنا : إن الله قهره على ما أراد ، لكنه مختار .

والحق سبحانه له طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما سيكون سجل وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① ﴾ [المسد] فقد كان بوسع أبى لهب حين سمع هذه الآية أنْ ينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقاً ، وله إذن أنْ يتهم القرآن وأنْ يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وظَلَّ على كفره حتى صدَق فيه إخبار الله مع أنه مختار .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧ ﴾[المجادلة] وعجيب منهم بعد أنْ فضحهم القرآن ، وأخبرهم بما يدور فى نفوسهم ألاَّ يؤمنوا به ، وألاَّ يسألوا أنفسهم مَن الذى أخبر محمداً بما فى نفوسنا ، ولو لم يكُنْ منهم هذا القول فى أنفسهم بالفعل لواجهوا محمداً ، ولقالوا : لم يحدث منا هذا .

لذلك الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمغيبات لا تقع عليها عقول البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أنْ يُثبتوا له فوق الرسالة أنه إله يخبر بالشىء قبل حدوثه ، فهو ﷺ يقول لهم : أنا رسول وهم يريدونه إلهاً .

القول السابق وقع على هؤلاء ؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون ويعاندون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾[يس] لذلك يقولون : إن للملائكة تعجباً ، قالوا : وما تعجُّب الملائكة ؟ قالوا : ساعة تقع فى كون الله حركةٌ يجدون خبرها عندهم فى الكتاب ، فيقولون : ما أعلم ربنا وأقدره ، يعنى : ما أخبر الله به ، وقع كما أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار .

ولما حاول الفلاسفة عَرْض هذه المسألة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾[يس] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين ترك الأمر للمكلَّف بالاختيار ؛ لأن الإنسان نفسه قَبِل أنْ يكون مختاراً لم يلزمه الله بشىء ، على خلاف السموات والأرض والجبال ، فقد رفضتْ هذا الاختيار ، واختارت أن تكون مُسخَّرة لله ، مقهورة لإرادته سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب]

إذن : الحق سبحانه خَيَّر الجميع فأبت السموات والأرض والجبال ، أما الإنسان فقد اغترَّ بعقله وذكائه وتصرفه فى الأمور ، فَقَبِل الاختيارَ ، فحكم الله عليه بأنه ظلوم وجهول ، ظلوم لأنه ظلم نفسه بتحمُّل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ، ولم يَضمن وقت الأداء ، فالعاقل هو الذى ينظر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى وقت تحمُّلها .

فلو جاءك صديق يُودع لديك مبلغاً من المال كأمانة لحين الحاجة إليه ، فمن السهل عليك أنْ تقبل هذا المبلغ وفى نيتك أداؤه عندما يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أنْ تتغير ظروفك فتحتاج إليه ، أو تتغير ذمتك ، أو غير ذلك مما يطرأ على الإنسان .

إذن : فجهل الإنسان هنا أنه أغفل وقت الأداء ، وظُلْمه لنفسه أنه جَرَّ عليها ما لا تقدر عليه ؛ لأنْ شهوات نفسه لا بُدَّ أن تُلح عليه ، ولا بُدَّ أنْ تُوقعه فى المخالفة .

قالوا : إن العالم كله محكوم بأمرين : بمشهود ، وغيب ، ومن عجيب الأمر أن المشهود هو الدليل على الغيب ، يعنى خُذْ مما تراه دليلاً على ما لا تراه ؛ لذلك حين نريد أنْ نربى فى الناس الإيمانَ بالله نلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت]

وبعد أنْ تتأمل فى ملكوت الله وآياته فى كونه فتؤمن به يعطيك قضايا أخرى لا يتسع لها عقلك ، لماذا ؟ لأنه سبحانه يريد للإيمان به عنصرين : أنْ تؤمن بالمشهد ، وأن تسلم إذا آمنت بالمشهد على وجود حق ، وهو الحق واجب الوجود ، فتسمع منه سبحانه ، فإنْ أخبرك بشىء لم يتسع له عقلك فاقبله من باطن الإيمان به .

فإنْ قال لك إن الصراط مثلاً أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف فلا تنكر ، وإنْ كان عقلك لا يتسع لإدراكها ، لأن الذى قالها الله المشرع . فأنت أخذتَ من المشهد دليل الغيب وهو الله ، وأخذتَ من دليل الغيب وهو الله إيمانك بأشياء لا يعقلها عقلك ، فكأن المشهد والغيب عليهما مَدار الإيمان وغيره .

فمطلوبات التديُّن إما مطلوبات من القلب ، أو مطلوبات من

الجوارح ، أو مطلوبات من اللسان . فالقلب مطلوب منه العقيدة بأنْ يؤمن بواجب الوجود ، وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يبلغني منهج حياتي ؛ لأنه هو الذي خلقني وأنا صنعته ، والصانع هو الذي يحدد قانون الصيانة لما صنع ، وقانون الصيانة لا يكون إلا بالبلاغ .

والحق سبحانه لا يكلم الخلْق واحداً واحداً ، إنما يصطفي لهذه المهمة - مهمة البلاغ عنه سبحانه - مَنْ يشاء من الملائكة ومن البشر ، فالمصطفى من الملائكة يبلغ المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ بقية الناس ؛ لذلك ربَّى النبي ﷺ الأمة الإسلامية في ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن كل واحد انتظر أنْ يكلمه الله مباشرة لاستغرقتْ تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير .

إذن : البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد ، أو أن له شريكاً ، أنت بنفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا بُدَّ من رسول يخبرك : عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك .

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أنْ نقول لهم أولاً : ما هي العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لمعبوده في أمره ونَهْيه ، فنقول : ماذا قالتْ لكم الشمس ؟ بِمَ أمرتكم ؟ وعن أيِّ شيء نهتْكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ إذن : هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهي إذن باطلة مردودة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال ، قُلْنا : لو أن طارقاً طرق علينا الباب ، لا بُدَّ أننا جميعاً سنلتقي في فكرة واحدة ، هي أن طارقاً بالباب يريد الدخول ، إنما لا أحد منا يعرف مَنْ هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو بشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا سنختلف فيها .

إذن : علينا أن نقف عند الحد الذى نتفق عليه ، وهو أن طارقاً بالباب ، ونترك لهذا الطارق أن يُعبِّر هو عن نفسه ، فنقول : مَنْ أنت ؟ فيقول : أنا فلان جئت لكذا وكذا . كذلك الحق سبحانه يكفى أنْ تستدل من صُنْع الكون العجيب أن له صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، له كل صفات الكمال ، لكن مَنْ هو ؟ وما مراده منك ؟ هذه مهمة الرسول المبلِّغ عن الله .

لذلك ، فإن خيبة الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل واجب الوجود سبحانه ، بل أرادوا أنْ يتصوروا واجب الوجود ، هذا هو خطؤهم ، ولو وقفوا عند التعقُّل لكان كافياً ، ثم تقول لمن تعقلته : من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟ ماذا أعددتَ لى إنْ أطعتُك ؟ وماذا تفعل بى إنْ عصيتُك ؟ وعندها يرسل لك رسولاً يجيبك على كل هذه الأسئلة .

هذا هو مطلوب التديُّن القلبى ، وهو الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود ، واحد أحد ، وأنه يرسل الرسول ليبلغ عنه ، وهذا الرسول صادق فى البلاغ مُؤيَّد بمعجزة ، هذه مسألة عقلية واضحة .

وبعد أنْ آمنتَ بهذه العقلية الواضحة المشهودة يخبرك بأشياء غيبية لا دليلَ عليها ، كالإخبار مثلاً عن الجنة وصفاتها ، وأنك ستتمتع فيها وتأكل دون أن تتغوط .. إلخ هذه كلها مسائل يقف العقل أمامها ، لكن مَنْ أخبرك بها ؟ الله الذى صدقك فيما شاهدتَ ، وسبق أنْ آمنتَ به ووثقتَ بكلامه .

ثم يأتى دور مطلوبات الجوارح ، فالإله الذى آمنتَ به لا بُدَّ أنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه ؛ لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله .

لكن ، لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قالوا : كانت خمسين لتستوعب كل الزمن يعنى : خمسين تُوزَّع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمة الله بنا أنْ جعلها خمساً فى العمل ، وخمسين فى الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها .

وأذكر أننا ونحن فى الحرم ، كنا نصلى الظهر مثلاً ، وسرعان ما يُؤذَّن للعصر ، فلا نتمكن من الجلوس فى الحرم والتأمل فيه ، والنكتة المشهورة فى هذا المقام أن الشيخ أحمد رحمه الله كان كثيراً ما يُذكِّر واحداً منا بالصلاة (قوم يا واد صلى) . فقال له : يا شيخ أحمد (احنا جايين نحج ، مش جايين نصلى)

إذن : نقول جُعلَتْ الصلاة خمساً لتستوعب كل اليوم والليلة ، ولتحقق استدامة الوَلاء لله تعالى ، ثم أنت فى الصلاة نفسها تجد هذه ركعتين ، وهذه ثلاثاً ، وهذه أربعاً دون أنْ يعى عقلُك الحكمة من العدد هنا ، ويكفى أن تقول هنا إن الله هو الذى شرعها كذلك وتقف.

ثم أنت لا تعيش فى المجتمع بمفردك ، بل مع أناس ، منهم الضعيف ، ومنهم الفقير والمحتاج ، وهؤلاء لا بُدَّ أنْ يعيشوا كما تعيش أنت ، فعليك أن تُعينهم بالزكاة أو الصدقة .

ثم شرع لك الصيام ، وهو عبادة تُعوِّدك ألاَّ تعصى الله وتُبعدك عن المخالفة ، حتى تصير الاستقامة عادةً مُتأصِّلة فيك ، والله يريد أنْ يستديم فى التكاليف حرارة العبادة ، لا إلْفَ العادة ؛ لذلك يأتى إلى ما أحلَّه لك فى شعبان ، ويمنعه عنك فى رمضان .

كذلك فى اللسان الذاكر الناطق بالكلمات ، هناك فى القرآن كلام تفهمه ، وكلام يقف أمامه عقلك ، ففواتح السور مثلاً كلها مما تقف فيه العقول ، والباقى مما تتفتَّح فيه العقول وتفهمه ؛ لأن هناك فرقاً بين مَنْ يُقبل على الشىء لتعقله ، ومَنْ يُقبل على الشىء بدون تعقُّل ، ولكن لأن الآمر أمر به .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قُلْنا : هَبْ أن سيداً فى بيته وعنده عمال، فقال لواحد منهم : انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخر فقال : لا أقدر وحدى ، وسوف أستعين بزميل لى ، فقال : إن تحته مالاً هو لك ، عندها سيكافح وحده لنقْل الحجر ، إذن : نقله للعلة أم للأمر ؟ للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك ، الإيمان لا يكون لعلة ، إنما انصياعاً للأمر .

فالمعنى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ⦗٧⦘ ﴾[يس] يعنى : وجب وثبت وجاء كما سجلناه عليهم ، وقوله ﴿ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ⦗٧⦘ ﴾[يس] يعنى : ليس عليهم جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً احتياط للواقع ، وهو دليل على أن منهم مؤمنين ، ولو رجلاً واحداً ، وهذا الاحتياط من القرآن نسميه « صيانة الاحتمال » .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⦗٧⦘ ﴾[يس] إخبار يدل على حيثيات هذا الإخبار .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⦗٨⦘ ﴾

يعطينا الحق سبحانه فى هـذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرضين عن اتباع الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] الأغلال : مفـردها غل ، وهو الحديدة التى تمسـك اليد وتشدّها تحت الـذقن ، وحين تشد اليـد تحت الذقن ترتفع الرأس إلى أعلى ، وبالتالى يرتفع مستوى النظر إلى أعلى ، فلا يكاد يرى الإنسانُ طريقه ، ولا يهتدى إلى موضع قدمه .

وهذه الصورة واضحة أيضاً فى معنى كلمة ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] المقمح : مـأخوذ من إبل قماح ، وقماح الإبل أنهـا حين تذهب لشرب الماء تغرف منه ، ثم ترفع رءوسـها إلى أعلى(١) .

قال بعضهم : إن هذه صورة رسمـها الحق سبحانه لمن غَلَّ يده عن الصـدقة وعن الإنفـاق ، كذلك تُغَـلُّ يده إلى عنقه يوم القـيامـة ، بحيث يؤثر هذا الغُلُّ فى مساره الذى بنى عليه حركة حياته ، والحق سبحانه يوازن دائماً بين ما فعله المـستحق للجزاء والجزاء ، فالجزاء من جنس العمل .

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٣٤﴾ ﴾[التوبة] هذا هو العمل ، فما الجزاء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه مواضـع ثلاثة من الإنسان : الجـبَاه ، والجُنُوب ، والظُّهور جاءت بهذا الترتيب لتطابق تماماً مـا فعله صاحب المال الذى كنز ماله وضَنَّ به على الفقيـر ، فقد كان الفـقير يأتيه فيـلوى عنه جبهته ويعطـيه جَنْبه ، ثم

---

(١) قال الجوهرى : قمح البعير قمـوحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب ، فهو بعير قامح . [لسان العرب - مادة : قمح] .

يدير له ظهره وينصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويُعينهم على الكفر ؟ قالوا : نعم لأن عبدى حين أناديه فيتأبَّى علىَّ فى ندائى ، ولا يُقبل علىَّ بعبوديته لى أعينه على كفره ؛ لأننى رَبٌّ غنى عنه ، فإنْ أحب الكفر وعشقه ولم يَعُدْ هناك أمل فى هدايته أختم على قلبه ، فلا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر . لذلك مَنْ تجنَّى عليك وصَدَّ عنك فأعنْه على ذلك ، ولا تُذكِّره بنفسك .

إذن : ما كفر أحد غَصْباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من اختيار ، ولأنه سبحانه رَبٌّ وهو خالق العباد ، فعليه سبحانه أنْ يُعينهم ، كلاً على ما يريد ، فالذى أراد الإيمان وأحبَّه أعانه على الإيمان ، والذى أراد الكفر وعَشقه أيضاً أعانه عليه وساعده .

لذلك ختم الله على قلوب الكافرين ، وهنا يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : أمامهم ﴿ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس] حاجزاً ومانعاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس]

هذا مانع مادى خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاءً ، فهم مصدودون عن الحق لأشياء . أولاً : فى ذواتهم أغشينا أبصارهم فلا يروْنَ ولا يهتدون ؛ لأنهم بذواتهم لم يذكروا عهد الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناس عليها .

أما الخارج عنهم ، ففى المنهج الذى لم يلتفتوا إليه ، لا فيما أمامهم ، ولا فيما وراءهم ؛ لأن هناك سَدّاً يمنعهم ، فلو تذكَّروا ما ينتظرهم لارتدعوا عن غَيِّهم ، ولو تأملوا ما نزل بمَنْ سبقهم من المكذِّبين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا .

لكن جعل الله من أمامهم سَدّاً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن خَلفهم سَدّاً فلا يتدبرون ما حاق بأسلافهم ، ممَّنْ قال الله فيهم : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [(١)] .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

فإنْ قُلْتَ : الحق سبحانه جعل سَدّاً يمنعهم من الجهة الأمامية ، وسَدّاً يمنعهم من الجهة الخلفية ، فماذا لو ساروا على جنب إلى اليمين ، أو إلى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا إلى اليسار مثلاً لَصَار اليسار بالنسبة لهم أمام ، واليمين صار خلفاً ، فهم إذن مُحَاصرون بالموانع ، بحيث لا أمل لهم فى الرجوع إلى منهج الحق ، وإلى الصواب .

ويصح أن يكون المعنى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩)﴾ [يس] أى : مانعاً يمنعهم من التأمل والنظر فى الأدلة العقلية المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً (٩)﴾ [يس] يمنعهم ، فلم

---

(١) هذه أربعة أصناف من العذاب :
- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً (٤٠)﴾ [العنكبوت] : هم قوم عاد . والحاصب ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض حصاها ورمالها .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠)﴾ [العنكبوت]: هم قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أو صرخة أخمدت منهم الأصوات والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ(٤٠)﴾ [العنكبوت] : هو قارون ، خسف الله به وبداره الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠)﴾ [العنكبوت] هو : فرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

ينتهوا إلى الفطرة الإيمانية المُودَعة فيهم .[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

السوائية هنا بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله عليه مجرد البلاغ ، ومادام بلَّغهم فقد انتهت مهمته ، فكأن الله يقول له : اطمئن ولا تحزن ، فإنذارك وعدمه عندهم سيَّان ، إنما بإنذارك أُقيمت عليهم الحجة ، لأنهم أقسموا في موضع سابق : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٣/٥٦٤) عن محمد بن كعب القرظي « أن أبا جهل قال لصناديد قريش وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً . فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه فجعل يذرُّها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : « وقد خرج عليكم ، فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب » وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور (٧/٤٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل .

يعنى : إنذارك يا محمد يجدى مع مَنْ يذكر الله ويخافه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب ، هذا الذى ينتفع بالإنذار ويستفيد منه على خلاف المكذِّب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿اتَّبَعَ الذِّكْرَ ⑪﴾ [يس] أى : القرآن .

والخشية : خوف ، لكن بمهابة ، فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترجوه ، أما الخوف من غير الله فخوف بكُرْه ؛ لأنه خوف من جبروت ؛ لذلك جاءت بعد الخشية صفة الرحمة ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ ⑪﴾ [يس] فأنت تخاف ممَّن اتصف بالعطف والحنان ، وهذا أدْعى أنْ يُحبِّبك فيمَنْ تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون خشيتك له ممزوجة بالهيبة والوقار ، وبالرجاء فيه ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ ⑪﴾ [يس] حتى لا تنفر من الذى تخافه .

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿بِالْغَيْبِ ⑪﴾ [يس] يعنى : ساعةَ يكون غائباً عن الناس منفرداً ، فإنه يخشى الله ، ولا يخشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ؛ لأن رقابة البشر للبشر لا تُجدى ؛ لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقَب يجوز على المراقِب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقِب تفتيشاً مفاجئاً لا تأمن التدليس .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً برجل المرور ، فالواحد منا قبل أنْ يُسمح له بقيادة سيارة لا بُدَّ أنْ يمرَّ بشروط قاسية تضمن أولاً سلامة السيارة التى يقودها ، ثم تمكّنه هو من فن القيادة ، ولا بُدَّ أنْ يجتاز الاختبارات اللازمة لذلك ، ومع هذا كله منَّا مَنْ يلتزم ، ومنَّا مَنْ لا يلتزم بالقواعد المرورية ؛ لذلك نجعل رجل المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع ، وعليه مَنْ يراقبه .

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أنْ يُدلس ، فـيأخذ الرخصة من مخالف ، ويتغافل عن آخر استـحدثوا آلات للمراقبة مثل الرادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات مَنْ يُشغِّلهـا ؟ بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن : حين يكـون المراقب من جنس المـراقَب ، فعمليـة المراقـبة لا تفـيد ، ولو جـعلنا على كل منا رقـيـباً لاحـتـجْنا إلى جيـوش من الحراس .

إذن : ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمـد ﷺ جاء ولرسالته ميـزات الرسالة الكاملة ، فرسالتـه غير مـحدودة بزمـان ولا بمكان ، فالزمـان والمكان همـا اللذان يحصـران الأحداث ، فهما ظرفان للحدث ، فـإذا لم يكُنْ حدث موجوداً فلا زمانَ ولا مكانَ ؛ لذلك لا يصح أنْ يُقـال بالنسبة لله تعـالى : أين ولا متى ، لأن أيْن ومتى مخلوقتان لله .

وإذا كـان الزمان والمكان يشـتركـان فى الظرفـية للحـدث إلا أن المكان ظرف قـارٌّ يعنى : ثابت ، والزمان ظرف متـغيـر ، فهذا وقـته الصبح ، وهذا الظهر ونقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا .

رسول الله جاء برسالة عـامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم السـاعة ، وجاء بـمنهج لصيـانة الإنسان فى العـالم كله مع اخـتلاف بيئاته وطبائعه ، وفى الأزمنة باخـتلاف عصورها ، فكيف تتحقق هذه الصيانة وهـذه المراقبة ؟ ما دام مـحمد ﷺ قد جـاء بمنهج ليحكم به العالم كله زمانـاً ومكاناً ، فلا يصح أنْ يجعل على كل فرد منه رقـيباً من جنسـه ، ولا حتى من المـلائكة ، إنمـا عليه أنْ يربى فى نفـوس الناس خشية الله ، وأنْ يزرع فى قلوبهم المهابة منه سبحانه بالغيب ،

وهذا هو الرقيب الحقيقى والرقيب الملازم الذى لا ينفكّ عنك ، ولا يفارقك لحظة .

لذلك ، المرأة التى راودها الرجل وأغراها بأنهما فى فلاة لا يراهما أحد فقال لها : ما يمنعك منى ، وما يرانا غير الكواكب ؟ فقالت له : يا أبله ، وأين مُكوكب الكواكب ؟ هذه هى خشية الرحمن بالغيب .

ورُوِى أن المعتضد[1] وهو أحد ملوك دولة بنى بُوَيْه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد ليبيع عِقْداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد فى السوق مشترياً لنفاسة العقد ، ومرَّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال : هذا رجل أمين أُودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذى تركه عنده ، فأنكره الشيخ ، وخابت كل محاولاته لاستعادة العقد .

سمعه أحد المارة فقال : يا هذا إنه رجل مخادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ، ذهب الرجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصة فقال له : اذهب فى الغد واجلس بجوار هذا الرجل ، وسوف أمرُّ عليك فى موكبى فلا تَقُمْ لى وإنْ كلَّمتُك فردَّ وأنت جالس ، ودَعْنى أتصرف فى هذه المسألة .

وفى الغد مَرَّ المعتضد فى موكبه المهيب ، وحوله الحاشية

---

(١) ليس المعتضد ، وإنما هو عضد الدولة واسمه فنَّاخسرو ، أبو شجاع ، أحد المتغلبين على الملك فى عهد الدولة العباسية ، ولد ٣٢٤ هـ تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شيعياً ، وكان كثير العمران عظيم الهيبة ، توفى ببغداد عام ٣٧٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ١٥٦/٥].

و (الهيلمان) والصولجان[1] فنظر إلى صاحب العقد وقال : يا فلان منذ متى وأنت هنا ؟ وكيف لا تخبرنى بوجودك لأقابلك وأؤدى لك حقك .

سمع الشيخ هذا الكلام فظنَّ أن الرجل من معارف الملك ومن أتباعه ، فارتعد ونادى صاحب العقْد ، وقال له : أرجوك لا تذكرنى أمام الملك بحكاية العقْد هذه ، وقام إلى العقْد فردّه إلى صاحبه ، ذهب الرجل بالعقد إلى المعتضد فتبسم ، وقال له : انتظرنى فى الغد أمام دكان هذا الشيخ .

وبالفعل جاء المعتضد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشنقة ، فأمر بنَصْبها أمام دكان هذا المخادع ، وأمر به فشنقوه . ثم قال : هذا جزاء مَنْ كان إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس إيمانه بالغيب - يعنى : بعيداً عن أعين الناس[2] .

لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وكانوا أول الناس سَعْياً للصلاة ، وكانوا أصحاب الصف الأول خلف رسول الله ، ومع ذلك كان هذا جزاءهم لماذا ؟ لأن المنافق متناقض مع نفسه ، فلسانه خلاف قلبه .

ومن معانى الغيب فى قوله تعالى :﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] أى : الغيب الذى أخبر الله به من أن هناك آخرة وبعثاً وحشراً وحساباً .

---

(١) الصولجان : العود المعوج فارسى معرّب [لسان العرب - مادة صلج] وهو رمز السلطة والجاه .

(٢) ذكر هذه القصة الإمام ابن الجوزى فى كتابه الأذكياء - الباب الحادى عشر ، وقد حدث هذا فى بغداد ، وقد كان التاجر الذى أنكر الوديعة التى عنده عطاراً ، أما الآخر فقد كان من أهل خراسان ، وكان جزاء العطار أن العقد علّق فى رقبته وصُلِب على باب الدكان .

وهذه الخشية لله تكون بالغيب يعنى : الإيمان بالغيب ، والله تعالى نؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا : ما غاب عنك ولا يوجد فى الكون طريق يُوصِّلك إليه ولا مقدمات ، فنحن نعرف مثلاً فى حل تمارين الهندسة أو النظرية : الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُوصِّلك للغاية وللمطلوب .

لذلك تجد أن علم الغيب ينقسم إلى قسمين : غيب استأثر الله به ، لا يُظهر عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من الغَيب مقدمات تُوصَل إليه وتدلّ عليه ، وهناك غيب له مقدمات تدلُّك عليه ، فإن استخدمتَ هذه المقدمات توصَّلْتَ بها اليوم إلى ما كان غيباً بالأمس ، وينبغى عليك أنْ تستدلّ بالغيب الذى صار مشهداً لك على أنْ تصدق بالغيب الذى لم تدرك غيبه ، ولا سبيل لك إليه ، ينبغى أنْ يحفزك ما ترى على أنْ تؤمن بما لم تَرَهُ .

وقلنا : إن هذا النوع من الغيب وهو الغيب الذى له مقدمات تُوصِّل إليه ، له ميلاد يظهر فيه ، فإنْ صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً فى ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التى تخدم البشرية الآن مصادفة ؛ لأن ميلاد الغيب جاء وبحثُك عنه لم يجئ .

والمؤمن هو الذى يزداد إيمانه بالغيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والموهوبين من الناس مَنْ يفسر لك الغيب الذى لم يأْت أوانه بشىء موجود بالفعل ، ومن ذلك ما رُوى أن الروم أرسلتْ إلَى أمير المؤمنين أنْ يرسل إليهم عالماً يفقههم فَى أمور الدين ، فأرسل إليهم الشّعْبى[1] فجعلوا يسألونه فيما يَخْفَى عليهم

---

(١) ذكر ابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية » أن الرجل هو خالد بن يزيد القرشى ، وقد التقى بشمامسة ورهبان وسألوه هذه الأسئلة ، وذكر صلاح الدين الصفدى فى « الوافى بالوفيات » أن الرجل هو الخليل بن أحمد الفراهيدى والسائل راهب فى صومعة ، وكذلك القاضى التنوخى فى « نشوار المحاضرة » . والله أعلم .

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعَّم فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشَّعْبى بما عنده من الإشراقات التنويرية التى يفتح الله بها على مَنْ يشاء . وقال لهم : أرأيتم الجنين فى بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أنْ يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق ، كذلك الإنسان فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ؛ لأنه يتغذى بطهى الله له ، فالله يعطيه بقَدَر بحيث لا يبقى شىء يتغوّطه الإنسان ، أمّا نحن فنأكل بطهينا لأنفسنا ، ولا نأكل بقدْر الحاجة ، لذلك نتغوط .

قالوا له : زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أنْ ينقص منها شىء ، فكيف ذلك ؟ قال : لأن الشىء ينقص بالأخذ منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فإنْ كان له مدد لا ينقص ، والمدد فى الجنة مِن الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شىء آخر : لو جئتَ إلى المصباح فأخذتَ منه شعلة ، بل آلاف الشعلات ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟

وهكذا ردّ الشعبى ، وأُعجب به القوم ، وكتبوا له كتاباً يُوصله إلى أمير المؤمنين ، وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة فى خدمته ، وكان فى الكتاب : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى ، كيف يُولُّون غيره ؟

فلما ذهب الشعبى وسلَّمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبى : أتدرى ما فى الكتاب ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : اقرأ ، فقرأ الشعبىُّ العبارة : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى كيف يُولُّون غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يَرَكَ ، ولو رآك لغيَّر رأيه .

والمتأمل في مسألة الإنذار يجد لرسول الله ﷺ إنذارين : عام للعالمين جميعاً ، وهو إنذار بلاغ من الله للجميع المؤمن والكافر ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٤)﴾ [فاطر] فالذين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ، وينتفعون بالبشارة ، والذين لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشيء .

والإنذار الآخر إنذار خاص بمَنْ خَشي الرحمن بالغيب ، وهو إنذار القبول ، وينتفع به مَنْ خشي الرحمن بالغيب ، فالذين لا يخشوْن ربهم سبق أن أُنذروا ، لكن إنذار بلاغ ، فلم ينتفعوا به ؛ لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص .

وقوله سبحانه : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس] قلنا : إن البشارة : إخبار بالخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويُطمعك فيها ، وتلحظ هنا أن المغفرة سبقتْ الأجر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أن يُعطيك النعمة يصرف عنك العذاب أولاً ؛ لأن التخلية كما قلنا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هي جزاء الإيمان بالله ، أما الأجر فجزاء العمل بمنهج الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨)﴾ [النساء] فمَنْ آمن بالله أمِنَ العذاب وضمن المغفرة ، فإنْ أراد الأجر فعليه بالعمل الصالح .

ووصف الأجر نفسه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطي سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطي تعدَّى إلى العطية ، فصارت العطية كريمة ، وكأنها تتلهَّف على صاحبها ، كما يتلهَّف الرجل إلى العطاء ؛ لذلك قلنا : إن النعمة التي يُنعم الله بها على خَلْقه تعشق صاحبها ، وتسعى إليه وتكره مَنْ يحسده عليها ، أو يحقد عليه بسببها .

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقد ، ولا يناله منها خير أبداً ،

وكأن المنعم سبحانه يقول : ما دُمْتَ قد كرهتَ النعمة عند غيرك ، فلن تنال منها شيئاً ؛ لأنك تُخطِّئ الله في عطائه ، وتعترض على قضائه ، فكيف تأتيك نعمته ؟ لكن إنْ أحببت النعمة عند غيرك تأتكَ وتطرق هي بابك .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً من بلدنا ميت غمر جاءني يشكو قسوة عمه الغني عليه ، وأنه رغم غنَاه بخيل عليه ، ويستعمل الأغراب ، ويتركه هو بدون عمل ، وغير ذلك مما ذكره في شكواه ، وكان معي في هذه الجلسة أهلي ، فقالت له : يا ابني أنت دائماً تشتم عمك وتخوض في حقه ، قال : نعم لأنه لا يسأل عني .

فقلت له : أسألك سؤالاً وأستحلفك ألاَّ تكذب ، فلما رأى أنني سأحلفه على المصحف تراجع ، فقلت له : أتحب النعمة عند عمك ؟ قال : لا ، كيف أحبها ، وأنا لا أنال منها شيئاً ، قلتُ : لو أحببتَ النعمة عند عمك ، وتمنيتَ له الخير والمزيد لجاءتك النعمة تطرق بابك ، قال : إذن أرجوك يا مولانا تكلم عمي وتوصيه عليَّ .

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بينه وبين عمه ، فبعد صلاة الفجر جاءني يطرق الباب ، فلما دخل قال وهو يبكي : يا مولانا أحكي لك حكاية أغرب من الخيال . قلت : ما هي ؟ قال : قبل الفجر بساعة جاء مَنْ يطرق عليَّ الباب بشدة ، فقمت ففتحت الباب ، فإذا به عمي يعاتبني ويقول : كيف تتركني للأغراب ينهبون مالي وأنت (داير) على حَلِّ شعرك ، خذ المفاتيح ، ومن الصباح تفتح المحلات ، وتباشر بنفسك مصالحي .

فقلت له . نعم ، لأنك أحببتَ النعمة عند عمك وغيَّرتَ ما في

نفسك ناحيته . إذن : مَنْ أراد أن تكون نِعَم الناس كلها عنده ، فَلْيُحب النعمة عند غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] لها موضع هنا ، فالمغفرة والأجر الكريم فى الآخرة ، فناسب أنْ يُحدِّثنا الحق سبحانه عن مشهد من مشاهدها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس]

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] هذان ضميران للمتكلم على سبيل التعظيم ، فإنَّا هى نحن ، كما لو قلت : زيد زيد ، فماذا أضافتْ نحن بعد إنَّا ؟ القاعدة فى صياغة اللغة أن تمييز الشىء يأتى حين يكون هناك اشتراك ، فإنْ لم يكُنْ اشتراك فلا يأتى التمييز كما لو قُلْتَ لمن يطرق على بابك : مَنْ أنت ؟ يقول : محمد ، وأنت تعرف محمدين كثيرين . فتقول : أيُّ المحمدين أنت ؟ فيقول : محمد أحمد ، وأيضاً أنت تعرف كثيرين بهذا الاسم ، فتقول : محمد أحمد مَنْ ؟ فيقول : محمد أحمد محمود . وعندها يحصل التمييز لوجود الاشتراك فى الأولى ، وفى الثانية .

فكأن الحق سبحانه لما قال ﴿ إِنَّا ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] وليس هناك غيره قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] يعنى : كأنه قال إنَّا إنَّا يعنى : لا أحدَ سِواى ، فليس فى هذه المسألة اشتراك .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلام الله تعالى عن نفسه قد يأتي بصيغة الجمع كما فى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر]

وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر] وتلحظ أن الضمير هنا للتعظيم ، وهكذا فى كل الآيات التى تتحدث عن فعل من أفعاله تعالى ، أو عن فضل من أفضاله ، ذلك لأن كل فعل من أفعاله تعالى يحتاج إلى عدة صفات : يحتاج إلى علم ، وإلى حكمة ، وإلى قدرة .. الخ وكل هذه الصفات كامنة فى (نحن) الدالة على العظمة المتكاملة فى الأسماء الحسنى لله تعالى .

أما حين يتكلم سبحانه عن الذات الواحدة ، فيأتى بضمير المتكلم المفرد كما فى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ⑭ ﴾ [طه] ولم يَقُلْ مثلاً : إننا نحن الله ؛ لأن إننا ونحن تدل على الجمع ، والكلام هنا عن الوحدانية ، فلا بُدَّ أنْ يأتى بصيغة المفرد .

لذلك يؤكد الحق سبحانه هذه الوحدانية بعدة وسائل للتوكيد فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾ [طه] فلم يَقُلْ سبحانه : فاعبدنا وأقم الصلاة لذكرنا ، إنما ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾[طه] لأن العبادة تكون لله وحده .

ثم إن عملية البعث وإحياء الموتى لله وحده لا يشاركه فيها أحد .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ⑫ ﴾ [يس] قبل ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ⑫ ﴾ [يس] مع أن الكتابة تسبق عملية الإحياء ، الكتابة كانت فى الدنيا ، والإحياء فى الآخرة ، فلماذا ؟ أولاً : عليك أن تلاحظ أن هذا الكلام ليس كلامك ، إنما كلام الله ، فلا بُدَّ أن تُعمل عقلك لتفهم عن الله مراده ؛ لأن أسلوب الحق - سبحانه وتعالى - يحمل من الكمالات ما يناسب كماله سبحانه ، وكلامك أنت يحمل ما يناسب كمالك .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن له تميُّزات عن كل الكتب ، وأن تناوله غير تناول أيٍّ كتاب فلا بُدَّ أن يُقرأ على طهارة ، وعلى وضوء ، ولا بُدَّ أن يُراعى فى قراءته مخارج الحروف وقواعد التلاوة وآدابها .

وفاتنا أن نقول : إنه تميَّز تميُّزاً آخر ، فكما تميز فى نُطْقه تميز فى كتابته ، فمثلاً كلمة اسم تُكتب بالألف كما فى ﴿ تَبَٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] ، وكما فى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾[الأعلى] ، لكن فى البسملة فى أوائل سور القرآن كُتبت بدون الألف هكذا بسم الله الرحمن الرحيم ، لذلك نقول عن القرآن : نكتبه بالإملاء ؟!! لا لأن كتابته توقيف .

إذن : ما الحكمة من تقديم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ (١٢) ﴾ [يس] على ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] ؟ قالوا : لأنه ما فائدة الكتابة ؟ الكتابة للأعمال لحصر الحسنات لنثيب عليها ، ولحصر السيئات لنعاقب عليها ، فإذا لم يكُنْ هناك إحياء للموتى وحساب وجزاء ، فما فائدة الكتابة ؟ لذلك قدَّم الإحياء على كتابة الأعمال ، كما أن الإحياء أعظم من الكتابة فناسب أنْ يتقدم عليها .

ومعنى : ﴿ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] أى : من الأعمال ، والعمل قد يكون عملاً مثمراً مستمراً بعد موت صاحبه كالصدقة الجارية ، فلو حفر إنسان بئراً مثلاً يشرب منه الناس ويموت يظلّ البئر يسقى الناس ، أو ترك علماً نافعاً ، هذا كله أثر من آثار العمل الذى كُتب أولاً ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَآثَارَهُمْ (١٢) ﴾ [يس]

ومن آثار الإنسان ما سنَّه للناس وتركه يتبع من بعده ، سواء أكان حسنة أم سيئة ، فكله مكتوب مُسجَّل فى كتاب لا يترك صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأحصى آثارها من بعد صاحبها ، فلو كتب إنسان مثلاً وصية ظالمة حرمت صاحب الحق من حقِّه ، والوارث من ميراثه تحمل كل الآثار المترتبة على هذا الظلم ؛ لأنه لم يحرم الوارث المباشر فحسب ، إنما حرم أيضاً ذريته التى كانت ستستفيد من هذا الميراث ، لذلك يظل عليه وِزْرها إلى يوم القيامة .

كذلك مَنْ سَنَّ للناس قانوناً جائراً ، فعليه وِزْر القانون الجائر الذى حكم هو به ، ثم على مَنْ يحكم بهذا القانون من بعده ، ومثل مسألة القطاع العام مثلاً ، القطاع العام أقامه مَنْ أقامه ، ثم ظلَّتْ آثاره تنهب فى الناس إلى أنْ ضَجَّ منه الجميع وطالب الحكام أنفسهم بتعديله .

هذه القضية تشرح لنا حديث سيدنا رسول الله : « مَنْ سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »(١)

أرأيتم الرجل العجوز يزرع النخلة وربما لا ينتفع بثمرها ، لكن ينتفع به مَنْ بعده ، فهذه هى آثاره من بعده يكتبها الله له ويُحصيها لحسابه .

وقال بعض العلماء فى معنى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (١٢) ﴾ [يس] أى : نكتب ما قدموا من النية التى تسبق العمل ، ثم نكتب العمل نفسه ، وهو آثار هذه النية ، فحين تعقد نية الخير فى عمل ما تأخذ أجر النية ، فإذا ما عملتَ العمل تأخذ أجر العمل .

وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلى . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كُتبت له حسنة ، ومَنْ هَمَّ بها فعملها كُتبت له عَشْراً »[1] وهذا يرشدنا إلى أهميـة عقد النيـة قبل الشروع فى العمل لـيثاب عليهـا الإنسان ، فالمؤمن لا يأتى العمل هكذا عشوائياً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] هناك فَرْق بين الكتـابة والإحصاء ، الكتـابة أنْ تكتب الشىء ، لكن لا تضم المكتوبات إلى بعـضها ، فتـحتاج إلى مَنْ يحـصيها ويعـدُّها ، فالحق سبحانه يسجل علينا الأعمال كتابة أولاً ، ثم إحصاءً وعَدّاً ، والإحصاء والعَدُّ أيضاً فى كتاب مـسجل فيه كل شىء ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] والإمام هو ما يُـؤتَم به ، والمراد هنا اللوح المحفـوظ الذى تأخذ منه الملائكة مهمتها فى إدارة الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فـى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمـان (حديث ٢٠٦) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثـير فى تفسيره (٣/٥٦٩) : « جـاء عن كثير من السلف أن هذه القـرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يُذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : ظاهر القصة يـدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهـة المسيـح ، ولو كان هؤلاء من الحـواريين لقالوا عبـارة تناسب أنهم من عند المسيح عليـه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾ [يس] .

الثانى : أن أهل أنطاكيـة آمنوا برسل المسيح إليـهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمـسيح ، ولهـذا كانت عند النصـارى إحدى المـدائن الأربعة اللاتى فـيهن بتـاركة ، وهُنَّ : الـقدس ، وأنطاكـية ، والإسكندرية ، وروميـة . فإذا تقـرر أن أنطاكيـة أول مدينة آمنت ، فـأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم » .

أولاً : لاحظ أن هذه الآية هى التى ستفسر لنا مسألة أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم (١٣) ﴾ [يس] نعرف أن الضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوة بحيث يؤثر الجسم الضارب فى المضروب ويؤلمه ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، فإذا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة عبث لا جدوى منها .

ومن ذلك قول الرافعى[1] رحمه الله مخاطباً مَنْ يهزأ من قدر الله :

أيَا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدر ... بنفسِكَ تعنُف لاَ بالقَدَر
ويَا ضارباً صَخْرةً بالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر[2]

وفى مادة ضرب يقولون : ضريب الشىء من ضربه يعنى من شبهه وشكله ، فإنْ وقف اثنان فى مسألة ما ، اذكر لهما مثلاً مطابقاً لها وقُلْ لهما : هذه مثل هذه . وأكرم مَثَل فى القرآن ضربه الله تعالى لبيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما يظن البعض ، هو قوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

---

(١) هو مصطفى صادق عبد الرازق الرافعى ، عالم بالأدب شاعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده فى بهتيم بمنزل والد أمه عام ١٨٨١ م ، وتوفى بطنطا عام ١٩٣٧م عن ٥٦ عاماً ، له رسائل فى الأدب والسياسة ، ديوان شعره فى ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « وحى القلم » و « المعركة » فى الرد على طه حسين .

(٢) لم أقف على هذه القصيدة للرافعى ، ولكن له قصيدة من بحر البسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أولها : يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر .

هذا مَثَل لتنوير الله للمنوَّر ، وليس مثلاً لنور الله تعالى ؛ لأن نور الله كمال لا يُحَدُّ ، وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات نوره سبحانه ، بدليل أنه فى يوم القيامة لا تكون هناك شمس تنير ، ولا قمر يضىء ، إنما ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (٦٩) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (١٣) ﴾ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش فى الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما فى الآخرة فنعيش بالمسبِّب مباشرة ، فى الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل ، وأرضاً تنبت ، وماءً يروى ، هذه أسباب الله يعيش عليها الإنسان ، وربما ظنَّ أنه أصيل فى الدنيا ، وربما اغترَّ بما أعطاه الله ؛ لذلك يجعل الله هذه الأسباب تتخلَّف بعض الأحيان ، وتعزّ علينا ليلفتنا إليه سبحانه ، ويقول لنا : لا تغترُّوا بالأسباب ، وتغفلوا عن المسبِّب .

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناسَ جدبٌ وقَحْطٌ قد يطول حتى يُشرف الناسُ والدوابُّ على الهلاك يشرع لنا صلاة الاستسقاء فيهرع الناسُ إلى الله معهم دوابّهم ونساؤهم وأطفالهم ، حتى أنهم يُغيِّرون هندامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين منه السُّقْيا .

فكأن الله تعالى خلّف أسبابه ليُذكِّرنا به سبحانه ، وليُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسباب وراءها مُسبِّب قادر أنْ يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخَّرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان ، ويظن أنها ملْكه ورَهْن إشارته ، والحقيقة أنها هبَة من الله إنْ شاء تركها ، وإنْ شاء سلبها ، بفصل السيال الكهربى بين الجارحة والعقل ، فتشل الجارحة ولا تتحرك ، فيريد أنْ يرفع يده فلا يستطيع .

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزِّع المعونات على دول العالم ، وهى أكثر الدول تقدُّماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصل فيها الماء إلى أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بلد زلازل بطبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : بلادنا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث فى (سخاليد) ، فلم تُجْدِ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات .

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترّ بالأسباب ، وننسى المسبب سبحانه ، وصدق الله حين قال : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق]

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين تعزُّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ۝٤٣﴾ [الأنعام] وكأن الله تعالى يُعلِّمنا كيف نُحنِّنه علينا حين نقول : اللهم افْرِج عنَّا ما نحن فيه .

وضَرْب المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها ، وأكرم مَثل ضربه الحق سبحانه لتنويره كما قلنا ؛ لأن نورَ الله لا مثيلَ له ، فقوله : ﴿مَثَلُ نُورِهِ ۝٣٥﴾ [النور] أى : تنويره ﴿كَمِشْكَاةٍ ۝٣٥﴾ [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن المشكاة هى (الطاقة) الموجودة فى الحائط ، وهى عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمُّونها الكوة ، وهى موجودة فى بيوت الفلاحين المبنية بالطوب اللَّبِن ، وهذه الكوة تعمل على تجميع الضوء بحيث لا يتبدد هنا وهناك .

هذه المشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾﴾[النور] ولك أنْ تتأمل كم ميْزة فى هذا النور الذى يصدر من مشْكاة تجمع الضوء ، ثم مصباح ، هذا المصباح فى زجاجة تنقى ضوءه وتُصفِّيه ، بحيث لا يصدر منه دخان ؛ لأن الزجاجة تسمح بالهواء على قدر حاجة المصباح ، وهذه الزجاجة ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة مثل الكوكب الدرى . يعنى : مضيئة بنفسها ، من الدَّرة .

ثم إن هذا المصباح يُوقَد بزيت من أرقى أنواع الزيوت هو زيت الزيتونة ، هذه الزيتونة لا هى شرقية فتكون حارة ، ولا هى غربية فتكون باردة ، فهى معتدلة المزاج نقية ، حتى أنَّ زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار .

فهو إذن من صفائه يكاد يضىء بذاته ؛ لذلك يختم المثل بقوله سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴿٣٥﴾﴾ [النور] كذلك يُنوِّر الله هذا الكون الواسع كما يُنوِّر هذا المصباح هذه الكُوَّة الصغيرة .

لكن ، لماذا يضرب لنا الحق سبحانه هذا المثل ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه حينما خلق الإنسان ، وجعل له حركة فى الحياة احتاجت هذه الحركة إلى نور حسِّى يهدى حركته الحسية ، وإلى نور معنوى يهدى حركته المعنوية ، فالنور الحسِّىُّ نأخذه من الشمس نهاراً ، ومن القمر ليلاً ، فإنْ عَزَّ علينا النور اصطنعناه ، كُلٌّ على قدر إمكاناته ، فواحد ينير طريقه بشمعة ، وآخر بلمبة (نمرة خمسة) ، وآخر بالنيون والفلورسنت مثلاً ، فإذا ما أشرقتْ الشمس ، وجاء نور الله استغنى الناسُ عن أنوارهم الصناعية ، وأطفئوا مصابيحهم وتساووا جميعاً فى نور الله ، إذا طلعتْ الشمس فكلنا فى الأَخْذ بنور الله سواء .

فما دام نور الله قد ظهر ، فلا نورَ لأحد مع نور الله ، كذلك فى

المعنويات ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يقول لنا : إذا جاءكم حكم الله ، فلا حكمَ لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذى جاءنا فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥) ﴾ [النور]

ولكُلِّ مَثَل مضرب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً يطيل فى مدح ممدوحه قال : لا بُدَّ أنه بخيل ، فاحتاج إلى كل هذا المدح ليُحنِّنه على مادحه فيعطيه ، وقال فى ذلك[1] :

وإذَا امْرؤٌ مَدَح امْرَءاً لِنَواله وأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لم يُقدِّر فيه بُعْد المسْتَقى عِنْد الوُرود لما أطال رِشَاءَهُ[2]

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الحبل ، وهو الرِّشَاء الذى يُربط به الدلو .

ومن أمثال القرآن لتوضيح مسألة الشرك بالله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعنى : حين يتعجبون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يختلفون فى هذه المسألة ، اضرب لهم هذا المثل وطوِّقهم به ، يعنى : كيف تتعجَّبون من عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وفى حياتكم العملية مِثْلُ ذلك ، فهل يستوى عندكم عبد يتنازعه أكثر من سيد وعبد لسيد واحد ؟ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومى الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ ونشأ بها ، مات فيها مسموماً قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه وكان سبباً لوفاته .

(٢) هذان البيتان من قصيدة لابن الرومى من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أولها :
كل امرىء مدح امرءًا لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه

كذلك أنتم فى عبادتكم غير الله : كيف تذهبون إلى عبادة آلهة متعددة ، وتتركون الإله الواحد الحق ، إذن : يسوق الحق سبحانه للكفار هذا المثَل ليُجلِّى لهم قضية وقفتْ فيها عقولهم .

والمثَل فى أدبنا العربى له مورد ومضرب : مورد المثل هو الحادثة التى قيل فيها المثَل ، ومضرب المثل هى الحادثة المشابهة للمورد الأصلى ، فكأن المورد الأصلى للمثل يؤدى إلى حقيقة متينة ينبغى أنْ نحافظ عليها ونُكررها فى الموقف المشابه ، فمثلاً حين ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال العام ، ويأتى قبل الامتحان ليذاكر ، لك فى هذا الموقف أن تقول : (قبل الرِّماء تملأ الكنائن)[1] فهذا مثَل يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه .

فإنْ تحدَّاك رجل مثلاً وادعى أنه أقوى منك لك أنْ تقول له : (إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً)[2]

والمثل يُقال كما جاء دون أنْ تغير فى لفظه شيئاً ، فلو أرسلتَ مثلاً رسولاً ليأتى لك بالأخبار تقول له حين يعود : (ما وراءك يا عصام)[3] كذلك إنْ كانوا مثْنى أو جمعاً ، فالمثل يلزم صيغة

---

(١) هو مثَل يضرب فى الاستعداد للنوائب قبل حلولها ، ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وكذا الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد (كتاب الجوهرة فى الأمثال) .

(٢) أى : لاقيتَ من هو أشد منك . ذكره أبو منصور الثعالبى فى كتابه « التمثيل والمحاضرة » ، وكذا الزمخشرى فى « المستقصى فى أمثال العرب » .

(٣) قال أبو عبيد : من أمثالهم فى الاستخبار قولهم : ما وراءك يا عصام ؟ يقال : إن المتكلم به هو النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير الجرمى حاجب النعمان وكان مريضاً ، فسأل النابغة عصاماً عن النعمان . ذكره أبو عبيد بن سلام فى « الأمثال » ، وقد أورد أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » أن عصاماً امرأة وقد كانت مرسلة من الحارث بن عمرو الكندى إلى بنت عوف الكندى ، فلما رجعت إليه قال لها : ما وراءكِ يا عصام ؟ فوصفتها له .

المفرد المؤنث ؛ لأنه أوَّل ما قيل قيل لواحدة اسمها عصام . ونحن نحتفظ بلفظه لا نُغيره ، فلا نقول ما وراءكما ولا ما وراءكم . ويُشترط فى المثَل أنْ يكون مُوجزاً يخفّ على اللسان .

ومن الأمثال قولهم (قد يضرط العير والمكواة فى النار)[1] فالبعير حين يرى المكواة فى النار يعرف أنه سيُكوى بها ، وهى طريقة مُتَّبعة عند العرب لعلاج مرض (العُر)[2]، فساعة يراها البعير تجرى عليه بطنه ، ويحدث منه ضراط وإسهال ، وهذا مثَل يُضرب لمن يفاجئه العقاب المعَدّ له .

وهنا فى قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (١٣) ﴾[يس] يعنى : يا محمد اضرب لمن كفر بك وكذَّبك وعاندك وآذاك مثلاً أصحاب القرية ، فالأمر لسيدنا رسول الله ، والضرب للكافرين به المعاندين له ، والمعنى : قل لهم مَثلكم مثَل أصحاب القرية ..

قالوا : هى أنطاكية بلدة من لواء الأسكندرونة التابع لتركيا ، وقد أرسل إليها سيدنا عيسى ـ عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام ـ رسولين لهداية أهلها ، فلما ذَهَبا كذَّبهما القوم ، فعزَّزهما عيسى عليه السلام وقوّاهما بثالث ، فلم يزدادوا إلا تكذيباً وعناداً ، لكن خرج من القوم رجل سمع من الرسولين الأولين ، فآمن ، فلما سمع أن القوم

---

(١) ذكره عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .

(٢) مرض « العُرّ » : قروح تخرج فى مشافر الإبل وقوائمها . ذكره ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « أدب الكاتب » قال الجاحظ فى كتاب الحيوان فى خطبة كتابه أن العرب كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم ، فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم .

يريدون تعذيب هؤلاء الرسل أسرع ليقف الموقف الحقّ مع الرسل ضد أهل القرية ، هذا هو المثل .

ومعنى ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ ﴾[يس] أى : مُرْسلون من الله ، فما إرسال عيسى لهما إلا من باطن إرسال الله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ۝١٤ ﴾[يس] أى : قوَّيْناهما به ، والمراد قوَّيْنا الحق الذى يحملانه ، فإرسال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهما ، إنما تأييد للحق ، بدليل أنه سبحانه لم يَقُلْ فعززناهما ، وهذه من دقة الأداء القرآنى وبلاغته ، فلو جاء الحق على لسان غيرهما سنؤيده أيضاً . إذن : الاعتبار هنا ليس للأشخاص ، إنما للحق الذى جاءوا به .

وهذه المسألة لها نظير فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ۝٣٥ ﴾[القصص] فكأن هارون عليه السلام جاء تعزيزاً لموسى نفسه لا للحق الذى أُرسلَ به كما فى القصة السابقة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين ، فموسى عليه السلام هو الذى طلب من ربه أنْ يشُدَّ عضده ، واختار لذلك أخاه هارون ، فموسى المختار للرسالة يُقرُّ على نفسه ، ويطلب المساعدة والتأييد بأخيه ، فكأنه عليه السلام يحب الحقَّ ، ويريد نُصْرته ، ولو جاءت هذه النُّصْرة من غيره .

سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم ينقل خواطر نفسه ومراداته إلى المخاطب ، فإذا كان المخاطب خاليَ الذِّهْن عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْسلاً دون تأكيد ، فإذا لم يكُنْ خاليَ الذهن عن الموضوع وعنده شكٌّ أو إنكار أو تكذيب فلا بُدَّ أن تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقباله للأمر ، فإنْ كان شاكّاً أكدتَ له الكلام بمؤكِّد واحد ، وإنْ كان مُنكراً جئْتَ له بأكثر من مُؤكِّد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ ﴾ [يس]

فلا بُدَّ أن الرسولين الأوَّليْن قالا للقوم : نحن مُرْسلون إليكم من قبَل نبى الله عيسى لكن كذَّب القوم ، فلما جاء الثالث كان لا بُدَّ أنْ يزداد الكلام تأكيداً ، فقالوا : ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾[يس] فأكَّدوا الكلام هنا بأكثر من مؤكِّد ، ومع ذلك كُذِّبوا أيضاً :

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧)﴾

فلما كذَّبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النحو : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾[يس] وكل كلمة من هذه العبارة فيها تأكيد ، أولاً بإنَّ ، ثم أسلوب القصر فى تقديم الجار والمجرور إليكم ، ثم لام التوكيد فى (لمرسلون) ، إذن : على قَدْر الإنكار يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً : ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥)﴾ [يس] ، ثم ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ (١٥)﴾[يس] ، ثم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

وقولهم : ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥)﴾[يس] يعتبرون أن بشرية الرسل قَدْح فى الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكُنْ الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

هذا أول ردٍّ عليهم ، فالذين يمشون على الأرض بشر ليسوا ملائكة .

وفى موضع آخر يجارى الحق الخَلْق ، فيقول : وحتى لو جاء الرسول ملَكاً لا بُدَّ أنْ ينزل على صورة البشر ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ۝٩ ﴾ [الأنعام] وإلا كيف تروْنه ؟ وكيف تتلقَّوْن منه على صورته الملائكية .

إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم لتصحَّ الأُسْوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة فى الرسول الملَك ، وهو لا يعصى الله أصلاً ، والرسول مُطالب أنْ يُبلِّغ منهج الله ، وأنْ يُطبقه بنفسه ، لذلك قال سبحانه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۝٢١ ﴾ [الأحزاب] يعنى : يُطبق هو المنهج الذى جاء به قبل أنْ يُبلِّغه للناس .

وقولهم : ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ ۝١٥ ﴾ [يس] دلّ على غبائهم فى الأداء ، فعجيب منهم أنْ يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة ، وهم لا يؤمنون به ، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولاً يدلُّهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إذن : يعترفون بالحيثية التى تدينهم ، ثم يزيدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ۝١٥ ﴾ [يس]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم ، فيقولون : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ ﴾ [يس] فكلمة ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ۝١٦ ﴾ [يس] حلّتْ محلّ القسم : لأنهم يُشْهِدون الله على صدْق رسالتهم ، والقسم عند العرب لإثبات قضية مختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ ۝١٦ ﴾ [يس] فالأمر إما أنْ يكون صحيحاً ، أو غير صحيح ، فإنْ كان غير صحيح فقد كذبوا على الله .

وقد أجمع العرب على أن الكذبة الفاجرة تُوجب خراب الديار - هكذا يعتقدون - وفي حديث النبي ﷺ ما يدل على أن الكذب يجعل الديار بلاقع[1]، ولما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزني المؤمن ؟ قال : نعم . أيَكذب المؤمن ؟ قال : لا[2] .

فالكذب مذموم منهيٌّ عنه ، حتى عند غير المؤمنين بدين ؛ لذلك رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ولو كانوا يعلمون أنها كلمة تقال ليس لها مدلول لَقَالوها ، لكنهم يعلمون مدلولها ومعناها ، يعلمون أنها تعني أن العبادة لا تكون إلا لله ، وأن الأمر والنهي والسيادة لا تكون إلا لله .. الخ لذلك تأبَّوْا فلم يقولوها ، لأنهم لا يريدون مدلولها .

هؤلاء الكفار في تكذيبهم للرسل يعتقدون أنهم بذلك يَغَارُونَ لله وينتقمون من الرسل الذين يكذبون عليه سبحانه ، فيقولون :

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

كأنهم يقولون للرسل : ما دُمْتم كذبتم على الله وقُلْتم ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] في أمور نظنكم فيها كاذبين ، فقد تطيَّرنا بكم يعني :

---

(١) بلاقع جمع بلقع ، وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ، وقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى كتاب الأيمان - باب اليمين الغموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس شيء أُطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(٢) أورده بهذا اللفظ المتقي الهندي في منتخب الكنز (١/٣١٥) على هامش مسند أحمد من حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابن عساكر . وأورد أيضاً أن أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر مَنْ إذا حدَّث كذب . وعزاه للخطيب البغدادي في المتفق .

تشاءمنا . والتطيُّر من الطِّيَرة ، وكانت عادة معروفة عند العرب ، فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأتي إلى طير فيزجره ويُطلقه ، فيرى إلى أين يطير : فإنْ طار إلى اليمين أمضى ما ينوى عليه ، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم ، وقد حَرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها .

وقولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا (١٨)﴾[يس] أى : عما تقولونه من أنكم مُرْسَلُون بمنهج ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾[يس] فجمعوا عليهم الرجم والعذاب الأليم ، والرجم غير العذاب ، الرجم رَمْىٌ بالحجارة حتى الموت ، فهو إنهاء للعذاب ؛ لأن التعذيب إيلام حى ، فمَنْ مات لا يستطيع أنْ تُعذِّبه ، لذلك قالت العرب : لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

لذلك لما ادَّعى أحد القضاة أن القرآن ليس فيه نَصٌّ على الرجم : قلنا لهم : صحيح ، ليس فى القرآن آية تنص على الرجم ، لكن أيهما أقوى فى التقنين : الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعَدُّ حُجة ؟ لا شكَّ أن الفعل أقوى حجة ، لأن الكلام يمكن أنْ يؤوَّل ، أمَّا الفعل فلا تأويل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم فى ماعز والغامدية.

إذن : الاحتجاج هنا ليس بالنصِّ القولى ، إنما بالفعل من رسول الله الذى فوَّضه الله فى أنْ يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر] والحق سبحانه لا يأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أموراً يُشرعها .

وهذه من ميزاته ﷺ على غيره من الرسل ، فكل رسول ما عليه إلا أنْ يُبلِّغ الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأُمِر أن

يُبلِّغَ عن الله ، وترك له بعض الأمور ، وفوّض أنْ يشرع فيها .

لذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

لذلك حين نستقرىء آيات الطاعة تجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٩٢) ﴾ [المائدة]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٩) ﴾ [النساء]

فتكرار الفعل (أَطِيعُوا) يعنى : أن الجهة مُنفكة ، فلله تعالى أمر وللرسول أمر ، يعنى : أطيعوا الله فى التقنين الإجمالى العام ، وأطيعوا الرسول فى تفصيل ما أجمل ، ففى الزكاة مثلاً جاء الأمر العام بأداء الزكاة ، لكن لم يحدد الحق سبحانه له نصاباً ، هذا النِّصَاب بيَّنه سيدنا رسول الله . إذن : لله فيها أمر ، وللرسول أمر .

أما إن جاء الأمر (وأطيعوا) واحداً وعطف رسول الله على الله ، ولم تُكرر الطاعة مع المطاع ، فاعلم أنَّ الأمر واحد قاله الله وقاله رسول الله ، فطاعة المطاع الثانى من باطن طاعة المطاع الأول ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] فلم يقُل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ؛ لأن طاعة أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، وليس لهم طاعة مستقلة منفصلة ، بل طاعتهم فى ظلِّ طاعة الله وطاعة رسول الله .

إذن : الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإنْ قال قائل : نريد أنْ نسمع كلام الله فى هذه المسألة نقول : نعم ، هناك كلام بالنصِّ وكلام باللازم ، والحق سبحانه حين تكلم عن الإماء فى هذه المسألة قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥) ﴾ [النساء]

والعذاب كما قلنا : إيلام حَيٍّ أمَّا الرجم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعذاب ؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخرج الرجم ؛ لأن الرجم لا يُنصَّف . إذن : فالنصف ليس على الإطلاق وكونه يخصُّ هنا العذاب ، فهذا يعنى أنَّ عليهن الرجم أيضاً كاملاً ، لا يُنصَّف .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح وغير القتل .

وقولهم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴿١٨﴾ ﴾[يس] الرجم قد يُطلق على القول ، لنرجمنَّكم بالقول ، وقد يكون الرجم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فيُراد منه الإيلام .

﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

معنى ﴿ طَائِرُكُم ﴿١٩﴾ ﴾[يس] يعنى : تشاؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[يس] أى : ملازم لكم ، والمراد هنا الكفر ، والهمزة الأولى فى ﴿ أَئِن ﴿١٩﴾ ﴾[يس] للاستفهام و (إنْ) أداة شرط وجوابها محذوف تقديره : أئن ذُكِّرتم بالله وبمنهج خالقكم ، وبما يُسعدكم فى دنياكم تكون النتيجة أنكم تهددون المذكِّر لكم بالرجم وبالعذاب الأليم ، بدل أنْ تتبركوا به وتُعينوه وتتبعوا ما جاءكم به .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[يس] يعنى : متجاوزون للحدِّ ؛ لأن الأمر بيننا وبينكم لم يخرج عن كونه مناظرة كلامية لم نتعدَّ فيها حدود البلاغ بأننا مُرْسَلون إليكم ، فكانت النتيجة أنْ قابلتم المناظرة

الكلامية بهذا الفعل القاسى المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

فى هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَميَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لِنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار[1] .

ونلحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبّاغاً) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام ، قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبى (٥٦٥٣/٨) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق فى سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة فى تكوينه أنه رجل .

وهِمَّة الرجل هى التى تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّى إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : هِمَم الرجال هى التى تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجل وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشترى بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتى ، مأمون على خَلْقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرّ دَرَاهِمِى   عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيلِ

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ⑳﴾ [يس] يعنى : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] وقوله ﴿يَـٰقَوْمِ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴿٢١﴾﴾ [يس] لا تُقَال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْل عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسَلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلَّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدَى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسى ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أَوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأُكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١)

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلَّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شىء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »(٢)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة ، وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] . فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فواجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] وهذا تلطّف فى عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ (٢٢)﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذى فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما فى نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ (٢٠)﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنى لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندى أنا : ما لى لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] يعنى : إما أنْ يكون المانع من عندى أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك فى الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فَطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك فى سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١١٧)﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم الله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخٍّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلُّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشِعَّ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »[1] وهذه المسألة لم تأتِ إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة من مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صِدْق ما شاهد دليلاً على صِدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أىِّ حال ؛ لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبىٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف ملَك ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه(١) .

وفى رواية أخرى : مَنْ قُرئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء(٢) .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] يعنى : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى ﴿٢٢﴾﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث فى فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذى والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٧/٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوِّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقى : هكذا نُقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذّبين من قومه ، فقال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تَقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

الاستفهام فى ﴿أَأَتَّخِذُ ﴿٢٣﴾﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذى خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشىء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة فى الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد فى قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد فى حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعنى : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ ﴿٢٣﴾﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغى تأملها ؛ لأن صفة الرحمة فى الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجرى عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربى على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففى طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجرى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطىء فَعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتنى بها ، ويُعمل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفَارة) وينحت فى الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّى عليك كُنْ لى محباً »[1] أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرِى عليهم ما يضرهم ؟

وفى حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالى ، وفى الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذى نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً فى الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة فى هذا الإخفاق .

فالأب العاقل فى مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بنى ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسلْم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التى تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغى على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التى نريد الوقوف عندها فى هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافى عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافى ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا (٢٣)﴾[يس] يعنى : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدى ، لأنهم شركاء الله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط فى الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهى غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة فى ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهى ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذى صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لله مِنَ القَائمِينَ بالأَسْحَارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارِى
تَخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دليلاً فغدَوْنَا بهمُ وَقُودَ النَّارِ
للْمُغَالى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه تُنجيه رحمةُ الغفَّارِ

وقوله سبحانه : ﴿وَلا يُنقِذُونِ (٢٣)﴾[يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعنى : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه ليُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعنى : اثنين .

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلى لنا هذه المسألة قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يومًا لاَّ تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنهَا عدلٌ (٤٨)﴾ [البقرة]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جازية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يـعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفـع فدْيته ، فـإنْ لم يقبل منه العـدل بحث عَمَّنْ يشـفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعـدْتَ الضمـير على النفس الجازية ـ أى : الـشافعـة ـ فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهـة – على فَرْض أن لهـا شفـاعة – فـهى شفـاعة مردودة غير مـقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنـقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سـبحانه ، فهم لا يصلحون للشـفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضح فى قـوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهـة أكون فى ضـلال ﴿مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] بيِّن واضح ، وقوله : ﴿ لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقـول هذا الـرجل المـؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَـاسْـمَـعُـونِ (٢٥)﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلـى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] ومـعنى ﴿فَـاسْـمَـعُـونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسـمـعـوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .

ويصح أنْ يكون هذا الخطاب مُـوجَّهـاً إلى القوم المكذِّبين ، فـهو يقول لهم : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] يعنى : الله ربكم رغماً عنكم ، وإنْ كنتم كافـرين به سبحانه فـأنا احترمت ربوبيتـه لكم ، وآمنتُ بها لأدخل فى عظمة هذه الربوبية ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسمعوا منى هذا البـلاغ لأكـون قـد أدَّيْتُ مـا وجب علىَّ نـحوكـم ، وأبلغـتكم ولم أخدعكم أو أغشَّكم(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

بناء الفعل (قيل) للمجهول يفـيد التعميم ، فمَن الذى قال له ادخل الجنة ، ومتى قال ؟ فى القرآن آية نقـرؤها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

فالرجلَ الذى وقف هذا الموقفَ الإيمانى متبرعاً ، وجاء من أقصى المـدينة يسـعى ليسـانـد الرسل فى أمـر لم يُكلَّف به ، ويأتى للقـوم المكذِّبين بحجج وبراهين لم يَأْتِ بها الرسل أنفـسـهم جدير بأنْ تتنزَّل عليه الملائكة ، وبأن تبشـره بالجنة . أو : أن الحق سبحانه حكى عنه ما يقوله بعد أنْ يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له .

---

(١) أما القول الأول : أنه خطـاب للرسل ، فهو قول ابن مسـعود . ذكره القرطبى فى تفـسيره (٨/٥٦٥٤) ، ونقله السـيـوطى فى الدر المنثـور (٧/٥٢) ، أما القـول الثـانى : أنه خطاب لقومـه ، فقد نقله القرطبى فى تـفسيره عن كـعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فـالآية يجوز فيها التأويلان .